المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة





كارى كوستر - لوشه

طبيبة الإسكندرية

ترجمة

أشرف نادى أحمد

مراجعة وتقديم

محمد أبو حطب خالد

1680

سلسلة الإبداع القصصى


ketab.me
Best Books

طبيبة الإسكندرية
(رواية)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1680
- طبيبة الإسكندرية
- كارى كوستر – لوشه
- أشرف نادى
- محمد أبو حطب خالد
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة رواية:
Die Heilerin von Alexandria
By: Kari Köster-Lösche

Copyright © by Ullstein Buchverlage GmbH, Berlin
First published in 1998 by Paul List Verlag, München
Arabic Translation © 2011, National Center for Translation
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

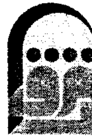
طبيبة الإسكندرية

(رواية)

تأليف : كارى كوستر – لوشه

ترجمة : أشرف نادى أحمد

مراجعة وتقديم : محمد أبو حطب خالد



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

لوشه، كارى كوستر.
طبيبة الإسكندرية (رواية)/تأليف: كارى كوستر – لوشه، ترجمة: أشرف نادى أحمد، مراجعة وتقديم : محمد أبو حطب خالد
ط١، القاهرة – المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٥٦٤ ص، ٢٢ سم
١ – القصص الألمانية
(أ) أحمد، أشرف نادى (مترجم)
(ب) خالد، محمد أبو حطب (مراجع ومقدم)
(ج) العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع ٢٠١١/٥٦٦٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 978- 977 - 704-545 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقديم المراجع

تمثل الترجمة الرصينة التى اضطلع بها السيد أشرف نادى أحمد، لرواية الأديبة الألمانية كارى كوستر – لوشه، والتى منحتها الأديبة عنوان "طبيبة الإسكندرية" مستخدمة مرادف كلمة طبيبة بالشافية.

تتضمن الرواية ثلاثة أجزاء، يبدأ الجزء الأول بخمسة فصول. يليه الجزء الثانى بخمسة فصول أخرى، ثم أخيرا الجزء الثالث ويتضمن ثلاثة عشر فصلا. وذلك على النحو التالى:

الجزء الأول: حيث تبدأ الأحداث بقدوم سفينة إلى ميناء الإسكندرية بقيادة القرصان بومبيدوس محملة بعديد من البضائع الثمينة والمسروقات والعبيد المقيدين بالأغلال. ويتم إخلاء السفينة من العبيد لبيعهم لمن يرغب. ومن بين العبيد فتاة شقراء ذات شفة مشقوقة تشبه شفة الأرنب تسمى "تاليا" قادمة من مدينة قليقلة (آسيا الصغرى). ويقوم الطبيب اليونانى "ليبتينوس" ذو الطباع الرومانية الخشنة ويشتريها بثمن بخس، ويصطحبها خادمه المصرى "تيل بتاح" لتساعده فى أعمال منزله وعيادته.

ويستدعى كبير القضاة الرومانى "تريماليخيو" الطبيب "ليبتينوس" والذى يذهب إليه بصحبة العبدة "تاليا" ويتم علاجه من التسمم الذى

لحق به والذى كان سببه أنه أفرط فى الشراب. يكلف الطبيب "تاليا" الذهاب إلى الحرفى (صانع الأدوات الطبية) "موسى" الذى قـدم لهـا أداة طبية تساعد فى عمليات الولادة كان قـد طلبهـا منـه الطبيـب "سورانو" قبل رحيله من مدينة الإسكندرية إلى روما كهدية. وتلتقـى بعد عودتها إلى المنزل بامراة فى حالـة المخـاض وهـى زوجـة لـ"سيماخوس" خادم الكنيسة المسيحية فى الإسكندرية وقد نجحت فى توليدها. تراقب "تاليا" عن بعد الصراع الحاد بين اليونانيين واليهـود والمسيحيين والرومان وخاصة بعد ثورة "الكبش" التـى قـام فيهـا الرومان بإعدام كل الثوار. وتم تكليف "تاليا" بالذهاب لمركز الأبحاث لإحضار لفائف بردى خاصة بالطبيب المشهور "سورانو". وكان كبير القضاة "تريمالخيو" مـن أشـد المـضطهدين للمـصريين وخاصـة المسيحيين منهم وعلى رأسهم العبدة "تاليا" وخادم الكنيسة "سـيماخو". وبعد معالجة الطبيب "ليبتينوس" لنائب القيصر فـى مـصر بعـد أن أصابه نزيف حاد تم ترقيته ليعمل كطبيب لمدرسة المصارعين.

الجزء الثانى للرواية: ويعرض فى فصوله الخمسة دراسة "تاليـا" للعلوم الطبية وخاصة بعد نجاح عملية شفاء نائب القيـصر. وأثنـاء إقامة رئيس مركز الأبحاث بالإسكندرية والـذى يـسمى "كـرايتس" يتعرف على "تاليا" ويصطحبها فى مهمة له لتفقـد أحـوال القنـوات والمصارف المائية فى قرية "راقوده". وفى خلال ذلك حكت له عـن

عائلتها النبيلة وتعليم والدها لها علوم الفلسفة واللغات، وكيـف قـام الرومان بقتل أسرتها وأسرها كعبدة. وقد لاحظت فى زيارتها قـذارة القنوات وتلوث المياه. الأمر الذى أدى إلى انتشار وباء الكوليرا بـين المصريين من الطبقات الدنيا. وأثناء سباق العربات الذى يقـام فـى الإسكندرية أصيبت السيدة النبيلة "افرانيا" بمرض الكوليرا، وتم نقلهـا إلى الطبيب "ليبتينوس". وكانت شخـصية "افرانيـا" تمثـل الغـرور والفجور الرومانى ومن ثم أظهرت كراهية واضحة لـ"تاليـا". وقـد قامت "تاليا " بتعلم الجراحة والتشريح فى مدرسة المصارعين علـى أجساد المصارعين الموتى ، والذين كان معظمهـم مـن الفينيقيـين. وتلتقى هناك بالمصارع الفينيقى "موتنبال" ويقدم لها قبل موته رسالة لتوصلها إلى أهله وخاتمه هدية لها على ذلك.

يأتى بعد ذلك **الجزء الثالث وهو الأخير** من الرواية والذى يـصف شحن سفن الغلال المحملة بالقمح من مصر إلى روما مـع تحـذير "تاليا" من التحدث عن الفينيقيين أعداء الإمبراطورية الرومانية وعدم الحديث عن الكوليرا. كما يتم القبض عليها مرة أخرى بتهمة التـدين بالمسيحية. ويقوم قاضى القضاه "تريماليخيو" بإطلاق صراحها وتعود إلى منزل الطبيب "ليبتينوس" ويذهبان معًا إلى مدرسة العبيد لفحـص الأطفال وحتى يتم شحنهم أصحاء مع العبيد القادمين من إفريقيا مـع الغلال إلى روما. وبناء على أمر الإمبراطور الجديد لروما "تراجان"

تم رحيل "ليبتينوس" و"تاليا" والذى كان قد أعتقها من الرق وتزوجها بناء على أمر كبير قضاة الإسكندرية. وقد قاما بتأسيس عيادة للطب التجريبى فى روما. وعلى سطح السفينة التى كانت تقلهم إلى روما قامت "تاليا" بعملية ولادة عسرة وناجحة لزوجة السيناتور "ماكسيموس". ونتيجة لمكيدة من السيدة "افرانيا" تم تطليق "تاليا" من زوجها الطبيب. وذهابها للسيناتور "ماكسيموس" والذى اشترى لها سكنا خاص بها. ونتيجة لتعليمات الإمبراطور "تراجان" بتخفيف الرقابة على المسيحيين والسماح لهم فى العيش بسلام كانت "تاليا" تقوم بزيارتها للأطفال المعاقين والمرضى والسيدات الحوامل.وتعرفت بعد ذلك على الطبيب "سورانو" والذى يعد من أشهر أطباء روما فى ذلك الوقت والعمل معه فى عيادته وقدد اقترح عليها عمل عملية جراحية لها كى يعالج بها الشفاه الأرنبية التى تعانى منها. وبعد نجاح العملية استعادت "تاليا" جمالها . بعد ذلك تأتى دعوة الطبيب "سورانو" ومعه "تاليا" لمقابلة القيصر "تراجان". وأثناء مقابلتها للقيصر اقترحت عليه "تاليا" إنشاء مدرسة لطبيبات النساء وللقابلات اللاتى يقمن بتوليد السيدات الحوامل وخاصة من الرومان ليكنّ على دراية كبيرة بأمور الحمل والإنجاب. ويوافق القيصر على ذلك ويخصص لها قصرا من قصوره الخاصة لهذه المدرسة إلى جانب ذلك تبناها الطبيب "سورانو" كابنة له وكافأها بزيارة

لموطنها الأصلى باليونان لزيارة معالمها وقريتها وهنالك تعرفت على أمها والتى اعتقدت أنها ماتت على أيدى الرومان حين تم أسرها. وتنتهى الرواية بعودتها إلى روما مع أمها ولتحظى بمحبة أهل روما وتزاول عملها فى المدرسة التى قامت بإنشائها.

وتمثل الرواية سجلا مليئا بالصور عن روما القديمة . والرواية تقدم لنا قصة فتاة قوية وضعتها الظروف عبدة، إلا أنها حافظت على كرامتها فى خضم الأحداث بالإسكندرية ولم تتوانَ فى مساعدة كل من يلجأ إليها. كما تضفى الرواية انطباعا جيدا عن فن الطب والشفاء فى هذه الفترة.

الواضح من هذه الرواية أن أقباط مصر ذاقوا كثيرا من الاضطهاد والعذاب والقتل أثناء الحكم الرومانى. ويجىء العرب المسلمون ويفتحون مصر مع بداية القرن السابع بعد الميلاد. ويطاردون الرومان المتركزين بمدينة الإسكندرية وإنهاء حكمهم لمصر.

ويتجلى موقف العرب والمسلمين السمح والكريم فى العهد العمرى والذى كفل للأقباط حريتهم الدينية ويأمر عمرو بن العاص بإعادة البطريرك المسيحى "بنيامين" من منفاه بالصحراء إلى مدينة الإسكندرية ليرعى شئون الكنيسة القبطية ويعهد إلى عديد منهم

بالمناصب الحكومية التى كان يتولاها اليونان والرومان. بل وحلت اللغة القبطية محل اليونانية فى الحياة اليومية إلى جانب اللغة العربية. وكان الشعور العام لأقباط مصر فى أعقاب الفتح العربى الإسلامى يعبر عن الارتياح بسبب تحريرهم من العنت والاضطهاد الرومانى. وحافظ الأقباط فى ظل الحكم العربى على تراث أجدادهم واندمجوا كعنصر إيجابى فعال فى جسم الأمة العربية والإسلامية دون أن يفقدوا هويتهم الدينية وتراثهم العميق. وفى هذا الإطار نقدم ترجمة هذه الرواية للقارئ العربى متمنين له مزيدًا من المعرفة والمتعة.

القاهرة فى ٢٦ صفر ١٤٣١هـ الموافق ١٠ فبراير ٢٠١٠ م

أ.د. محمد أبوحطب خالد

مقدمة المترجم

تدور أحداث هذا الكتاب فى العصر الرومانى، وبالتحديد فى بداية القرن الثانى الميلادى إبان حكم الإمبراطور الرومانى تراجان. تلك الفترة التى سادت فيها العبودية وانتشر قانون الغاب، فلا حق فى الحياة والعيش الآمن سوى للأقوياء، حتى إذا خرج أحدهم إلى الشارع كان من السهل أن يُختطف ويُباع فى سوق الرقيق على أنه عبد يفعل به صاحبه كما يشاء، فليس للعبد الحق فى أى شىء سوى أن يطيع رغبات سيده وينفذها. وهذا ما حدث مع بطلة هذه الرواية فتاة صغيرة فى عمر الزهور تتعرض قريتها ليلا وأهلها نيام لإغارة القراصنة، فقتلوا الأب والأخوة واقتادوا هذه الصغيرة كى يبيعوها بمدينة الإسكندرية على أنها عبدة. وشاء حظها أن يشتريها طبيب سكندرى، تلك الفتاة التى كان أبوها فيلسوفا وقد علمها الفلسفة واللغات الأجنبية، لم تقنع بأن تبقى عبدة بل راحت تقاوم وتكافح وتعلمت مهنة الطب من جديد، حتى استطاعت أن تصبح أفضل طبيبة أمراض نساء فى عصرها فى مدينة النور، مدينة الإسكندرية، التى كان بها آنذاك مركز للأبحاث لا مثيل له فى العالم، كما كانت بها المكتبة الكبرى، مكتبة الإسكندرية التى احتوت على كنوز العالم العلمية، ثم راحت تكافح من أجل شراء حريتها ، وقد كان لها ما

أرادت بعد صراعات طويلة ومريرة كادت تودى بحياتها فى كثير من الأحيان. كما سترى بين السطور عزيزى القارئ، ثم سافرت إلى روما، مدينة القوة والسلطة آنذاك. وهناك أنشأت أول مدرسة لتعليم طبيبات أمراض نساء وتخريجهن ، تعد هى الأولى من نوعها فى تاريخ البشرية لم يسبقها إلى هذه الفكرة أحد. إنها قصة التحدى والإرادة البشرية التى لا تعرف الحدود أو المستحيل.

قصة الفتاة الصغيرة تاليا بداية من العبودية والقهر والذل إلى الحرية والعلم والتفوق والابتكار والإبداع ثم الخلود فى تاريخ العظماء والخالدين. قصة حياة هذه الفتاة التى تربت وتعلمت وعاشت بمدينة الإسكندرية، على أرض مصر العظيمة الولادة ذات الدور الطليعى الرائد منجبة العظماء والمبدعين.

أهديها إلى كل فتاة مصرية تهفو وتتوق نفسها إلى تحقيق شىء طيب جميل لشخصها ولأسرتها الصغيرة ثم لأسرتها الكبيرة مصر. هذه هى الرواية الأدبية التى تجسد الكفاح الحقيقى والمعاناة والنجاح أهديها لكل فتاة تمر بظروف صعبة كى أشد من أزرها وأقوى بها عزمها وأقول لها صبرا جميلا. تلك القصة أهديها لكل فتاة تنحت فى الصخر فأقول لها : غدا سيلين الصخر فى يديك ويصبح أطوع من العجين. أهديها لكل فتاة تحلم بغد أفضل، وأهديها لكل فتاة تريد أن تضىء شمعة فى حياتها وحياة غيرها من نساء مصر. إن فتاتنا تاليا

التى قتل والديها وأخوتها أمام ناظريها وسقطت فى الأسر والعبودية لم تستسلم ولم تنهر ولم يستبد بها حب الثأر والانتقام، وغدت قصة حياتها ملايين الشموع تضىء الطريق لملايين البشر ، سواء كانوا نساء أم رجالاً. قصة الإرادة الإنسانية التى لا تعرف الحدود.

إننى أهدى هذا العمل الأدبى وهذه الترجمة التى أعطيتها كثيرًا من وقتى وجهدى وفكرى إلى كل فتاة طامحة جادة تريد أن تضىء شمعة على الطريق، تريد أن تضع قالبا فى صرح البناء العظيم. أهدى هذه الترجمة إلى فتيات مصر وسيداتها الفضليات كلهن للاستفادة والعبرة والتفكر. وأخص من نساء مصر الفضليات والدتى المكافحة العظيمة، المرأة الأمية التى لم تكن تعرف القراءة والكتابة ولكنها كانت تهيئ لنا كل شىء من أجل أن نتعلم ونستذكر دروسنا. تذلل لنا كل صعب كى نذهب إلى مدرستنا، تضحى براحتها من أجل راحتنا، وما زال قلبها ينبض فى كل لحظة فرح، وتبكى قبلنا فى كل لحظة سقوط أو انكسار. متعها الله بالصحة والسعادة

المترجم

أشرف نادى أحمد

الجزء الأول
الأمــة

الفصل الأول

فـــاروس

وقــف الـــرجل فوق جزيـــرة فـــاروس خلــف أســـوار فنـــار الإسكندرية، ينظر بفضول إلى السفينة التى تقترب الآن مـــن ميناء الإسكندرية. تلك السفينة التى كان اللون الغالب عليهـــا هـــو اللـــون الأزرق والرمادى، وقد كانت تنعكس أشعة الشمس عليها من البحـــر فتصبح غير مرئية مما يحميها من هجوم الجنود الرومان عليها. لقـــد راحت السفينة تتعثر وهى تسير بين مـــصدات الأمـــواج حتـــى إذا عبرتها أسرعت فى سيرها وتقدمت إلى الأمام صوب الميناء الـــذى كان مكتظا بالسفن الأخرى الراسية فيه. عند ذلك حيا القرصان الذى كان يقف بمؤخرة السفينة الحراس الذين كانوا يقفون فوق الفنار وهو يمازحهم. عند ذلك راح عمال السفينة يطوون صارى الـــسفينة كمـــا راح البحارة ذوو الأقدام الحافية يتحركون بنشاط فوق السفينة بينمـــا تطرقع أقدامهم المبللة عند ارتطامها بسطح الـــسفينة الخـــشبى وهـــم يتهيأون لرسو السفينة فى الميناء ويقومون بما عليهم مـــن واجبـــات حتى ترسو السفينة بسلام.

لقد رد حراس الفنار تحية القرصان بومبيوس ردا جميلا، فلقد كان هذا القرصان معروفا لديهم، كما أنه سمى نفسه بومبيوس نسبة إلى قائد جيوش الرومان بومبيوس الذى كان من ضمن واجباته مكافحة القرصنة والقضاء عليهم أيضا. ولم يسمِ نفسه هكذا حبا فى القائد الرومانى ولكن سخرية منه وتشهيرا به حيث إن القائد الرومانى لم يستطع الإمساك به حتى الآن ولم يستطع النيل منه، كما أنه كثيرًا ما كان يدبر المؤامرات ضد الجيش الرومانى ويوقعهم فى شباكه. حتى إذا وصلت سفينة القرصان بومبيوس المرسى كان الميناء أمام حى القصور مليئًا عن آخره بالسفن التى تنتظر فى دورها كى تفرغ حمولتها. ولكنه لم ينتظر فى الدور بل مط شفتيه الغليظتين إلى الأمام معبرا عن ضيقه وراح يعطى أوامره بالتحرك إلى الأمام لأنه يعلم أن سفينته محملة بالبضائع الفاسدة من عبيد ومسروقات وخلافه مما هو ممنوع ويخالف القوانين. ولكنه ينتظر أن تعامل سفينته معاملة حسنة كتلك التى تلقاها السفن المحملة بالغلال عند وصولها ميناء روما. ولما كانت هناك سفينة راسية فى طريقه وهى مثبتة بحبل غليظ مربوط بوتد خشبى فى الأرض اليابسة،أخرج خنجره الطويل وضرب به الحبل وقطعه ومرت سفينته إلى الأمام تجاه الميناء. عند ذلك أنزل ذراعه إلى أسفل وبه الخنجر الطويل وهو يصيح منتصرا هكذا يجب على المرء أن يفعل.

وبعد لحظات قصيرة كانت السفينة ذات اللون الأزرق والرمادى قد شقت طريقها إلى رصيف الهيبتا* متخطية السفن الأخرى ذات الألوان المختلفة. لقد تجمهر الشعب السكندرى فوق جزيرة فاروس وهم يتفرجون منبهرين بسفينة القرصان المحملة بالعبيد حيث إن هذا الحدث لا يتكرر كل يوم وبخاصة فى الفترة الأخيرة التى قرر فيها الرومان محاربة القراصنة والقضاء عليهم. ولكن القرصان بومبيوس القلقيلى كان دائما قادرا على خداع الرومان ومراوغتهم والإبحار بسفينته إلى أعالى البحار. ثم جاء أحد البحارة ورفع غطاءً خشبيًا كبيرًا من فوق سطح السفينة وصاح قائلا " هيا أيها العبيد اخرجوا واحدًا خلف الآخر ولا تتدافعوا"، وصاح الجمهور بشدة وهو يرى العبيد يخرجون على سطح السفينة، لم يكونوا ذوى بشرة سوداء بل كانوا ذوى بشرة بيضاء. وكانوا ذوى ملابس قذرة ومتسخة، وقد علقت فى ملابسهم القاذورات من براز وقىء وبول وأشياء أخرى. كما كان منهم بعض الهنودجرمان الذين يستطيع المرء تمييزهم عن طريق ملابسهم التى كانت عبارة عن نسيج من صوف الغنم فوق جلودهم دون أن يكون تحتها ملابس داخلية. ثم راح البحار يلعن ويسب بصوت مجلجل وهو ينظر إلى أسفل بداخل

---

* أحد الأرصفة المهمة بالميناء، حيث يمكن لعديد من أبناء الشعب السكندرى مشاهدة تفريغ السفن الراسية عنده(المراجع).

الفوهة المفتوحة ثم قفز بداخلها . ومضت لحظة صمت مليئة بالفضول حتى خرج آخر العبيد فتاة شقراء شعرها أصفر بلون الزعفران وممشط إلى أعلى وقصير وشفتها العليا مشقوقة تشبه شفة الأرنب. وصاح الشعب السكندرى عندما رأى الفتاة تصعد إلى سطح السفينة. ثم اقتيد العبيد إلى مؤخرة السفينة حيث مد البحارة سقالة خشبية من السفينة إلى الميناء ، ولم ينتظر البحارة حتى ينزل العبيد على هذه السقالة بل دفعوهم من فوق السفينة إلى أسفل. فوق الميناء كان هناك رجلان أحدبان ذوو أنوف معقوفة وهما مدججان بالسلاح كى لا يستطيع أحد العبيد الهروب ،أما الحارس الثالث فقد راح يربط العبيد جميعهم فى سلسلة واحدة ، وذلك عند كعوب أرجلهم. وصاح البحار الذى كان مسئولا عن أمن العبيد فوق السفينة قائلا "ماذا سنفعل بهذا المخلوق الغريب الذى يشبه الأنثى ؟" تلك الفتاة التى أتينا بها من آسيا الصغرى. لقد كان هذا الحارس طوال الوقت يضع يده ما بين كتفيها وحاولت الفتاة ألا تظهر امتعاضها من ملمس أصابعه المتشققة والتى كانت تؤلم ظهرها. ثم صاح بومبيوس بصوته المجلجل القوى قائلا " أقسم برأس الشيطان إننى سوف أبيع هذه الفتاة بسعر رجل قوى يستطيع أن يفعل كثيرًا وسأقنع من يشتريها بأنها سوف تجلب له الحظ". حتى وإن كانت فى الفراش سيئة لدرجة ألا يشتهيها أى رجل. وضحك البحار من هذه المقولة مقهقها بصوت

مرتفع ثم دفع تاليا بقوة حتى اصطكت رجليها ببعضها وارتطمت بعارضة خشبية وحبست صراخها فى بطنها من شدة الألم. ثم يردف البحار قائلا ألا تود يابمبيوس أن ألقى بها فى المياه وأنهى حياتها ، حيث إنه لن يشتريها أحد، إنها مثل ماعز الجبل سوف تأكل شعر رأسك قبل أن تجد من يشتريها هذا إن وجدت لها مشتريا. انتاب الفتاة الذعر وهى تسمع هذا الحوار فى ذات الوقت تئن من وطأة قبضة يد البحار الذى يقودها على السقالة الضيقة كما تحاول أن تحتفظ بتوازنها على السقالة الضيقة المتأرجحة حتى لا تقع. وراح حلمها فى أن يأتى من يشتريها ثم تحاول هى أن تشترى منه حريتها يتلاشى رويدا. ثم راح قلبها يدق بعنف عندما وطأت قدماها أرض الإسكندرية ونظر إليها بومبيوس وقال إن شكلها السيئ لا يؤهلها لأن يشتريها بيت دعارة، فهى ليست على أى قدر من الجمال. وتمالكت تاليا نفسها بشدة ، حيث إنها تود أن تشتمه وتسبه. ثم واصل القرصان الحديث، وبالطبع فإنها لا تصلح أن تكون مربية أطفال فهى لا تستطيع الحديث بل إنها لا تصلح أن تكون راعية معيز. إن تاليا تكره هذا الرجل من أعماق قلبها بل إنها تكره صوته البشع. واستطرد بومبيوس قائلاء: إن أحدا فى الإمبراطورية الرومانية لن يصدق أنها تستطيع الحديث أو حتى النطق. إن أحسن شىء أفعله هو أن أبيعها لكهنة معبد التمساح ثم ألقى برأسه للخلف وأخرج قنينة

صغيرة من جيبه وراح يفرغ ما بها فى فمه. بعد ذلك راح يمسح بومبيوس النبيذ من على لحيته بيده وتاليا تنظر إليه حزينة مشمئزة. ثم نظر إليها القرصان وهو يقول إن التماسيح لن تفهم صراخك هذا إن كنت تستطيعين الصراخ. تمالكت تاليا نفسها ومدت رجلها المقيدة بالسلاسل الحديدية بكل شجاعة إلى الأمام دون أن ترتعش أو تخاف كى يفكها الرجل من هذه الأغلال. إن خبر وصول سفينة العبيد إلى الإسكندرية انتشر فى المدينة كانتشار النار فى الهشيم وكان الناس فى المدينة منتظرين وصول العبيد إلى المدينة بشوق كبير بصفة خاصة الطبيب لبتينوس الذى كان يعمل فى عيادة الطبيب الكبير معلمه سورانو الذى قد قام منذ عدة أيام بالرحيل إلى روما بعد بيع عيادته بما فيها من عبيد ومعدات إلى لبتينوس. أما الشىء المهم هنا أن العيادة كان بها شخص من أصل يونانى كان يعمل مساعدًا لسورانو وقد كان هذا الشخص يجيد عمله بإتقان. لقد كان المرضى اليونانيون والرومان يفضلون الأطباء من بنى جلدتهم عن الأطباء المصريين الذين كانوا يعتمدون فى عملهم أكثر على السحر والشعوذة. راح الطبيب الشاب يتقلب فى فراشه وهو ينتظر أن يناديه الخادم لتناول الطعام كى يذهب إلى المزاد حيث تقدم هناك محتويات السفينة التى جاءت من قلقيلية وذلك عندما تعلن ساعة معبد الإله بسيدون الخامسة بعد الظهر. وراح لبتينوس يغوص فى أفكاره وأحلامه وهو

يلمس ذقنه الحليق بيده ويقول لنفسه إن الطبيب الذكى هو الذى يعمل له اسما ويصبح مشهورا بالإسكندرية ثم يترك ماضيه بالإسكندرية ويرحل إلى روما. بينما هو غارق فى أفكاره هكذا إذ سمع صوت أقدام حافية تمشى على الأرض ونظر لبتينوس إلى مصدر الصوت فإذا به خادمه تيل تباح الذى يبلغ من العمر الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وقد حمل طبلية صغيرة من خشب الأبنوس الأسود يعلوها كأس من النبيذ، أقبل وهو واضع لسانه بين شفتيه علامة على التركيز حتى لا يهتز إناء النبيذ فيتدحرج ما فيه. فاستقبله الطبيب بابتسامة وهو يضع الطبلية أمامه وتذكر أنه قد اشتراه مع أمه فيرنيرو منذ عدة أيام. قال الفتى بصوت خفيض إن أمى تقول لك " فى المرة القادمة سوف تطهو لك السبيط بالأعشاب والكراوية حيث يكون طعمها أكثر جمالا إذا كان ذلك سيروق لك. ابتسم الطبيب لخادمه وقال له أنا لا أحب السمك على الإطلاق. أخذ الطعام وكأس النبيذ الأحمر فقط تمامًا كما تعلم من سورانو ثم ضرب بيده على مؤخرة الخادم برفق وقال له هيا انصرف الآن وقبل أن ينصرف الفتى قال له لبتينوس أخبر أمك أن تضع كثيرًا من الفلفل الحار جدا فى طعامى. لقد ساد الصمت المميت، لا صوت ، لا حركة، عند ذلك نهض لبتينوس ووضع لقيمات فى فمه وهو يهم أن يتحرك ثم اتجه صوب العيادة فى الجهة المقابلة من غرفة معيشته ونظر فيها إلى

الأوعية التى ما زالت مليئة بالمعدات الطبيـــة الجراحيـــة واللفـــائف والجبائر. ولكنه لاحظ أن كثيرًا من الأجهزة المهمة لاتزال ناقـــصة أيضًا. ثم أخذ يفكر فى حال المرضى الذين كان يعـــالجهم ســـورانو وهـــو يعالجـــهم الآن . وزفر الطبيب قائلا لا بد وأن أذهـــب إلـــى صالة المزاد الآن. إن الوقت قد حان الآن . وارتدى ملابسه وخـــرج متجها صوب صالة المزاد ويمشى خلفه خادمه تيل تباح الذى لا بـــد له وأن يرافقه فى كل مكان كما أن تيل تباح كان عليـــه أن يحمـــل حقائبه. وبمجرد أن خرج من منزله حتى اجتاحه الضجيج كاجتيـــاح موج البحر، فهذا ضجيج من المارة وذاك مـــصدره الكـــارو وهـــذه مصدرها البائعون. حيث أن منطقة كانوب دائما ما تكون مزدحمـــة وبها كثير من الضوضاء. ولم يكد لبتينوس يصل إلى مدخل الـــشمس حتى كان جسمه يتصبب عرقا، وذلك لأن الشوارع المتعامدة بـــشكل رأسى على البحر كانت تعوق تحرك الهواء الآتى من جهة الـــشمال أى من البحر. ثم لاح فى الجو تراب وغبار كثيف فنظر لبتينوس فإذا بنائب الملك القيصرى وحوله حراسه الرومان بخيولهم قـــد أثـــاروا زوبعة الغبار هذه وتنحى لبتينوس من وسط الشارع وهو يتساءل فى نفسه هل سيذهب لوكيوس فاليريوس بوبليكولا إلى مزاد العبيد أيضًا؟ ثم رفع لبتينوس يده محييا نائب الملك ورد الآخـــر التحيـــة. فـــسر لبتينوس فى قرارة نفسه أن رد عليه نائب الملك التحية. ثـــم نـــزل

لبتينوس بعد ذلك وسط الشارع وأكمل سيره إلى مـــزاد العبيـــد. إن صالة المزاد بدت مزدحمة بالحاضرين ووصل لبتينوس الـــذى أخـــذ يتحدث قليلا مع معارفه ثم بدأ المزاد وراح البحارة يعرضون العبيـــد فوق خشبة العرض وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم. وكان العبيد فـــوق خشبة العرض ينقسمون إلى قسمين:القسم الأول وهم العبيـــد الـــذين جاءوا بمحض إرادتهم وأرادوا أن يبيعوا أنفسهم فى سوق العبيـــد،أما النوع الثانى فهم عبيد مختطفون من كل مكان وأتوا بهم قسرا لبيعهم فى سوق العبيد. أما القسم الأول من العبيـــد فراحـــوا فـــوق خـــشبة العرض يبرزون عضلات صدروهم وعضلات أذرعتهم ويتمـــشون على خشبة العرض فى خيلاء ومباهاة. أما القسم الثانى فوقـــف فـــى الخلف وبجوارهم البحارة وتجار العبيد. وعندما حانت من لبتينـــوس التفاتة ورأى الفتاة الوحيدة وسط هؤلاء العبيد انفلـــت فـــى ضـــحك هستيرى عظيم حتى كاد أن يسقط على الأرض من شـــدة الـــضحك. حيث كانت الفتاة ذات شعر أصفر يشبه أعواد القمح وبشرة بيـــضاء وتسريحة تشبه أشواك القنفد، وشفتها العليا مفتوحة تمامًا مثـــل شـــفة الجمل العليا. ثم اقترب لبتينوس من الفتاة أكثر كى يتحقق منها عمـــا إذا كانت بالفعل أنثى أم إنها خنثى. وفحص أعضاءها التناسلية أيضًا فوجدها فتاة لا ينقصها شيء. فى أثناء فحص لبتينوس لأعضاء تاليا التناسلية جاءتها فكرة مباغتة وهى أن تبصق على رأسه ولكنها قالت

فى نفسها إن فعلت ذلك فسوف يشترينى ثم يغرقنى فى الميناء لهـذا عدلت عن هذه الفكرة. ثم نظر لبتينوس مرة أخرى إلى أعلـى إلـى وجهها فوجد أن لها أنفا طويلة مستقيمة وجميلة تعلوها عينـان خضراوان جميلتان. ثم أنها لاحظت من شكل لبتينوس أنـه يونـانى ذكى ذو طباع رومانية خشنة. ولما طال تفحص لبتينوس بتاليا نظـر إليه خادمه تيل تباح وقال له ما الذى يشدك إلى هـذه الفتـاة هكـذا ياسيدى؟ وقبل أن يجيب لبتينوس، جذب انتباهه صوت مبحوح وهـو يسأل هل تباع هنا أطفال رضّع؟ ثم ارتفع الصوت المتـسائل أكثـر وهو يسأل بإلحاح من هو المالك؟ ولما نظر إلى مـصدر الـصوت كانت هناك سيدة بدينة راحت تدفع جموع الناس وتمر مـن بيـنهم، ترتدى ثوبًا قـد ضاق عليها فى منطقة الصدر وذلـك لكبـر حجـم ثدييها. وبدا الثوب أسفل ثدييها مبللا بينما كان يعـدو خلفهـا رجـل نحيل. ووقف الاثنان بجوار لبتينوس وقال الرجـل النحيـل للمـرأة هامسا أيتها الجميلة الحبيبة أرجوك أن تكون حذرة يا من كان عنـده أطفال رضع فسوف لن يشتريهم سواى، وكما تعرفين فـإن عنـدى كثيرًا من النساء المرضعات. فأجابت المرأة البدينة أعرف كل شىء يابرنابه فأنت لديك كثير من العاهرات فى بيت الدعارة الذى تملكـه وما أنا إلا واحدة منهن فأنا فى حاجة إلى طفل كى أرضعه. فنظـر إليها برنابه بعينيه السوداوين اللتين تشبهان شعر سوالفه وفوق رأسه

قبعة وقال لها أعلم أنك تريدين أن ترضعى ولكن لـن يقـوم بـذلك الأطفال الذين أملكهم ثم راح يسعل. أما لبتينوس الـذى كـان يقـف بجوارهم فكان يفكر فى مصدر هذا الدفء الذى يبعثه جسد المـرأة، وأخذ يفكر عما إذا كانت المرأة قد شربت نبيذا كثيـرًا أم أن المـرأة بطبيعتها ساخنة هكذا ولكى يتأكد من ظنونه اقترب بحذر من المـرأة واشتم أنفاسها فلم يجد بها رائحة نبيذ. هل يكون قلبها كثير الخفقـان؟ ربما ثم قال لبتينوس لنفسه إن اليهود لهم أطباؤهم الخاصة بهم فهم لا يذهبون لطبيب غير يهودى حتى أكبر تجار المدينة أيضًا. عند ذلـك قال للمرأة محذرا ياملسيا إنك مريضة ولا يجب عليك أن ترضـعى أى طفل الآن حتى لا تنتشر العدوى فى المدينة. فذهلت المرأة عندما سمعت لبتينوس يناديها باسمها وراح وجهها يتغير لونه من الأحمـر إلى الأبيض ثم يتصبب عرقا ونظرت إليه وهى تحدق فيـه وأخيـرا قالت له إننى أعرفك نعم إننى رأيتك قبل ذلك! إنـك تعمـل بعيـادة الطبيب سورانو الشهير تلك التى تقع عند مدخل القمر أليس كـذلك؟ هز لبتينوس رأسه موافقا ثم قال لها نعم ولكن سـورانو قـد تـرك الإسكندرية وأنا الآن موجود فى العيادة فإذا رغبتِ فى أن تأتى إلـىّ فى العيادة فمرحبا بك . أجابت مليسا نعم سوف أفكر فى الأمـر ثـم ابتعدت عنه بسرعة حتى لا يلاحظ أحد من أصحاب بيوت الـدعارة أنها مريضة فلا تحظى بأى رضيع لكى ترضعه. أمـا برنابـه فقـد

اقترب من لبتينوس وقال له شكرا أيها اليونانى ثم عرض عليـــه أن يزوره عندما يكون لديه وقت لذلك. أجاب لبتينوس وهو يسبه بصوت منخفض نعم سوف أفكر فى الأمر ياسيد العاهرات واللقطاء. فضحك برنابه بخبث ونذالة وأردف قائلا إن بيتى عند مدخل الشمس يعرفـــه الجميع ثم تقدم إلى الأمام تجاه خشبة العرض. أما مـــن تـــابع هـــذا الحديث باهتمام وفهم مغزاه فقد كانت تاليا التىْ وقفت مبتعدة عن بقية العبيد وعرفت من خلال هذا الحديث أن لبتينوس هو طبيب يونـــانى. ولكنه وإن كان طبيبا يونانيا فليس لديه الحق أن يفعل بها مـــا فعـــل. هكذا فكرت تاليا فى نفسها. فى تلك اللحظة ظهـــر المـــشترون مـــن الرومان واليونانيين ومعهم الموثقين الذين يقومون بتوثيق عقود البيع والشراء. ثم انتظر منادى المزاد لحظة حتى انخفض هـــذا الـــضجيج فى صالة المزاد. عند ذلك قال بصوت عال مفتتحا المـــزاد: أحيـــيكم وأتمنى لكم تسوقًا ممتعًا. واستطرد قائلا إننى أقدم لكم اليـــوم عبيـــد التاجر الكبير بومبييوس القلقيلى وهم ثمانية عشر من العبيد الأشـــداء الأقوياء مثل الثيران، وهم معتادو الأعمال الشاقة، وفتاة من ســـواحل قلقيلية وهى تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما تقريبا، وصبى يبلغ من العمر سبعة أعوام وطفلتان مليحتان رضيعتان. عندئذ وافق الموظف الرومانى المختص بالمزادات بالافتتاح وذلك بإيمائـــة مـــن رأســـه بالموافقة. لقد حدق لبتينوس بعينيه على اثنين من الغلمـــان المـــلاح

الأقوياء غير المختتين وقال لنفسه إنهما سيكونان عونا لى فى عيادتى كما أنهم سيجلبون السعادة لمرضاى اليونانيين بمظهرهم الجميل. ثم صاح المزايد ثلاثة آلاف أس ورفع يد الرجل التركى وكأنه منتصر فى حلبة نزال. أما الموظف الرومانى فقد قدم سعرا أعلى وحصل على العبيد. ولم يبق من العبيد سوى رعاة الغنم والمعيز، حيث كانوا جميعا نحيلى الجسم كما كانت أجسامهم مغطاة بالشعر الكثيف وكأنهم الإله بان رب الرعاة اليونانى. وهؤلاء الرعاة لا يستطيع لبتينوس أن يستعملهم للعمل فى عيادته مع المرضى اليونانيين. وفى نهاية الأمر، بيع جميع العبيد ولم يتبق منهم أحد كى يشتريه لبتينوس. وقال لبتينوس لنفسه إن مدينة الإسكندرية بها كثير من الأغنياء الذين يستطيعون شراء كل شيء. ثم انصرف حتى كاد أن يصل إلى نهاية صالة المزاد فنادى عليه منادى المزاد قائلا له إن لدى فتاة قوية لم يلمسها أحد من قبل وهى تصلح لأعمال المنزل وكل الأغراض. فكر لبتينوس عائدا إليه حتى وصل إلى خشبة العرض مجددا وانتظر أن يقدم أى شخص سعر لهذه الفتاة ولكن لم يفعل أحد ذلك. فسأل لبتينوس منادى المزاد هل تتحدث اليونانية فنظر الأخير إلى بومبيوس تاجر العبيد يستفهم منه عما إذا كانت الفتاة تتحدث اليونانية؟ عند ذلك راح بومبيوس يدلك أذنه بيده التى يتدلى منها حلق كبير وفكر للحظة وهو يتلعثم قائلا أعتقد أنها خرساء ولكنها تفهم ما

يطلبه المرء منها. عندئذ صاح بومبيوس فى الفتاة قائلا أى لغة تتحدثين أيتها المغفلة عند ذلك قالت تاليا لنفسها إنه من الأفضل لى أن أباع لهذا الطبيب على أن يلقينى هذا المجرم للتماسيح. أجابت تاليا بسرعة قائلة أتحدث اليونانية واللاتينية والقلقيلية والصيدية. فتعجب لبتينوس ونظر إليها باندهاش متسائلا. وراحت تاليا تحكى له قصتها بلغة يونانية واضحة ومتقنة ما حدث لها بينما كان البحارة والتجار يتصايحون ويضحكون. قالت لقد كان أبى فيلسوفا وعلمنى تعليما جيدا أنا وأخى دون تفرقة بين ولد وبنت. ثم قاومت تاليا دموعها واستطردت قائلة حتى كانت هناك ليلة مشئومة إذ هاجم القراصنة بيتنا وراح أبى يدافع عن أسرته بشجاعة ولكنه دفع حياته ثمن شجاعته ودفاعه عن أسرته وسقط مضرجًا فى دمائه وهو يرتدى معطف الفلسفة الأسود، وانتزعنى القراصنة من ذراع أمى وهكذا وصلت إلى هنا. أخذ لبتينوس يتأملها وفكر فى نفسه قائلا إنها كخادمة لن تثير غريزة أى رجل. كما أن النساء الرومانيات لن يغرن منها على رجالهن.. كما أنه إذا استخدمها كمساعدة له فى عيادته ربما لن تكون مطيعة مثل بقية العبيد وذلك لأن لها رأى وكلمة وتستطيع أن تقول لا. وقد تكون السبب فى أن تأتى إلى عيادته كثير من المريضات أيضًا. وهذه الفكرة الأخيرة كانت رأى البائع فى المزاد، ولكنه لم يهتم كثيرًا برأى البائع لأنه يريد أن يبيع. ثم قال

البائع للبتينوس وهو يحاول إقناعه بشرائها: كما لا تنسى أنك سـوف لن تشتريها غالية وتستطيع الحصول على مبلغ معقـول إذا أجرتهـا لبيت دعارة لليلة واحدة كى يفض بكارتها اللهم إلا إذا أردت أنت أن تقوم بذلك!! وأردف البائع إننى أقسم أنها بكر ويمكنك أن تختبر ذلك بنفسك وارتفع صوت البائع وهو يكرر هذه الجمل كى يوقظ اهتمـام الجمهور. ارتعشت تاليا عند سماعها هذه الجملة وراحت تتراجع إلى الخلف حتى ارتطم ظهرها بحائط المزاد البارد. ولكن الطبيب رفض أن يختبر بكارتها فتنفست تاليا الصعداء وكف جسدها عن الارتعاش. ولما لم يعلن أحد الحضور رغبته فى شراء تاليا تقدم البـائع ودفـع آخر العبيد إلى الأمام وراح يعد صفاته كى يتقدم إليـه مـشتر. أمـا الموظف الرومانى الكبير فكان من واجبه أن يبقـى بـالمزاد حتـى النهاية وذلك من واجبات وظيفته رغم أنه اشترى اثنين من العبيـد. فى لحظة وبدون مقدمات صاحت تاليا قائلة إننى ولدت حـرة إننـى لست بعبدة إننى ابنة الفيلسوف آتيناجورا من مدينة صيدا التى تتبـع الرومان إننى أخاطب الرجال الذين هاجموا أسرتى وقتلوها وسلبونى والآن يبيعوننى فى سوق الرقيق. بأى حق تفعلون بـى هـذا؟ كـان حديث تاليا باللاتينية الفصحى التى أثارت اهتمام الموظف الرومـانى للحظة ولكن الرجل ذا الوجه الطويل والملامح الجامدة لم يتحرك لـه ساكن إذ قال فى قرارة نفسه كيف تجرؤ هذه الأنثى أن تتحدث هكـذا

فى وجودى ثم أن تنسب إلى نفسها إنها رومية، وفوق كل هذا تطلب حماية الرومان لها إنها لوقاحة منها، ثم سألها موثق العقود قائلا هل لديك شهادة تثبت أنك حرة؟ أجابته تاليا بحدة وغيظ كيف أفعل هـذا ووالدى قد قتلا ولا أملك من أمر نفسى أى شـىء؟ فأجـاب موثـق العقود بكل برود إذا لم يكن لديك أوراق فالزمى الصمت ولا تفتحـى فمك مرة أخرى. وفكرت تاليا فى نفسها قائلـة إن هـذا الموظـف الرومانى قد كان مسئولا فقط عن التجارة والشئون التجارية ولـيس عن العدل بين الناس أثناء هذه الحوارات والنقاشات لم يـدع البـائع بالمزاد الطبيب اليونانى يغيب لحظة عن عينه حيث كان يراقبه طوال الوقت ورأى أنه مهتم بتاليا اهتمامًا كبيرا وفكر فى عمل خدعة ضـد الطبيب الشاب فالتفت إلى التاجر القلقيلى وقال له " يا هذا خذها إلـى الرجل السورى تاتيان الذى عرض فيها خمسمائة أس فهى مـن الآن ملك له" ولم يكن بومبيوس يعرف أى رجل سورى اسـمه تاتيـان. ورغم ذلك هز رأسه بالإجابة وكأنـه يعرفـه. وقبـل أن يتحـرك بومبيوس بتاليا إلى الرجل السورى المزعوم ناداه لبتينوس قائلا لـه" تعال سوف أوفر عليك الطريق إلى الرجل السورى وأدفع لـك ٤٥٠ أس فوافق البائع لأن ثمنها الحقيقى لا يزيد عن ٣٥٠ آس. وضـحك بومبيوس ضحكة مكتومة وكأنه فرح بأن ابتلع الطبيب هذه الحيلة. ثم أردف قائلا رغم أنه يونانى فـهو ساذج. بعد ذلك جاء للبـائع مـن

يخبره بأنه لا بد وأن يتعجل لأن عليه وأن يـدير مـزادا آخـر الآن فبسط البائع يده للبتينوس يحسه على دفع ثمن الصفقة . عند ئـذ راح لبتينوس يعد له المبلغ المطلوب. ثم قال لبتينوس لتيل تباح " عليك أن تذهب بها إلى المنزل ولا بد أن تراقبها جيدا حتى لا تهرب" بينما هو يعد النقود للبائع انتابه إحساس غريب بأنه سوف يندم لـشراء هـذه المرأة. إنه فى الواقع كان يود شراء العبيد الملاح الذين جاءوا مـن تركيا. أما الآن فإنهم سوف يقفون أمام قصر حاكم مدينة الإسكندرية وهم يحملون المشاعل. قفز تيل بتاح الخادم على خشبة العرض كـى يصطحب تاليا إلى المنزل. عند ذلك ارتدت تاليا فقط جلبابها القصير الممزق دون أن يكون أسفل منه أى ملابس داخلية وربطت صـندلها فى قدمها وتأمل تيل بتاح أصابعها وهى تقوم بذلك. لم تعره تاليا أى اهتمام فقد كانت أفكارها تقفز فى كل اتجاه حيث راحت تفكـر فـى واجباتها الجديدة من غسيل وتسريح شعر سيدتها ودهنهـا بـالزيوت وهكذا. ولكن رغم هذا كان عندها أمل ينبع من أعماقها إنهـا ربمـا تستطيع أن تقوم بقراءة الأدب لأحد من النبلاء أو أن تقـوم بأعمـال الكتابة الخاصة بسيدها. أما أن ينظر إليها رجل على أنها أنثـى فقـد فقدت هذا الأمل منذ زمن بعيد. ثم اختفى لبتينـوس خلـف أعمـدة الصالة الكبيرة. ثم سألت تاليا تيل تباح قائلة هل سيدك شخص ودود؟ فتجاهل تيل بتاح السؤال هذا من تاليا لأن سيده قد منعه أن يتكلم عنه

فى غيابه وبدلا من أن يجيب على السؤال مط شفته السفلى إلى الأمام ولم يتحدث. لقد كانت الأفكار تتقافز فى رأسها فى كل اتجـاه تمامًـا مثل هرماس أخيها الذى قتل فى هذه الليلة المشئومة. ثم قالت لنفسها إننى من الآن لا يجب أن أفكر مرة أخرى فى أسرتى. قفز تيل بتاح من خشبة العرض سائرا خلف سيده ثم تبعتهم تاليا وهى تنظر إلـى البحر وكأنه فقط ماء لزج ملىء بالأوساخ والقاذورات. ثـم تـذكرت نفسها فى الصباح كانت تعتقد فى أنها سيدة قد سلب منها حقها ولكنها الآن قد أصبحت عبدة بصورة موثقة وودعت الميناء بينمـا الـشمس تسطع فوق المياه التى تعكس الأشعة مرة أخرى فتعطى لونا فـضيا يزغلل الأعين. ونظرت تاليا إلى تمثال الإله بوسيدون الذى لم تكـن تحلم هى وأسرتها بزيارته فى يوم من الأيام مكبلة بأغلال العبوديـة إنها تكره هذا الإله بوسيدون لأنه يحمى قراصنة البحر ويهديهم إلـى الطريق ثم مسحت بيدها المتسخة دموعها من على وجنتيهـا. وراح تيل بتاح الخادم المصرى يحثها على الإسراع فى الـسير فهـو الآن مكلف من سيده باقتيادها إلى المنزل. فى الطريق إلى المنزل كانـت تاليا تنظر بانبهار إلى الشوارع والمنازل العالية المرتفعة وكميـات البشر والضجيج فى الإسكندرية. لقد زارت تاليـا كـل مـن أثينـا وأفسيوس وطرسوس ولكنها لم تكن لتقارن مدينة الإسكندرية بمدينـة أخرى. لقد نسيت كل أحزانها وراحت تتأمل عظمة شـوارع مدينـة

الإسكندرية وجمالها وتقول لنفسها فى تلك الشوارع حُمل الفراعنة على المحفات صوب المعابد على أنهم آلهة وها أنذا أسير فى تلك الشوارع أيضًا ثم أيقظها صوت تيل بتاح بلهجة آمرة حازمة هيا تحركى للأمام وإلا أرقدتك على بطنك وسوف يوسعك سيدى ضربا. فهمت تاليا مسرعة فى مشيها خوفا من هذا السيد الحازم القاسى حتى أنها فى سيرها نظرت بسرعة إلى كوبرى فوق قناة صغيرة قد ذكرها بوطنها ولكنها راحت تسرع فى خطاها مخافة أن يغضب سيدها فيبيعها لمن هو أقسى منه قلبا وأشد منه بطشا. وأصبح تيل بتاح فخورا مزهوا عندما رأى أن تاليا تسمع كلامه وتخافه وراح يمشى بسرعة أكثر. وأخيرا وبعد معاناة وصل إلى منطقة بها أشجار ونباتات ووسطها كان هناك مدخل عيادة الطبيب. أمام المنزل كانت هناك دائرة صغيرة من المياه بها بعض الأسماك وأبو قردان فنظرت تاليا إلى هذه البئر الصغيرة وهى معجبة بها. إن المنزل بدا وكأنه يشبه مستشفى يونانى ولكنها لم تر به أطباء أو مرضى أو كهنة. وهدأت تاليا بعض الشىء واقتادها تيل بتاح فى دهاليز المنزل حتى أحضرها أمام سيده والذى كان منهمكا فى قراءة شىء ما. وتأملها لبتينوس مرة أخرى وسألها ما اسمك؟ أجابت اسمى تاليا. قطب الطبيب حاجبيه وقال لها من الآن عليك أن تقومى بنظافة العيادة والمقاعد وكذلك كل أدوات الجراحة وأن تقومى بإبعاد كل ما يوجد

فى العيادة من نفايات مثل الدماء والأعضاء المبتورة وكذلك الجنـــين السقط. ولا تنسى تنظيف الحمام إن النظافة هنا هى كل شىء. إن كل ما تريه هنا هو من الآن مسئوليتك والآن هيا انصرفى. ثـــم أكمـــل لبتينوس القراءة فى كتابه الذى كانت تاليا أثناء وقوفها أمامه تنظـــر إليه بإمعان. من خلال التعليمات والواجبات التى سمعتها منه أدركت أن المنزل والعيادة منفصلان كل منهم عن الآخر ، كما أن واجبـــاتهم منفصلة عن بعضها. لهذا فلن تقوم بتنظيف ظهره أو غـــسل أقدامـــه فهى مسئولة فقط عن كل ما يخص العيادة. ابتسم تيل بتاح ابتـــسامة شامتة صفراء وقال أيدى وأرجل ورؤوس مقطوعة ودماء يا للبشاعة والقذارة.

الفصل الثانى
الإسكندرية

لقد كان للسيد الحق فى جسد مخدومته هكذا هــو قــانون الــرق وكانت تاليا تعرف ذلك. ولكن الليلة الأولى فى منــزل ســيدها قــد انقضت ولم يمسها أو يبدى اهتمامًا بها كأنثى. استيقظت تاليــا فــى الصباح الباكر وراحت تباشر واجباتها من نظافة للمقاعد التى يجلس عليها المرضى فى صالة الانتظار وتنظيمها ثم سمعت صوت أقــدام آتية نحوها ونظرت للقادم الذى كان صبيًا ذا بشرة بنيــة قــد ألقــى أمامها بلفافة بريد وانطلق مبتعدا قبل أن تــستطيع ســؤاله عــن أى شيء. أحضرت تاليا الرسالة إلى لبتينوس فقرأها وقال يتمتم بكلماتــه المتلعثمة إن كبير القضاة الرومانى.يسأل عن سورانو الطبيب!. بعد لحظات قليلة كان على تاليا أن تحمل صندوقين وتتبع سيدها صندوقًا به الأدوية والآخر به الأجهزة الطبية. ولكنها لــم تفهــم لمــاذا هــو متضجر هكذا؟! إنه طيب ولا بد وأن يقوم بواجباته نحــو المرضــى هكذا فكرت تاليا فى نفسها. لقد كان الوقت ما زال بــاكرا ونــسمات الصباح لا تزال رطبة ورغم ذلك كان السكندريون يملأون الشوارع وكأنهم نزلوا جميعا فى هذا الوقت إلى الشارع. ولكنهم ما أن وصلوا

الحى الرومانى حتى وجدوا الشوارع الواسعة ذات الفيلات والقصور خالية من المارة ما عدا بعض الرومان الذين كانوا يرتدون أزياءهم الرومانية الجميلة التى كان يعلوها عادة عباءة بيضاء ذات نقوش جميلة. وما أن وصلا إلى المنزل المراد حتى فتح أحد العبيد الباب وقال للطبيب أسرع من فضلك فإن سيدى جايوس كورنيلليوس تريمالخيو يرقد على فراش الموت.

وراح العبيد يتحركون بسرعة هنا وهناك ويمسكون فى أيديهم أوانى بينما تقف سيدة فى فناء المنزل ممتلئة الجسم ترتدى ثوبًا ذا طراز قديم وقد عملت من شعرها ضفيرة ثم جعلت منها عقدة كبيرة من الخلف على شكل كحكة. هذه السيدة كانت تحث العبيد على الحركة السريعة بصوت حاد وآمر. ولم يستطع لبتينوس مقاطعة هذه المرأة بل انتظر حتى انتهت من إلقاء أوامرها . ولما طلب الإذن كى يكشف على المريض قالت له : إننى لا أثق فى الأطباء اليونانيين وإننى أردت طبيبا رومانيا. قالت هذا بحدة واستعلاء فأجابها لبتينوس بقوله إن السيد جايوس كورنيلليوس تريمالخيوس سيد هذه البلاد يعلم أن الأدوية الرومانية لا تفيد فى هذه البلاد الغريبة وليس لها تأثير شاف كما أنه كان يعالج دوما عند الطبيب سورانو وهو أستاذى وأنا كنت معه فى العيادة وحيث إن السيد سورانو قد غادر البلاد إلى روما وقمت أنا بالعمل فى العيادة مكانه فليس هناك سواى. فأجابت

السيدة بحدة قبل أن تأتى إلى هنا كان عليك أن تخبرنا بخطـــاب أولا إننا نريد طبيبا رومانيا أو سورانو ولا نريد أحـــدا آخـــر. فأجابهـــا لبتينوس: إن العبد الذى أحضر لنا الرسالة انصرف بسرعة قبـــل أن أقرأ الرسالة فلم أستطع الرد. ثم استطرد قائلا هل سألتِ ســـيد هـــذا المنزل فلربما يريد طبيبا كى يعالجه دون التقيد بأسماء بعينها؟ وفـــى وسط هذا الحوار الذى كادت المرأة أن تنهيه بطـــرد الطبيـــب مـــن المنزل سمعوا صوتا متألما ينادى من داخل الغرفة قائلا ياكورنيليـــا تيريتا لقد قلت لك مرارا ألا تتدخلى فى شئونى الخاصة دعى تلميـــذ سورانو يدخل قبل أن تسيل روحى منى مثل الماء عندما يسيل مـــن خرطوم مخروم. أجابت كورنيليا إنك تقصد خرطـــوم نبيـــذ ولـــيس خرطوم مياه. عندئذ ولج لبتينوس داخلا غرفة النـــوم حيـــث يرقـــد المريض، فرآه راقدا على سرير صغير تتدلى يديـــه حتـــى الأرض وهو يرتعش ويتصبب عرقا، مغلق العينين، جلبابه كان مرتفعا حتـــى بطنه تبدو أعضائه التناسلية دون أن يبالى المريض. بينما كانت فـــى الغرفة رائحة عطرية حلوة، وراحت تاليا تتـــساءل إن كـــان لـــديكم مخاوف على حياة الرجل. وجاهد الرجل أنفاسه وهو يقول لقـــد دس لى شخص ما السم فى اليوم التالى بعد وصولى الإسكندرية. عند ذلك استطاعت تاليا أن ترى العروق الحمراء فى المنطقة البيـــضاء مـــن عينه كما أنها رأت أكياس الدموع فى عينيه حيث بدت بنيـــة اللـــون

وأسفلها أكياس دموع أخرى ذات لون أزرق. ثم قال تريمالخيو "إن أختى لا تريد أن تدرك أن الطبيب السكندرى يستطيع معالجة السموم المحلية أفضل من الطبيب الرومانى. ثم قال لبتينوس دعنى أفحصكم أيها السيد النبيل وراح ينظر فى يده حتى عثر على الجزء الذى يستطيع به جس النبض. ولما جس النبض وجد أن نبضه سليم فوضع ذراعه بجوار جسده مرة أخرى وفحص أنفاسه التى كانت ضعيفة ثم سأل الطبيب قائلا هل شعرت بوجود السم فى طعامك؟ أجاب المريض الرومانى كيف يكون ذلك بالطبع لا. ثم استطرد قائلا إنه كان كأس نبيذ وقد أخذت من شفطة واحدة فلم يكن نبيذ رومانى بل كان نبيذًا مصريًا لو شرب منه دينبسيوس لراح يتمرغ فى التراب. ثم أحضر عبد إناء ومده تحت فم المريض حتى يتقيأ به بينما جاءت فتاة ومسحت له فمه ووجهه. وسجلت تاليا فى ملحوظاتها بأن المريض النبيل فى حالة جيدة وإنه طلب الطبيب فى وقت مبكر بحيث استطاع الطبيب إنقاذ حياته ثم انحنى ليبتينوس على المريض ووضع أذنه فوق بطن المريض وراح يسمع لحظة بينما نظرت تاليا إلى منطقة وجه المريض حتى تتجنب النظر إلى أعضائه التناسلية. ثم نهض ليبتينوس واقفا وقال للمريض وهو مليء بالتفاؤل والأمل إن المرحلة الحرجة قد مرت والسم أصبح غير سارى المفعول فقد رقد بلا تأثير فى الأمعاء. بينما وقفت كورنيليا فى مدخل الباب وقالت إن

هذا كلام لا قيمة له إنه لم يكن سم أو خلافه إنه قد تقيأ لأنـــه شـــرب كثيرًا من النبيذ. ولم يعرها ليبتينوس أى اهتمام واســتطرد قــائلا إن اضطراب الأوردة وتغير لونها سوف يهدأ الآن بينما بقيــت نظــرة المريض القلقة عالقة بعينى ليبتينوس. ثم قالت المرأة وما حالة الــدم؟ فاستدار إليها ليبتينوس بهدوء وابتسامة واثقة متعالية وقال ياكورنيليا تيرتيا إننى أنتمى إلى مدرسة الطب الأكاديمى ولا نهــتم بنظريـــات الحجامة هذه. وإذا كنت تودين علاجــه بالحجامــة فأرسـلى إلـــى إرستراتير لكى يقوم بهذا وسوف يقوم السيد تريمـــالخيو بعــد ذلـــك بشكرك للآلام التى سوف تلحق به من جراء عملية الحجامة هذه ولو كان السيد جاء إلى عيادتى لكنت بالطبع قد عالجته بطريقة أفضل من هذه بكثير. ثم رفع قاضى القضاة رأسه وأسندها بين يديه وقال لهـــا بصوت مرتفع يا أختاه عليك أن تحمدى الله أن سمحت لك أن تقيمى فى بيتى. كما أننى كنت كريمًا معك ولم أزوجك لأحد بالإكراه وهـــذا من حقى لأننى أخيك الأكبر والقانون يسمح لى بـــذلك. عنـــد ذلـــك عضت كورتيليا على شفتيها وهمت بسرعة وهى تخرج غاضبة من الغرفة فإنها لا تصدق قصة التسمم هذه كما أنهـــا لا تــصدق أنـــه يستطيع أن يزوجها لأحد كما أنها لا تقبل هذا الطبيب اليونانى.

نظر الطبيب اليونانى شاكرا إلى تريمالخيوس الذى أنصفه ضـــد أخته ونظر تريمالخيو إلى العبد الذى كان يقف بجوار الحائط ففهـــم

الأخير من نظرته أن يحضر كرسى للطبيب فأسرع العبد وأحــضر كرسيًا يمكن فتحه وغلقه لكى يجلس الطبيب عليه. ثم جلس الطبيــب وراح يقول للمريض أيها السيد النبيل الآن سوف أقوم بعمل خلطــة قوية لك تشربها وسوف تفيدك جدا كما أرجو أن تسمح لى أن آمــر عبيدك بعمل حمام لك حسب إرشاداتى ثم أرجو أن تحقق فــيمن دس لك السم فى النبيذ، إنه لا بد وأن يكون من الذين يحيطون بك ولــيس غريبا هذه المرة فإنك نجوت ولكن المرة القادمة مــن يــدرى مــاذا سيحدث لك؟ عندئذ انتصب تريمالخيوس جالسا على ســريره وقــال للطبيب إنك الآن متأكد إننى سممت؟ فلا بد وأن أرسل رســلا إلــى الولايات الثلاثة ورسولا آخر إلى نيكوبوليس كى يسأل عما إذا كــان أحد سواى قد سُمم أو أن شخصه هو الوحيد المعنى بهــذا الحــادث؟ أليست هذه فكرة جيدة ياللبيتينوس فوافقه ليبتينوس بإيماءة من رأســه وأردف قائلا وبذلك تتجنب استجواب كثير من العبيــد أيــضًا . ثــم استلقى تريمالخيو مرة أخرى على ظهره وأخذ يفكر فى أحواله وراح يحدق فى سقف الغرفة ذى اللون الأبيض الخالى من أى نقوش. وقال لنفسه إننى الآن أكره منصب قاضى القضاة فى مدينــة الإســكندرية إنهم لن يقدموا لى مكانا آخر سوى هذه المدينة إننى أكرهها لقد كانت هذه الوظيفة أقل وظيفة يمكن تقديمها لشخص رومانى نبيــل مثلــى أيضًا.

بينما كان تريمالخيو غارق فى أفكاره كان ليبتينــوس قــد أعــد دواءه لأول مريض مهم مثل تريمالخيو. لقد أعد سائل من الأعــشاب الطبية وأوراق النعناع حيث إن ذلك مفيد جدا طبيا بالنسبة لحــالات المعدة عندما تتعفف عن الطعام وتحــدث حــالات القــىء. ولكــن تريمالخيوس قد توعكت معدته لأنه شرب كثيرًا من النبيذ الذى أضر بأمعائه. ثم أعطى هذا الخليط إلى تاليا كى تسخنه على النار. أثنــاء ذلك ألقى تريمالخيو بنظرة على عبده الواقف بجوار الحائط فــى أدب واضعا يدًا فوق الأخرى فى انتظار الأوامر. وقال تريمالخيوس لنفسه إنه فتى ممتاز أفضله وأحبه ولكننى لا بد وأن أضحى به كى أواصل الترقية فى عملى. كما أن الطبيب اليونانى يعرف تمامًا ما يدور فــى عقل قاضى القضاة الرومانى ويفهم نوازعه ويساعده علــى تحقيقهــا أيضًا. ذهبت تاليا بالسائل الذى أعطاه لها لبتينوس ، وبحسها الأنثوى وأنفها الحساسة استطاعت أن تعرف طريق المطبخ دون مساعدة من أحد. ثم رأت خادمة واقفة عاقدة يديها فــوق بعــض وقالــت لتاليــا بنظرات خاطفة متطلعة هل سيموت السيد؟ ورغم أن تاليا لــم يكــن مسموحًا لها أن تدلى بأى أخبار عن حالة المرضى فإنها هزت رأسها بالنفى ربما لكى تهدئ من روع الخادمة. عند ذلك ضــربت خادمــة المطبخ وجهها بكلتا يديها وهى تقول فرحة أشــكرك أيتهــا الإلهــة سيريس يا ربة الحياة والموت إن جايوس سوف يعيش. فشعرت تاليا

بأن هناك شيئًا ما يربطها بهذه الخادمة، حيث إن الإلهة سيريس هـــذه عند الرومان هى ذات الآلهة ديميتر عند اليونانيين كما أن تاليا تضع حول رقبتها هذه العلّيقة للآلهة ديميتر. ثم سألت تاليا خادمة المطبخ لا بد وأنكم تحبون سيدكم لأنكم مهومون عليه هكذا لا بد أنه رجـــل طيب. أجابت الخادمة نعم إنه رجل طيب ولكن لو كان هناك أدنـــى شك فى حدوث تسمم له فإنه سوف يأمر بتعذيبنا جميعا. والأسوأ من ذلك أن كلاً منا نحن العبيد سوف يزيح الذنب على الآخر ثم الأســـوأ من هذا كله أن الذى يصب له النبيذ هو ابنى فابيـــان. فـــسألت تاليـــا بسرعة هل ابنك هذا هو الذى يقف فى غرفة النوم ويقوم على خدمة جايوس وله كتفان نحيفان؟ فهزت الخادمة رأسها بالموافقة وقالت: إنه ليس قوى البنيان ولكنه حاد الذكاء لهذا اتخذ منه السيد خادما شخصيا له وهو أكثر العبيد خوفا على حياته الآن إذا ثبت أن السيد قد سُـــمم. نظرت تاليا إلى السائل الذى فوق النار ثم تناولـــت طـــرف ثيابهـــا وأمسكت به إناء الأعشاب الساكن وذهبت به إلى غرفة النوم حيـــث يرقد السيد المريض.

أخذ لبتينوس الإناء ذا السائل الساخن من تاليا وهو يرمقها بنظرة غاضبة حادة حيث أنها تأخرت ثم رفع رأس المريض بيده إلى أعلى وقال للسيد المريض إن هذا عشب هندى ممتاز وذو مفعول ســـريع، رشف المريض من الإناء محدثا صوتا مدويا بشفتيه ثم فـــتح عينيـــه

صوب ليبتينوس وقال نعم إنه ذو مفعول سريع إننى أشعر بذلك. رد ليبتينوس بقوله ثم لك أن تعلم إن الجزء القليل من تأثير السم سوف يقضى عليه الحمام الذى أعددته لك. ثم قال ليبتينوس آمرا أحضروا لى بطانية رومانية من الصوف ولا تحضروا بطانية من صناعة المصريين. عند ئذ ذهب فابيان مسرعا وعاد مسرعا وهو يحمل بطانية قائلا إنها بطانية كان يتغطى بها راعى معيز فى أشد المرتفعات التركية برودة. ثم قام ليبتينوس بلف المريض فى البطانية باهتمام شديد حتى رقبته، ثم ذهب إلى صالة المنزل ذات الطراز الأسبانى وصاح بصوت عال فى العبيد آمرا إياهم أن يجهزوا له مياه ساخنة ثم اتجه نحو المطبخ فرأى كورتيليا التى خلطت نفسها فى الموضوع مجددا. حاول المريض أن يسمع ما سيدور بينها وبين الطبيب ولكنه أغمض عينيه واستسلم للنوم. إنه لا يبدو وكأنه شخص مريض مرض الموت ولكن يبدو مثل جنى الغاب الذى يغطى جسده بفرو الخراف. إن جنى الغاب هذا كثيرًا ما كان مفزعا ومرعبا كعرائس البحر فى أساطير اليونان. إنه نائم يتنفس بانتظام، بينما تراقبه تاليا كما أنها نظرت إلى فابيان الذى وقف بجوار الحائط خائفا يقرض شفتيه بصورة عصبية حيث يعرف أن سيده سوف يعتقد بأن شخصا ما من العبيد قد دس له السم فى شرابه. بعد بضعة دقائق أحضر أربعة من العبيد وعاءً كبيرا مليئًا بالمياه ووضعوه فى غرفة

النوم. ثم قال الطبيب لتاليا ضعى يدك فى الماء حتى ترى سـخونته وتسجليها فى ذاكرتك للحالات القادمة كى تتعلمى هذا.

أثناء ذلك قام الطبيب بوضع قدمى الرجل الرومـانى المـريض بعناية واهتمام فى هذا الحمام الساخن الذى خلط الطبيب بـه بعـض الأعشاب التى راحت تبعث روائح نفاذة من أركان الغرفة. بعد فتـرة من الوقت والتدليك فى قدمى الرجل الرومانى على أنغام الموسـيقى قام الطبيب بتنشيف قدميه بعناية ووضعهما مرة أخرى أسفل البطانية وأرقده على السرير وغطاه مرة أخـرى بالبطانيـة الدافئـة. وراح قاضى القضاة مرة أخرى فى النوم. ورأت تاليا بعد ذلـك كيـف أن العبد قد أحضر مروحة كبيرة من ريش الطيور وراح يهوى له مـن ناحية الوجه. خرجت تاليا مع الطبيب متجهين صوب المنزل، كـان الجو حارا حيث اقتربت الساعة من وقـت الظهيـرة وهـى تحمـل صندوق الأدوية وراحت تتصبب عرقا. بينما همـا يـسيران إذ رأوا صبيا مصريا صغيرا فقذف له لبتينوس بقطعة من النقود ثم وضـعت تاليا حملها على أحدالحوائط الظليلة كى تلتقط أنفاسها ثـم تواصـل السير. قالت تاليا لنفسها إذا كان العبد هو بالفعل من دس السم لـسيده فلماذا تركوا العبد مع سيده لوحدهما؟ ثم صاح بائع مياه مصرى فـى الشارع بصوت عال لكى يبيع المياه وطلب منه لبتينوس كوبـا مـن المياه، فشربه متلذذا بطعمه البارد وعذوبته، ثم قال الطبيب إننـى لا

أعتقد أن أحدًا قد دس له السم إنه فقط شرب كثيرًا من النبيذ. هكـــذا تحدث الطبيب بصوت عال حتى سمعته تاليا. عندئذ ســألته تاليـــا إذا كان الأمر هكذا فلماذا أيدت رأيه وأقنعته بأن شخصا ما قد دس لـــه السم؟ عندما سمع ليبتينوس هذا من تاليا نظر إليها نظرة دونية وقـــال لنفسه إن على فيرنيرو أن تعلم هذه العبدة قاعدة مهمة ألا وهـــى أن العبيد ليس لهم الحق فى سؤال أسيادهم شيئًا وعليهم فقط أن ينفذوا ما يؤمرون به. ولم يكلف نفسه عناء الرد على سؤالها وتجاهلهـــا وراح يرشف من إناء المياه ببطء واستمتاع. ولما يئست تاليا من أن تتلقـــى منه إجابة على سؤالها ، حملت صناديق الأدوية وهمت بالانـــصراف .عندئذ قال ليبتينوس إن ذلك لم يكن إقناعًا له بأن شخصا ما قـــد دس له السم بل هو إنقاذ للموقف وللشخصية الرومانيـــة حتـــى لا يقـــول الناس إن قاضى القضاة الرومانى قد شرب حتى الثمالة ، فهذه إساءة للشخصية الرومانية. لهذا من الأفضل أن يقول الناس أن شخصا مـــا قد دس له السم. وهذه الفكرة الجيدة سيشكرنى عليها الرومان. عندما سمعت تاليا إجابته هذه كادت الصناديق تقع من بين ذراعيهـــا وهـــى تقول للطبيب بحنق وغيظ وبسبب فكرتك هذه فـــسوف يفقـــد الفتـــى المسكين حياته. سأل ليبتينوس أى فتى تقصدين؟ ثم استطرد قائلا إن هناك عبدًا سوف يقتل وليس أى فتى. ثم عبر الشارع إلـــى الناحيـــة الأخرى متجها إلى العيادة وكأن العبد هذا ليس ببشر. وعندما وصلا

العيادة لم يكن يقف أمامها أى شخص وكانت الحرارة شـديدة. بعـد بضعة أسابيع كانت تاليا قد اعتادت على هذا الجو والمكـان الجديـد منزل الطبيب الكبير والنافورة والمرضى والصالة المليئة بـالزهور والنباتات المختلفة . ولكنها كانت ترى أن هذا البيت الكبير كان فـى حاجة إلى مزيد من الخدم ، حيث إن العمل كثيـر ويفـوق الأيـدى العاملة بالمنزل. ولكنها كانت تقدر دور الخادم المصرى الوحيد مـن بين الخدم الأجانب وذلك هو الرجل الخاص بالحديقـة حيـث كـان يقضى كثيرًا من الوقت فى العناية بالحديقة وزهورها. كما كان يبذل كثيرا من الجهد حتى تثمر نبتة أو تزهر وردة. ولم تجـرؤ تاليـا أن تسأل لبتينوس مرة أخرى لماذا لا يملك مزيدًا من العبيد؟ ولكنها قالت لنفسها لربما لا يملك النقود الكافية لذلك أو ربما ليس لديه الاهتمـام بهذا. كما تيقنت تاليا خلال فترة إقامتها هذه بأن ليبتينوس لـم يكـن منظما ولم يكن ملتزما ودقيقا. حيث أن عيادته مليئة بالأوانى لحفـظ الدماء التى كان يخرجها من أجسام المرضى فى عمليات الحجامـة، ولقد كانت فى بعض الأحيان تفرغ هذه الأوانى مـرتين فـى اليـوم وتقوم بتنظيفها من الدماء، إن ذلك لشىء مقزز. إن تاليا تـستطيع أن تتذكر جيدا المرة الأولى التى رأت فيها أول عملية حجامة فى حياتهـا ، حيث ربط ليبتينوس ذراع الرجل بشريط أسود حتـى غـاص هـذا الشريط فى ذراع الرجل ثم قطع وريد الرجل بسكين حادة ، وعنـدما

سالت الدماء من ذراعه اختلط هذا الشريط الأسود بالدماء التى اختلطت بدورها باللون الأخضر الموجود فى الأوانى النحاسية . وقد ذكرها ذلك بحادثة مقتل أبيها عندما اختلطت دماؤه بعباءته السوداء. وبينما كانت تاليا غارقة فى أفكارها هكذا شعرت بضربة قوية فى مؤخرتها ألقت بها على الأرض وتناثرت نقط الدماء ملوثة البلاط المرمرى فى عيادة الطبيب. ثم سمعت صوت تيل بتاح وهو يقول للبتينوس معذرة يا سيدى المبجل، لقد كان هو من ضربها برجله فى مؤخرتها ثم قال له لبتينوس بصوت بارد آمر: اسحبها من هنا. ثم أجاب تيل بتاح ساخرا أتقصد أن أكنسها ياسيدى!!؟ ولم تنتظر تاليا حتى يسحبها ماسحا بها الأرض بل تحاملت ونهضت ثم قامت بتنظيف الأرض من بقع الدماء. وإن هذا الموقف لم تكن تحلم به تاليا فى أسوأ كوابيس حياتها السابقة. أما المرة الثانية التى حضرت فيها عملية حجامة فقد كانت منتبهة وواعية ولم تجد غضاضة فى أن تغوص بيدها فى الدماء وأن تلمس القاذورات بيدها. إن العيادة التى كانت تعمل بها مع ليبتينوس كانت أحب الأماكن إلى قلبها حيث أنها كانت المكان الوحيد الذى لا يستطيع أحد دخوله ومشاركتها إياه سوى الطبيب ليبتينوس ، كما أنه كان فى المساء يذهب خارج العيادة ويقضى بعض الوقت مرفها عن نفسه بطريقته الخاصة. وكان يبيت خارج المنزل مرة فى الأسبوع على الأقل. عند ذلك كانت تاليا

تستغل ذلك حيث تجلس أمام المكتبة المليئة بلفائف البـــردى وتقـــرأ وتتصفح الكتب الطبية، التى كان معظمها من تـــأليف ســـورانو أمـــا الكتب التى كانت تاليا تفضلها أكثر هى الخاصة بـــالولادة ورعايـــة حديثى الولادة من الأجنة. إنها لم تكن تخشى أحدا من العبيد الآخرين فى المنزل. إن تيل بتاح كان يخاف منظر الدماء فهو ليس بمنـــافس لها، وأمه فيرنيرو لم تكن تهتم بشىء آخر سوى المطـــبخ، وكانـــت تسب تاليا وترمقها بنظرات حداد إذا هى اقتربت من المطبخ، لـــذلك كانت تاليا تبتعد دوما عن المطبخ حتى لا تتعرض لهذه السيدة. بينما كانت تاليا تجلس أمام المكتبة وتقرأ كانت تسلى نفسها ببـــذور عبـــاد الشمس وتلاعب برجليها الأوانى التى وضعتها عينه علـــى الأرض. فى بعض الأحيان كانت تاليا تذهب إلى القناة التى كانت تربط بـــين الميناء وبحيرة مريوط وذلك فى وقت الظهيرة عنـــدما يـــشتد الحـــر وتخلو العيادة من المرضى، حيث كانت تـــرى مـــن القنـــاة الـــسفن الصغيرة المحملة بالغلال والقادمة من الصعيد أو أثيوبيا. وذات مـــرة رأت قاربا عبارة عن ألواح خشبية بجوار بعضها بعضا وفوق هـــذه الألواح أعداد كثيرة من الأوانى الفخارية وفوق هذا القارب الخـــشبى كان هناك ستة رجال يقومون بالتجديف فى المياه . وفى مرة أخـــرى رأت تاليا مجموعة من السفن كانت محملة بالمقاطف المليئة بالنحـــل الذى استطاع المرء أن يسمع طنينه من بعد. كما أنها رأت ذات مرة

مجموعة من المصريين يحملون تمثال إلاههم وهم يرتـدون غطـاء يدارون به نصفهم الأسفل فقط أما الجزء العلوى من أجسامهم كـان عاريا، يتقدمهم الكاهن الذى كان يحمل فى يده ورقـة بـردى يقـوم بقراءة ما بها من نص مرتلا إياه ، وراحت تاليا تراقب هذا الركـب حتى اختفى عن ناظريها وارتجفت عندما تذكرت أنها تأخرت عـن ميعادها فى العيادة وعادت مسرعة إليها وهـى تتوقـع أن يعاقبهـا لبتينوس وذلك لأنها لم تكن جمعت الغسيل من لفائف الكتـان. ولمـا دخلت العيادة خائفة وجدت وسطها ليبتينوس واقفا غارقًا فى أفكـاره مطبقًا يده على أصابع اليد الأخرى يحدق فى الحوائط وما هو مثبـت عليها من عليقات ملابس فارغة. وعندما رآها قال لها فقط إن أدواته الجراحية القديمة أصبحت فى حالة سيئة ولا بد وأن يحضر الأدوات الجديدة . اذهبى ونادى تيل بتاح كى نذهب جميعا لنحـضر الأدوات الجديدة. تنفست تاليا الصعداء حيث إنه لم يعاقبها ولم يشعر بغيابهـا وخرجت تبحث عن تيل بتاح حتى وصلت المطبخ التى لم تجـد بـه سوى فيرنيرو الأم التى كانت تقوم بإعداد البيرة للشراب. ولمـا رأت فيرنيرو تاليا بادرتها بالسؤال ماذا تريدين أيتها الحمراء؟ لقد كانـت تضع طرحة سوداء فوق رأسها وسألت باليونانية حتـى تفهـم تاليـا السؤال ثم تتصرف بسرعة لأن الخادمة المـصرية لا ترغـب فـى وجودها بالمطبخ. كما أن الخادمة لم تكن تتحدث اليونانية سوى مـع

سيد المنزل وهو الطبيب. ثم فكرت الخادمة المصرية فى نفسها قائلة إن هذه المخلوقة المشوهة لتحاول أن تستأثر باهتمام السيد بعد أن كان ابنى هو الوحيد الذى يناديه السيد إنها تحاول رويدا أن تسحب البساط من تحت قدمى ابنى الآن. سوف لا أعمل لها سوى البيرة السيئة المليئة بالنفايات وأطبخ لها طعاما سيئا ثم فغرت الخادمة المصرية فمها الكبير وأفسحت ما بين شفتيها الغليظتين ضاحكة بسخرية. قالت تاليا لها إن الطبيب يريد تيل بتاح. وقبل أن تجيب الخادمة المصرية فيرنيرو سقطت طرحتها السوداء من على رأسها فوق ظهرها واستطاعت تاليا أن ترى عينيها بوضوح فهى ذات عينين سوداوين لوزيتين، يتدلى فى أذنها حلق ذهبى كبير. إن هذه السيدة المصرية تصبح مثل النمرة الصعيدية عندما يشتد بها الغيظ فراحت تكيل السباب لتاليا وذلك أنها فى هذه الدنيا لا تحب فى الرجال سوى اثنين ابنها وسيده وهو لبتينوس. وابتلعت الخادمة بقية سبابها خوفا أو ربما تستطيع هذه الحمراء فى يوم ما أن تنتقم لنفسها. فى وسط هذا النقاش صاح صوت تيل بتاح الطفولى قائلا أنا هنا. ونظرت تاليا خلفها فرأته وقد حمل أوزة تحت إبطه وقد ربط منقارها فى رجلها، فبادرته تاليا بقولها إن السيد فى حاجة إليك كى تحمل أدواته الطبية. فأجاب الغلام معترضا، لقد سمح لى أن أذهب اليوم إلى المعبد وأقدم هناك أضحية. لقد كان وجه الغلام يشبه وجه

أمه حيث كانت وجنتاه عريضتان وذقنه مدبب تمامًا مثل وجـــه أمـــه ولكن بشرته كانت أكثر بياضا. رغم أن خيبة الأمل قد ظهرت علـــى وجهه ولكنه لم يكن له من أمره سوى الإذعان والذهاب مـــع تاليـــا. هزت الخادمة المصرية رأسها حسرة وكأنها تقول فى حال نفسها إن هذه الحمراء قد أفسدت كل شيء منذ أن جاءت إلى هذا المنزل حتى العبادة أفسدتها علينا. لقد غدت الخادمة المـــصرية قبيحـــة وســـليطة اللسان وكأنها قد تعلمت أن تكون فظة نافرة من الغزلان والأرانـــب البرية التى تكثر فى موطنها الأصلى مصر الوسطى الذين يتخـــذون من الأرنب البرى إلها لهم. ونادت على ابنها وراحت تمـــرر يـــدها على ضفيرة شعره التى كانت تصل إلى كتفيه وتقول له عندما يناديك سيدك فعليك أن تطيع وتفعل ما يأمرك به. أما هذه الحمراء فلا تسمع لها كلاما ولا تعرها اهتماما.

نظرت الخادمة إلى الاثنين أثناء ذهابهما وهى فخورة بابنها وفـــى الوقت نفسه فرحة بأن الطبيب يحب ابنها. أما هـــذه الحمـــراء فقـــد عزمت على أن تريها المكان القذر الذى جاءت منه، حيث أنها نسيت موطنها الأصلى. ثم نزلوا إلى الشارع الذى بدا مكتظا بالبشر أكثـــر من أى يوم مضى. وفى إحدى التقاطعات كان هناك رجل إغريقـــى يشتم ويلعن فى الرومان. لقد ودت تاليا لو أنهـــا وقفـــت واســـتمعت لخطابه، ولكن لبتينوس أزاح جموع البشر بكلا ذراعيه كى يـــستطيع السير وهو يقول إن ذلك لحديث خطر فلا يجب على المرء أن يسب

الرومان. وصاح تيل بتاح خلف تاليا وهو يقول هيا تحركي أيتها الحمارة فليس سيدنا بساقية مثل سواقى الفيوم التى تغرف المياه وشعرت بأصبعه تنغرس فى ظهرها كى تسرع الخطى. ورغم هذا كان صوت الرجل اليونانى ما يزال يدوى فى أذنيها مثل صوت العجلات الحديدية فوق الأرض حتى وصلوا إلى الجزء المصرى من الإسكندرية، حيث رأت المصريين يجلسون بأجسادهم العارية فوق عربات الكارو ويصيحون فى حميرهم ويضربونها بعصيهم حتى تسرع فى سيرها. كما رأت كثيرات من النساء اللاتى كن يحملن الجرار فوق رؤوسهن مملوءة بالمياه، وعلى جانبى الطريق انتشرت الأكواخ المصنوعة من الطين وسقفها من الجريد والخوص. أمام هذه الأبواب جلس الأطفال العرايا وهم ينظرون إلى تاليا ذات البشرة الحمراء بدهشة، حتى إذا وصلت تاليا إلى حديقة صغيرة وقفت تتأمل برج الحمام الذى كان بداخلها وبه أشكال مخروطية ذات فتحات صغيرة وهى أعشاش الحمام. ثم سمعت صوت تيل بتاح كما شعرت بيده فوق كتفها أيضًا وهو يقول لها لا تخافى من أى شىء حتى وإن كنت لا ترين سيدنا لقد أوصانى أن أحرسك مثل أخيك الأكبر وأنا أفعل ذلك جيدا. نظرت إليه تاليا بإكبار لتوهمه بأنها تصدقه وتركته يستمتع بهذا الشعور، شعور الكبار أصحاب المسئولية عن الصغار. ثم قالت لنفسها إنه لا يزال طفلا وبالفعل كان تيل بتاح ما زال فى سن الطفولة. وفجأة ألقى تيل بتاح بالكيس المملوء بالطعام الذى كان

يحمله على كتفه أرضا ثم جثا على ركبتيه وفعل الأطفال جميعهم مثل ما فعل تيل بتاح ونظرت تاليا باستغراب إلى أسفل إلى رؤوس الأطفال ذات الشعر المتسخ غير المهذب والذى يشبه أصواف الماشية وهى دهشة لا تدرك شيئًا. فجأة ظهر فى مسرح الأحداث كاهن وخلفه رجال ونساء فى حالة تعبدية وروحانية، وذلك أنهم كانوا يحملون شيئًا ما ملفوفًا فى خرقة بيضاء من الكتان. وراح تيل بتاح يقول أشكرك يا إلهى الخالق خنوم فلتحيا إلى الأبد سليما ومعافى ثم نظر إلى تاليا قائلا إننى أصلى لك حتى يحبك الإله خنوم، حيث إن إلهتك هنا ليس لها أى دور. ثم قالت تاليا إننى أحترم جميع الآلهة وأقدرها وجثت على ركبتيها بجوار تيل بتاح تصلى معه للإله خنوم. ولكنها تعجبت أنهم أى هؤلاء الناس كانوا يحملون الإله معهم. ثم راحت تصلى مع تيل بتاح وتردد مثلما يقول أشكرك يا إلهى الخالق خنوم فلتحيا إلى الأبد سليما ومعافى. ثم راحت تبدى اهتمامًا بإله بتاح وذلك حتى لا يجد الفتى سببا ليتجاهل به أسئلتها. بينما كانت تاليا راكعة بجوار تيل بتاح تقاوم ضحكة دفينة فى صدرها. سمعت أصواتا خلفها تشبه الضحك وليس البكاء، أما الكاهن الذى كان يتقدم الموكب الدينى فلم يتأثر بضحك الأطفال وولج إلى معبد ذى أعمدة ضخمة وهو متأثر، بينما انفصل عن هذا الموكب الدينى رجل حليق الرأس ولكنه قد لون رأسه الحليق بلون أزرق واتجه إلى تيل بتاح وسبه وشتمه بحنق وغيظ على أنه ضحك. ثم انصرف وتابعته تاليا

بنظراتها وهى خائفة. ثم دخل الموكب والكاهن إلى المعبـد. عندئـذ أكمل تيل بتاح ضحكه حتى سقطت الدموع على يديه. ثم نظر تيـل بتاح إلى تاليا معاتبا وصوته يغلبه البكاء قائلا " إنك جافة وبلا قلـب تمامًا مثل البحر الذى كنت تعيشين مع أهلك على شاطئيه" إن خنـوم الإله لا يغادر مكانه المقدس سوى فى الأعياد. واليوم قد توفى أحـد الخراف الذى يمثل الإله خنوم وقد كانت هذه جنازته ولكنك ضحكت حتى جعلتينى أضحك أيضًا وهذا فى حضرة الإله خنـوم المقـدس. نهضت تاليا ونفضت الرمال عن ركبتيها ثم حانت منها التفافة فرأت لبتينوس الذى أعطى لها إشارة بيده، وعندئذ أمسكت بثوب تيل بتـاح ومشيا معًا حتى ولجا داخلين فى شـارع كـان مليئـًا بـالحرفيين والضوضاء الناتجة عن حرفهم. وجد الاثنان لبتينوس منتظرا إيـاهم فى الشارع وبادرهم بالسؤال أين تمكثان هذا الوقت كله؟. إننى سوف أفقد احترامى أمام الحرفى الذى يصنع لى أدواتى الطبية عندما أذهب إليه وحدى دون عبيدى ، وعندئذ قال له تيل بتاح متملقا ولكـن يـا سيدى إن شهرتك تغطى أرجاء الدلتا جميعها. إن الحرفى لا يجـرؤ أن يصنع لك أدوات طبية سيئة . فنظر لبتينوس إلى تيل بتاح بحنـان وطبع قبلة سريعة على جبهته وقال أتمنى هذا حقا؟ ثم عبر الـشارع إلى الجهة الأخرى صوب الحرفى. وراحت تاليا تقف بجوار لبتينوس فى الورشة التى تصنع الأدوات الجراحية للطبيب، بينما كـان تيـل بتاح خـارج الـورشـة يجـيب أسئلة الحرفيين عن ماهيـة هـذه

الفتاة الحمراء؟ سأل لبتينوس الحرفى قائلا هل انتهيت أخيرا ياموسى من عمل الأدوات؟ فأجابه الحرفى وهو واثق مطمئن نعم أيها الطبيب منذ فترة طويلة. ثم أحضر الحرفى عدة صناديق وراح يفتحها أمامنا لكى يرينا ما بها وهو يقول تمامًا كما طلبت. لقد قال ذلك وصوته يوحى بالفخر. أخرج لبتينوس سكينا مدببًا من الأمام ومقبضه مطعم بالذهب والفضة اللذين راحا يلمعان ويبرقان كلما حرك لبتينوس السكين يمينا ويسارا ثم راح يختبر السكين فى راحة يده وهو يكشط به راحة يده بطريقة أفقية ويقول ممتاز ممتاز.. ثم راح لبتينوس يقلب بقية السكاكين فى الصندوق ويفحصها ويقول للحرفى إنك عملت كل شيء، إنك لم تنس شيئا. سعد الحرفى وغطى هذا الصندوق ثم أحضر صندوقا آخر ووضعه أمام لبتينوس. ولما رأى لبتينوس المشرط المقوس الذى كان مقبضه أملس بدون أى تطعيمات قطب لبتينوس حاجبيه وقال للحرفى إننى لم أطلب هذا المشرط،إننى لست طبيب أمراض نساء ولا أولد النساء. فأجابه الحرفى إن هذا المشرط كان قد طلبه الطبيب سورانو ولم أكن قد انتهيت منه حتى رحيله. فقال لبتينوس إذا فعليك أن ترسله له ولا تعطينيه. ثم إننى لا أطلب مثل هذه الأدوات المتواضعة الفقيرة التى تبدو وكأنها لشخص لا يستطيع شراء أفضل منها. فقال الحرفى إن المعلم الأستاذ سورانو قد طلبها هكذا ومرر أصابعه فوق المقابض الخشبية الملساء التى استغرقت منه الوقت الطويل كى يجعلها ملساء هكذا. نادى لبتينوس

على بتاح ولم يعر الحرفى أى اهتمام ثم قسم الصناديق بينــه وتاليــا وتناقش مع الحرفى على السعر ثم خرج من الورشــة. قالــت تاليــا للحرفى موسى لماذا أراد سورانو الأدوات الطبية هكذا وليس شــكلا آخر؟ فنظر الرجل يتأمل هذه الفتاة ذات الشكل الغريب وفكر فى أنها ربما تكون من أتباع إله الأرانب فى الإقليم الخامس عشر التى كانت عاصمته تتخذ من الإله توت إلها رئيسًا لها كما كان سورانو محبــا للإله توت أيضًا. ثم أجاب الحرفى بقوله إن الأستاذ ســورانو كــان يحب أن تكون أدواته ملساء ولامعة. أما المقابض المطعمــة والتــى كان بها شقوق وفتحات فكان سورانو يكرهها، لدرجة أنه كان يلقيهــا فى الورشة حتى أننى كنت أخاف منه عندما يلقيها حتى لا تــصطدم بهذه الآلات الحادة. لدرجة أنه ذات مرة كان هو عندى فى الورشــة وقد أعد لى صيادا سمكة كبيرة فأخذ سورانو المشرط وغرســه فــى السمكة وصاح بى قائلا هل ترى؟ حيث إنه أخــرج المــشرط مــن السمكة وقد كان المشرط مرصعا ومطعمــا فمــا كــان مــن هــذه التطعيمات سوى أنها قد تداخلت فى لحــم الــسمكة وأحــدثت بهــا شراشيب كثيرة تشبه الخيوط وقال لى هل تود أن أفعل بأمعائك هكذا عند العمليات الجراحية؟ هكذا تفعل هذه الأدوات الجراحية التى بهــا حليات وتطعيمات كما أن البكتيريا تندس بداخل هذه الشقوق الصغيرة ولا تخرج منها ويصعب تطهيرها، ومع الوقت تصبح سامة وتــؤدى إلى قتل المرضى. لقد حاول سورانو أن يشرح هذا لبقيــة الأطبــاء

وينصحهم بعدم استعمال الأدوات المطعمة والمرصعة. أومأت تاليا برأسها وفهمت أن الرجل الحرفى العجوز كان معجبا ومحبا لسورانو الذى كان طبيبا محبا لعمله حتى التفانى. أما الشىء الذى كان بالنسبة لسورانو فهى المواد القاطعة مثل الحجر الكريم الزمرد والذى كان موسى يرتديه كعقد حول رقبته ، حيث كان يصنع منه قواطع للأستاذ سورانو. لقد وضعت الصندوق على الأرض بحذر ولم تستطع مقاومة الشعور الفضولى فى داخلها إذ حاولت أن تجرب السكين التى كان يستعملها سورانو لكم هى ملساء وباردة ولامعة وحادة عندما مررتها على أصابعها. وقالت فى سرها إننى أفهم نظرية الأستاذ سورانو حيث إنه كان ذا يدين من صنع الإله إسكالوب. إن معه حق فلو كانت هذه السكين ذات أسنان لعلقت بها الأمعاء أو قطع لحم صغيرة من جسم المريض ومن الصعب بعد ذلك تنظيف هذه السكاكين مما علق بها؟ وقالت تاليا إنها آلة جميلة سلمت يديك الذهبية . ابتسم موسى لهذه المجاملة العظيمة من تاليا وقال لتاليا إن سيدك لا يقدر عملى هذا! ولكننى سوف أكون سعيدا لو أنك قبلت هذه السكين كهدية مني! أخذت تاليا تتأمل السكين وكلما تأملت السكين ازدادت قيمتها فى عينى تاليا وترددت فى أن تعطيه السكين ولا تقبلها فهى ثمينة ولكنها فى اللحظة الأخيرة قبلتها وشكرته وهى سعيدة بهذه التحفة الفنية. انحنى موسى انحناءة قوية وهو يرد الشكر لتاليا مما دعاها للتفكير فى ذلك لماذا انحنى لها هكذا رغم أنه هو الذى قدم لها

الهدية وليس العكس؟ وعندما خرجت تاليا إلى الشارع الذى به ورش الحرفيين لم تعد ترى لبتينوس وتيل بتاح فقد سبقاها إلى المنزل، كما لاحظت أن الشارع قد غدا خاليا من المارة والورش قد غدت مغلقة. نظرت تاليا منزعجة حيث بدا الشارع الرئيسى غير آمن. ورأت يد تخرج من منطقة مظلمة تلوح لها إلى المكان الذى يجب عليها أن تسير فيه حيث إن الشارع الرئيسى بدا خاليا حتى من الأشباح. وخيم فوق المنازل طنين وشبح يشبه الأدخنة التى تتصاعد منها مرتفعة إلى السماء ولم تكن تاليا تعرف من أى جهة يتصاعد هذا الدخان وما مصدره؟ ولجت داخلة فى حارة جانبية كانت تكفى فقط لمرور حمار يحمل فوق ظهره سلتان، ورغم اختفاء الأطفال الذين كانوا دوما يلعبون فى هذه الحارة، فإنها بدت وكأنها أكثر أمنا من الشارع الرئيس الكبير.

الفصل الثالث
ثورة الكبش

في هذا اليوم نلقي نظرة على جانبي الحي اليهودي بالإسكندرية، إنه يوم عيد لدى اليهود حيث تجمع حشد كبير حول شجرة رمان قديمة بعد أن زينوا فروعها بالأوراق والأشرطة الملونة، وراحوا يتدافعون إلى المعابد الثلاثة التي كانت تقع فوق مكان صغير. في وسط الحلبة بدأ كبار السن ذوو البشرة السوداء بالرقص، حيث حمل كل فرد من هؤلاء عصا في يد وفي اليد الأخرى حمل صاجات وراحوا يأتون برقصات ذات حركات بطيئة قد أوحت للناظر بأن الراقصين يعبرون عن مشاعر حزينة، فهم يتقدمون بنظام خطوات للأمام ثم يعيدون هذه الخطوات نفسها إلى الخلف وفي الوسط الشجرة والمذبح، فوق هذه الشجرة كانت بالطبع روح إلههم ترافقهم في رقصاتهم أصوات الصاجات وأدوات الموسيقى الأخرى. فجأة صمتت أصوات الموسيقى وراحت الطبول تدق تصحبها أغاني ذات وزن وتفعيلة والرجال يتمايلون إلى الأمام وإلى الخلف وفجأة ظهر الكاهن أمام المذبح الذي كان يضع شالا ذا لون أزرق سماوي على كتفيه ثم ظهر رجلان آخران يحملان كبشا ثمينا جميلا ذا قرنين

طويلين مقوسين، فوق جبهته خصلة بيضاء وأنفه ذو لون أسود إنـــه الأضحية العظيمة. ثم وضع الرجلان الكبش فوق المذبح . عندئذ قام الكاهن بذبحه وجاء المساعدون بأوانٍ حجرية واستقبلوا فيها الـــدماء ثم راح الكاهن يرش الدماء على أعمدة المعبد الحجرية وكذلك علـــى جذور الشجرة. أما ما تبقى من دماء فقد سكبه الكاهن باهتمـــام بـــالغ أسفل أعمدة المعبد. فجأة سمع الجميع صوتا مدويا وكأنه يـــأتى مـــن ألف شيطان؛ فاستدار الكاهن نحو مصدر هذا الصوت منزعجا فرأى مصريا شابا قد لون بشرة رأسه بلون أزرق قد اخترق الجميع متجها نحوه. ولما اعترضه أحد مساعدى الكـــاهن ضـــربه ضـــربة قويـــة طرحته أرضا ولم يجرؤ الكاهن على اعتراض الفتى حتى وصل إلى الكبش المذبوح واحتضنه بكل حنان بين ذراعيه، التف المـــصريون دهـــشين حـــول هـــذا الفتـــى ينظـــرون بـــلا أى إدراك،ثـــم صاح الفتى "إنكم مثل القراد ، إنكم تريدون أن تستولوا على أملاكنـــا وآلهتنا. إن الإله توت وهو ذو رأس طائر أبى منجل قد قال" من يقتل فلابد من قتله ومن يأمر بالعنف فلا بد من عقابه".

فرد الرجال ذوو البشرة السوداء على الشاب المصرى بالـــشتائم، ثم أرسل الكاهن مساعديه كى يأخذوا الكبش منه وهو مبتسم ابتسامة متعالية . عندئذ انطلقت من جهة الرجـــال ذوى البـــشرة الـــسمراء مقذوفات من الطوب الطينى المحروق. أما المصريون أتباع خنـــوم

والذين كانوا قبل ذلك فى طريقهم لتشييع جنازة الإلــه خنــوم، فقــد اتجهوا نحو سور حديقة وأخذوا يقتلعون منه الجلة الناشفة والأحجار ويلقون بها على الطرف الآخر من ذوى البشرة الــسوداء. واســتمر التراشق بالأحجار بين الطرفين حتى امتلأ المكان بالجرحى والقتلى. أما تاليا فراحت تعدو فى الحارة الــضيقة المتعرجــة ذات البيــوت المغلقة كما لو كانت صناديق كنوز، وتمنت لو أنها فأر صغير كــى يستطيع السير فى هذه الحارة. إن صندوق الأدوات الجراحيــة كــان ثقيلا ولكن تاليا كانت خائفة حيث أن أصوات قعقعة السلاح وارتطام نعل حذائها المليء بالمسامير كانا يحثانها على السير بسرعة. لقــد رأت أمامها بعض النباتات الخضراء وحانت من رأسها التفاتة إلــى الخلف فرأت أول مجموعة من الجنود الرومان، ولم يكــن ببعيــد عنها مجموعة من البشر فدخلت بينهم وهى تلهــث باحثــة عــن أى مصدر للحماية. لم تكد تلتقط أنفاسها حتى ارتطم حجــر بــصندوقها محدثا صوتا مدويا وكأنه سقط من جبل مرتفع. لقد وصل الرومــان إلى المكان الذى تقف فيه تاليــا والنــاس، وراح الجنــود يــسوقون مجموعات الناس أمامهم ضربا وأخذ الناس سود البشرة منهم وبنيّــو البشرة أيضًا يجرون أمام الجنود فى كل اتجاه وهم يتصايحون. وفى مدخل إحدى الحارات نظرت تاليا فرأت مصريين كثيرين قد لونــوا رؤوسهم باللون الأزرق وراحوا يصارعون رجالا آخرين ذوى بشرة

سمراء وهم يتصارعون على كبش يحاول المصريون أن يستخلصوه منهم. أخيرا بعد صراع مع الزحام وصلت تاليا إلى مكـــان هـــادئ تحت شجرة لم يكن أسفلها سوى رجل ميت وبجواره إنـــاء حجـــرى ملطخ بالدماء. لقد نظرت إلى هذا المنظر حزينة متأثرة عنـــدما رأت أعدادًا غفيرة من الرجال السود وقد انهالوا على الرجـــل المـــصرى بالحجارة حتى سقط الرجل على الأرض ولكنه لم يترك الكبش مـــن يديه ولما تكاثر عليه الرجال السود ولم يبد حراكًا يوحى بأنه علـــى قيد الحياة انتزع الرجال السود الكبش من بين يديه. وصاح صـــوت مرتفع قائلا " هيا تفرقوا هيا ابتعدوا عن هنا أيهـــا الـــشعب الحقيـــر ونظرت تاليا فرأت جنديًا رومانيًا يجلس فوق حصانه. وخافت حتـــى ارتعدت فرائصها، إن الرومان فى هذه الحالات لا يفرقون بين شعب سكندرى وبينها فجميعهم فى نظرهم مذنبون.

حتى الآن لم يرها الجندى الرومانى. بينما هى كذلك رأت جنـــديًا رومانيا آخر قد رجع خطوتين للخلف وقفز على سور وتسلقه بيديـــه ورجليه كى ينظر خلفه، بينما راح بقية الجنود الرومـــان يحطمـــون أبواب البيوت والنوافذ بحرابهم، ثم عادت مجموعـــة مـــن الجنـــود الرومان إلى المكان الذى تقف به مرة أخرى. وصاح بهـــم الـــضابط الذى يرافقهم وقال لهم" اجمعوا هذه الجثث وألقوا بها هنا" وأشار لهم

على مكان بعينه. ثم راح متجها : نحو قصر الوالى الرومانى، بينمـــا هو كذلك إذ نظر صوب الوالى الرومانى وقال له محييا السلام عليكم أيها الوالى. ثم قال الضابط إن سيادتكم مهتمون بصورة زائدة عـــن الحد وكأننا لن نستطيع القيام بهذا الواجب الصغير!! ثم قال الـــضابط للوالى إننى سمعت أنك أتيت لتوك من روما؟ لم تكن تاليا فى مخبئها تصدق هذه اللغة المتعجرفة التى تحدث بها الضابط مع الوالى حتـــى أنها ظنت أنه يتكلم مع تاجر الرقيق الذى أتى بها من موطنها. أجاب الوالى تريمالخيو بلهجة حادة إننى موفد من قبل القيصر مباشرة أيها الضابط وآمرك باسمه أن تنهى هذه الفوضى بأسرع ما يمكن. أجاب الضابط إن هذا واجبى وأنا أقوم به خير قيام. لك أن تعلـــم أن هـــذه الثورات لم تكن أبدا تشكل خطرا على الإمبراطورية الرومانية مـــن قبل. إن الشعب السكندرى معروف بجنوحـــه إلـــى العنـــف وهـــذه الثورات. إنه ليس شعبا مسالما مثل الشعب السورى ، حيث كنت قبل ذلك. كما أننى ذو خبرة بهذه الثورات فأنا أعمل منذ عدة سنوات فى هذه الولاية. ثم أنه يكفى أن أرسل هذه الجرذان إلى جحورها. أجاب تريمالخيو إن أى ثورة تمثل خطرا على الإمبراطورية ولـــيس مـــن واجب الضابط أن يقرر ما هو خطر وما هو ليس بخطر إن ذلك من واجبى أنا. أين رئيس الشرطة هنا؟ عندئذ وضع الضابط يديـــه فـــى حزام بنطلونه بكل استرخاء ولا مبالاة ورد متكاسلا "إنه الآن يستجم

ويستحم فى عيون المياه وإنى أنصحك أن تذهب إليه كى تسليه فى حمومه". فأجاب تريمالخيو منفعلا أتريد أن تخبرنى بأنه لا يكون موجودا عندما تكون هناك ثورة بهذا الحجم؟ إذن فمن يعطى الأوامر هنا؟ أجاب الضابط بحدة أنا الذى ألقى الأوامر هنا أيها الوالى. وتمنت تاليا لو أن الوالى قد سب هذا الضابط الوقح على وقاحته وعاقبه.

وصمت الشخصان وكل منهما يكمن الضغينة والبغضاء للآخر وظلت هى كامنة تراقب الموقف من مخبأها. وفجأة رأت يدًا بيضاء تلوح لها وقد خرجت من فتحة ضيقة من باب فقالت تاليا لنفسها أشكرك أيتها الربة دوميتر. خرجت تاليا من مخبئها خلف الشجرة وقد ألقت بنظرة قوية على التميمة التى يرتديها الضابط حول رقبته ومرت من أمام الوالى متجهة إلى هدفها. وعندما قطعت تاليا منتصف المسافة إلى اليد التى كانت تلوح لها من خلف الباب استطاعت أن تتنفس بعد أن كانت قد حبست أنفاسها طوال الوقت ثم ولجت داخلة إلى الباب وأغلقت التى كانت تلوح لها الباب خلفها ثم سقطت المرأة جاثية على ركبتيها أمام تاليا . لقد كانت امرأة فى حالة ولادة. عندئذ حملتها تاليا من تحت إبطيها ووضعتها على السرير الوحيد فى المكان الذى لم يكن به سوى حصيرة ومكان ربما كان مخصصا للطبخ وموقد تشتعل به نار ضعيفة. إن المرأة لم تكن أكبر

من تاليا بكثير وكان لون بشرتها الزيتونى يوحى بأنها من المنـــاطق الساحلية الرومانية الشرقية أو الشمالية. صاحت المرأة من شدة الآلام والتفت سيقانها بعضها ببعض، ثم تذكرت تاليا فى لحظة كل ما قرأته عن الولادة وقالت للمرأة بصوت قوى مطمـــئن اهـــدئى ولا تخـــافى فسوف أنقذك حالا من هذه الآلام. وأزاحت تاليا المخدات التى كانـــت متسخة ومبللة وقالت الحمد لله إن الإله قد أرسل هذه المرأة التى تلـــد إلىّ. وتذكرت ما كتبه سورانو حيث كتب" إن على المرء أن يحـــاول بقدر الإمكان تهدئة المرضى من النساء بصفة خاصة إن كن فى حالة ولادة. لقد استطاعت تاليا أن ترى رأس الجنين فما كان عليها ســـوى أنها سحبته للخارج وربطت له الحبل السرى ربطـــة مـــضاعفة ثـــم قطعت ما كان زائدا عن هذه العقدة حول السرة. لقد كـــان المولـــود ذكرا صحيحا ووضعته تاليا ملفوفا فى حضن أمه. إن دقات قلب أمه ودفء جسدها سوف يعطيه كل ما يحتاجه فى ساعات حياته الأولى. نظفت تاليا المكان بقدر ما استطاعت ثم جلست بجوار المرأة وهـــى مرتاحة الجسد والضمير وفخورة بإنجازها هذا. ثم راحـــت تـــسترق السمع ما يدور فى الشارع، لقد كان الجنـــود الرومـــان مـــا زالـــوا يصارعون ويتعقبون الثوار فى كل مكان. ولكنها الآن تـــشعر بأنهـــا مسئولة عن آدميان وهما هذا الجنين وأمه ثم أخذها الحمـــاس أكثـــر عندما أخذت تفرك قبضة يدها فى اليد الأخرى وكأنها تستعد لملاكمة

الجنود الرومان إذا فكروا فى الاقتراب من هذا المولود وأمـــه. ثـــم راحت الأم فى نوم عميق لفترة قد امتدت حتى استيقظت المرأة كان قد حل الظلام وقامت تاليا بإشعال لمبة الزيت فى المنزل المتواضـــع الصغير كما خف ضجيج الجنود وذهابهم وإيابهم فى الخارج. راحت المرأة تتأمل تاليا فى ضوء اللمبة المتواضع ثم قالت أشـــكرك جـــدا لمساعدتك لى إننى كنت أشعر بأنك طبيبة. اســـمى بريتـــوا زوجـــة بريبيترسيماخوس صانع الأحذية. وقالت تاليا وأنـــا تاليـــا مـــساعدة الطبيب لبتينوس الذى تقع عيادته عند مدخل القمر. ثم ســـألت تاليـــا قائلة هل أنت مسيحية؟ فضحكت بريتوا وأومأت برأسها موافقة. ثـــم أردفت قائلة وابنى هذا سيكون مسيحيا أيضًا ، إن اعتقـــادى فـــى الله سوف ينصر ديانتنا. صمتت تاليا لحظة وهى تفكر حيث إنها سمعت كثيرًا من الآراء السيئة عن المسيحية والمـــسيحيين. إنهـــا تعلـــم أن المسيحيين متعطشون للدماء سفاحون ومغيبون. ثم سألت تاليا المـــرأة المسيحية قائلة هل كنت تعلمين ما يحدث خـــارج المنـــزل، أجابـــت المرأة طبعا ، لقد كان اليهود السود يحتفلون بعيدهم الذى يحتفلون به كل عام عندما تأتى ذكرى خروجهم مطرودين من مصر ثـــم أنهـــم أرادوا تقديم أضحية بهذه المناسبة، تلك الأضحية هى رمز الإله عند المصريين الذين اعترضوا اليهود وأعاقوا هذا الاحتفال. ثم أردفـــت المرأة قائلة إن الرجال اليهود السود هم إخواننا فى العقيدة وشـــديدو

التشابه بعقيدتنا. ولقد كنا نحتفل معهم بأعيادهم ولكن جزءًا كبيرًا منا نحن المسيحيين قد قتل بسيوف الرومان ولهذا لم يستطيعوا مشاركة اليهود فى احتفالهم هذا وكادت تدمع عينيها عندما ذكرت هذا من شدة الحزن. ثم استطردت المرأة قائلة إننى رأيت رجالا سودا كثيرين ومصريين من بين الموتى ولم تتمالك المرأة نفسها وانخرطت فى البكاء. ثم سألت بيرتوا تاليا وهى لا تزال تبكى قائلة إن كثيرًا من النساء تتنابهن أطوار غريبة بعد الولادة هل هذا صحيح؟ وصمتت تاليا ولم تستطع الإجابة على السؤال وسيطر الصمت على المكان وأوغل الليل وازداد المكان إظلاما ثم سمعت تاليا خربشة قد تأتى من الخارج أو ربما تكون بداخل المنزل وسألت تاليا المرأة قائلة هل عندكم فئران إن ذلك لشىء سيئ جدا بالنسبة للطفل. فضحكت بيرتوا وهى تغالب دموعها وقالت لتاليا إنه سيماخوس لقد ذهب لكى يبحث عن مولدة وعندما اندلعت الثورة وراح الرومان يعيسون فى الطرقات فسادا اضطر أن يختبئ وهو الآن يطرق على الباب أرجوكِ افتحى له الباب. فتحت تاليا الباب ودخل الرجل بمفرده لم يكن معه أحد وراح يتفحص تاليا من أعلى إلى أسفل وهو يسأل هل الطفل قد جاء هل ولدت زوجتي؟ إن تاليا لم تخشاه وبدا وكأنه يكبر زوجته بضعف عمرها. فقالت تاليا مجيبة ولدت ذكرًا وهو بصحة جيدة. فقال فرحا حقا ولد؟ ثم اتجه نحو بربوتيا وأخذ منها الطفل واحتضنه وذهب به

حيث ضوء اللمبة الخافت وراح يتأمله وهو فرح. ثم قال لتاليا سوف أدعـوكِ فى اليوم الثامن من ميلاده وذلك بمناسـبة حفـل ختانـه، وشعرت أنها لا بد وأن تغادر المنزل فحملت صندوق الأدوية فـوق ذراعيها وخرجت إلى الشارع المظلم وهى تـسمع صـرخات هنـا وهناك فلم تكن تعلم هل هذه الصرخات مصدرها جرحـى يرقـدون على الأرض ومضرجون فى دمائهم أو أن مـصدرهـا حيوانـات جائعة تبحث عن فريـسة. وراحـت ترتعـش مفاصـلها وهـى تتحسس الطرقات وتأمل أن تجد الطريق إلى العيادة فى هذا الظـلام الدامس. فى الصباح الباكر اسـتدعيت سـريتان عـسكريتان مـن نيكوبوليس إلى الإسكندرية وراحت كل سرية تحمى شارع رئيـسى بالمدينة. أما الأيام القادمة والتى تلت تلك الاضطرابات فراحت الفرق الرومانية الاستطلاعية تجوب المدينة، كل فرقة تتكون مـن ثمانيـة جنود. أما فى المجتمعات الرومانية الراقيـة فقـد أرسـلت سـيدات الرومان عبيدهن كى يجلبوا لهن الأخبار من الـشوارع والطرقـات ورحن يتحدثن فى صالوناتهن عن هذه الاضطرابات. وفـى منحـى آخر من الأحداث ، قدم والى الإسـكندرية الجديـد إلـى جـايوس كورنسيلليو تريمالخيوس نفسه على أنه رجل مهم وأمر بإعدام خادمه فابيان وذلك لأن الخادم قد دس له السم فى النبيذ حسبما دبر هو لذلك مع الطبيب لبتينوس واستطاع تريمالخيو كذلك إقناع مندوب القيـصر

الرومانى بأن ثورة الكبش هذه ما هى إلا ثورة ضـــد الإمبراطوريـــة الرومانية. فى هذا اليوم عادت الخادمة البدينة فيرنيرو إلـــى منـــزل لبتينوس وهى تقول له ياسيدى إننى اليوم لم أجد البائعين فى الـــسوق إن ذلك لم يحدث من قبل فكيف أستطيع تغذيتك الآن، إنـــك ســـوف تجوع إذا استمر الحال هكذا. ثم قال لبتينوس إننى قد رأيت أوزة فى القفص منذ يومين ألم تعد موجودة؟ ثم استطرد قائلا لفيرنيرو تذكرى جيدا إن تاليا لا بد وأن تعاقب بحرمانها من الطعام لمدة يومين، لقـــد قال هذا وهو ينظر إلى الصالة التى ينتظر بها المرضى فى عيادته.

بالعودة إلى الاضطرابات التى اندلعت بالإسكندرية فـــإن الحكـــام الرومان كانوا يعزون ذلك إلى حرارة جو مصر وقلة الرياح الشمالية الباردة، أما الوالى تريمالخيو فقد رأى تلك الاضطرابات التى كانـــت تحدث بين المصريين واليهود واليونانيين بـــصورة أخـــرى. نظـــر لبتينوس إلى مريضه المدعو ليسيس وقال له بعدم اهتمام هل خفـــت آلامك الآن؟ ولم ينتظر الإجابة وراح يتمشى وهو يعبث بشعر لحيته وفكر فى نفسه قائلا: إنها لم تكن فكرة سيئة أن تقوى أواصـــر الـــصداقة مع هذا الوالى الرومانى. حيث إن جميع هؤلاء الموظفين الرومـــان سوف يسافرون اليوم أو غدا إلى روما وهى غاية ليبتينوس ومقصده. فجأة قطع حبل أفكاره صراخ مرتفع جاء من المطبخ ولمـــا اســـتدار صوب المطبخ رأى تاليا خارجة منه مسرعة تكتم صراخها وخلفهـــا

الخادمة البدينة فيرنيرو التى أوسعتها ضربا، وبصقا. وبمجرد أن رآها لبتينوس صرخ بها قائلا اصمتى وإلا أمرت تيل بتاح أن يضع فى فمك كرة من الخرق البالية حتى لا تستطيعى الصياح هكذا. إن صوتك يزعج المرضى. تحاول تاليا إبعاد يد الطبيب عن ذراعها وقالت له وهى حزينة إن فيرنيرو تمنع عنى الطعام وتقول إننى رجس وقد أفسدت عليها الأوزة التى كانت قد ادخرتها للأضحية. أردف لبتينوس قائلا إنك تستحقين أكثر من يومين حرمان من الطعام كعقاب لك. إننى كدت أفقد أربعمائة وخمسين أسا. أجابت تاليا وهى تكاد تنفجر من الحزن والغضب لماذا تعاقبنى يالبتينوس إننى لم أكن يوما فى حياتى عبدة أو بنت عبيد. أجاب لبتينوس إنك خرجت تتسكعين فى الظلام ولم تخبرينى ولم تخبرى تيل بتاح بذلك كما أنه لا يسمح لك أن تمشى بمفردك فى شوارع الإسكندرية حتى لا يقتلك أحد على أنك خادمة مارقة. أجابت تاليا إننى قد ضللت الطريق حيث إننى لم أعد أراكما بعد خروجى من ورشة الحرفى. أجاب لبتينوس ساخرا وكأنه لا يصدق هكذا؟ فأجابت هى نعم لقد حدث كما أخبرتك وانتزعت ابتسامة فاترة من على وجهها وقالت والآن دعنى أمشى حيث إننى لا بد وأن أعد السرير الهزاز لحاكم المدينة تريمالخيو فسوف يأتى الآن. لقد قرأ لبتينوس فى وجه خادمته أنها عنيدة وليست سهلة القياد، ولن تكون فى يوم من الأيام خادمة أمينة. إنها انصرفت

الآن دون أذنى وهذا غير مسموح به للعبيد إن على العبد أن ينتظر حتى يأمره سيده بالانصراف، ولكنها انصرفت دون أن آذن لها. إن سرير تريمالخيوليس حجة لها حتى تتركنى هكذا وتتصرف. صاح لبتينوس خلفها قائلا بالمناسبة من الآن فصاعدا عليك أن تقولى على الوالى جايوس ولا تقولى تريمالخيوس فهذا يجعل بينى وبينك فرق فى المعاملة. كما عليك أن تحضرى لى لفة الورق من المكتبة تلك التى كنت قد استعرتها كى أنقل ما بها. لقد قرر لبتينوس أن يذهب إلى المحكمة كى يحضر محاكمة الثوار حيث إن كل من كان يرغب فى أن يكون له اسم ومكانة اجتماعية عالية كان عليه أن يذهب إلى المحكمة كى يحتك بالرومان ويتملقهم. أما الآن فقد أدركت تاليا مدى الخطر العظيم الذى كاد أن يحدث بها ليلة البارحة هكذا، عند اندلاع ثورة الكبش لقد كان شيئًا قذرا من سيماخوس المصرى الذى لم يعرض أن يرافقها إلى منزلها بالليل وتركها تمشى فى ظلمة الليل بمفردها، ربما يكون قد رأى عقدها وما كان به من عليقة غير مسيحية ولكن تاليا لا تستطيع أن تلقى اللوم على زوجته بربوتيا فهى امرأة ولا تملك من نفسها شيئا. أما إذا نظرنا إلى مبنى محكمة الإسكندرية فقد بناه الإمبراطور تراجان على الطراز البازليكى أى أن المحكمة كانت رومانية ولكن السكندريين كانوا يعتبرونها مصرية ويطلقون عليها لقب " حورس إمام القرون". فى المحكمة وقف

المتهمون المصريون بجوار الحائط ووقف أمامهم جندى حراسة روماني وحيد وراح يهدد من يتحرك منهم برمحه القصير.

أما المحكمة فكانت تحكم باسم حورس ورع وسوف ينزل هذان الإلهان أشد العقوبة بمن هو مذنب من المصريين ، لهذا كان المذنبون المصريون يرتعشون خشية هذين الإلهين. أما المذنبون من اليهود واليونانيين فكانوا يرتعشون من شدة البرودة فى صالة المحاكمة. أما المذنب الوحيد الذى كان وسط المذنبين جميعا مطمئن وينتظر بلا مبالاة وكأنه لا يخشى شيئًا ولا يخشى أحدًا فهو الخطيب اليونانى الذى كان يسب الرومان فى خطبه لقد قبض عليه قبل ذلك خمس مرات وفى كل مرة كان يخرج من المحكمة دون عقاب. ثم جاء قاضى القضاة إلى المحكمة بعد أن ترك الجمهور والمذنبين ينتظرونه عنوة حتى يشعرون بمدى أهميته ثم دلج المحكمة متبخترا فى ثوبه اليونانى الموشى بالذهب وأمامه مساعدوه الذين كانوا يحملون عصيهم حتى وصل إلى منصة القضاء. عند ذلك اقتاد أربعة جنود رومان شخصا مصريا ذا جبة طويلة أمام تريمالخيو الذى كان يرتدى عباءة رومانية بيضاء ذات ألوان بنفسجية جميلة وبهية.

وراح الجمهور الرومانى يتهامس متحدثا عن تريمالخيو وجمال ثوبه قائلين إن هذا الثوب لا يستطيع أن يرتديه أحد أعضاء السناتو بروما. كما راحت تهمس إحدى النبيلات الروميات بقولها أنها كانت

تود زيارة معبد إيزيس فى فيلة ولكن زوج أختها وهو حاكم مصر قد عزمها على حضور هذه المحاكمة فاضطرت إلى تأجيل رحلتها إلى معبد الآلهة إيزيس النبيلة. أما الصف الأول من الجالسين فكان يجلس به نائب الملك المدعو فاليريوس بوبليكولا وقد اضجع بكرسيه إلى الخلف حتى استطاع أن يهمس إلى زوجة أخيه قائلا " إن تريمالخيو لا يفعل شيئًا إلا ويريد من ورائه نفعا، إنه فى وقت قصير بالإسكندرية قد أصبح له مريدون وأتباع. إنه يعرف من أين تؤكل الكتف. كما أن نائب الملك نفسه فليريوس قد ترقى فى وقت قياسى وقصير أيضًا. إن بوبليوكولا قد جلس وراح يعبث بذقنه المزدوج ويفكر قائلا إن شخصا مثل تريمالخيو قد جاء إلى هذا المنصب فقط عن طريق واسطة كبيرة. إننى كنت أود أن يتولى هذا المنصب شخص يونانى ولكن الإمبراطور تراجان قد فاجأ الجميع بإرسال هذا الشخص. كل هذا كان يعتمل فى رأسى بينما لا تتدلى عينيه عن تريمالخيو. ثم تساءل مع نفسه قائلا ياترى من واسطة هذا الرجل؟ ثم قطع عليه حبل أفكاره صوت أفرانيا أخت زوجته التى راحت تتأمل الحضور وهى تقول له هل تعتقد أنهم مهمون؟ هل يستحقون أن أتعرف عليهم؟ عندئذ انحنى العبد الواقف بجوارها ووضع فمه فى أذن السيدة الرومانية أفرانيا وقال لها إن الذى يستحق أن تتعرفين عليه فى هذا المجتمع هو فقط لانستا وهو مدير مدرسة

المصارعين الإمبراطورية، حيث أنه فى الفراش أقــوى مــن فيــل أفريقى، هل أقوم بإحضاره إليك؟ ثم أردف العبد قائلا لأفرانيــا بــل إننى أستطيع أن أجد لك أحد المصارعين الذى لديه إحساس ورقــة، فقط قولى لى كيف يكون شكله ومواصفاته. عندئذ نظرت أفرانيا إلى العبد الصغير الذى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما وقبلته وقالت له : إنك فتى شقى تفهم ما أريد يا كاى. أما بوبليكولا فلــم يهــتم بالعبــد الصغير كاى وما قاله وضحك ساخرا من أخت زوجته المتوفاة وقال لنفسه إن أفرانيا لا تهتم بشىء آخر سوى الرجال دون أن تفكر فــى أى فرد أو مجتمع موجود بجوارها. وقال لنفسه : إنه منذ فترة ليست ببعيدة كنت طرازها المفضل من بين كثيرين من رجالها. ثم قال لها بصوت مسموع إذا أردت أية مساعدة أو حملــت مــن شــخص لا ترغبين فى أن تلدى له طفلا فعليك بالذهاب إلى لبتينوس فهو طبيــب ماهر كما سمعت. ثم أن بوبليكولا قد أشار لها بأصبعه علــى شــاب يونانى وسيم وقال لها إنه سهل المنال وجميل. أجابت أفرانيا إنه بحق يخطف أبصار النساء كلهن. وراحت أفرانيا تتأمل الــشاب اليونــانى وهى تجذب فى خصلات شعرها وتقول : إننــى لا بــد وأن أغيــر مصففة شعرى. ولم يرد عليها نائب الملك ونظر إليهــا ولاحــظ أن عينيها مازالتا متعلقتين بالشاب الذى رأته كما لاحظ أن الفجوة التــى كانت أسفل أنفها الجميلة القصيرة مع شفتها السفلى قد بدتا فى وضع

انقضاض وكأنها تفكر الآن فى عمل شيء شبه مستحيل. وأدرك نائب الملك ما يدور برأسها من أفكار فلمس يدها بأصبعه الصغير وقال لها انسيه يا أفرانيا. أما العبد الصغير كاى فقال لها بصوته الطفولى المرتفع وأنا يا أفرانيا تستطيعين أن تأخذينى أيضًا فإننا نحن الرجال المصريين مشهورون بذلك!! عندئذ قال لها بوبليكولا انظرى هناك وبهذا يكون قد جذبها من أفكارها فى الرجال وذكرياتها معهم وفى ذات الوقت زجر العبد كاى كى يصمت الآن. ثم راح تريمالخيو على منصة القضاء يقاضى المتهمين حيث قام بنفسه باتهامهم وقراءة ما يكال ضدهم من اتهامات ثم يحكم عليهم أيضًا.. فى أثناء ذلك كان كبير القضاة يقوم بقطع خيط صغير من عباءته وذلك بحركة لا إرادية حيث أنه كان ينطق بالحكم أيضًا. قال القاضى فى حكمه" إن أى ثورة ضد الإمبراطورية الرومانية لهى جريمة كبرى توجب العقاب أما قادة هذه الثورة فإنهم سوف يعدمون أما من هم دونهم فسوف يجلدون ويسجنون. وليس لأحد حق الاعتراض على هذه الأحكام. وقد نفذت الأحكام فى الحال بمجرد النطق بها. دُهشت أفرانيا ونظرت إلى لوخياس بجوارها متسائلة ألا يمكن تأجيل تنفيذ هذه الأحكام؟ هز بوبليكولا رأسه بالنفى قائلا لا يمكن تأجيلها فى حالة الثورة ضد الإمبراطورية الرومانية. فقالت أفرانيا: بدهشة عظيم! ثم اتكأت إلى الخلف وهى تفكر. ثم نزل الجنود من

منصة القاضى وراحوا يفرقون بين المتهمين ويفصلون من حكم عليه بالإعدام لتنفيذ الأحكام. وأخذ شخص ينادى أسماء قواد الثورة. وكان من الذين حكم عليهم بالإعدام الخطيب اليونانى أوتوليكوس والذى كان يسب الرومان فى خطبه، الكاهن اليهودى الأسود كذلك وكاهن الإله خنوم المصرى. ثم جلس تريمالخيو بعد أن نطق بأحكامه هذه وهو لا يعبأ باعتراضات المصريين واليهود من خلفه. هز نائب الملك رأسه قائلا إن هذا لشيء جميل. دع هذا القاضى الجديد يفعل كثيرًا من الأخطاء ويثير حنق الناس من حوله حتى يعجل الإمبراطور بطرده من هنا. لقد نصب الجنود فلكة فى وسط القاعة وقام الجنود بأيدى مدربة بتثبيت المتهم اليونانى الأول وربط رجليه بإحكام وأنهالوا على أقدامه ضربا بالعصى المصنوعة من جريد النخل والرجل يصرخ ويصيح. أما بوبليكولا فقد ضحك شامتا وهو يقول إن اليونانيين الذين ولدوا بالإسكندرية جميعم بطبعهم متمردون ولئام إنه لا يحبهم بل يفضل المصريين عليهم، حيث أن المصريين يقبلون ما كان يلقيه الرومان لهم. وصاح جايوس هؤلاء اليونانيون الملاعين . عندئذ صاحت أفرانيا وهى تنظر إلى الطبيب اليونانى وتقول لا ليس اليونانيون جميعم ملاعين. وراحت أفرانيا تقول لنفسها ما أجمل ذراعيه القويتين!!، إن ذراعيه القويتين أجمل من ذراعى رجل المساج فى روما. ومن بين صرخات المصريين الذين

يُضربون الآن بكرابيج مصنوعة من جلد فرس النهر تتسرب إلى مخيلتها أحلام جميلة مع هذا الطبيب اليونانى الرياضى.

ثم جاء الدور على اليهود الذين كانوا يشبهون اليونانيين إلا أن بعضًا منهم كان يرتدى رداء أسود طويلا وكان شعر سوالفهم طويلا. عندئذ نهض رجل منهم وقال بصوت متهدج وقد تدلت لحيته البيضاء حتى صدره " أيها الوالى تريمالخيو إننى أرجو عدالتكم ألا يعاقب إخوتى بالكرباج ويكفى أن تعاقبوهم فقط بالعصى".

رفع تريمالخيو حاجبيه إلى أعلى متعجبا . عندئذ بادره الرجل العجوز بقوله إننى أقصد بإخوتى هنا اليهود لأننا نحن اليهود لنا مجلس شورى منفصل عن مجلس شورى المسيحيين. عندئذ تعجب تريمالخيو قائلا إن من بين هؤلاء المتهمين مسيحيين أيضًا . لقد كان يعتقد دوما أن المسيحيين هم مجموعة مارقة من اليهود. ونظر ترمالخيو فى الجمع الذى أمامه من المتهمين فلم يستطع تمييز المسيحيين منهم. ثم قال بلهجة حاسمة " إن القانون الرومانى لا يفرق بين يهودى ومسيحى ولا بين مسن وشاب جميعم سوف يعاقبون بالسياط ولا نقاش". وهمست أفرانيا فى أذن زوج أختها المتوفاة بقولها إن هذا حسن. ثم أردفت بقولها إن هؤلاء المسيحيين لأقذر من وقعت عليه عينى وهم لئام وخبثاء، أنظر كيف أنهم يتملقون الإمبراطور ويقومون بتقديس تمثاله النصفى وواقعهم يقول خلاف

ذلك تماما. انظر كيف أنهم اخترقوا العائلات الرومانية وأقنعوا كثيرًا منها أن يصبحوا مسيحيين، بل إنهم أقنعوا أحد أعضاء السناتو لأن يصبح مسيحيا أيضًا. كما أن فضيحة الغلال هذه! رغم أنهم لا يملكون حق المواطنة الرومانية فإنهم حصلوا على كثير من الغلال بطرق ملتوية إننى أتساءل من الذى ساعدهم فى الحصول على هذه الغلال كلها ربما يكون هذا السناتور المسيحى فى البرلمان الرومانى. مد بوليكولا رجليه إلى الأمام وقال إن تاكيتوس القنصل الرومانى فى آسيا قد كتب لى خطابا وذكر فيه أن المسيحيين هناك مكروهون جدا وأنهم يقومون بكثير من الأعمال القذرة والتخريبية، ولكن للأسف الشديد فإن تراجان الإمبراطور لا يرى فيهم خطرا على الإطلاق. وزفرت أفرانيا قائلة إننى أتمنى لو عرفت من يقف خلف هؤلاء الأوغاد. فى تلك اللحظة راح بوبليكولا يتأمل أفرانيا الجالسة بجواره، تلك المرأة التى كانت فى يوم من الأيام أكثر نساء روما إثارة وجمالا. إنه لم يكن يطمح فى أن يفكر فيها مجرد تفكير. والآن فهى متاع مباح للجميع. يا إلهى إن مناظر المحاكمة هذه مقززة ومزعجة والمقاعد غير مريحة. ولكن أفكاره تعود مرة أخرى إلى هذا الرجل الذى أرسله الرومان إلى الإسكندرية. إن وجوده هنا يقلقنى. سمع بوبليكولا صوت أفرانيا الآمر وهى تقول له هيا فلتذهب من هنا. وبمجرد أن همت واقفة حتى حمل كاى العبد الصغير الشمسية وراح

يمشى خلفها فاردا إياها حماية لها من الشمس. مشى نائب الملك خلف أفرانيا بأرجل ثقيلة بينما ظل جمهور الرومان جالسين كى يشاهدوا مناظر إعدام المذنبين. انتهزت أفرانيا الفرصة عندما رأت الطبيب اليونانى واتجهت إليه واقفة بجواره وهمست فى أذنه قائلة إننى سمعت أنك لبتينوس الطبيب اليونانى الذى يعالج مرضى الرومان أليس كذلك؟ فانحنى لبتينوس أمامها موافقا وقال لها وأنا قد سمعت بأنك سيدة جميلة وأن اسمك أفرانيا أجريكولا. أجابت أفرانيا إن هذه المدينة ليست بالمدينة القاحلة السيئة كما أخبرنى بعضهم. قال لبتينوس عندما تأتى روما إلينا فإن الإسكندرية تزداد حسنا وجمالا وهو يقصد بذلك أفرانيا. ثم دوى صوت تريمالخيو قاضى القضاة فى القاعة وهو يقول " لا بد لنا من إعدام كثيرين من هذه النفايات حتى نستطيع تطهير مدينة الإسكندرية وتنظيفها من هذه القاذورات".

عند ذلك سمع جميعهم صوتا يأتى من أعلى قائلا" ولكن لا تنسَ ياتريمالخيو أن هؤلاء جميعا ليسوا بمرتشين وأنت لست بهرقل، إنك لست بشىء أكثر من جندى يحاول أن يمتطى جوادا رومانيا. إن عليك أن تنتبه حتى لا تصبح أنت نفسك حمارا مصريا".

هز جميع الحضور من الرومان رؤوسهم عند سماعهم هذا. ولم يجب تريمالخيو على هذا الصوت سوى بالتجاهل والصمت. أما بوبليكولا فنظر إلى مصدر الصوت إلى أعلى ورد عليه قائلا " كلا يا

أوتوليكوس إنه يجلس بالفعل فوق الحصان الذى سقطت أنــت منــه على الأرض، إن مدينة الإسكندرية ستكون أفضل بكثيــر إذا أنــت خرجت منها". إنه الخطيب اليونانى أوتوليكوس الذى بصق بكل قــوة تجاه بوبليكولا ولكن الجندى صد هذه البصقة حتى لا تصيب نائــب الملك. شد الجنود على قيود الخطيب حتى كادت الحبال تقطع معصم يديه وسالت الدماء من أصبع رجله الكبير الذى انسلخ حتــى وصــل إلى أعلى قدمه، ولم يستطع الخطيب الحديث من شدة الإرهاق وجلس تريمالخيو وهو عاقد ذراعيه على صدره يتابع تنفيذ الأحكام وتابعــت عيناه المتهم الأسود الذى يتم إعدامه فى هذه اللحظة ثم تلاه الكــاهن المصرى فى الدور. لقد حزن اليهود على موتاهم فى صــمت بينمــا صاح شاب مصرى قائلا إنه لم يمت بل إنه شهيد .إن روحه انتقلــت الآن إلى عالم الأبدية فى الغرب. أفرانيا نظرت إلى الكاهن المصرى المعلق فى المشنقة والدماء تسيل نازلة من أعلى حتى رجليه. عندئــذ احتضنها تريمالخيو حتى يدارى عينيها من رؤية هذا المنظر المؤلم. ثم نظر تريمالخيو إلى الحضور وقال لهم والآن أيها السادة إننى أود أن أعزمكم جميعا على شرف الإمبراطور الرومانى على وجبة طعام دسمة تتكون من ضرع الخنزير والطيور الشهية. والخبز قد أرســل جميعها خصيصا من روما ثم نظر إلى نائب الملك الــذى لــم يبــد اعتراضا على هذه الوليمة. اســتطرد تريمــالخيو قــائلا إن أختــى

كوميليا ترتيا تحب العادات الرومانية بصورة هائلة وابتسم وهو يغمز بطرف عينه، ثم أردف بقوله أما الطبيب لبتينوس فسوف يخبركم بنفسه عن مدى فائدة النبيذ الكولونى الذى سوف يحرسه هو شخصيا. وذلك حتى لا يحاول أحد مرة أخرى أن يدس السم به ويعرض الحق الرومانى للخطر. فسألت أفرانيا قائلة " أيها الوالى أرجو أن تخبرنى شيئًا ما عن هذه الجزئية. قال بوليكولا نعم إن حادثة تسمم شخص ما مثيرة جدا. فأجاب تريمالخيو نعم إنها مثيرة مثل الشخصية اليونانية. ثم راح يقبل أصابعه بينما راح شخص ما يهز المحفة التى يجلس عليها كى يأرجحه. بينما تتأرجح المحفة التى كان تريمالخيو يجلس عليها أخذت أفكاره تتقافز فى رأسه إنه رأى كل مكان يدور فى صالة المحاكمة بين الشخصيتين الروميتين والطبيب اليونانى. إن ذلك لشىء رائع أن يكون نائب ملك مصر فى ضيافته. ثم أخذ يقول لنفسه إن القطة قد اصطادت الفأر بينما القط العجوز يحوم حولها. ثم أطلق ضحكة ساخرة مدوية. بينما تابعته بنظراتها أعين نساء روميات كثيرات هن زوجات الجنود والتجار الرومان وأتباعهم ممن يقيمون بالإسكندرية. لقد اجتمعوا وراحوا يجدون متعتهم فى النظر إلى آخر محكوم عليه بالإعدام عندما يلفظ آخر أنفاسه. كر تريمالخيو عائدا لصالة المحكمة ونظرات الجمهور الرومانى تلاحقه ولكنه لم يهتم بأحد منهم ، ومرق أمامهم متجاهلا إياهم.

الفصل الرابع

مركز الأبحاث

عندما ذهبت تاليا إلى مركز الأبحاث بالتحديد إلى مكتبته أخــذت تنظر إلى اليافطات المعلقة ، حيث كانت جميعها مكتوبــة باللغــات اليونانية واللاتينية والديموطيقية المصرية التى لم تكن تعرفها. ثم إن تاليا أخذت تضحك عندما طلب منها لبتينوس أن تحــضر لــه لفــة البردى الخاصة بسورانو كى ينسخها وهو لا يدرى أنها قد حفظــت الكتب الستة جميعها التى كان الأستاذ سورانو قد كتبها. ثم كفت تاليا عن ضحكها عندما سمعت صوت صادم يقول لها "أرجو أن تحفظــى للمكان حرمته".

لقد كان المبنى كبيرا ضخما يشبه أبراج الحمام بمدينة الإسكندرية وعندما دخلت المكان توقف جميع من كانوا به عن الحركــة وعــن العمل ولما نظرت وجدت أن الأنظار جميعها مصوبة نحوها. كمــا وقف بجانبها رجل مسن يرتدى عباءة خاصة. قد راح ينظــر إليهــا بازدراء من أعلى لحيته المستديرة . إنه الشخص نفسه الذى صــاح بها أن تراعى حرمة المكان. فبادرته تاليا بحدة قائلة ولمــاذا يعلــو

صوتك المزعج هكذا وكأنك سيناتور بصوته الجمهورى المدوي؟ ثم أردفت تاليا قائلة " ثم إنه ليس من حقك أن تنظر إلى كل خادم أو خادمة على أنه صفر لا يستطيع شيئًا أكثر من الذهاب إلى الحقل للحصول على طعامه". فارتجف الرجل وأظهر غضبه من رد تاليا وقبل أن ينطق بأى رد راحت الأيادى تصفق ربما إعجابا بتعليق تاليا وربما طلبا للهدوء أيضًا. ثم وقف شاب بشعر أحمر وقال أنت أيها المعلم لا يمكنك محاكاة هوميروس وهوراس مرة واحدة فى زماننا هذا يا سيد باتانوس. فأجاب المعلم المسن إن تلك الأزمان لعجيبة حقا حيث نرى العبيد القادمين من قلقيلية يستشهدون بأشعار هوميروس تمامًا مثل الرياضيين الجهال الذين يريدون أن يكونوا أعضاء فى مدرسة الفلسفة. ثم راح المعلم يصعد السلم تاركا المكان ولكنه فى منتصف السلم التفت إلى الخلف وقال " ويا للعجب من رعاع الرومان القادمين من منطقة ليبرتونورم بروما حيث يرسلون بأبنائهم ليتعلموا اليونانية كى يصيروا بشرا متحضرين" . يا أيتها الآلهة النجدة لكم انحدرنا إلى الحضيض وأصبحنا أضحوكة". عند ذلك التف أصدقاء الشاب الأحمر حوله وراحو يأتون بحركات ساخرة مضحكة وذلك سخرية من المعلم العجوز.

لم يكن الشباب أكبر منها بكثير فى العمر وكان معهم نقود وكانوا أحرارا فلم يهمهم شيء واستمروا جميعا فى ضحكاتهم

وسخريتهم من المعلم العجوز حتى أن تاليا ضحكت معهم. ولما لـم يبدِ العجوز بادرة أخرى للرد على الفتيان خرجوا من الـصالة وهـم يتصايحون ويمرحون. أما تاليا فقد ألقت نظرة خلف المعلـم المـسن فرأته وهو يرفع عباءته السوداء التى تعرفها فهى عبـاءة الفلاسـفة حتى ظهرت أسفل منها رجلاه التى كانت سوداء من غزارة شـعرها أيضًا وكذلك كانت أفكاره سوداء أيضًا، بل إن شـكله مـن الخلـف يوحى بأنه غير سعيد . هكذا فكرت تاليا، ثم راحت تاليا تبحث عـن الأرشيف الخاص بلفائف البردى المنشودة وراحت تاليا تحدق فى تلك اللفائف بحذر، وتقول يا إلهى مئات وآلاف من لفائف البردى المليئـة بالعلوم من الذى سوف يتعلم كل هذا. إن لفائف البردى مليئة بالأتربة ولها رائحة مميزة وهى رائحة البردى وتسمع صوتًا وكأن شخصا ما يرتبها ويرصها فى أدراجها وأرففها بالقطع هو رجل الأرشيف الذى يقوم بهذا. إن هذه البردية معلق عليها يافطة صغيرة مؤرخة بالعـام الأول من فتح الإسكندر للمدينة، ثم عطست تاليا بقوة وذلك من كثرة الأتربة والرائحة القوية المنبعثة من لفائف البردى. ثم حانـت منهـا التفاتة فرأت الرجل العجوز يقف فوق سلم وسط أرفف الكتب ووجهه ينضح بالألم بعد أن كاد يقع من فوق السلم. تقدمت تاليا نحوه مسرعة كى تساعده وقالت له " إن السلالم المكسرة تطيل أعمار البشر" لقـد أرادت أن ترفع من روحه المعنوية. فنظر إلى أسفل الـسلم ورآهـا

فوضع يده على موضع الألم فى رجله وقال لها " دعيك مـن هـذه الأقوال التى لا تفهمينها إنها أقوال الكبار التى يتعلمونها مع التقدم فى العمر. فردت عليه تاليا قائلة إن هذه أقوالك يا سيد بانتانوس، إننـى أعرف أن الفلاسفة اليونان يهتمون أكثر بمعانى الكلمـات ومغزاهـا وليس بحكمة كبار السن التى تأتى فقط مع التقدم فى العمـر، عندئـذ نظر إليها الرجل وقال لها أنت أيتها القلقيلية الوقحة ماذا تريدين منى ماذا تفعلين هنا؟ فقالت تاليا له أنا لا أريد أن أزعجك أو أضايقك ثـم وضعت تحت السلم كرسى كى يستطيع الرجل النـزول عليـه دون عناء. حتى نزل الرجل ووقف على الأرض ونظر إلى أسفل حيـث رجله تنزف دما. عندئذ انحنت تاليا إلى أسفل تتفحص موضع جرحه وقالت له أيها السيد المبجل بانتانوس إنه جـرح سـطحى بـسيط لا يدعوك للقلق. فرد الرجل بقوله إننى حر أقلق أو لا فهذا ليس بشأنك أما أنت فماذا تفعلين هنا؟ قالت تاليا لنفسها إن كل شىء يضيع هبـاء إننى استسلم الآن رغم أن أباها قد دربها على الحوارات مع المثقفين والمتعلمين. أما أمها فكانت ذات رأى آخر حيث كانـت تقـول: إن الرجال لا يحبون المرأة المثقفة الواعيـة التـى لهـا رأى إلا فـى الاجتماعيات للمباهاة فقط. أما إذا كانت المرأة خادمة فـإن تعليمهـا وتثقيفها يعتبر وقاحة وخدشًا للطبقة الأرستقراطية. قالت تاليا للرجـل "إننى أريد فقط أن أحصل على لفة بردى خاصة بالطبيب لبتينوس ".

قال الرجل مغتاظا إذن فـــاتبعيني وراح يعرج متجهـــا إلـــى مكـــان البردية وتاليا تمشي خلفه تتأمل رقبته من الخلف التى بدت لها مثـــل عنق الدب الثائر. وبينما هى تسير خلفه استدار الرجـــل فجـــأة إلـــى الخلف حتى اصطدمت به تاليا ، ثم غرس أصبعه فى صدرها وهـــو يقود به فى عظام صدرها قائلا لها " ثم قولى لى من أين لك وأنـــت عبدة كل هذه اللغات والمعارف التى لا يـــستطيع تحـــصيلها طلبـــة المركز الذين يدرسون لدينا هنا"؟ ثم جذب كرسيا وجلس عليه منتظرا أن ترد عليه تاليا بالإجابة. فى الواقع لم تود تاليا أن تخبره بكل شيء وهى غير مجبرة على ذلك، ولكنها أخبرته عن حادثة الإغارة الليلية التى قتل فيها أبوها. وحادثة اختطافها وبيعها فى سوق الرقيـــق ثـــم أنهت تاليا حديثها وهى تقول له والآن فأنا هنا لكى أحصل على لفـــة البردى الخاصة بلبتينوس. فأجاب بانتانوس متأثرا بقوله " نعـــم والآن فأنت هنا" ثم قال أشكرك على ثقتك فى وأعتذر على أســـلوبى الفـــظ معك لأننى أضيق ذرعا بالطلبة الرومان وكذلك الجنـــود الرومـــان الجهلة. فوافقته تاليا قائلة إننى أفهم ذلك فى كثير من الأحيان لكثـــرة الظلم وانعدام العدل أشك فى وجود آى آلهة حتى وإن وجـــدت فـــأى دور تقوم به تلك الآلهة؟. رفع الرجل المسن حاجبيه إلى أعلى وهـــو يقول لها ممازحا إن الشك مرتبط دائما بالشباب الصغار ثم هم الرجل يبحث عن بردية لبتينوس، ونظر فى الحروف الأبجدية حتى وصـــل

إلى حرف "ل". عندئذ راح يبحث عن لبتينوس ثم سألته ثانيـــة عـــن عدم وجود الآلهة لاختفاء العدل على الأرض. ولما لـــم تجـــد عنـــده إجابة راحت تسأل عن جزء من مدينة تم تحريرها حديثا فى روما ثم اتجه بنتانوس نحو تاليا وبيده لفة البردى وهو يقول نعم إن هناك حى قد تم تحريره حديثا فى روما لماذا تسألين؟ قالـــت فقـــط نـــوع مـــن الفضول. ثم لفت تاليا ورقة البردى الطويلة. عندئذ قال بنتـــانوس إن هذا لهو الكتاب الثامن من مؤلفات سورانو وهو عن أوضاع الجنين. قالت تاليا هل هو مهم؟ نظر إليها بنتانوس متسائلا؟ ثم أردف قـــائلا من يستطيع فهم هذا الكتاب فإنه سوف ينقذ كل امرأة تلد حتـــى وإن كانت فى طريقها إلى الموت. ثم قال الفيلسوف للأســـف الـــشديد إن هناك كثيرًا من النساء الصغيرات اللاتى يجلبن المشاكل اسألينى لقـــد كنت متزوجا لفترة طويلة وأعرف ذلك. قالت تاليا إنك هكذا تغضبنى لأننى امرأة أيضًا! فنظر إليها بنتانوس وقال لا لست بامرأة إن العبيد فى القانون الرومانى ليسوا بآدميين بل هم أشياء مثل الحيوانات. كما أنك تعرفين أن الرومان لا يتعاملون مع البشر حسب قدراتهم العقلية ومعارفهم. إن تلك المعارف تساعدك أنت وتجلب لك السعادة وتيسر لك أعمالك ولكنها لا تستطيع تحريرك من العبودية لـــدى الرومـــان. رغم أن الفلسفة تقول: إن العلم والمعرفة هما السبيل إلـــى الحريـــة. هزت تاليا رأسها متفقة معه فى الرأى وهى تبلع ريقها أو ربما كـــى

تبلغ الحقيقة المرة التى تعيشها الآن. ثم أردف بنتانوس قائلا لتاليـــا: إنك فى دولة عسكرية يحكمها العسكر الأغبياء فكيف تبحثين عن فكر وعقل مع العسكر. ثم قال إنك لا بد وأن تشترى حريتك تمامًـــا كمـــا يشترى كثيرون علم الآخرين. قاطعته تاليا بقولها كم سيكلف أن ينسخ أحد ما كتاب مثل هذا؟ هز بنتانوس رأسه وهو ويقول لها أنك لـــست فى حاجة لأن تنسخى هذا الكتاب أنك تستطيعين اســـتعارته فـــى أى وقت ولكنها ألحت فى طلبها فوافقها الرأى على أن تنسخ الكتاب وهو يقول لها ولكن لا تخبرى لبتينوس أنك تدرسين الطب أو تتعلمينه فإن ذلك يعرضك للمخاطر. هزت تاليا رأسها بالموافقة قائلة ربما يعرف هو أن الحرية تأتى بالعلم والمعرفة أيضًا ولربما يحاول أن يعفينـــى أن أتعلم المزيد. أجاب بنتانوس قائلا إن هذا محتمل ثم ســـألها هـــل حاولت قبل ذلك الهروب منه؟ قالت تاليا ما ذا تقصد؟ قال لها ربمـــا يشعر لبتينوس أن طموحاتك كبيرة لهذا فإنه يشدد عليك الرقابة حتى لا تهربى منه ولربما تكونين قد حاولت ذلك من قبل. قالت له تاليا إن ذلك غير جميل منك أن تفكر فىّ هكذا يابنتانوس فأنـــا لـــم أحـــاول الهرب قبل ذلك ولكننى ربما سأفعل فى المستقبل. فكر بنتانوس فـــى نفسه وقال إن هذه الفتاة صادقة وسوف تحقق ما تقـــول. إن ســـيدها يتركها هكذا دون أن يشدد عليها الرقابة والحراسة إنـــه لا بـــد وأن تكون لديه الثقة فى أخلاقها كبشر. قال بنتانوس لتاليا: سوف أريـــك

الكتب الطبية كلها الموجودة مكتبة الإسكندرية، ولكن أرجو أن تعـودى إلـىّ مرة أخرى. أخذت لفائف البردى وخرجت مسرعة لحظات وسـوف يحل الظلام على مدينة الإسكندرية إنه بالفعل وقت متأخر على علاج تريمالخيو وراحت تجرى حتى تصل العيادة قبل حلول الظـلام. ثـم فكرت قائلة إن لبتينوس ربما سيعاقبنى الآن بتجويعى فترة أخرى. إن معدتها تؤلمها الآن من شدة الجوع. عندما وصلت أمام العيادة كانـت الدنيا قد أظلمت وراحت الوطاويط تطير فى كـل اتجـاه وسـمعت صوت الناى الرفيع خارجا من العيادة مما أعطاها الأمل بأن هنـاك مرضى فى العيادة وأمام المرضى لايجرؤ ليبتينوس علـى عقابهـا. تسللت تاليا داخلة العيادة على ضوء اللمبات الجاز الخافت وذلك من الجزء الخلفى منها وهو مكان مخصص لنومها. عندئذ رآها تيل بتاح فصاح قائلا سيدى: إن العبدة قد وصلت أخيرا. وبدون أن تدرى تاليا كشرت فى وجه تيل بتاح الذى وشى بها عند لبتينوس. عند ذلك قال لبتينوس لتيل بتاح آمرا أحضرها هنا! ثم جاء صوت قاضى القـضاة الذى كان مسترخيا فوق سرير يستريح عليه من عناء العلاج وهـو يتناول النبيذ مع بعض المـأكولات الخفيفـة قـائلا: إننـى أرى أن المسيحية ديانة حقيرة وأن المسيحيين أنذال ولا قيمة لهم كما أن هناك كثيرين من أعضاء السناتو بروما يشاركوننى الـرأى يـالبتينوس ألا تتفق معى فى الرأى أيضًا؟ عندئذ ضرب تيل بتاح تاليا ضربة قويـة

قذفت بها وهى تترنح أمام المنضدة التى كان تريمالخيو يتناول عليها الطعام. إن المنضدة كان فوقها قطع من الجبن وزيتون موضوع فوق أوراق العنب، وبلح وقطع من البنجر الموضوع فى خل، وكركديه وأسماك مقلية. ورغم آلام الضربة فإنها وقفت أمام منضدة الطعام ولم تستطع عيناها أن تبرحها.

رفع قاضى القضاة عينيه وتفحص تاليا التى كانت تلهث من شدة الجرى ثم ما لاقته من تيل بتاح ، فاشتم القاضى رائحة جسدها الصغير الذى ينضح بالعرق ثم تأمل صدرها الذى يعلو ويهبط ثم نزلت عينيه إلى رجليها العاريتين ومد يده المرتعشة إلى الأمام واعتقدت تاليا أنه سيمسك رجلها ولكنه فى اللحظة الأخيرة حول مسار يده إلى مائدة الطعام. ثم صاح القاضى إننى أعتبر هذه المرأة من أعداء الإمبراطورية الرومانية إننى لن أتسامح معها إنها مسيحية نعم لقد رأيتها ذات مرة تخرج من بيت من بيوت المسيحيين وذلك فى ليلة أن اندلعت الثورة. إن تراجان مخدوع فى هؤلاء المسيحيين إنه يمد لهم يد الحماية لكننى لن أرحمهم. ثم قاطع الوالى نفسه وقال للبتينوس أرجوك أن توقف مواء القطط هذا وأشار بأصبع السبابة الذى كان يلبس به خاتم على الرجل الذى كان يعزف على الناى. ربما كان معه حق لأن هذا العازف قد أحضره لبتينوس من الشارع ودفع له مبلغا زهيدا. ولم يكن يعرف سوى عزف الموسيقى اليونانية

والمصرية وتلك الموسيقى لا تليق بالآذان الرومانية. أشار لبتينوس على العازف أن يكف عن العزف ويخرج وهو يعض على شفتيه تحسرا على المبلغ الزهيد الذى دفعه له. ثم قالت تاليا: تريد أن تسأل لبتينوس شيئًا سيدي؟ عند ذلك صاح تريمالخيو مقاطعا وهو يضع طبق الطعام على المائدة. هذا ما أريد أن أقوله هل ترى أن العبيد يفقدون احترامهم لساداتهم بمجرد أن يصيروا مسيحيين إنها تجرؤ وتقاطع حديثك يالبتينوس ولك أن تعلم أن المسيحيين قد سرقوا تعاليم دينهم من قوانين الديانة المطرونية التى كانت تؤمن بالإلهة كبيلة والتى توجد فى آسيا الصغرى، ورغم أنهم فعلوا هذا فإنهم يكرهون ويضطهدون من يخالفهم الديانة أو يؤمن بشيء آخر. كما أن ما يشيع له هؤلاء المسيحيون من أن المسيح قد عاد مرة أخرى للحياة كما أن دمه مقدس إن الشيء نفسه لا يعتقد به الكبيليون أيضًا ولكنهم أقل دموية وإجراما من هؤلاء المسيحيين. لقد كان الرجل مخمورا لأنه شرب النبيد دون أن يخلطه بالماء. ولم يجرؤ لبتينوس على مخالفته فى الرأى ولكن لبتينوس أشار إلى تيل بتاح الخادم وهمس فى أذنه أن يخلط له النبيذ حتى يصير طعمه غير مستساغ ثم لا يشرب الوالى منه كثيرًا لأن لبتينوس يريد أن يخرج الرجل من بيته على رجليه وليس محمولا على الأعناق. ثم قال لبتينوس للقاضى إن هذه الخادمة قد لعبت بحياتها إننى سوف أعطيها لك وعليك أن تفعل بها ما تريد

بإمكانك أن تعدمها على أنها كانت من الثوار ضد الإمبراطورية أو أن تبحث لها عن تهمة أخرى فهى لك ولا تهمنى فى شىء. أنتاب تاليا الفزع من حديث الرجلين فصاحت مدافعة عن نفسها وقالت أننى لست بمسيحية. فصاح بها لبتينوس: اخرسى!! ثم نظر والى المدينة إلى لبتينوس وقال له متسائلا أتعتقد أنها تصلح لأن تكون فتاة لرجل حتى ولو لفترة قصيرة؟ هل سيجد الرجل معها متعة حتى وإن كانت متعة كتلك التى تقدمها عاهرات الدرجة الثانية فى بيوت دعارة روما الرخيصة؟ أجابه لبتينوس عليك أن تجرب. قال الرجل إننى إن جربت فسوف أفعل ذلك هنا ولا أستطيع أن آخذها معى إلى بيتى ، فإن أختى هناك وهى لا تقبل ذلك!! ثم راح يضحك. على أى حال لاحظ لبتينوس أن قاضى القضاة مهتم بخادمته. ثم قال الوالى إننى سوف أجربها فقط بالمساء عندمنا أفرغ من تدريباتى بالنادى الرياضى. بينما يتحدث الرجلان مع بعضهما بعضًا كانت تاليا تنظر إلى كل منهما وتتمنى لهما الموت والفناء. ثم انقطع حديثهما عندما سمعت أصوات فى حديقة المنزل فاضطر الوالى أن يرشف رشفة كبيرة من كأس النبيذ وتركها تتدحرج باستمتاع فى حلقه. بينما راح لبتينوس يتطلع للقادم إلى منزله كما أنه أراد فى قرارة نفسه ألا يقدم مزيدًا من النبيذ للوالى خيفة أن يحدث له تسمم من كثرة ما شرب منه. بعد لحظات قليلة كان تيل بتاح يقف أمام الباب ليعلن

سيده أن رجلا يسكن عند بوابة الشمس يسأل عن القابلة تاليا؟ ثم نظر لبتينوس إلى تاليا وهو يقول باستغراب مولدة؟ من ؟ ومنذ متى ؟ فأجابته تاليا: فى يوم الثورة قمت بمساعدة امرأة كانت تلد وخرج زوجها كى يبحث لها عن القابلة ولكنه لم يستطع العودة بسبب الثورة فولّدتها أنا وأنجبت ولدا صحيحا ومعافى.

ثم أخذ ليبتينوس يرج النبيذ فى كأسه وهو يفكر ثم قال لنفسه إن هذا النبيذ ماركة سويسرية مما تبقى من سورانو. إن النبيذ أصبح ذا لون مخضر فى الكأس. إن هذا لشىء غير مألوف. ثم قفزت أفكاره إلى شىء آخر ألا وهو أن اليهود يسكنون فى منطقة مدخل الشمس وهو ليس له مرضى كثيرون هناك، كما أن اليهود الذين يعيشون هناك يملكون كثيرًا من المال. كما أن الرومان كانوا يفضلون اليهود على المسيحيين. ثم أخذ رشفة من كأس النبيذ وراح يقلبها فى جوانب فمه مستمتعا بمذاقها ، بينما هو يرتب أفكاره فى رأسه. ثم قال ليبتينوس موجها حديثه لتاليا أنت أيتها الغبية لماذا لم تقولى للوالى أنك كنت تساعدين امرأة فى حالة ولادة. ثم أتبع قائلا: والآن اذهبى مع المرضى ، ثم أشار لتيل بتاح كى يأتى له، ثم انصرفت تاليا خارجة وهى تفكر فى نفسها لكم هو شىء بغيض أن أكون ملكا لهذا الوالى ذى الوجه الحيوانى ، وراحت خارجة وهى مبتعدة عن هذا الوالى المقزز وهو يتابعها بنظراته الوقحة. فى غرفة الطعام أخذ

تريمالخيو حبة الزيتون ووضعها فى فمه ثم بـصق بنواتهـا أسـفل المنضدة، ثم قال الوالى لقد كنت أعتقد إنها مساعدتك، فقال ليبتينـوس : هو كذلك ولكنها ذات بعض الخبرات فى مجال توليد النساء. ثـم رد الوالى قائلا ولكنها مسيحية. لقد رأيتها تخـرج مـن بيـت يـسكنه مسيحيون وبالطبع فإنها سوف تنكر ذلك كى تنجو بحياتهـا. فأجابـه ليبتينوس قائلا يمكنك أن تختبر ذلك عن طريق جواسيسك إن كانـت قد قامت بتوليد امرأة بالفعل فى هذا المنزل أم لا؟ وإذا اكتشفت إنهـا تكذب فافعل بها ما تشاء، فهى من الآن ملك لك وبالمناسبة فإنها بكر لم يمسسها بشر من قبل. فقال تريمالخيو لقد اعتقـدت ذلـك أيـضًا، وراح يضحك، ثم قال ولمّ لا ومن منا ينظر إلى فم المـرأة إننـى لا أريد التحدث معها. ثم جلس تريمالخيو مرة أخرى وفرد بشكيرا على حجره وراح يعبئ البلح الذى كان على المنضدة بداخله وهو يقول إن خادمى دائما ما يكشر فى وجهى إذا عـدت إلـى المنـزل دون أن أحضر له معى شيئًا حلوًا يأكله. وقبل أن يقف مرة أخرى كى يمشى صاح بصوت مرتفع أين حذائى؟ ثم ألقى عباءته الرومانيـة حـول رجليه عندما انحنى إلى أسفل كى يبحث عن حذائه ولكن تيل بتـاح جاء إليه مسرعا وأحضر له حذاءه من أسفل الدكة التى كان يجلـس عليها.، ثم حاول أن يلف عباءته حول جسده كما كانت، فلم يـستطع وشعر كأنه مثل الديك الذى يضرب بجناحيه فى العجين، بينمـا راح

تيل بتاح يساعده فى ارتداء عباءته، وفى النهاية ألقى بها بدون نظـــام على كتفه ودلج خارجا. نادى لبتينيوس قائلا أرجو أن تغفر لتيل بتاح عدم تمكنه من لف عباءتك جيدا، فهــو لــم يــتقن لــف العبــاءات الرومانية، فأجاب تريمالخيو وهو شبه نائم فى محفته إن أســوأ مــن العبيد هؤلاء الرومان الجدد الذين لا يستطيعون لــف هــذه العبــاءة الرومانية. عمت مساءً يالبتينوس.أجاب ليبتينوس بقوله إلى اللقاء أيها الوالى. ولم يستطع أن يخفى غيظه من كلمة تريمالخيو وراح يكــرر مع نفسه سوف نرى ياتريمالخيو إذا كنت أعــرف ارتــدى العبــاءة الرومانية أم لا ! سوف نرى.

بعد ذلك راحت تاليا تعدو فى الشورع التى لــم تكــن تعرفهــا، يؤلمها وخز الضمير، حيث أنها لم تكن قابلــة محترفــة وخبرتهــا ضعيفة جدا ولكن على أية حال أفضل لها أن تكون قابلــة علــى أن تكون ثائرة وتلقى عقوبة الإعدام ، هكذا فكرت تاليا. ثم أخذت تعلّــم الطريق حتى لا تتوه عند عودتها؛ فهذا هو برج المدينة أسفله يقــف الجنود، لا بد أن أضع ذلك فى ذاكرتى. ثم دخل الرجل فــى مــدخل بيته ومنه إلى فناء المنزل الذى كان به جاموسة، ثم سمعت صــوت صراخ وليد جديد يأتى من غرفة خلفية. دخلت تاليــا هــذه الغرفــة فوجدت الأم وهى تحتضن وليدها وهى ســعيدة وقالــت لتاليــا لقــد أحضرت معك الحظ السعيد. لقد ولدت ولدا وهو صحيح معافى، وإنه

أفضل من أخته فى المرة السابقة التى توفيت بعد ولادتها. فقالت تاليا مبدية تواضعها إن السماء بها نصف قمر وهذا هو الذى جلب لك الحظ السعيد أما أنا فلم أفعل شيئا. سعدت تاليا بهذا الحدث حيث وفر عليها عناء توليد هذه المرأة. ولكن المرأة أصرت على أن تاليا هى التى جلبت الحظ السعيد. ثم قالت المرأة إننا سوف نحتفل بميلاد الطفل بعد خمسة أيام وسوف نكون سعداء إذا شَرُفنا بحضورك؟ ونظر إليها الزوج الذى أحضرها من العيادة وهو يأمل أن تحضر هذا الحفل وقال لها أعلم أن لديك كثيرًا من المشاغل وإن لم تستطيعى الحضور فلن نكون غاضبين ولكننا سوف نكون سعداء إذا استطعت الحضور. قالت تاليا إن هذه لأسرة طيبة تحتفل بميلاد الأطفال على الطريقة اليونانية القديمة. سوف أكون سعيدة بالطبع إذا استطعت الحضور وذلك إذا لم أكن فى طريقى إلى حالة توليد أخرى. ثم أخرج الأب الزوج أربعة أس من حصالته وأعطاهم لتاليا ثم أعطاها حزمة من الورود وبذلك حصلت على أول أجر لها فى حياتها.

كرت تاليا راجعة إلى البيت وهى سعيدة تحمل الأربعة آس والورود. بينما هى عائدة فى طريق كانوب كان الليل يوغل فى الإظلام، ومنطقة كانوب لا تزال ساهرة، فهى مليئة بالحانات والمراقص وبيوت الدعارة، ووقف أمام هذه الحانات رجال يحملون المشاعل وآخرون للحراسة، كما وقف أمام هذه الحانات العبيد الذين

انتظروا أن يخرج ساداتهم من هذه الحانـــات ثـــم يحملـــونهم علـــى المحفات وهم سكارى ذاهبين بهم إلى منـــازلهم. كمـــا راح العبيـــد يملأون الشوارع يحملون المحفات منها ما هو فارغ ومنها ما يجلس السادة فوقها. بينما كانت تخرج من الجو الروائح الطيبة من البرتقال والليمون والورود. إنها ليلة جميلة بصفة خاصة لنبيلات روما اللاتى لجأن الآن فى هذا الجو البديع إلى مضاجعهن يخدمهن عبيدهن الذين اشتروهم من منطقة تراكيا.

وجه نظرها منظر العاهرات اللاتى وقفن أمام بيوت الدعارة فـــى كانوب وهن يتهافتن ويتشاجرن على الرجال الرومان عند دخـــولهم هذه البيوت. ولكن تاليا عبرت إلى الناحية الأخـــرى مـــن الـــشارع وتركت النظر إلى بيوت الدعارة وإلى العاهرات وركزت تفكيرها فى روائح الزهور الزكية. مرت الآن أمام منزل موضوع أمامه عمـــود كبير على شكل عضو ذكرى، ووضعت على باب المنزل يافطة تقول هنا تجد المتعة الحقيقية. كانت تنبعث من هذا المنزل أصوات غنـــاء بلهجة رومانية. فجأة خرجت مجموعة من الشباب من هـــذا المنـــزل وأحاطوا بتاليا وراحوا يغنون ويرقصون حولها. فـــى وســـط هـــذه الموجة التى اجتاحتها من الشباب سمعت صوتا تعرفه جيـــدا عنـــدما صاح الصوت قائلا انتظروا أيها الأصدقاء انتظروا!!! ولمـــا نظـــرت تاليا إلى مصدر الصوت اكتشفت أنه هو الشاب الذى قابلها فى مجمع

الأبحاث وتشاجر بسببها مع بنتانوس وتحدث معه عن الشاعر هوراز إنه الشاب ذو الشعر الأحمر، ثم حملها أحد الشباب على كتفه بينما راح شاب آخر يربت على كتفها. ثم طلب شاب آخر من تاليا أن تغنى لهم شيئًا عاطفيا من أشعار أوفيدا أو حتى شيئًا من الأغانى الحديثة. ثم قال آخر يارفاق فلنغن أغنية "دودة الأذن" وعمل الشباب دائرة وراحوا يتراقصون على أنغام هذه الأغنية ويقومون بعمل خطوتين للأمام ثم خطوة للخلف واندمج الشباب فى رقصهم وغنائهم حتى أن جنود الحراسة قد انتحوا جانبا بخيولهم وهم يهزون رؤوسهم مع إيقاع الأغنية. قال أحد الشباب صائحا موسى ياربة الفنون لما لم تأتِ إلينا مبكرة بعض الشيء؟ ثم أخذ يتراقص ويتمايل. أما الشاب الآخر فراح يعمل دوائر فى الهواء بأصبعه وهو يؤدى حركة راقصة. أثناء ذلك كان الشباب الآخرون يتمايلون ويأرجحون تاليا بإيقاع معين. عند ذلك أرادت تاليا أن تنزل من أعلى أكتاف الطلبة الرومان وصاحت بهم أرجوكم دعونى أنزل. ولم تنتظر طويلا حتى قفزت نازلة من على أكتافهم ، وبينما هى تقف على قدميها نظرت فى وجه الشاب ذى الشعر الأحمر الذى نظر هو الآخر فى وجهها لحظة أن تسلط على وجهها ضوء شعلة كان يحملها حامل مشاعل فرفع الفتى ذراعه وقال يارفاق أتدرون من هذه الفتاة؟ فأجاب أحد الشباب ممازحا: أبو الهول!! فقال ذو الشعر الأحمر لا بل أفضل،

فصمت الشباب جميعهم وأغلق بعضهم عينيه وهو يحاول أن يخمن من تكون هذه الفتاة؟ ثم صاح آخر قائلا إنها عاهرة ثم أبرز أصبعه الأوسط وهو يقول ذلك ضاحكا. عندئذ صاح الشاب ذو الشعر الأحمر وهو يخرج ذراعه من عباءته الرومانية وصوته يعلو وينخفض فى الإيقاع بصورة تمثيلية هزلية إنها خادمة، والأسوأ يارفاق إنها خادمة هاربة من سيدها. ثم إن الأسوأ من هذه المساوئ كلها أن المعلم اليونانى بنتانوس يقدرها ويحترمها أكثر منا نحن تلاميذه الرومان فماذا تقولون الآن يارفاق؟

عندئذ أغلق الطلبة الرومان آذانهم بأصابعهم وصاحوا قائلين واو!! ثم بصق الشاب ذو الشعر الأحمر على قدمى تاليا وقال إن من واجبنا نحن الشباب الرومانى نحو إمبراطوريتنا أن نعيد هذه العبدة الهاربة إلى سيدها. ثم سأل شاب آخر ومن سيدها؟ ولم ينتظر أحد الإجابة عندما قذفها شاب على الأرض وكتمت صراخها من الألم وتقطعت الورود التى كانت قد أهديت لها. ثم صاحت قائلة إن سيدى قد أرسلنى كى أقضى له بعض حاجاته. ولم يستمع أحد من الشباب إلى كلامها وصياحها حيث امتدت يد أحدهم ونزع من رقبتها الخيط الذى كان معلقا فى رقبتها وكان مكتوبا عليه " تاليا خادمة ليبتينوس الطبيب- عنوان العيادة- مدخل القمر" فصاح الشاب إن هذا العنوان بعيد جدا. وصاح الآخر قائلا إن ليبتينوس الليلة موجود عند الوالى

لبعض الأسباب القانونية. وصاح آخر ساخرا ماذا؟ أتقــول أســباب قانونية؟ وما علاقة هذا الطبيب بما هو قانونى؟ ثم راح هذا الــشاب يضحك ويمسح دموع الضحك من عينيه. ثم قام الشاب الرومانى ذو الشعر الأحمر بربط تاليا بخيط حول رقبتها وأمسك به فى يده وعزم مع رفاقه الشباب الرومان الآخرين أن يحضرها إلى قاضى القــضاة وقال لبقية الشباب إنه لشيء جميل يارفاق أن نفــسد علـــى قاضـــى القضاة متعته هذه الليلة هو وأخته المزعجة وسحب تاليا خلفه واتجه الجميع صوب بيت القاضى. وأخذ بقية المارة فى الشارع يــستمتعون بالمنظر ويقفون فى الطرقات يتفرجون عليه.

أما تريمالخيو، فقد كانت السهرة عنده قد وصلت إلـــى ذروتهـــا، حيث صفق تريمالخيو بيده تصفيقة واحدة عندئذ بدأ عـــازفو العـــود اليونانيون يعزفون على أوتار عودهم عزفـــا جمـــيلا علـــى عكــس الموسيقيين الذين جلبهم ليبتينوس. لقد كان العازفون عند تريمـــالخيو من الدرجة الأولى تمامًا مثل ضيوفه أيضًا. فـــى ذات الوقـــت كـــان الرجل قد أمر بإحضار الطعام علـــى الموائـــد لـــضيوفه، حتـــى أن الضيوف قد انتهوا من تناول الطبق الثانى. أما هو فكان اليوم يقظـــا حيث إنه لم يشرب اليوم خمرا حتى هذه اللحظة. إن عـــازف العـــود كان يرتدى صديريا موشى بالذهب وما يشبه البالطو ذا لون بنفسجى. عندئذ راح المدعوون يتأملون عازف العود حيث إن موســيقيا بهـــذا

الشكل يستحق أن يستمع إليه المرء. أما تريمالخيو فقد جعل موائـــد الطعام تشبه حرف سيجما اليونانى ثم وضـــع لوحـــات فنيـــة علـــى الحوائط. ليبتينوس حصل على منضدة فى وسط القاعـــة وقـــد كـــان ليبتينوس سعيدا بهذا المكان، حيث إنه لم يكن قبل عدة أسابيع لـــيحلم بهذا المكان. ولم يكن ليحلم أن يجلس فى قصر قاضى القـــضاة مـــع نائب الملك على حفل عشاء. كما التفت ليبتينوس بحذر إلى الجانـــب حيث يجلس نبيل رومانى يدعى بريموس ريجولوس لاكتوكوس وقـــد جلس فى مكان ممتاز أيضًا. وأخذ ليبتينوس يتساءل مـــن أى شـــىء جمع هذا الرجل ثروته؟ حيث إنه كـــان يرتـــدى التوجـــا والتونيكـــا الرومانيتين كما كان فى أحد أصابعه خاتم الفرسان الفخرى أيـــضًا. ربما كان مصدر ثروة هذا الرجل بالفعل صناعة الخيام. ولم يتقبـــل ليبتينوس هذا الرجل وقال لنفسه: إنه رجل كريه وبغيض فلماذا يكون لديه هذا المال الوفير؟ إن الوقت كان حارا كما أن هذا الطعام الزاخر بلحم الخنزير السمين كان على المرء أن يكون فى الأوقات البـــاردة وليست الحارة. وراح يعبث بذقنه من شدة الحر كذلك بوبليكولا كـــان هو الآخر يلتف فى عباءته متخفيا دون أن يلاحظ ذلك أحد. كما أنـــه أخذ يرفع عباءته إلى أعلى عن رجليه حتى يجلب لهما الهواء قلـــيلا. أما كورنيليا فراحت تقدم العادات الرومانية وتفاخر بها والتى كـــان من أجملها أنها لم تشارك الناس فى تناول الطعام، حتى إنها لم تناول

أفرانيا أجريكولا إناء الماء. ثم كف عازف العود عن العزف منهيـا المقطوعة وراح الجمهور يصفق له معجبا ماعدا نائب الملك الذى لم يصفق. ثم ترك العازف مكانه للعبد الذى دخل حاملا إناء كبيرا بـه هدايا للحاضرين جميعهم. هجمت أفرانيا على الإناء والهدايا وأخذت منه زجاجة بها عطر ورد وراحت تشتمها ثم أغلقتها واحتفظت بها . أما الرجال فقد حصل كل منهم على زجاجة من العطور والبلسم.

أما ليبتينوس فقد شكر الوالى شكرا عظيمًا بشعر مرتجل ولاحـظ وهو يلقى كلمته أن أفرانيا تستمع إليه بكل حواسها. إنهـا الآن لـو كانت تجلس بجواره لكانت قد وضعت يدها على فخذه تتحسسه. إنـه يعرفها ويدرك تطلعاتها. عندئذ لاحظ بوبليكولا نظـرات ليبتينـوس وأفرانيا الوقحة كل منهما فى أعينى الآخر دون مراعاة للحاضـرين، فتنحنح محذرا مما قد أزعج ليبتينوس الذى قال لنفسه إنه لـيس لـه الحق فى أن يتدخل فى شئوننا الخاصة حتى لو كان نائب الملك هـذا تربطه علاقة قرابة بأفرانيا. فى النهاية تجاهل ليبتينوس نائب الملبك وراح يركز كل حواسه مع أفرانيا التى أخذت تحكى حكايات طريفة من روما. ثم قالت أفرانيا وبالمناسبة إن هناك شيئًا مهما نـسيت أن أخبركم إياه ألا وهو أن السناتور جنايوس فلاكوس بولخر قد اختيـر وزيرا للعدل. عند ذلك أراد الاحتفال بهذه المناسـبة فركـب قاربـا وعمل به حفلـة ضخمـة ولكـن الحفـلة انتهت بـه فـى حمـام

السباحة الخاص به وقد ضبطوا متلبسين بفضيخة كبرى حيث كــان هو مع ثلاثة رجال آخرين وسبعة نساء وكان الجميع عراة تماما. أما الآن فإن اثنتين من هؤلاء الفتيات تنتظرن عقوبة الموت حرقا، ولكن الفتاتان دافعتا عن نفسيهما وقالتا: لقد أُجبرتا على هــذا الفعــل أمــا الوزير فيقول: إن الفتيات قد جئن إليه وهن عرايا طواعية. فــسألت أفرانيا قائلة أليست تلك القصة مثيرة؟ ثم أجاب بوبليكولا قائلاً ومــن نصدق الآن؟ عندئذ ضحكت أفرانيا وقالت بالطبع نــصدق الــسناتور حيث إنه رجل ذو نفوذ كبير. أما الواقع فيقول إن السناتور فهو رجل مسن وسمين جدا، ولكن الفتيات فلم يستمع لهن أحد. ورغم أن شهود العيان يقولون إن الرجال والفتيات كانوا ملتفين حول بعضهم بعــضًا مثل مجموعة من الثعابين الملتفة حول بعضها.

قال لاكتوكيوس الذى شد عباءته على بطنه الكبيــرة إنهــا فــى الواقع فضيحة كبيرة ولكنها سوف تنسى مع حلــول الــصيف ومــع حدوث فضائح أكبر منها. أما بوبليكولا فقد غمز بطرف عينه مؤيــدا لرأى لاكتوكيوس رغم أنه فى قرارة نفسه كان يقول: إن هذا الرجل من الأغنياء المحدثين أما فى الحقيقة فإنه من رعاع روما.

ثم أردف لاكتوكيوس ذو الأرجل القصيرة وهــو يرفــع ذقنــه المفلوقة من النصف إلى أعلى قائلا: إننى سعيد حيث إننــى لــست بسناتور. إن التجارة فى المستقبل القريب سوف تحكــم كــل شــىء

وبصفة خاصة تجارة الغلال وليست تجارة الخيام. إن الرومـــان قــد احتلوا البلاد كلها والجنود لم يعودوا فى احتياج إلى خيام. إننى سوف أوزع الغلال بعد أن أشترى بعض الأراضى الزراعية من تراجـــان وأتاجر فيها كما أننى سأتاجر فى المنازل وربما فى أشـــياء أخـــرى حسبما يتراءى لى.

ثم سمع الحضور جميعهم صوت قاضى القضاة وهو يقــول متــسائلا هل ينتظر أحد منكم ضيوفا آخرين إنه يجب أن تقولوا حتى نــستطيع إحضار مزيد من المقاعد؟ أما أفرانيا فقد اتجهت إلى رجل الأعمـــال لاكتوكيوس وسألته قائلة هل هذه الحقول التى تود شراءها قريبة من معابد التماسيح التى يقف بها الرهبان وينظفون للتماسيح أسنانها؟ ثــم فكر ليبتينوس قائلا: إن أفرانيا اعتـــادت علـــى أن تجــذب اهتمـــام الحاضرين بهذه التعليقات الهزلية.

فى الحقيقة إن جمالها الفريد والذى يشبه قطعة من الفيسفساء فـــى وسط زهرية من الألباستر يبهره دوما ولكنه لا يود البوح لها بـــذلك. ثم أردفت أفرانيا تقول: إننى أود الذهاب إلى هناك ثم اتجهت برأسها تنظر إلى الخلف حيث إنها سمعت ضجيجا يأتى من خلفهـــا. ولمـــا نظرت رأت أن شابا رومانيا ذا شعر أحمر يمسك فى يده فتاة ترتدى ملابس يونانية وقد ربطها من رقبتها بخيط وأمسك بهذا الخيط فى يده وكأنه يجر كلبا خلفه. ولما رأت أفرانيا هذا المنظر انطلقت تــضحك

بشدة وهى تقول لقد جئت لنا بفكرة هى بحق جديدة ياتريمــالخيو، ألا وهى صيد العبيد وإحضارهم للتسلية أثناء تناول الطعام. إن هذا لــم يفعله أحد قبلك ياتريمالخيو حتى نيرون نفسه لم تواتيه هذه الفكــرة. إننى سوف أحكى عن هذا بنفسى فى روما.

لقد فوجئ تريمالخيو بهذا المنظر وابتسم مجــاملا أفرانيــا وراح يبحث عن إجابة لما يرى. فى التو واللحظة صفق نائب الملك بيديــه ذات الأصبع المليئة بالخواتم وقال شكرا يا أفرانيا إننا نحن الرومــان نبذل كثيرًا من الجهد كى نسرى ونرفه عن ضيوفنا فى الإســكندرية. وأغلق الوالى فمه وهو شاكر لنائب الملك الذى أنقذه من البحث عــن إجابة. إن مثل هذه المواقف لا بد له وأن يتعلم كيفية الخروج منهــا مع الطبقة الرومانية الأرستقراطية. هكذا قال القاضى الوالى لنفســه. ولما نظرت تاليا فرأت ليبتينوس وسط الحضور نسيت نفسها ونسيت أنها خادمة وأنه سيدها فقالت تسأله بدون أى صيغ الاحتــرام " مــاذا تفعل أنت هنا؟" ولكنها فى الواقع كانت تغلى غضبا من تعليق أفرانيا. ولم تنتظر إجابة ليبتينوس وقالت موجهة حديثها لأفرانيا وليبتينــوس هؤلاء الفتية الرومان الأشقياء قد هجموا علىّ أثنــاء عــودتى إلــى المنزل واقتادونى إلى هنا بهذه الطريقة المزرية. ثم تنهــدت بعمــق وهى توجه حديثها إلى أفرانيا حيث قالت وأود أن أخبــرك بــشىء

أكثر تسلية يا أفرانيا أيتها الزائرة الرومانية، إن هؤلاء الكهنة الـــذين ينظفون أسنان التماسيح، هم ينظفونها من لحوم البشر.

هؤلاء البشر قد استعبدهم الرومان وألقوهم كطعام للتماسيح بـــدلا من أن يحموهم. كما أن الجنود الرومان لم يحمـــونى أنـــا وأســـرتى عندما هجم علينا القراصنة وقتلوا أسرتى وجاءوا بى إلى الإسكندرية وأرادوا بيعى لكهنة التماسيح كى أكون طعاما للتماسيح فى قلب مدينة الإسكندرية معقل الرومان ومصدر قوتهم. والآن يمكنك أن تضحكى وتصفقى كما تشاءين. لقد نزلت كلمات تاليا علـــى أذنـــى ليبتينـــوس كالصاعقة فشهق شهقة عالية وكأنه ثور قد طعنه أحد بحربة وأغلـــق عينيه وغاص فى مقعده كأن لم يره أحد. إن كلمات تاليا قد أثـــارت غضب المرأة الرومانية النبيلة وقالت وهى تستـــشيط غـــضبا إننـــى سوف أفعل ذلك الآن وألقيك كطعـــام لهـــذه التماســـيح، إن شـــعرك الأصفر هذا وبشرتك الفاتحة بين أسنان التماسيح ليبدو لنا شيئًا جميلا مثيرا للمتعة والمشاهدة. ثم نظرت المرأة الرومانية إلـــى ليبتينـــوس الجميل وإلى الخادمة ولم تستطع أن تفهم أية إشـــارة للموافقـــة مـــن ليبتينوس.

فى الحال صاح بوبليكولا قائلا: أرجو الهـــدوء أعتقـــد حـــدوث بعض سوء الفهم. وإننى هنا أشكر ليبتينوس الذى أحضر خادمته معه رغم أن ذلك لم يكن ذات أهمية. ثم نادى بوبليكولا الـــشباب الـــذين

جاءوا بتاليا إلى المكان قائلا " بنى تيبه، كونتوس إمليانوس، روفوس" تعالوا نشرب معًا فى نخب صحتكم ورفع كأسه بعد أن أمر لكل منهم بكأس قائلا لهم فى صحتكم جميعا. ثم صاحت أفرانيا قائلة: إننى أريد أن تعاقب هذه الخادمة على وقاحتها وراحت أفرانيا تضرب الأرض بأقدامها حتى سقط من ملابسها دبوس محدثا ضجيجا لارتطامه بالبلاط. لمست أفرانيا تسريحة شعرها غالية الثمن وهى تقول مغتاظة بل لا بد من معاقبتها على سقوط هذا الدبوس من شعرى أيضًا.

أجاب نائب الملك قائلا بالطبع ياأفرانيا إن ليبتينوس سوف يسمح لك بمعاقبتها أما روفوس وأصدقاؤه فإننى واثق بأن الوالى صاحب العزومة سوف يقبلهم كضيوف أعزاء عنده. أما تاليا فقد راحت تبحث عن سيدها الذى راح الآن يضع بعض المكسرات فى فمه ويتجاهلها وكأنه لا يعرفها وكأن كل هذا لا يعنيه فى شىء. كما حانت منها التفاتة إلى الخارج فاستطاعت أن ترى تيل بتاح الذى كان يعدو خارج المكان. أما قاضى القضاة فقد تقدم إلى روفوس وأصدقائه مبتسما وهو يقدم لهم المشروبات وقد أمر العبيد أن يحضروا المزيد من المشروبات والتيجان النباتية كى توزع عليهم كهدايا. لكن أفرانيا صاحت قائلة إننى اقترح أن أعاقب هذه العبدة الوقحة أولا ثم بعد ذلك سوف نشرب معًا شرابا ملكيا. ثم دخل تيل

بتاح وفى يده كرباج مصرى أعطاه لأفرانيا ، عندئذ أمرت أن تقف تاليا فوق دكة خشبية صغيرة وأمامها تقف أفرانيا على دكة أخرى ممسكة بالسوط فى يدها.

إن أفرانيا كانت تعرف أنها جميلة وكانت تعرض نفسها أمام الرجال عنية وتحب دوما اجتذاب أنظارهم إلى جمالها لذلك استمتعت بهذا الحدث بصورة كبيرة حيث تقف الآن فى مكان مرتفع يراها فيه كل رجل، حيث راحت تفكر فى اللون الأحمر الذى وضعته على وجنتيها الحمراوتان كى تزداد جمالا وعيناها الجميلتان وقد لونت أهدابها باللون الأخضر. وكيف أن جمالها الآن يتلألأ تحت ألوان اللمبات الزيتية. ثم حانت منها التفاتة إلى أبعد من الرجال فاستطاعت أن ترى كورنيليا تريتا بجسدها الممتلئ المترهل وحولها عبيدها الذين راحوا يرقبون الموقف، حيث إن كوريتليا أخذت تستمتع بمنظر معاقبة تاليا كبقية الحاضرين، وهى تقول إن سيدة رومانية متحضرة لا تدع أى متعة تفوتها. أما ليبتينوس فإن أفكاره فقد كانت تتحصر فى جمال جسد أفرانيا التى راح يتخيلها أمامه من أعلى رأسها وحتى أخمص قدميها. عند ذلك حاول ليبتينوس إخفاء مشاعره حتى لا يراه جميعهم على هذه الحال، ولكن نائب الملك قد لاحظ ما يدور فى عقل ليبتينوس من أفكار نحو أفرانيا، فابتسم فى وجهه ابتسامة مليئة بالغيرة والحقد والألم. ثم خلعت تاليا الثياب من على ظهرها عندما

أشارت إليها أفرانيا بالتقدم للأمام كى تجلدها عقابا لها. عندئذ اكفهـــر ليبتينوس وتضايق فى قرارة نفسه، ليس من أجل تاليا ولكن من أجل شيء آخر.

الفصل الخامس

العيادة

بعد ثلاثة أيام من هذه الوليمة التى قدمها تريمالخيو أرسل إلى رئيس الشرطة الرومانى بالإسكندرية يطلب منه قوة شرطية لتساعده فى تنفيذ الأحكام وتنفيذ أوامر القيصر بالإسكندرية.

فكر رئيس الشرطة قائلا إن قاضى القضاة السابق وهو يونانى لم يكن ليجرؤ أن يطلب منه مثل هذا الطلب وقبل هذا الطلب على مضض حيث إنه أرسل له أصغر قوة لديه تتكون فقط من ثمانية جنود. ولما حصل تريمالخيو على هذه المجموعة من الجنود قال لنفسه إنها البداية وإن ثمانية جنود أفضل من لا شىء كما أن هذه المجموعة الصغيرة من الجنود كافية لأن تروع مجموعة صغيرة من اليهود. عندما خرج من الشارع ورآه المصريون جروا مختبئين خوفا منه ومن الجنود، أما اليونانيون فراحوا يحيون وهم يبدون له الاحترام ولربما يخفون فى أنفسهم شيئًا آخر غير ذلك. سعد تريمالخيو بهذا الاستقبال والاحترام. أمام شجرة الرمان قفز تريمالخيو من على حصانه مثلما فعل الجنود ودلجوا جميعا داخلين

إلى المنزل المقابل التى كانت به امرأة راحت تصرخ وتصيح. فـــى فناء المنزل وقف جندى من الجنود وقد بطح اثنين مـــن المـــصريين على بطونهم ووقف فوقهم ثم صاح صوت تريمالخيو قـــائلا: أيهـــا البرابرة إنكم تعيشون فى الطين مثلكم مثل الحيوانات التى تعيش فـــى طمى النيل. إنه سيمر وقت طويل حتى يستطيع المرء إن يصنع منكم آدميين. ثم سأل تريمالخيو بازدراء هل تعيشون هنا منذ وقـــت طويـــل؟! لقد سأل باليونانية ثم باللاتينية فلم يلق جوابا حيث إن المـــصريين لا يفهمون تلك اللغات. ثم ضغط الجندى على وجـــوههم فـــى الأرض أكثر، وعلا صوت المرأة بالصراخ عندما وضع الجندى سن ســـيفه على رقبتها. فصاح بها تريمالخيو قائلا: الزمى الصمت يا امرأة!! ثم قال أحد الجنود : يا سيدى الوالى إنه من الأفضل أن أحضر مترجمـــا كى يفهموك. فهز تريمالخيو رأسه موافقا. خرج الجندى وغاب برهة من الزمن وعاد ومعه رجل لم يستطع لأول وهلة التحقق من هويتـــه هل هو يهودى أو يونانى؟ سأل المترجم تريمالخيو وهو يبتسم: هـــل أستطيع مساعدتك ياسيدى؟ قال تريمالخيو هل تعرف هؤلاء النـــاس؟ أجاب المترجم: لا ياسيدى لا أعرفهم أنهم قدموا إلى هذا المكـــان حـــديثا. ثم ضرب المترجم الرجل المنبطح على بطنه بقدمه قائلا له: من أين أنت يا كلب الصحراء؟ ولم يجرؤ المصرى أن يرفع رأســـه وقـــال بصوت خفيض: إننى من تارانا التى تعبد الإلهة حتحور. وردد ذلـــك

المترجم إلى الوالى وقال: إن تلك المنطقة خارج مدينة الإسكندرية يا سيدى. ثم سأل الوالى المترجم قائلا: هل كنت تعرف الذين كانوا يسكنون هذا المنزل قبل هؤلاء؟ أجاب المترجم قائلا: نعم إنه سيماخوس وزوجته بيربيتو. قال تريمالخيو: هل هما مسيحيان؟ قال المترجم نعم إنهما مسيحيان ثم وضع المترجم يده على جانبيه وهو يحدق فى الوالى معتقدا فى نفسه إما أن يكون الوالى غبيا لدرجة كبيرة أو أنه ذكى ولكن يحاول أن يقوم بخداعى ولكن من خلال أسئلته فإنه تيقن تمامًا أن الوالى لا يعرف أى شىء عن مدينة الإسكندرية أو الإسكندريين، فقال المترجم شارحا أكثر لتريمالخيو "إن سيماخو كان رئيس طائفة المسيحيين وهو الذى كان يدعو إلى المسيحية ويقوم بتعميد الأطفال المسيحيين وكذلك من يدخل جديدا فى المسيحية. وعندما سمع تريمالخيو هذا قال فى نفسه يا إلهى إننى لا أعرف شيئًا على الإطلاق،إننى لا أفلح فى أى شىء وقال: إن الرجل هذا يكفر بآلهة روما كما أنه يقوم بأعمال السحر والشعوذة. عندئذ قال له المترجم إنه ذات مرة أحيا أحد الموتى، كما أنه يقوم بطرد الأرواح الشريرة من أجسام المرضى باسم عيسى المسيح الذى صُلب على الصليب ولا أعتقد إنه ساحر ومشعوذ. قال تريمالخيو متسائلا متى اختفى سيماخوس هذا من هنا مع زوجته؟ أجاب المترجم اليونانى أعتقد منذ يوم الثورة. اكتفى تريمالخيو بهذه الإجابة وقال للمترجم

اليوناني: هذا يكفيني يمكنك الآن أن تذهب ثم أرسل الجنود إلى حيث أتوا أيضًا واتجه بحصانه إلى منزله. في الطريق إلى منزله ذهب عبر حي يسكنه المصريون، حارة طويلة جدا وفي نهايتها حائط مسدود، أناس يرقصون مثل المجانين أمام المذابح والآلهة الكثيرة المختلفة، ثم رأى أشخاصًا ذوي بشرة بنية وهم يتسولون ثم رأى أشخاصًا آخرين سود وفي أنوفهم حلقات ذهبية راحوا ينظرون إليه لأنهم لم يروا قبل ذلك شخصا رومانيا يرتدي العباءة الرومانية. ومع حلول الظلام كان تريمالخيو قد وصل إلى بيته وهو متيقن تمامًا من أن مصدر القلاقل قد اندلع من هذا المكان الذي يؤدي إلى المعابد الثلاثة. من هنا بدأ المسيحيون مؤامراتهم ومن هنا لا بد وأن يبدأ في تنظيف المكان منهم. دلج تريمالخيو داخلا بعد أن فتح له العبد وقدم له التحية ثم سمع تريمالخيو حركة داخل المنزل فصاح قائلا من هنا؟ ثم قبض على سيفه فأجابه صوت قادم من الظلام أنا خادمك يا سيدي أرجوك ألا تقتلني في الظلام، فإنك في الظلام سوف تجرحني فقط! فقال له تريمالخيو لا تخف لن أقتلك بل اذهب وأحضر لي نبيذا وضوءا. جلس الوالي على أريكة أمام المنضدة وقد أحضر له العبد النبيذ ووضعه أمامه ثم أخذ تريمالخيو يفكر "إن الإسكندرية مليئة بأعداء الإمبراطورية، الجيش لم يحاربهم من قبل، كما أن نائب الملك غبي ولا يفعل شيئا. إن الشيء الذي ينقص هنا هم الجواسيس

الذين يجلبون له الأخبار تمامًا مثلما يحدث فى روما ثم بعد ذلك لا بد وأن نرى كيف تتطور الأحداث. أخذ تريمالخيو يراقب سحلية تمشى على سقف المنزل وهو يشرب النبيذ ويضحك ويقول إنه إذا استطاع أن يتخلص من عش المسيحيين هذا فإن القيصر سوف يكافئه مكافأة سخية، والمكافأة السخية سوف تكون هذه المرة روما نعم روما.

الآن تقف تاليا أمام العيادة تراقب قنال المياه الذى ظهر به مركب كبير يقل نائب الملك وحاشيته، إنها تكرههم جميعا. إن هذه المركب لم تكن من المعقول لأفرانيا لأنها قد سافرت منذ عدة أسابيع عائدة إلى روما، وإنها كانت قد زارته فى العيادة مدعية أن بها شيئًا ما، عند ذلك أرسلها ليبتينوس أى تاليا إلى الإسكندرية كى تقضى له شيئًا يستغرق ساعات طويلة، وعند عودتها من الإسكندرية، كان الحداد المصرى فى انتظارها، حيث إنه قد أزال لها طوق العبيد من حول رقبتها. إن الذكريات المؤلمة تزال قوية وعميقة فى روح تاليا وذاكرتها. إن تاليا لا تزال ترى إن أفرانيا ما هى إلا عنكبوت كبير تحاول أن تلف ليبتينوس فى خيوطها اللزجة، كما أن ليبتينوس لم ير إنه بالنسبة لها ما هو إلا لقمة سائغة شهية، كما أنه لم ير أن أفرانيا قد قامت بعمل تمثيلية أمامه أيضًا وذلك بمعاقبتها خادمته فقط لكى تجذب انتباهه إليها. أما الآن فقد أفاقت تاليا من

أفكارها عندما نزل نائب الملك من محفته متجها صوب العيادة، لم يكن أمامها الآن خيار آخر سوى أن تتجه إليه تتصنع الابتسام والسعادة بزيارته ولكن الرجل وركبه قد تجاهلونها تمامًا ، وتقدم نائب الملك إلى الأمام وهو مفرشح القدمين فى مشيته وهذا لم يكن شيئًا طبيعيا ، حيث أنه دوما ما كان يمشى معتدلا منتصب القامة. مشت تاليا خلفهم وهى تفكر فى نفسها عما يؤلمه، هل رجله التى تؤلمه أو مؤخرة ظهره هى التى تؤلمه؟ فى هذا الوقت لم يكن ليبتينوس فى العيادة ، ومع ذلك تركتهم تاليا يدخلون العيادة. ثم سألت نائب الملك قائلة هل تحب أريكة أخرى من الجلد خلاف هذه الأريكة الخشبية أيها النبيل لوكيوس؟ لم يعر بوبليكولا تاليا أى اهتمام واضطجع إلى الخلف وهو يتنهد مستريحا مسترخيا ولم يمض كثير من الوقت حتى جاء ليبتينوس إلى العيادة ودخل محييا ومرحبا بضيفه الكبير. ثم جذب مقعدا وجلس بجوار أريكة بوبليكولا. ثم قال ليبتينوس إننى سعيد لقدومك إلىّ وثقتك بى. فأجاب الضيف إنه شىء طيب أن تعرف أننى أثق بك. ثم نظر بوبليكولا إلى تاليا وقال لليبتينوس والآن أرجو أن تطرد خادمتك من هنا لأن مشكلتى الصحية فى موطن حساس ولا أحب أن ترانى. فرد ليبتينوس قائلا : إنها تساعدنى دائما كما أرجو ألا تنزعج فهى عبدة مثل بقية العبيد يا نائب الملك. ثم قالت تاليا: إننى أريد أن أتعلم حتى لا أفسد على ليبتينوس شهرته

كطبيب بارع وذلك عندما أظل بدون تعليم وتقدم للأمام. لهـذا فلـن أخرج أيها السيد النبيل لوكيوس. عند ذلـك نظـر بوبليكـولا إلـى ليبتينوس وهو منبهر بأسلوب تاليا قائلا وتريد أن تقنعنى بأنها عبـدة مثل بقية العبيد يا ليبتينوس؟

اغتاظ ليبتينوس ونظر إلى تاليا وهو يشير لها بعينيه كى تخـرج إلى الباب ولكنها تجاهلت نظراته وإشاراته وظلت واقفة فى مكانهـا. ثم قال بوبليكولا لتاليا: أرجو أن تفهمى ما أعنيه إنه شىء لا يـصح أن يراه غير رجل. فقالت تاليا إن اثنين دائما أفضل من شخص واحد وليبتينوس لا يستطيع التخلى عن مساعدتى له أيا كانت المشكلة التى تعانى منها ثم أن ذلك سيكون فى صـالحك عنـدما أفحـصك مـع ليبتينوس. أجاب ليبتينوس موافقا تاليا بقوله: نعم أيها الوالى النبيـل إنهـا محقة". عندئذ قال النبيل الرومانى: إذا فلنر وألقى بعباءته جانبـا ثـم اضطجع على جنبه وكشف نصفه السفلى وهو يقول "إننى أنزف من الخلف مثل المرأة فى حالة الحيض. كما أننى أعانى من ذلك آلامـا مبرحة" وراح ليبتينوس يفحصه من الخلف ثم يقول إن النزيف عنـد الرجال ليس بشىء مهم مثل النساء، كما أن الآلام التى تعانيها توضح أن الأوردة فى المؤخرة ليست فى حالة طبيعية. ثم تضجر الرومانى النبيل وهو يقول إن الشىء الذى ليس فى حالة طبيعية هو إننى منذ فترة طويلة لا أستطيع عمل شىء مع النساء إننى مثل الطفل الصغير

إننى لا أستطيع حتى أن أفكر فى امرأة. فأجاب ليبتينــوس قــائلا إن هذا شىء صعب ثم قطب جبهته وأخذ ينظر فــى أعــضاء الرجــل الرومانى وهو يقول إننى لا أستطيع أن أتيقن من وجود شىء معــين ولكننى سوف أعطيك علاجا ناجعا وحتى يؤتى هذا العلاج مفعولــه فعليك بمتابعة شكل دمائك النازفة ما لونها ورائحتها ومدى غزارتها؟ ثم عليك أن تخبرنى بشىء مهم ألا وهو هل تشعر بحرقان أو بهرش أو بضغط وألم فى منطقة الشرج؟ ثم أمــر ليبتينــوس تاليــا قــائلا أحضرى لى العلاج. أسرعت تاليا إلى الخارج تحضر لــه علاجــا غاليا كان ليبتينوس يعطيه فقط للمرضى المهمين وهو عبــارة عــن سائل مرارة الثور الذى جاء لهم منذ فترة قصيرة وهو طازج لحسن الحظ. وعندما عادت تاليا وهى تحمل زجاجتان مــن هــذا الــسائل سمعت ليبتينوس وضيفه الرومانى وهما يتسامران ويضحكان بصوت مرتفع بينما أمسك كل منهم بكأس نبيذ. ثم بعد ذلك وضع ليبتينــوس قمعان فى مؤخرة الضيف ثم تركه فترة قصيرة ثم راح يفحصه مرة أخرى. لقد اقتربت تاليا هذه المرة ونظرت فى مؤخرة الرجــل مــع ليبتينوس واستطاعت أن ترى ورما فى حجم البرتقالة ذا لون أســود وقد أخذ ليبتينوس يفحصه بملعقة طبية غير حادة. ثم قال ليبتينــوس إننى اعتقد أنك لم تقم بزيارة الطبيب منذ سنوات عديدة لأن ضــعف الأنسجة وتورمها لا يأتى بين يوم وليلة بل إنه يــأتى عبــر زمــان

طويل. فقال المريض الروماني: نعم إنني منذ فترة طويلة لم أزر طبيبا وإن ما تقول ربما يوضح ما أعانيه من إمساك مستمر يبقى أحيانا أربعة أسابيع متواصلة. لم يعر ليبتينوس ما قاله المريض اهتمامًا وقال له سوف أقوم بكي هذا الورم وأعدك أنك لن تشعر بأى ألم وما عليك سوى أن تشرب ما سأعطيه لك الآن. هذا الشراب سيجعلك مخدرا ومائلاً للنوم، كما أنك لن تشعر بشيء. ثم قامت تاليا بخلط النبيذ مع زيت الأفيون وقدمته لبوبليكولا كي يشربه ثم قام ليبتينوس بعمل خليط من الزيوت الطبية وقدمه له ولم يكمل هذا الشراب حتى كادت عينيه تنغلقان من تأثير المشروبين. ثم جحظ ليبتينوس عيني المريض الروماني كي يرى لون حدقتيه. ثم قال الطبيب: إن هذا المشروب يبعد المخاوف عن الطبيب ويضع في قلبه الجرأة، بالتأكيد فإن سورانو قد اطلع الأطباء الرومان على هذه الوسيلة. كما أن ليبتينوس لم يستخدم هذا المشروب سوى مع المرضى الأغنياء، الذين كانوا يستطيعون أن يدفعوا له. ثم قال المريض هل انتهيتم من العمل؟ ثم دخل تيل بتاح وهو يحمل إناء به جمر من الفحم وفوق منه مادة كاوية في شكل العدسة. عندئذ ساعدت تاليا ليبتينوس كي يضع هذه المادة الحارقة فوق الورم المسود في منطقة الشرج. وعندما وضع ليبتينوس هذه المادة الحارقة فوق الورم الناتئ في فتحة الشرج قام ذلك بعمل صوت مثل صوت الطعام

الذى يقلى ويحمر على النار وراحت تنبعث منه رائحة لحم محروق. أما الخادم المصرى فقد ارتجف عندما رأى ذلك وقفز حتى وصل الباب فصاحت به تاليا قائلة: ابقَ هنا يا تيل بتاح إن السيد يريد نارا فلا تهرب. بقى الغلام بالغرفة مكرها وهو يهوى على الفحم حتى تطاير الرماد فى أرجاء الغرفة. أما ليبتينوس فقد ركز كل اهتمامه فى إغلاق فتحة صغيرة كانت تخرج منها الدماء. بعد برهة من الوقت وضع الإناء من يده وقال لتاليا انظرى جيدا كى تتأكدى من أن هذه الفتحة قد أغلقت تمامًا ولا تخرج منها أى نقطة دماء. ثم تابع ليبتينوس بالطبع أساس نجاح العلاج الراحة التامة والنوم العميق. من أن المريض الذى يجىء هنا وبه بواسير بسيطة ممكن أن يحدث له خرّاج صعب إذا لم يتبع تعليمات الطبيب بعد ذلك.

ولما انتهى ليبتينوس من عمله كان تيل بتاح ما زال يهوى على الفحم بنشاط فضحك الطبيب وقال لتيل بتاح من الآن يجب عليك أن تكون مساعدا لى فعليك أن تنظف أوانى البصاق حيث إن تاليا من اليوم فصاعدا سوف تصير تلميذتى فى الطب.

لقد ارتجف الغلام عندما سمع ذلك حتى أن سقطت المروحة من يده فى إناء الفحم، فاشتعلت النار بها والتهمتها. عندئذ عنفه ليبتينوس حتى أخذ الغلام يبكى. فنظرت إليه تاليا مغتاظة، حيث إنها كانت دوما ما تقوم بالعمل وليبتينوس كان يثق بها. أما تيل بتاح فقد ضم

يديه متوعدا إياها بأنه سوف يضربها. على الطـرف الآخـر فـإن قاضى القضاة كان سيدا فى عمله ولكن فى المنزل كانـت كورنيليـا ترتيا هى الآمر الناهى، حيث إنها كانت تشترط ألا يأتى تريمـالخيو بالعاهرات إلى المنزل وإذا كان لا بد وأن يلتقى بإحـداهن فعليـه أن يذهب إليها فى بيوت المتعة ولا يأتى بهن إلى المنزل. كما أنها تطلب من بائعى الخضار واللحوم أن يـأتوا كـل صـباح أمـام المنـزل ببضاعتهم فتأخذ منها ما تريد. ولكن المنزل لم يكن محرمـا علـى جميعهم فهناك بعض الرجال ذوى المكانة الرفيعة كان مـن حقهـم زيارة تريمالخيو في المنزل، منهم على سبيل المثال سوليوس مدير مدرسة المصارعين وهو موظف رومانى رفيع المستوى فلا يستطيع تريمالخيو أن يستقبله بالمنزل لفترة قصيرة ثم يطرده، بـل عليـه أن يقضى معه وقتا وفيرا. اليوم جاء سـوليوس وقـد عـرض علـى تريمالخيو فكرة جيدة سوف تدر عليه ربحا ماليـا كبيـرا وقـد راح تريمالخيو يفكر فى هذه الفكرة حيث أن الحياة بمدينـة الإسـكندرية تكلفه كثيرًا من النفقات وقد أنفق بالفعل كثيرًا من ماله الخاص، لأن هـذه المدينة مرتفعة التكاليف، ولكن الشىء الوحيد الذى أزعج تريمـالخيو أن أخته قد سمحت لهذا الرجل أن يدخل غرفـة عمـل تريمـالخيو. جاءت أخته إليه وسألته وهى مهمومة كالعادة كم من الضيوف تنتظر اليوم ياتريمالخيو؟ فأجابها بقرف قائلا : لا أنتظـر أحـدا اليـوم،

إننى خارج الآن. فقالت كورنيليا إياك أن تجرؤ وتحضر معك إحدى العاهرات إلى هنا، إن زوجتك لم تتقبل هذا قديما وأنا لا أتقبله أيضًا. فنظر تريمالخيو إلى أخته القبيحة ممتعضا وفكر قائلا إننى أعرف كيف أمتع نفسى رغم أن زوجتى المتوفاة لم تكن تعترض على شيء يسعدنى. كما أن بيوت المتعة بالإسكندرية لم تعد جميلة وفاتنة كما كانت قديما فى عصر كاليجولا، حيث كان يذهب إليها كل من يريد أن يترقى فى عمله حيث كان المرء يجد فى بيوت المتعة رجال الدولة أصحاب القرار كلهم أما الآن فليس لدى ما يبرر أن أكون زبونا مستديما بها. ولكن كل ما دار فى فكر تريمالخيو لم يكن مهما عند كورنيليا. ثم قال لها إننى سأذهب إلى عيون المياه ثم بعد ذلك سأذهب إلى الطبيب ليبتينوس. فأجابته قائلة أتذهب مرة أخرى إلى هذا اليونانى القميء الذى يكاد يشبه العبيد السود؟ فأجابها قائلا إن عنده معلومات عن المسيحيين ولا بد لى أن أسمعها منه. وعندما تقدمت إليه كورنيليا تريد أن تبدى برأيها قال لها محذرا: إنك ليس لك الحق أن تتدخلى فى عملى، إن عليك فقط أن تقومى بأعمال المنزل ولا تسألى عن شيء آخر. إن أخته هذه كانت فى كثير من الأحيان عبئًا ثقيلا عليه ولكنه فى ذات الوقت فى حاجة إلى امرأة تقوم بأعمال المنزل، وتكون محل ثقة ولا تشى بما تراه بالمنزل هذه الصفات كلها تتمتع بها كورنيليا. خرج تريمالخيو يريد الذهاب إلى

عيون المياه ولكنه انتظر أمام الباب كي يأتي خادمه الذي يحمل عصاته وجنديان يرفقانه إلى العيون ثم بعد ذلك أراد أن يقضي وقتا طيبا مع امرأة إنه لم يفعل ذلك منذ وقت طويل. أما تاليا الآن فقد قامت بتنظيف كل الأدوات الجراحية بعناية ووضعت كل أداة في مكانها فراحت تبرق وتلمع كما نظمت لفائف الكتب ووضعتها في مكانها في أدق نظام. لقد سعدت كثيرًا في قرارة نفسها عندما عاد تيل بتاح إليها وهو يحمل إناء قد قام بغسله مما كان فيه من بصاق وبقايا دماء.

يحمل الخادم المصري الإناء وهو ممتعض يبدي قرفه مما كان فيه وكأنه أراد أن يلقي به بين أقدامها فنظرت إليه تاليا بغضب حتى انصرف مبتعدا. ثم راحت تاليا تفكر في أشياء أكثر أهمية من تيل بتاح حيث يقف الآن على المدخل الشرقي شخص مرسل من قبل برنابه. فقالت له تاليا: إن ليبتينوس سوف يأتي اليوم مساءً وراحت تفكر لماذا لم يسمح لها ليبتينوس أو تيل بتاح بالبقاء في العيادة عندما كان هذا الشخص يأتي لزيارته؟ أما الآن فإنها رأت الشخص الواقف إنه الغسال الجديد، الذي كان يجلس حافي القدمين على الأرض الباردة، لقد كان نظيفا مثل كاهن مصري وذراعاه كانا ذا لون أحمر من أصباغ الغسيل وراحت تشهر الغسيل الذي كانت رائحته طيبة دليل على أنه قام بغسله جيدا. إنها تعلم أن ليبتينوس يهتم جيدا

بالنظافة، ليست تلك النظافة التى تعلمتها فى بلدتها صيدا بل نظافة أكثر حزما ودقة. دفعت للغسال أجره ودخلت العيادة وهى ترتب كل هذه اللفائف والجبائر فى أماكنها. فى وسط هذه اللفائف رأت تاليا لونا بنيا فاعتقدت إنه شيء من الاتساخ الذى لم يغسله الغسال جيدا، ولما فتحت هذه اللفائف كى ترى ما بها . خرج منها ثعبان بنى اللون بسرعة البرق وعضها فى ذراعها العارية ، فوقعت على الأرض وهى تصرخ. فدخل ليبتينوس مسرعا وبيده مشرط يستخدمه فى عملياته الجراحية، فأشارت إليه إلى مكان عضة الثعبان فى ذراعها بينما أخذ ينظر إلى الثعبان وهو يخرج زاحفا على الأرض فى موجات بنية اللون متجها نحو الحديقة حيث الأشجار. فقام ليبتينوس بعمل صليب قطعى فى ذراعها بمشرطه وشعرت تاليا بالألام تسرى فى جسدها وتدحرجت من مقلتيها الدموع. ولكن ليبتينوس عندما نظر إلى الثعبان وهو يهرب تيقن له إنه ثعبان الطريشة. ثم سأل تاليا هل رأيت رأس الثعبان؟ قالت وهى تقاوم الإجهاد والإرهاق: نعم مثلثة الشكل مثل رأس الحربة وفى الجوانب به انتفاخات وظهره كان بنى اللون ولا يزيد طوله عن طول ذراعى من منطقة الكوع حتى اليد. فأجاب ليبتينوس: إنها حية الطريشة إن موطنها الصحراء إنها ليست من الإسكندرية. فجأة راحت تاليا ترتعش وتنكمش أكتافها مقتربة من بعضها. ثم حدق ليبتينوس فى مكان العضة، ثم فى وجه خادمته الذى

بدا مصفرا ممتقعا. إن مكان العضة لا يبدو عليه تأثير السم حيث أنه طبيعى اللون، واعتقد أن ما تعانيه تاليا هو الخوف فسألها مما تخافين؟ أجابت تاليا إن الحية كانت فى وسط اللفائف التى لا يلمسها أحد سواى.

فنهض ليبتينوس واقفا وقال لها: إن هذا شىء غير معقول من هذا الذى يحاول قتل خادمة لا قيمة لها، إنك تحاولين أن تجعلى لنفسك قيمة. ثم أردف قائلا: على أى حال إننى أسمح لك أن تتامى قليلا كى تستريحى، فى الحقيقة إنك محظوظة أكثر مما تستحقين وتركها وذهب. تحاملت تاليا على نفسها حتى نهضت واقفة وهى تستند على دولاب الكتب ثم ربطت جرحها بنفسها واتجهت إلى مخدعها كى تستريح بعض الوقت. وراحت تحلم فى نومها بالثعابين والتماسيح الذين يرقدون بجوارها فى مرقدها. ولكنها شعرت بشىء ما لا يبدو وكأنه حلم. إن شخصا ما يجذب عنها البطانية التى تتغطى بها. فلما فتحت عينيها أدركت أن أحلامها قد انتهت حيث أبصرت أمامها تريمالخيو يحاول أن ينزع البطاطين عن جسدها وهو يقول لها: " يمكنك إذا أردت أن تغطى بها وجهك ولكن اتركى جسدك بدون هذه البطانية، إن لكل مشتر الحق فى معاينة بضاعته التى اشتراها". فأجابت تاليا مستنكرة خائفة بضاعة!!؟ أى بضاعة تقصد؟ وقبل أن يجيب قاضى القضاة على سؤالها ألقى بنفسه على سريرها وهو يرقد

بجوارها قائلا: " إن ليبتينوس قد أهداك لى وذلك لكى يشترى ثمن سكوتى لأننى أعلم أنك مسيحية، ورغم ذلك فإننى سوف أدفع له ثمنك، حيث إن قاضى القضاة الرومانى لا يستطيع أحد أن يرشيه" وراحت تاليا تبعد يديه عن ثدييها وهى تقول له إننى سأصرخ منادية سيدى، إنه سوف يشكوك لأنك تعتدى على أملاكه. فقال تريمالخيو ساخرا: إنه الآن فى الصالة الرياضية ولن يسمعك، لم تعد تاليا تملك أية طاقة للمقاومة، إنها مجهدة ومرهقة وتشعر كأن ساقيها لا تستطيعان أن تحملاها.

فى مساء هذا اليوم سمعت تاليا تيل بتاح وهو يتحدث مع أمه فيرنيرو قائلا: إنها ساحرة أبطلت بسحرها مفعول سم الحية يا أمى، إننى متأكد أن سحرها هو الذى جعلنى أضحك أمام كاهن الإله خنوم عندما قام بمعاقبتى وتعنيفى. إنها هى السبب. فجأة وضعت فيرنيرو أصبعها على شفتيها أمام ابنها كى يصمت ولا يتكلم، وأخذ الابن ينظر حوله بعينين مفتوحتين وهو يتنصت. ثم تابع تيل بتاح قائلا لأمه: إن الحمراء(يقصد بذلك تاليا) قد اغتصبها رجل رومانى. ثم قالت له الأم: إنه لا ينفع لها شىء سوى أن نلقيها للتماسيح كى تأكلها. ثم أخذ تيل بتاح يفكر معتقدا أن الحمراء هذه هى التى أوعزت للبتينوس كى يكلفه بحمل القىء ودماء المرضى وتنظيفها. وأخذ يفرك يديه ونهض من مقعده وهو يقول لأمه لقد

حان الوقت يا أمى لكى نجز رأسها! إن التماسيح لن تجدى، دعى لى هذا الواجب. لما سمعت فيرنيرو هذا من ابنها ابتسمت ابتسامة رضا وقالت لنفسها: إن تيل بتاح سوف يقوم بهذا الواجب ثم يقدم بعد ذلـــك القرابين للآلهة وسوف يسامحه الإله. أما تاليا فقد بدت دوما مصفرة الوجه تؤدى أعمالها بلا مبالاة وعدم اهتمام حتى قال لها ليبتينـــوس معنفا: إن منظرك هذا يزعج المرضى ولن يعتقدوا بى عندما تكونى هكذا سيئة المزاج غير مبتسمة إنك سوف تفسدين على زبائنى. إنـــك إن لم تغيرى من سلوكك هذا سوف أجعل منك خادمة لمسح القـــئ والدم واجعل تيل بتاح هو تلميذ الطب، ولا تحاولى أن تقنعينى أنـــك تعانين من عضة الثعبان حيث أن تلك العضة قد انتهى تأثيرها مـــع تلك اللفة التى وضعتها حول ذراعك. فأجابته تاليا قائلة إننى أعـــانى شيئًا أسوأ من سم الثعبان إننى أعانى من هذا الرومانى الذى أرســـلته لى. فلم يعرها ليبتينوس اهتمامًا وراح يقرأ فى كتابه وكأنه لم يسمعها وبعد لحظة قال لها بل إنك تعانين من تكبر نفسك الذى لا يجلب لـــك ثمنا ولا يجلب لك سوى النكبات، ثم راح يقرأ فى كتابه. فـــى تلـــك اللحظة اجتاحت تاليا رغبة قوية فى أن تنتقم من ليبتينوس. فقالت لـــه أعتقد أنه عازم أن يأتى إلى كلما ذهبت أنت إلـــى صـــالة الألعـــاب الرياضية فهل يدفع لك على الأقل لأنـــك تـــاجر نـــساء؟ فـــارتجف ليبتينوس وكف عن القراءة وقال لها: إننى سوف أبيعك علـــى أنـــك

عاهرة لأى بيت دعارة إننى سوف أطلب فيك فقط أسين أو حتى ثلاثة. ثم راح ينادى مثل التجار فى المزادات تعالوا يارجال، تعالوا يا من تبغون المتعة فقط أسين هيا هلموا! فقال هل تحبين أن أبيعك لبيوت الدعارة؟ فامتعضت واعتلت وجهها مسحة القرف من كلامه. ثم قالت له إنك تعلم جيدا أننى لم أكن فى يوم من الأيام عبدة، وإنك بذلك تخالف قانون الإنسان المتحضر وتخالف الأخلاق الإنسانية. فقال لها ليبتينوس: إننى أرى وأسمع أنك تقرئين فى كتبى رغم أننى لم أسمح لك بهذا ولكن لا تنسى أنك رغم كل شيء عبدة وهذا قدرك تمامًا مثل الذين يولدون ببشرة سمراء أو صفراء فهذا قدرهم ولكنك لن تستطيعى تغيير هذا القدر الوحيد الذى بيده تغيير قدرك هو أنا ليس إلا. فقالت تاليا له: إننى أعرف أنك تعتنق القانون الرومانى الذى ينص على أن الأقوى هو دائما صاحب الحق ولكننى أعتنق قانون التعامل الإنسانى الأخلاقى مع الآخر، ولك أن تعلم إننى فى يوم من الأيام سوف أصبح حرة ولن تكون لك على أى كلمة. إننى لن أتعامل ولن احترم القانون الرومانى القذر أبدا، إنهم لا يعرفون الأخلاق، ولا يدرون ماذا تعنى كلمة أخلاق بل إنهم لا يستطيعون هجاء تلك الكلمة. ثم اتبعت قائلة: إننى سوف أضرب لك مثلا صغيرًا تستطيع أنت أن تفهمه ألا وهو ما الفرق بين سيدة نبيلة رومانية وأخرى من صيدا؟ الفرق أقوله لك: إن لم تود أن تقولة أنت،

ألا وهو أن النبيلة الصيداوية لن تقدم أبدا على تقديم نفسها فـــى كــل مكان كعاهرة فى حين أن النبيلة الرومانية تفعل ذلك بلا حياء. فلــم يستطع ليبتينوس سماع بقية حديثها وألقى بلفة كتابـــه علـــى الأرض وخرج خارج غرفته، بينما ابتسمت تاليا ابتسامة المنتصرة، وشعرت بتحسن حالتها المزاجية بعد هذا الصدام، إنه لم يكن يتحمـــل أى نقــد للرومان ولم ينتقدهم فى حياته. كما أنه راح يبحث عن هــواء كـــى يتنفس عندما قالت له إننى أشعر بأننى حرة نعم إنها حرة ولم لا وهى فى الحقيقة حرة لماذا اختطفها القراصنة وباعوها على أنهـــا عبـــدة؟ بعد وقت قصير سمعت تاليا صوت ليبتينوس وهو ينادى علـــى تيــل بتاح، ثم أخذ يحيى أحد المرضى بحـــرارة. انتـــاب تاليـــا الفــضول وأخذت تتنصت وتنظر مع من يتحدث فلم تكد تصدق عينيهـــا، إنـــه نائب الملك بوبليكولا الذى جلس على حصانه منتصبا وخلفـــه اثنـــان من جنوده فوق جيادهم. فمد تيل بتاح يده إلى لجام الحصان كى ينزل بوبليكولا منه ، فلم ينزل وقال لليبتينوس أترى كم أنا صحيح معافى؟ إننى لم أشك لحظة فى أدويتك فقال ليبتينوس إننى أعـــرف أدويتـــى جيدا ونظر إلى بوليكولا الذى كان يرتدى تونيكا رومانيـــة قـــصيرة حسب الموضة. ثم قفز من على صهوة جواده بخفة ونشاط. ثم قـــال ليبتينوس أتذكر ما قاله لـــك الأطبـــاء اليونـــانيون حيـــث أرادوا أن يحجموك إنه لا ثقة فيهم على الإطلاق حيث إنهم يعالجون الأمراض

جميعها بالحجامة وهذا خطأ. ثم وضعت تاليا يدها على فمها حتى لا تضحك بصوت مرتفع وهى تستمع إلى حديث الرجلين. ثم قالت تاليا لنفسها: إن كلا الرجلين مدعاة للسخرية أحدهما يشعر بالخزى والعار من نفسه وهو ليبتينوس والآخر الذى اجتاز لتوه عملية جراحية فـــى مؤخرته يعيش فى دور الفتى المتصابى إنها ترى الآن الرجلين بعين أخرى ثم قال نائب الملك لليبتينوس وهو يربت على كتفه: إننى سعيد أننى شفيت على يدك إننى ســوف أجعــل منــك طبيبــا لمدرســة المصارعين الإمبراطورية. ثم جلس الاثنـــان فـــى مـــدخل منـــزل ليبتينوس ولم يبد ليبتـــينوس فرحة كبيرة بهذا الجزاء الـــذى منحـــه نائب الملك كان ذلك فقط مقدار خمس خطوات للأمـــام مـــن نظـــر ليبتينوس. إن ذلك كان تقديرا رومانيا لـــشخص يونـــانى. ثـــم قـــال ليبتينوس إننى لم أتمنَ لنفسى شيئًا أكثـــر مـــن التقـــدير الرومـــانى لشخصى المتواضع أما أنت يابوبليكولا فإننى أشكرك من كل أعماقى على هذه المكافأة. ثم أضاف نائب الملك قائلا: عندما تواتى المناسبة سوف أذكر اسمك عند الإمبراطور يا ليبتينوس، إن تراجـــان لا بـــد وأن يعلم إننا نحافظ ونكرم الرجال المخلصين فى الولايات حتى وإن كانوا يونانيين. وراح ليبتينوس يشكر الرجل بحرارة حتى قالت تاليـــا وهى تسمع شكره لنائب الوالى: أيها المنافق، ثـــم أردف بوبليكـــولا قائلا: إن ميعاد المصارعة الأولى فى منتصف سبتمبر وسوف تكون

عديلتى موجودة أيضًا حيث أخبرتنى بذلك فى خطاب وبالمناسبة فإنها كتبت لى أنها لا بد وأن تقابلك حيث إنها تريد أن تسألك عن بعــض المسائل الطبية. ثم انفجر ضاحكا ضحكة ذات مغــزى وهــو يقــول بالطبع سوف تأتى إذا لم يحدث لهــا ظــرف طــارئ. وقــد أدرك ليبتينوس ما يعنيه نائب الملك وذلك لأنها كانــت تهــب نفــسها لأى رجل، فاعتقد أنها ربما قد تصبح فى أى لحظة حبلى عند ذلــك لــن تستطيع المجيء إلى الإسكندرية. ثم أخذ ليبتينوس يفكــر فــى هــذه العاهرة ، إنها ذات تأثير كبير وتستطيع أن تجعل منه أشهر أطبــاء الإسكندرية قاطبة، إن كل ما تفعله مع الرجال الآخرين لا يهمه، إنها هى نفسها لا تهمه. ثم نهض ليبتينوس ووضع يــده علــى صــدره وانحنى أمام بوبليكولا. فقال بوبليكولا إننــى عملــت جولــة كبيــرة بحصانى ورأيت كثيرًا حيث إن الجلوس فوق الحصان يعطى نظــرة أشمل من الجلوس فوق المحفة. وسوف يكون شيئًا طيبًا عندما يقــدم له ليبتينوس شيئًا باردا كى يشربه. نظر ليبتينوس وراح يصفق بيديه كى يأتى الخادم. أما تاليا التى كانت مختبئة خلف العامود فقد ســألت نفسها هل رآنى ليبتينوس أو لا؟ على أى حال إنها سعيدة مع نفــسها ولما صفق ليبتينوس بيديه ولم يأتِ الخادم قال له بوبليكــولا: لا بــد وأن تعلم أن العبيد من السيد فى المنزل. حتى جاء خادم صغير وهو يجرى وقد ألقى بلجام الحــصان للجنــدى وراح ليبتينــوس يتابعــه

بنظرات ناعمة لم تخفَ على نائب الملك الذى قال فى الحال لليبتينوس " ولك أن تعلم أن الرجال الذين يتخذون من الصبية رفاقاً لهم فهم فى روما مكروهون كما أن شخصا مثلك يريد أن يكون له مستقبل فعليه أن يدع هذا" . فأجابه ليبتينوس: إن روما فيها كثير من النساء الجميلات ، فأجابه بوبليكولا: " إن على المرء ألا يعض اليد التى تمتد إليه فى يوم من الأيام بالخير؟ ثم قال بوبليكولا لنفسه: إن هذا الطبيب كان ذات يوم تلميذ لا قيمة له لدى سورانو والآن فإنه يحاول أن يكون رجل الساعة. ثم جاء النبيذ وراح الرجلان يخلطانه استعدادا للشراب عند ذلك انسحبت تاليا على أطراف أصابعها مبتعدة حتى لا يراها أحد.

الجزء الثاني

تلميذة الخبرة

الفصل السادس

القنوات

لقد غدت تاليا فخورة بنفسها، حيث إنها الآن رسميا تدرس الطب فهى تلميذة لدى طبيب مشهور. إن زيارة هذا الرومانى البغيض قد أتت بثمارها لدى تاليا، حيث إن ليبتينوس قد قبل أن تتعلم تاليا الطب. كما أنها عرفت أنه فى حاجة إليها بصفة خاصة فى أمراض النساء، حيث أن تلك الجزئية لم تكن تهمه كثيرا، كما أنه هو شخصيا لم يكن لديه الاهتمام بالمرأة. ولكن تاليا لم تكن تحب أن تبقى فقط مساعدة طبيب فى التوليد فقط، إن طموحها أكبر من ذلك، حيث إن سوارنو قد كتب فى كتبه أن طبيب أمراض النساء عليه أن يكون ملما ببقية الأمراض التى تصيب الجسم البشرى أيضًا. ومن هنا أصبح لتاليا الحق بصورة رسمية أن تقرأ فى كتب ليبتينوس ولكن هنا لا يحق لها أن تقزقز اللب أو التين المجفف أو العنب المجفف أثناء القراءة فى مكتبته. الشىء الوحيد الذى كان يعكر صفو حياتها هى زيارات

تريمالخيو كلما ذهب ليبتينوس إلى صالة الألعاب، حتى تلك الزيارات قد وجدت تاليا حلا لها وذلك عندما استطاعت أن تعطى له كأسا من النبيذ وتضع به الكمية المخدرة المناسبة من زيت بذرة الأفيون ثم بعد ذلك كان يروح تريمالخيو فى نوم عميق. كما أنه فى أحيان كثيرة كان فاقدا للرغبة فى المرأة على الإطلاق، فلم يكن مهتما ولم تعد لديه الرغبة فى الأنثى، ثم أردفت تاليا قائلة الشكر لك أيتها الآلهة ديمتر.

وكثيرًا ما كان تريمالخيو يقضى الليل بأكمله نائما فى سريرها ولا يكتشف مبيته فى سريرها سوى فى الصباح الباكر فيبتسم ويقول: إنه قد انتابته كثير من الأحلام، فتبادله الابتسام وهى تقول: وأنا كذلك. ثم نظرت تاليا أسفل سريرها حيث تخبئ كل أموالها فى محفظة من الجلد فوجدت أنها قد ادخرت خمسة وعشرين أسًا. إن هذا المبلغ لا يكفى أن تشترى به حريتها وتفتح به عيادة خاصة بها. ثم إن عليها أن تتعلم كثيرًا فى مهنة الطب من ليبتينوس ومن بقية القابلات بالإسكندرية. لقد اشتهرت تاليا بين نساء الإسكندرية بأنها جالبة الحظ السعيد، كما أن الأطفال حديثى الولادة كانت تاليا بالنسبة لأمهاتهم مثل التميمة التى يجب على المرء أن يرتديها حول رقبته لتجلب له الخير. أما بقية قابلات الإسكندرية فلم يسعدوا بهذا، وإذا سألت إحداهن عن مسألة لا تعرفها فكن يقابلنها فقط بهز أكتافهن ولا يقدمن

لها المساعدة. حتى حان يوم قابلت فيه تاليا بالصدفة المحضة أشـــهر قابلات الإسكندرية والتى تسمى نيوناختة، لقد كانت النساء تخـــشى تلك المرأة وذلك لسلاطة لسانها وغلظة قلبها، عندئذ خبأت عنها تاليا نواياها حتى تستطيع الاستفادة منها وفى الوقت نفسه كى تتقى شرها وسلاطة لسانها. لقد كانت هناك امرأة فى حالة ولادة، فجاءوا لها فى البداية بالقابلة المصرية العجوز نيوناختة، ولما كانت الولادة عـــسيرة وصعبة استنجدوا بتاليا كى تساعدها وتجلب الحظ السعيد للمرأة التى تلد. عندما بدأت تاليا عملها راحت تفكر فى كل حركة يد من حركات يد ليبتينوس وفى الوقت نفسه تتذكر كل كلمة قرأتها فى كتب سورانو وتطبق كلاً مع الآخر. ثم راحت المصرية العجوز تحاول مرة أخرى أن تفعل شيئًا وبعد وقت طويل من المعاناة قالت المصرية العجـــوز إننى لا أجد سوى رجل واحدة. أجابت تاليا منزعجة رجـــل واحـــدة فقط؟ فقالت القابلة المصرية تعالى أنت وجربى. أخذت تاليـــا تـــدهن يديها بالزيت جيدا ثم حاولت مرة أخرى، حتى عثرت علـــى القـــدم الثانية للطفل فى بطن أمه. فقالت تاليا للقابلة المصرية إننا لن نستطيع إدارة الطفل فى بطن أمه ولا بد أن نسحبه إلى الخارج مـــن قدميـــه، فوافقتها المـــرأة المصـــرية قائلة لها: إنك أنت التى تجلبـــين الحـــظ ولســـت أنا فـــلا تســـألى وحاولى. فكرت تاليا قائلة إنها قامت بتوليد إحـــدى عشـــرة امرأة قبل ذلك، وهذا هو الطفل الثانى عشر حتـــى

وإن جاء هذا الطفل إلى الدنيا بقدميه بدلا من رأسه فهذا ليس بعيب أو مشكلة. ثم بعد أن تمت الولادة بنجاح ساعدت تاليا المرأة في أن ترقد على سريرها، كما قامت بتنظيف الطفل المولود أيضًا، ثم شكرت تاليا القابلة المصرية على أنها قد علمتها شيئًا جديدا ثم انصرفت. بعد هذا اليوم تسابقت القابلات اليهوديات واليونانيات والمصريات على مساعدة تاليا وإعطائها ما لديهن من معلومات في مجال التوليد. إن نجاح تاليا قد جلب كثيرًا من المرضى إلى عيادة ليبتينوس، من مناطق كثيرة لم تكن قد زارت عيادته من قبل مثل الحى الشرقى من الإسكندرية، كذلك منطقة السوق، ومنطقة المعبد ومنطقة الصالة الرياضية، وكذلك المناطق الواقعة حول مركز الأبحاث. إن هذا النجاح وأولئك الزبائن الجدد هم الذين جلبتهم تاليا إلى عيادة ليبتينوس قد أعطاها قدرا من الحرية والشعور بنفسها. أما الآن ونظرا لشهرة تاليا فقد كانت تغيب كثيرًا عن العيادة لقيامها بزيارة النساء اللواتى يلدن، لهذا كان ليبتينوس يستعين بتيل بتاح لمساعدته، إن تيل بتاح قام بعمل كثير من الأخطاء التى كان ليبتينوس يتحملها ولا يعنفه عليها. حتى إذا جاء وقت ووقفت أمام العيادة محفة بداخلها رومانى نبيل يرتدى العباءة الأرجوانية الرومانية المعروفة، يحمل محفته أربعة من العبيد الأقوياء، كما أن وجه الرومانى معروف ومألوف، عندئذ صاح ليبتينوس مناديا على تاليا.

جاءت تاليا مسرعة للمساعدة إنها تعرف النبيل الرومانى. لقد رأتـه قبل ذلك فى معهد الأبحاث، والبشر تتحلق حوله. إنه الرجل الصغير رئيس أكاديمية الإسكندرية للبحث العلمى، كما أنه فى الوقـت نفسه كاهن معبد الإسكندر. ورغم أن الرجل كان عجوزا إلا أنه مـا زال يملك عينين حادتى الذكاء وفى منتهى الوعى واليقظة. وعندما نـزل الرجل من المحفة سارعت تاليا بالركوع أمامه على ركبتيها ثم قامت بوضع يده على جبهتها. فقال الرجل بصوت مرتفع لا يا ابنتى إنـك لست فى حاجة إلى ذلك، إننى هنا أبحث عن المـشورة والمـساعدة، ولربما كنت أنت من يمنحنى إياهما. ثم ساعد العبيد الرجل كى يدخل إلى العيادة، حتى جلس الرجل على مقعد وهو يقول: إننى أعانى تقدم العمر بى. إننى فى شبابى لم أعرف أبدا المرض أو الآلام. أمـا الآن فإن رجلى تؤلمنى مع كل حركة، بل إن كـل أوصـالى ومفاصـلى تؤلمنى، ثم رفع الرجل يده إلى أعلى وتركها تسقط على فخذيه.

نظر ليبتينوس إلى الرجل العجوز وقال له أيها الرئيس العظيم ثم أخذ يده التى كانت نافرة العروق، ضعيفة بين يديـه وراح يخاطبـه قائلا: " إنك لست بمريض إنك أكبر من أى شخص أعرفه فى هـذه المدينة. كما أن الإسكندر العظيم لهو سعيد قرير العين فى قبره لأنـه يعلم أنك أنت الذى ترعى قبره وتقوم على خدمته منذ أعوام طويلـة. أما نصيحتى الوحيدة لك هى أن تريح نفسك من العمل ومن المشاغل

التى تثقل كاهلك. ولما سمع الرجل العجوز كلمات ليبتينوس لمعت عيناه، وارتعشت شفتاه وهو يقول: لو أننى أعرف أنك ستقول هذا الهراء لى لما كلفت عبيدى عناء الطريق إلى عيادتك، إننى أتيت إليك كى تعطينى دواء يساعدنى على أداء أعمالى، لا لكى تأخذ منى واجباتى وتحيلنى إلى التقاعد. أجابه ليبتينوس إننى أخاف عليك فقط إنك تقوم بكثير من العمل وهذا مرهق لجسمك، لقد آن الأوان كى يستريح هذا الجسد ولا ترهقه بمزيد من العمل. لقد سمع كرايتس كاهن الإسكندر هذا من ليبتينوس وأخذ يتفحصه وهو مائل الرأس ساخرا، ثم قال: "إنه للأسف لم يجد فى مكتبته كتابا واحدا كى يقرأ فيه ما يساعده على القيام بأعماله اليومية عن طريق التغذية الجيدة والمساج والتدريبات الصحيحة". انزعج ليبتينوس عندما سمع هذا الكلام من الرجل العجوز لأن هذا الكلام يقوله رفاقه للذين يتدربون معه فى صالة الألعاب ولا يصح أن يقوله رجل عجوز يرأس أكاديمية البحث العلمى مثل كراتسى هذا. ضحكت تاليا فى سرها عندما سمعت كلام كرايتس العجوز ثم قالت لنفسها: ربما أراد هذا العجوز أن أقوم أنا بتدليكه أيضًا. بعد برهة من الوقت أجاب ليبتينوس محتدا إن المساج فى حالتك الصحية هذه غير صحى بالمرة ولن يفيدك. ثم أتبع ليبتينوس قائلا إن عضلاتك وجسمك الضعيف النحيل سوف يتفسخ وينسلخ بعضه من بعض فى أى يد تمد لك.

ولكننى أقترح عليك أن يقوم بعض الأشخاص بعمل سرير من المياه لك ثم القيام بهزهزة هذا السرير وأنت فوقه برفق.

سوف تؤدى هذه الهزات الناعمة الرقيقة إلى تهدئتك حتى تستطيع النوم بعمق، عندئذ سوف تتحسن حالتك الصحية، فأجاب الرجل العجوز مغتاظا هل تريد منى أن أرقد هنا فى حديقتك المملة هذه ساعات طويلة؟ لن أفعل!! فأجاب ليبتينوس إن شخصا ما سوف يقرأ لك فى كتاب حتى تستطيع النوم. عندئذ وضع كرايتس يديه أمامه وقال: أعتقد أننى ما زلت صغيرا على طريقة علاجك هذه، سوف آتى لك مرة أخرى بعد عشرين عاما وسوف نرى، ثم أعطى إشارة إلى عبيده كى يساعدوه على الدخول فى المحفة والذهاب به إلى منزله. فقالت تاليا إن لدى اقتراح متواضع فتوقف كرايتس عن ثورته واتجه إليها بكل اهتمامه. إننى رأيت أن كل قنوات المدينة الآن نظيفة، فبادر العجوز الثائر قائلا نعم إن الجنود الرومان لا عمل لهم سوى تنظيف قنوات النيل. إن تاليا تشعر بحب أبوى جارف تجاه هذا الرجل العجوز لقد شعرت بذلك فى أعماق نفسها. ثم أردفت تاليا تقول إنه سيكون ممتعًا وجميلاً أن يحمل العبيد محفتك بما فيها أنت وأسفل منك السرير المائى ويسيرون بك فى تلك القنوات فتستطيع أنت أن ترى الإسكندرية من أسفل بما فيها من الشعب البسيط العادى، وتستريح ولو لفترة قصيرة من رؤية المثقفين اليونانيين،

وكذلك المناظر الرومانية المملة. ثم نظرت إلى ليبتينوس قائلة: ما رأيك ياسيدى ليبتينوس العظيم. فنظر الكاهن إلى ليبتينوس وهو مهتم باقتراح تاليا وكأن ذلك الاقتراح قد لاقى هوى فى نفسه. ولما حدقت تاليا فى عينى الرجل لاحظت أن عينيه زرقاوان مثل شخص قادم من شمال اليونان أو حتى من صيدا. ثم أتبع الكاهن قائلا أتعتقد أن ذلك شىء مثير ومسلٍ أن أراقب السكندريين وأنظر فيما يفعلون وربما حتى ما يأكلون؟ طرق ليبتينوس إلى الأرض مفكرا وهو يحك بجوار أنفه الطويل المستقيم. وحانت منها التفاتة إلى العجوز كرايتس فغمز لها بطرف عينه ساخرا من الطبيب . وتمالكت نفسها كى لا تضحك ثم قال كرايتس وهو يضحك هل مسموح لى أن أنظر إلى الأوانى التى يتبول ويتبرز فيها أطفال سكندريون أم لا؟ ثم أتبع كرايتس قائلا ولا تنس إننى فى حاجة إلى خادمتك كى ترافقنى فى رحلتى هذه فإنك كما ترى إنى فى حاجة دائمة إلى رعاية وراح العبيد يملأون سرير المياه بالمياه ثم يضعونه فوق المحفة. فى أثناء ذلك لم يجرؤ ليبتينوس أن يغادر المكان ويترك هذا العالم الكبير ووقف يسامره وبجوارهما تاليا التى لاحظت أن ليبتينوس كان مغتاظا منها ولكنها لم تدر سبب غيظه منها. حتى إذا انتهى العبيد من عملهم كانت الشمس قد وهنت وراحت تميل إلى الغروب ثم جلس العجوز بمساعدة العبيد فوق سرير المياه الذى تحمله المحفة وأمسك بجانبى

المحفة بكلتا يديه، ثم حمل العبيد الأشداء المحفـــة وبجـــوارهم تاليـــا ترافقهم مشيا على الأقدام وهى لا تدرى لماذا ترافق هـــذا العجـــوز؟ كما أن ليبتينوس لم يعرف سبب إصرار العجوز على مرافقة تاليا له أيضًا ؟ ثم نظر العجوز خلفه حتى تيقن إننا ابتعـــدنا عـــن مـــسامع ليبتينوس قال كرايتس إذا فإنك تاليا الصيداوية، إننى سمعت عنك من بنتانوس، إننا نتحدث كثيرًا معًا، حيث إننا آخر الأجيال الكبيرة فـــى مركز الأبحاث وإننى أخشى عندما نموت سوف يتبدل حال المركز وسوف يعطى الرومان إدارته لشخص رومانى جاهل أو ربما حتـــى لملاكم. فجأة صاح كرايتس فى العبيد قائلا اتجهوا شمالا!! فقالت تاليا إن الشمال يؤدى إلى قناة القمر وهى لا بد مليئة بالمياه ولن تـــستطيع المرور بها. فضحك العجوز قائلا إننى أراقب هـــذه القنـــوات منـــذ سبعين عاما وأعرف متى تكون ممتلئة بالمياه ومتى تكون خاوية ثـــم قال للعبيد أن يتجهوا إلى قناة جانبية بها ماء ثم أمسك مـــرة أخـــرى بالجوانب الخشبية من المحفة عندما راح العبيد يـــصعدون الـــسلالم مبتعدين عن قناة القمر. ثم قال لتاليا إن الآلهة غاضبة علينـــا نحـــن سكان الإسكندرية، وهذا يخيفنى كثيرا. إن القناة الآن بها مياه ولكـــن ذلك لن يستمر طويلا وسوف تجف المياه من القناة عندئذ ماذا سيفعل السكندريون؟ ثم أتبع قائلا والآن دعينا من هـــذا الحـــديث المتـــشائم ولنستمتع قليلا بهذا الجو الطيب. فأجابت تاليـــا قائلـــة إنهـــم اليـــوم

يرقصون قال العجوز بالطبع لأنهم لا يعلمون ونظر متلفتا حوله قائلا إن ليبتينوس لو علم أننا قد اتجهنا إلى هذه القنـــاة التـــى بهـــا فـــرح ورقص لمنعنا من هذه المتعة أيضًا. إننى اعتقد إنه ضـــيق الأفـــق. فضحكت تاليا وهزت رأسها موافقة ثم مر العبيد حاملين العجوز فى مكان شعبى يتصايح به البائعون وأصحاب المطاعم من الإسكندريين إن الضوضاء فى هذا المكان شيء لا يطاق كما أن الحرارة هنـــا لا تطاق أيضًا. كما كان المكان تفوح به الروائح المختلفة منها الطيـــب ومنها الكريه. حتى إذا ابتعدوا عن الضوضاء واستطاع كل منهم أن يسمع الآخر جذب العجوز تاليا من ثيابها وقال لهـــا إن المـــصريين يقولون إن أوزوريس سوف يرسل المياه ويملأ القنوات. ثم قـــال إن لديهم الحق أن يسعدوا بذلك أما أنا فسوف أزور الـــسيرابيوم عنـــدما يملأ أوزوريس القنوات بالمياه. ثم قال العجوز لتاليا: أرجو ألا تكونى قد أصبت بخيبة الأمل لانتهاء هذا اليوم السعيد.

هزت تاليا رأسها وهى تنفى بذلك خيبة الأمل ومـــسحت العـــرق المتصبب على جبهتها وراحت تنظر حولها حيـــث راحـــت النـــساء ترقص على أنغام اثنين من عازفى الموسيقى بجوارهم جلس رجـــل وهو يراقص الثعابين بمزماره ، ولكم كانت تاليا سعيدة وهى تـــرى تلك المناظر وبصفة خاصة الثعبان الذى يخرج من السلة متراقـــصا عند سماعه صوت المزمار. أما كرايتسى فقد كان يود النظـــر إلـــى

مصارعى العصى هؤلاء الرجال الدمويون الذين كـانوا يـضربون بعضهم بعضا بعصيهم ضربا مبرحا حتى تسيل من رؤوسهم الـدماء فقال كرايتس إننى لا أعتقد أن ليبتينوس قد وصف لى هذا النوع من المساج؟ فضحكت تاليا وهى مشمئزة قائلة بالطبع لا فإن ذلك ليس به أى فائدة للروح أو الجسد.

لقد راح العجوز يتابع هذا الصراع بالعصى وهو مهتم ويقول: إن ذلك يعجبنى حيث إنه يذكرنى بشبابى كما أنه يرينى أن الذى يكـسب ليس الذكى فقط بل الشجاع الجرىء يستطيع أن يكسب أيضًا. وأخـذ لاعبو العصى يضرب كل منهم الآخر حتى سقط أحدهم وهو يـضع يده على أذنه التى تقطر دما فقالت تاليا: إنه مصارع جيد ولكنه لـم يضع فى حسبانه أن يكون خصمه أعسـر ولم يكن مدربا على مـا يبدو أن يصارع شخصا أعسرا. أما هذا الأعسر فقد كان فلاحا حيث أخذ رفاقه يحييونه بالضرب بأيديهم على ظهره. قال كـرايتس " إن ذلك يسرى على الصراعات جميعها" ولكنه صمت مرة واحـدة ولـم يستطع الحديث إذا أخذ العبيد الذين يحملونه يجرون دون أن يطلـب منهم هو ذلك.

أخذت تاليا تجرى معهم فى القناة التى كانت قديما مليئة بـالورود والعنبر والمسـك وكانت تبعث روائحها الزكية. أمـا الآن فتنبعـث منها روائح كريهة من كثرة ما يلقيه المصريون فيها من مخلفـاتهم.

ثم سأل كراتيس تاليا قائلا: هل تعرفين إلى أين يتجه القنال؟ فأجابت تاليا وهى تغلق أنفها بيدها: لا أيها الرئيس المبجل. إن بجوارهم كومة من الرمال والأتربة خلفها جيفة حيوان نافق وقد تجمعت عليها جيوش من الذباب الذى راح يعلو ويهبط. فهز الرجل رأسه حزنا وأسفا على قذارة المصريين. إن شوارع مدينة راقودة القديمة كان يسكنها الأجانب من كل أنحاء الدنيا جاءوا لطلب الرزق وهى أفقر أحياء المدينة. كما أن كرايتس العجوز لا ينسى مقولة أرسطو وهو يوصى الإسكندر الأكبر قائلا: " إن عليك أن تتخذ من اليونانيين أصدقاء لك، أما البرابرة فعليك أن تعاملهم مثل معاملتك للحيوانات، والنباتات، أما الرومان فهم الجماد". أما تاليا فراحت تتذكر والدها ثم أخذت نفسا عميقا وسألت كرايتس وهى تحاول أن تسيطر على نبرة صوتها من شدة الانفعال وهى تقول لكرايتس سائلة: هل أنت من أتباع أبيكوير أم أنك من أتباع ستويكر؟ فأجاب العجوز: إن ذلك من تأثير أفكار أبيك أليس كذلك؟ فهزت رأسها بالإيجاب. عندئذ قال كرايتس: إننى من أتباع الفيلسوف ستويكر. ولهذا فإننى عازم على التحدث مع أحد رؤساء الأحياء بخصوص هذه القاذورات والفوضى التى أراها، أما لو كنت من أتباع أبيكورير لكنت قد تقوقعت فى بيتى وتجاهلت الرومان ولم أقم بفعل شىء. ثم قال كرايتس لتاليا: هل تحبين أن تخبرينى شيئا ما عن والدك ووالدتك؟ مسحت تاليا دموعها بيديها

على عينيها خلسة وقالت له وصوتها يبدو متهدجا معذبا: لا لست هنا فى هذا المكان النتن، كما أننى نسيت كثيرًا من الذى يخصهما. كما أننـــى أخبرت كثيرًا عنهما للسيد بنتانوس المبجل. فقال كرايتس: نعم إننـــى أفهم وأقدر وعندما تشاء الآلهة فسوف تتذكرين كل شىء، إننى واثق بك. ثم صمت كرايتس وصار الركب يتقدم للأمام حتى اكفهر وجـــه الكاهن العجوز ، حيث إنه الآن يرى شيئًا أكثر خطورة وعنفـــا مـــن لاعبى العصى المصريين. لقد رأى رجلا يرتـــدى عبـــاءة ســـوداء وبجواره تمثال دب وأمام هذا الرجل ركعت امرأة، ثم قفـــز الرجـــل نازلا من على مكانه المرتفع ووضع كلتا يديه على عينى المرأة وهو يقول " إننى أقسم بيسوع المـــسيح المـــصلوب علـــى يـــدى الحـــاكم الرومانى بونتيوس بيلاتوس" لقد سمعت تاليا هذا أثناء سيرهما، ثـــم قال كرايتس إنه لا بد وأن توجد بالقرب من مكان هؤلاء المـــسيحيين بعض عتبات السلالم التى تخرجنا من هذه القناة. ثم قال العجوز إنـــه لا يوجد مكان على هذه البسيطة يعنى أنا وهذا الرجل كوادراتـــوس هذا المسيحى الذى كتب جزءا من هذا الإنجيـــل. فـــسمعت مقولتـــه هؤلاء النسوة اللاتى كن قد تجمعن حول الخطيب المـــسيحى، ولمـــا نظرت إلى مصدر هذه المقولة فزعن عندما رأين أن صاحبها يرتدى العباءة الرومانية الأرجوانية. لقد كان معظـــم مـــن اعتنـــق الديانـــة المسيحية من النساء. أما تاليا فقد استطاعت معرفة بعض الوجوه من

بين هؤلاء المسيحيين مثل سيماخوس الذى غطـــى وجهـــه بـــسرعة مستعينا بطرف جلبابه حتى لا يتعرف عليه أحـــد. وتحـــرك ركـــب كرايتس إلى الأمام حتى وصل إلى الحى الرومانى تاركا المـــسيحيين خلفه. ثم سمعت تاليا صوت المرأة التى كانت راكعة أمام الخطيـــب المسيحى وهى تصيح قائلة": إننى الآن أســـتطيع أن أرى أن الـــرب الرحيم قد أعاد لى بصرى" . فقال كرايتس إن المسيحيين لبـــارعون فى الخداع وما يحزن أن الناس البسطاء الجهال مخـــدوعون بهـــم، وهؤلاء الذين لم يتلقوا تعليما يمثلون للأسف الغالبية الكبرى. فـــردت عليه تاليا وهى تقول أتعتقد أنهم مخادعون؟ ثم نظـــرت تاليـــا إلـــى الخلف ورأت المرأة الضريرة وهى تقول إننـــى الآن أرى وراحـــت المرأة تعد أصابع القسيس المسيحى. أجـــاب كـــرايتس نعـــم إنهـــم مخادعون مهرة وخصوصًا فى مجال الطب، حيـــث إنهـــم دجـــالون مهرة، أما أنت فماذا يقول لك حسك الفلسفى؟ فكرت تاليـــا للحظـــة قائلة: إن يسوع يشفى المرضى ثم أن هؤلاء يعمـــدون علـــى أنهـــم نصارى، ثم يقوم هؤلاء الذين شفاهم يسوع وأصبحوا مسيحيين بشفاء غيرهم من المرضى الآخرين باسمه. فضحك كرايتس ساخرا وهـــو يقول: قد يكون رأيا صحيحا حسب نظريات أرســـطو. ثـــم قـــال إن بنتانوس قد أخبرنى بأنك قد تقدمت خطوات طبية ممتازة فى مجـــال الطب، وإذا كنت قد حققت هذا التقدم بالفعل فهل تعتقدين أن الطـــب

يأتى فقط من رب المسيحيين؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يستطيع الآخرون الذين ليسوا بمسيحيين أن يشفوا ويعالجوا؟ وإذا كان غير المسيحيين يستطيعون أن يعالجوا ويشفوا مرضاهم فما ميزة أن يكون المرء مسيحيا؟

فوجئت تاليا فى الحقيقة بكل هذه الأفكار التى لم تكن تحسب لها حسابا ولم تفكر بها. فأجاب كرايتس قائلا بالطبع إنهم يوهمون مرضاهم البسطاء الجهلاء بأن اعتناق المسيحية سوف يشفيهم من الأمراض. ثم قالت تاليا: إذا فإن ما يقومون به فى مجال الطب ما هو إلا وسيلة لاجتذاب الناس إلى المسيحية. فقال كرايتس: نعم ومن الأحرى أن تقولى إن الطب ما هو إلا طعم لاصطياد البسطاء. ثم تابع العجوز قائلا: تمامًا مثلما يقوم الرومان بتوزيع المال على الشعب قبل الانتخابات، ثم قال كرايتس إنهم أذكياء جدا بحيث إنهم إذا فشلوا فى علاج أحد المرضى فإنهم يقنعوه هو وأهله بأن المسيح قد اختاره ليخلصه من معاناته وذلك بالموت ليحيا خالدا فى الحياة الأخرى بالجنة. ولهذا فإن المتعلمين لا يصدقون المسيحيين ويسخرون منهم وبصفة خاصة دراسى الفلسفة فإنهم لا يتفقون أبدا مع المسيحين. فقاطعته تاليا قائلة أعتقد أنك تخبرنى بكل هذا من أجل غرض معين. فأجابها كرايتس نعم وهو حتى لا يؤثر عليك أحد ويجذبك إلى المسيحية لأن معظم أتباع هذه الطائفة هم من النساء والعبيد. وأرجو

ألا تنسى أبدا أن معلوماتك الطبية قد جاءتك من خلال خبراتك وقراءتك واجتهادك. فهزت تاليا رأسها متفقة معه فى الرأى وقالت: إن الأستاذ سورانو كتب قائلا إن شفاء المريض يعود بالدرجة الأولى إلى براعة الطبيب وليس إلى الطبيعة حيث إنه دائما ما كان يعتمد على التجربة والخبرة. فقال كرايتس إن هذا شىء جميل أنك تعرفين ذلك لأن المسيحيين سوف يحاولون إقناعك بأن الشفاء يأتى فقط من عند إلههم يسوع رب الطبيعة. وإذا نجحوا فى ذلك فإنهم بهذا سيكونون قد قضوا على علم الطب تماما. فقالت له تاليا: على ما يبدو فإنك مشغول جدا بالمسيحيين فقال لها: نعم إننى أخشى أن يأتى يوم وتنتصر عقيدتهم البدائية غير المنطقية التى تفتقد إلى الديمقراطية والتعددية. إن ضيق أفق عقيدتهم وعدم فهمهم لفكرة الآلهة سوف يدعوهم لتحطيم بقية الأديان وسوف يصبح العالم شكلا آخر غير العالم الذى نعيش فيه. فسألته تاليا هل تعتقد أن هذا اليوم الذى يسيطر فيه المسيحيون على مقاليد الأمور قريب؟ فرفع كرايتس حاجبيه وكتفيه إلى أعلى وقال لها: إن المسيحيين يتبادلون الأخبار بدقة وهم منتشرون فى روما وأنطوخيا والإسكندرية وأفسيوس وطرسوس وكورنيث وقرطاج. إن أحد حوارييهم هذا القزم الصغير ذو الرجلين المقوستين والذى يدعى باولوس قد ابتكر لهم نظاما جديدا يستطيعون عن طريقه السيطرة على العالم. ألا وهو أن النصارى يقومون بعمل

خطوتين للأمام ثم يخطون خطوة واحدة للخلف، تمامًا مثلما يحدث في الحروب. وراحت تاليا تتأمله بدقة وكأنه يتحدث عن خططها هي في سبيل نيل حريتها. ثم أكمل كرايتس حديثه قائلا ": كما أن المسيحيين عدوانيون وهم أخطر بكثير من اليهود الذين يعتنقون الفكرة نفسها: الإله الواحد". فغمغمت تاليا في نفسها قائلة " عجيب هذا العالم حيث إن المهزوم قد حدد الطريق وأعطى القانون للغالب".

سينيكا شاعر الرومان هو الذي قال تلك المقولة السابقة عندما رأى أن اليهود على قلة عددهم استطاعوا التسلل بين الرومان والدعوة إلى ديانتهم واجتذاب كثيرين منهم إلى اليهودية. فرد عليها كرايتس بقوله إذا فماذا سوف يقول عندما يرى الطائفة المسيحية وعنفها؟ ثم صفق بيديه كي يتوقف العبيد عن السير وينزلانه من على المحفة. إن باولوس خدعهم بقوله : إن المرأة هي ضياء للرجل" وفي الحقيقة يقصد أن الرجل هو رمز الإله وضياؤه، إن أباك يا تاليا لن يكون متفهما لهذه الأفكار المسيحية . فقالت تاليا ولا أنا أيضًا. ثم أكمل قائلا إنني أخشى أنهم بمثل هذه الأقوال يضللون الآلاف من النساء والعبيد ويستدرجونهم إلى عقيدتهم. ثم وضع الرجل العجوز يده على ذراع تاليا بحنان وقال لها: إنني لم أرد أن أزعجك بمخاوفي ولكنني أردت أن أحصنك فقط من أن تقعي فريسة لهؤلاء المسيحيين.

أما الآن فأنا جائع جدا وأتمنى أن تكونى أنــت جائعــة أيــضًا.
فهزت تاليا رأسها موافقة بينما تابعت بنظراتهــا الطبــاخ المــصرى الأسود الذى اتجه إلى المطبخ. لقد راح يحرك فى إناء نحاسى كبيــر تصاعدت منه أبخرة ذات رائحة طيبة من لحم وشوربة، بينما كــان الطباخ المصرى يعد الطعام كانت تاليا تفكــر فــى والــى المدينــة تريمالخيو الذى جلس بالقرب من القناة التى كان بجوارها الخطيــب المسيحى وهو يعظ فى المسيحيين، وقد راح يتنــاول طعامــه مــن مؤخرة الضأن السمينة والتى كان يسيل منها السمن على ذقنه كلمــا قضم منها قضمة وينزل متساقطا على عباءته الرومانية ذات اللــون الأرجوانى والتى غدت الآن متسخة حتى إنها تليق بعبــد ولا تليــق بوالى مدينة. ثم فكرت تاليا أن تريمالخيو قد تناول طعامه بمقربــة من المسيحيين لكى يراقبهم ويتابعهم ولكن ليس حبا فى القرب منهم.
قطع العبد الأسود على تاليا أفكارها عندما جاء مــن المطــبخ وهــو يحمل الجبن والخبز المصرى البلدى والبصل والكرات وراحت هــى وكرايتــس يتناولان الطعام، وعلى مرأى مــنهم كــان المهرجــون يقومون بتقديم بعض الألعاب حيث قامت مجموعة منهم بعمل هــرم بشرى وذلك عندما وقف رجل فوق كتفى رجلــين آخــرين وكــان جميعهم شبه عرايا بينما كان هؤلاء الاثنان يقفان فوق أكتاف أربعــة آخرين، ثم قام الرجل الذى يقف على قمة هذا الهرم الآدمــى بقــذف

قرد صغير لأعلى فتكور القرد فى الهواء وسقط على كتفى الرجـل مرة أخرى وقد خبأ رأسه وسط شعره الكثيف. فقالت تاليا وهى تتألم إن القرد يبكى لأنه خائف. ثم عبث كرايتس للحظة وقطب حاجبيـه وأعطى العبيد إشارة كى يتحركوا، وجاء العبيد وقذفوا ما تبقى مـن طعام فى أفواههم وتابعوا حمل المحفة. علق كرايـتس على مقولـة تاليا بقوله إن أرسطو يرى أن الحيوانات ذات صفات أقل من صفات البشر، فالحيوانات لا تملك المشاعر التى يملكها البشر، ثم قام الرجل بإلقاء القرد مرة أخرى إلى أعلى، عندئذ سقط القرد فوق ذراع أحدهم ثم قفز فوق رأس الآخر ثم فوق كتف الآخر والمهرجـون يتابعونـه بنظراتهم وهم مغتاظون منه يتمنون لو استطاعوا الفتك به فى هـذه اللحظة. ثم قام أحد المهرجين بالتحرك نحو تاليا بطريقـة رياضـية رشيقة وسريعة، ولم تدر أن أحدهم قام بوضـع القـرد فـى فتحـة صدرها، حيث تكور القرد والتصق بها وكأنه لا يـود أن يتركهـا. عندئذ هب العبيد واقفين متهيئين لضرب المهرج الذى اقتـرب مـن تاليا. ففزع المهرج وعاد إلى الوراء مذعورا بينما راح المتفرجـون يبتعدون عن المكان تحسبا لوقوع صراع بين المهرجين والعبيد. ولما لمست تاليا القرد الصغير شعرت بنبضات قلبه السريعة المتلاحقـة، فقالت تاليا تهدئ من روع القرد، إنك فى مأمن فلا تخف فلن يستطيع أحد أن يمسك بسوء. ثم صاح كرايتس قائلا للمهرج بلغة لا تفهمهـا

تاليا " إن ابنتى بالتبنى تريد أن تشترى منكم هذا القرد فكم تريــدون ثمنا له؟ فقال المهرج ألف أس لأن القرد استغرق منا وقتا طويلا فى تدريبه. فأجابه كرايتس إنكم لن تحصلوا إلا على مائة أس لأن القرد سيحتاج إلى وقت طويل كى ينساكم أيضًا.

فمد الرجل يده لكرايتس وما كاد يحصل منه علــى المائــة أس حتى راح يجرى مبتعدا عن المكــان. إن جمــيعهم يعلمــون أن أى صراع مع الرومان لن تحمد عقباه لأن الرومان سيغلبون حتــى وإن كان عددهم صغير. نظرت تاليا إلى كرايتس وقالــت ربمــا يكــون أرسطو غير محق فى رأيه هذا؟ فأجابها كرايتس بقوله ربما! وممكن أن يكون هذا المخلوق لديه من المشاعر ما ليست للبشر، من يدرى؟ ثم أخذت تاليا تربت على القرد الصغير وتداعب رقبته حتــى هــدأ وهدأت ضربات قلبه المتسارعة. ونظر إليها القــرد بعينــين بنيتــين مليئتين بالحزن والألم. فقالت تاليا لكرايتس إننى سأسمى هذا القــرد أرسطو نعم إنه أرسطو. هز كرايتس رأسه موافقا تاليا الرأى ولو أنه فى قرارة نفسه لم يكن مقتنعا بذلك تمامــا. إننــا الآن نقتــرب مــن السيرابيوم المحاط بسور عظيم من الطوب اللبن، وقد جاء إليه زوار من أنحاء العالــم يــزورونه ويصلون عنده، حجاج رومان كثيرون إن السيرابيوم هذا ليعد من أهم معالم مصر وأروعها الآن وكــذلك. لقد كان الزحام هنا كبيرا حتى أن تاليا كان عليها أن تتشبث بالمحفــة

حتى لا تتوه فى الزحام. إن السيرابيوم يُعبد به أوزوريس وأيـــزيس، إن إيزيس كانت قريبة الشبه من ديمتر حتى أنها كانت مثل أختٍ لها. وعندما وصلوا إلى السيرابيوم كانت الصلاة الثانية بالمعبد قد بـــدأت، إن عباءة كرايتس الرومانية كانت تفرق المصلين والحجاج وتفـــسح الطريق أمام المحفة. أخذت تاليا تمشى خلف المحفة وهى فـــى ذات الوقت تخفى أرسطو فى طيات ملابسها حتى لا يراه أحد وهو يبـــدى حراكا ويبقى مختبئا، كما لو كان يعلم ما تريده منه تاليـــا، حتـــى إذا وصلنا إلى حبل كان يفصل بين الحجـــاج وقـــدس الأقـــداس وقـــف كرايتس يتأمل فى صمت المذبح الذى كانت تستعر خلفه النار ثم إلى الخلف كان هناك سلم يؤدى إلى أعلى. وفوق كل درجة مـــن الـــسلم كان يقف اثنان من الكهنة الذين كانوا يرتدون ملابس بيضاء. أخـــذت تاليا تستمع إلى تراتيل الكهنة الهادئة الجميلة والتى تهدئ الأعصاب. بينما قبض أرسطو على أصبع تاليا مختبئا فى ملابسها وراح فى نوم عميق. إن السلمة الأولى يقف عليها كبير الكهنـــة وبجـــواره وقفـــت كاهنة وهى تحمل إناء به الزيوت العطرية، كما وقف بجوارها كاهن أثيوبى أسود يحمل آلة موسيقية، ثم أخذ كبير الكهنة يغنـــى بـــصوت واضح وجميل" إيزيس يارب السماء" وخلفه أخذت المجموعـــة مـــن المنشدين تردد ما قاله. وفى نهاية الصلاة قاد كبير الكهنة المـــصلين جميعهم كى يريهم ماء النيل الشافى المقدس.

أثناء تلك الصلوات والأناشيد الدينية، شعرت تاليا بالحب والدفء والروحانية. بل إنها كانت تتخيل وكأنها ترى الإلهة إيزيس نازلة من فوق درجات السلم تتهادى وتتبختر حتى وصلت آخر درجة من درجات السلم صمت جميع الحاضرين وتوقفت الموسيقى وانتهت الصلاة. ثم قال كبير الكهنة " إن أوزوريس لا يمشى فى الظلام، ولن يقضى لحظة فى الجحيم، وهو ليس وليد الصدفة" لقد قال كبير الكهنة ذلك باللغة اللاتينية. ثم شكر أقارب المتوفى كبير الكهنة الذى هبط إليهم وراح يتحدث معهم، ثم أخبرهم بأن نوفا تيان ماكسمينوس وهو قريبهم المتوفى الآن ينعم بالقرب من أوزوريس فى النعيم المقيم إلى الأبد. ثم قام بقية الكهنة بتشكيل طابور منظم ونزلوا من السلالم ذاهبين إلى بقية أجزاء المعبد. ثم اتجه كبير الكهنة إلى كرايتس الذى قابله الآخر بابتسامة عريضة ويدين مفتوحتين. تراجعت تاليا خطوتين إلى الوراء كى تعطى الفرصة لهذين القطبين الكبيرين أن يحيى كل منهما الآخر على طريقته. عندئذ أخذ أرسطو يحرك يديه ورجليه وكأنه آدمى يحلم أحلاما مزعجة فى منامه. ولكن القرد أرسطو الآن قد استيقظ وأخذ يحاول أن يخرج رأسه من ملابس تاليا، بينما حاولت تاليا أن تخبأه بكلتا يديها. بينما هى كذلك التفت فسقطت نظراتها على المرأة الرومانية البغيضة أفرانيا. لقد رأت هذه المرأة الكريهة ما تخبئه تاليا فأشارت بأصبعها وهى تقول، إن هذا القرد

كان منذ قليل يلعب ويقفز مع المهرج الأسود. ولما سمع الكاهن المصرى ذو الرأس الأقرع حديث أفرانيا عبث بحاجبيه ونظر تجاه تاليا. ثم تابعت أفرانيا قائلة هل إننى قطعت رحلتى البعيدة من روما كى أحج إلى إيزيس وأوزريس ثم آتى هنا كى أرى أن عبدة حقيرة تهين الإلهين المقدسين فى معبدهما؟ لقد ارتبكت تاليا وكادت أعضاؤها تصاب بالشلل من الخوف. بينما هم الكاهن المصرى أن يقوم بفعل شيء يدحض به هذه الإهانة التى لحقت بالمعبد. أدرك كرايتس بسرعة الموقف عندما صاح قائلا: مهلا إن تاليا لا تهين الآلهة ولا تسبها فهى متدينة، إن تاليا أنقذت هذا الحيوان المسكين فقط من موت محقق ، كما أنها هنا لمساعدة الطبيب ليبتينوس قد أرسلها معى لعلاجى، كما أننى لا أفكر فى هذا الحيوان بل أفكر فى لقائك أنت يا كاهن إيزيس المبجل. عندئذ هدأ كهنة إيزيس وانفك التوتر الذى أحدثته أفرانيا. ثم أتبع كرايتس قائلا إن تاليا لو كانت فعلت هذا فى إقليم يعبد فيه القرد لكافأها الناس على ذلك إنها لم تفعل شيئًا خطأ حتى تثوروا هكذا. وإذا فليهدأ جميعكم. ولكن أفرانيا الشريرة تستطيع أن تعكر صفو أى مكان توجد به، تمامًا مثل الفراشة التى تشم رائحة الزهور من على مسافات بعيدة. قالت إن هذه لفضيحة كبرى للرومان بل إن نائب الملك زوج أختى المتوفاة لن يقبل هذا بل إنه سوف يطلب من الحجاج الرومان أن يحجوا إلى معبد آخر مميز. هذا

المعبد من معابد أوزوريس. إن ذلك لشىء بشع أن معبد أوزوريس بالإسكندرية يصبح ملاذا للقرود التى جىء بها من هليوبوليس باللعنة والعار.

اغتاظ كرايتس لوقاحة أفرانيا واعتبر ذلك إهانة له. فى أثناء ذلك الوقت كانت تنظر تاليا إلى رأس الكاهن المصرى الصلعاء التى كانت تلمع تحت ضوء اللمبة الجاز. رفع الكاهن المصرى المدعو "هنت" يده إلى أعلى وهو باسط أصابع اليد ثم راح ينزل يده وهو يقبض على أصابع يده ببطء ثم أنزل يده. عندئذ اتجه عبيد المعبد إلى تاليا بأقدامهم الحافية تطرقع فوق بلاط المعبد وبينما ترتعد تاليا خوفا من اقترابهم منها حتى إنها فقدت الإحساس بالزمن.

الفصل السابع

الكوليرا

أخذ ليبتينوس يسب ويلعن آلهة الأولمب، يا إلهى لماذا تتحدى هذه الخادمة دائما الكبار؟ متى سوف تتعلم أن تنتبه إلى نفسها وتحافظ على نفسها؟ وذلك عندما عاد سرير المياه يحمله العبيد متأخرا ساعات طويلة ولكن بدون تاليا. عند ذلك قال له كرايتس إنها لم تكن الآلهة التى أرسلت تاليا إلى السجن بل الكاهن المصرى هو الذى فعل ذلك. ولقد حاولت عبثا أن أمنعهم من أن يقبضوا عليها. إننى حاولت بلا يأس مثلما حاول أيون المغنى مع آلته الموسيقية ليرا ولم أفلح. إن عدم اهتمام ليبتينوس بتاليا ومصيرها أزعج الكاهن العجوز حتى أنه غدا وكأنه ثقيل الحركة ولم يعد يستطيع السيطرة على أعضاء جسمه. ثم قال الطبيب الحمد لله أن تيل بتاح يعرف قليلاً ويستطيع المساعدة شيئًا ما. وإذا أردت فإن تيل بتاح يمكنه غدا مرافقتك فى رحلة العلاج. أجاب كرايتس، لا إننى لا بد وأن أريح نفسى أولا من المشقة التى سببها علاجك هذا وأنت ألا تود أن تفعل شيئًا لتاليا ياليبتينوس؟ أنت تعرف جيدا حالة السجون المصرية المزرية بل إن كثيرًا من المساجين الذين يدخلونها لا يخرجون مرة واحدة ولا يعلم

عنهم أحد شيئا، بل إن كثيرا منهم يقتل ولا يعرض على القضاء إطلاقا. فضحك ليبتينوس وقال مع احترامى لرئيس أكاديمية البحث العلمى وكاهن الإسكندر وكهنة الإسكندرية الذين لم يستطيعوا عمل شيء لها فكيف أقوم أنا بعمل أى شيء لها. كما أن الإسكندر الأكبر إذا تدخل أحد فى شئونه فإنه سيلجأ إلى الإمبراطور شخصيا. فنظر كرايتس إلى الطبيب وهو مشمئز منه وقد كشفه على حقيقته، وقال لنفسه: إنه شخص وصولى متسلق، إنه ليس إلا يونانى حقير يتطلع إلى العباءة الرومانية. ثم قال ليبتينوس: كما أنه ليس جميلا أن أخرج تاليا من السجن وبذلك أكون أنا أمام الناس قد فعلت ما لم تستطع أنت فعله. ثم مد ليبتينوس يده وساعده فى الخروج من المحفة.

غمغم كرايتس بصوت منخفض وهو يقول: إنكم لستم فى حاجة إلى مجاملتى وتقديم الفتاة كبش فداء. تجاهل ليبتينوس هذا التعليق من كرايتس وكأنه لم يسمعه. بعد برهة من الوقت قال ليبتينوس: إن عبدة مثل هذه لا تستحق هذا الاهتمام كله منك وإننى متأكد من أنهم سيتركونها. أما المحكمة المصرية فقد كانت خارج سور المدينة على ترعة المريوطية التى كانت قد جفت مياهها ، فى هذه المحكمة المصرية كان يُحاكم المصريون فقط وتنفذ فيهم الأحكام فى الحال. كما أن جلسات المحكمة هذه كانت تعقد على فترات متباعدة. وكان القضاة الذين يحكمون على المجرمين المصريين هم من المصريين.

لقد جلست تاليا فى السجن أياما عديدة وطويلة. إن السجن كان تحــت الأرض، لطالما قامت بعد الأعمدة التى تحمل سقف هــذا الــسجن، لطالما كانت تلعق الندى الذى كان يسيل على حوائط هذا السجن مــن حرارة أجسام المساجين، حيث إن الماء كان قليلا وبقيــة المــساجين كانوا يتصارعون على نافورة المياه التى لا تكفى كل من بالــسجن. أخيرا بعد هذه الأيام الطويلة فى السجن أخرجــت إلــى المحاكمــة مربوطة فى سلسلة طويلة مع كثير من المساجين الآخرين إلى صالة قذرة مهدمة يطلقون عليها صالة المحاكمة، غارقة فى عرقها تحــت الشمس الحارقة تحاول أن تلتقط أنفاسها فلا تأتيها ســوى الــروائح النتنة. جميع رفاقها فى السجن كانوا متسخين وقذرين، وبعض مــنهم كانوا مبتورى الأعضاء حتى إن أحدهم كان الــصديد يتقــاطر مــن ذراعه والباقون الذين يمشون خلفه يدوسون عليه بأقدامهم ويتلاشــى الصديد مختلطا مع التراب.. إنهم فى طريقهم إلى المحكمــة مــشوا كثيرًا فى طريق صحراوى وبعد فترة طويلة لاحت فى الأفق بحيــرة تشرق فوقها الشمس. ثم بدأوا يسيرون فوق أرض طمييــة ســوداء ينبت بها كل ما هو أخضر. حتى إذا وصلوا إلى مكان يتكــون مــن ثلاثة حوائط مبنية من الطوب الأحمر سقفها عبارة عن جريد نخــل وخوص تتدلى منه خيوط العناكب وبعض الحشرات الأخرى. ارتفاع كل حائط يزيد قليلا عن ارتفاع الفرد. أما الحائط الرابع فقد تكون من

العبيد الذين وقفوا ينفذون أحكام الإعدام والتعــذيب علــى المحكــوم عليهم. لم يكن من حق المذنبين أن يدافعوا عن أنفسهم أو يدافع عنهم أحد بل أنهم وقفوا فقط كى يسمعوا ما ينطق به القاضى مــن حكــم. حتى إذا جاء الدور على تاليا ونادى المنادى وتقــدمت تاليــا وهــى ترتعش ولكنها فى الواقع تفكر فى القــرد الــصغير أرســطو الــذى يرتعش هو الآخر معها. حتى إذا وصلت أمام القاضــى المــصرى النحيل، نظر إليها من أعلى وقال " إن الإله رع العادل يحــب ذوى الشفاة الأرنبية ويشملهم بعدله، اذهبى فى حمى رع" لقد قال ذلك بلغة يونانية ضعيفة وسيئة. ثم أخذت تاليا تبتعــد عــن مكــان المحكمــة المزرى وهى لا تصدق نفسها أنها قد نجت من الموت. وكلما مشت عدة أمتار نظرت مرة أخرى إلى الخلف لأنها تعتقد أن شخــصا مــا يلاحقها ويقبض عليها ويقتلها أو على أحسن تقدير يودعها الــسجن، حتى استطاعت تاليا بعد سير طويل أن ترى أسوار معابد الإسكندرية ونخيلها المرتفع أدركت أنها نجت من الموت بمعجزة. ثم اتجهت إلى العيادة التى قد ساءت حالتها وذلك لغيابها كما أن تيل بتاح لا يستطيع أن يحل محل تاليا حيث ينقصه كثير مما كانــت تاليــا تتقنــه. أمــا ليبتينوس فلم يبد سعادة عندما رأى تاليا وصاح قائلا وهــو لا يكــاد يصدق نفسه. "باسم كل عاهرات الدنيا أخبرينى من أين أتيــت، هــل انشــقت عنــك الأرض؟" فأجابت تاليا وهى منهكة نعم لقد انــشقت

عنى الأرض، وخرجت من الجحر الذى يحتوى على القــاذورات كلهــا. فقال ليبتينوس: نعم إننى أرى وأشم ذلك. هيا اجــر وتحركــى إلــى الحمام كى تغتسلى قبل أن تملئى العيادة قذارة وأمراضا. ابتسمت تاليا وكأنها سعيدة بحريتها وخروجها من السجن. بعد ذلك اتجهــت تاليــا إلى المطبخ حيث تجلس فيرونيرو الطباخة المصرية التى تابعت تاليا بنظرات حاقدة مغتاظة، وأخذت تقول لنفسها إننى اليوم قــد طبخــت لحم أرانب بالشربة وهذا الطعام لذيذ لكل من هو فى مــصر ولكــن ليس لمن هم ذوى الشفاة الأرنبية. ثم اغتاظت الطباخة فيرونيرو أكثر عندما رأت تاليا قد غرفت لنفسها من إناء الطعام دون أن تتبــادل أى كلمة مع فيرنيرو وراحت تأكل مثلما يأكل الذئب الجائع. إنها تمنــت لو أن الطعام لم يعجبها. لقد شعرت تاليا أن شيئًا ما يدبر لها ولكن لا تدرى ما هو؟ ثم أن تاليا قد وصلت عين المياه قبل أى أحد وكانــت هى أول من دخل عين المياه التى وقف عليها عبد حــارس وعنــدما رأى تاليا أغلق أنفه بيده وقال ما هذا؟ من أين أتيت؟ هل جئت لتوك من مجارى الإسكندرية هل كنت هاربة من سيدك؟ هزت تاليا رأسها مستنكرة هذه التعليقات وقالت لنفسها إننى كنت أتمــرغ فــى بــراز الآلهة، أما سيدى فهو خادم لهذه الآلهة. لهذا فإنهم أطلقوا سراحى ثم أظهرت ملابسها النظيفة التى كانت تضعها أسفل ذراعهــا للحــارس الذى وضع يده على عينيه وقال لها إننى لم أرك اليوم إن ذلك يكلفك

أسًا واحدا فأعطته إياه ثم قالت له: إننى أريد صابونة فقال لها إذن فأعطينى أسا ثانيا فأعطته إياه وناولها العبد الصابونة عندئذ غاصت تاليا فى الحمام تستحم. بينما انشغل العبد بشرب النبيذ من إناء فخارى. أخذت تاليا تدلك رأسها بالصابونة فانبعثت منها روائح كريهة وصلت إلى أن النساء الأخريات اللاتى كن يستحممن قد نفرن من المكان وابتعدن عن تاليا وهن يتفوهن بالسباب واللعنات. إن الصابونة قد تساعد فى تنظيف الجسم ما علق به من قاذورات ولكنها لن تساعد فى إزالة الشعور بالأذى والتحقير. لقد كانت هناك نساء قد جئن ومعهن عبيدهن الإناث وعندما رأين تاليا رحن يقذفنها بألسنتهن الحداد فتقول إحداهن لتاليا أيتها التراكية أين تركت شعرك حتى غدا قصيرا هكذا؟ وتقول الأخرى هل تفهمين حديثنا؟ هذه المرأة التى سألت تاليا عن شعرها أين تركته كانت ترقد على بطنها بينما تقوم امرأة بتدليك ظهرها ، فأجابتها تاليا بقولها أعتقد أنه فوق رأس امرأة رومانية، ولم ترد المرأة الرومانية على تاليا حيث إنها اعتقدت أن تاليا وراءها شخص رومانى كبير يحميها. ومنذ هذه اللحظة لم تجرؤ امرأة أخرى على مضايقة تاليا. لقد ودت تاليا لو بقيت فترة أطول فى الحمام تستمتع بالمساج والمياه الساخنة إن جميع أعضاء جسمها تؤلمها ولكن العيادة مليئة بالمرضى ولا بد لها أن تساعد ليبتينوس فى العيادة. تحاملت على نفسها وخرجت ذاهبة إلى العيادة.

هناك كان ليبتينوس ينتظرها وهو قلق، وماكاد يراها حتى صاح بهـا هيا لا بد وأن تأتى معى. فقالت تاليا لماذا آتى معك؟ فأجابها إن هناك سيدتين قد فقدتا جنينهما من كثرة الإسهال والقيء وهـؤلاء النسوة يعتقدن أنك لو كنت معى لما فقدتا الطفلين. فارتجفت تاليـا عنـدما سمعت أنها ذات سمعة طبية كبيرة وأن جميع الناس يعرفونها. ثـم اتبـع ليبتينوس بقوله إننا الآن ننتظر أن يأتى من يحملنا على محفة حتى لا أرهقك ويعيب الناس علىّ أيضًا أننى تسببت فى موتك!! ثم جـاءت المحفة وجلست تاليا فوقها بجوار ليبتينوس وهى تفكر فخـورة لـولا النساء وأمراضهن ما أتيحت لى الفرصة أن أتعلم الطب أو أتقدم فـى مجاله، والحمد لله أن ليبتينوس لم يشغل نفسه قبـل ذلـك بـأمراض النساء وترك لى هذه الجزئية حتى صارت ملكى. وبينما هى غارقة فى أفكارها كان العبيد يجرون بالمحفة ويتساقط من أعناقهم العـرق. ومن خلال الطريق أدركت تاليا أنها تركت الحى الرومانى واليونانى خلفها ولم يبق أمامها سوى الحى اليهودى الذى كان فى الشرق مـن مدينة الإسكندرية حتى توقف العبيد فـى أقـدم حـى مـن أحيـاء الإسكندرية ونهضت تاليا من مكانها متهيئة للنزول من المحفة. أمـا حالة الطب بمدينة الإسكندرية فنعرفها من خلال تلك القصة التى تبدأ أحداثها كالتالى:- هنا الطبيب ستيفوكاتو بمدينة الإسكندرية يحاول أن يعالج مريضا مسيحيا، هذا الطبيب يعتبر أحـد الأطبـاء اليونـانيين

بالمدينة. لقد عمل قطعا فى رجل أحد المرضى كى ينزل منـــه الـــدم الفاسد ولكن الدم لم ينزل كثيرًا بل راح ينقط نقطا بسيطة، نقط لم تكد تغطى قاع الإناء الذى يستقبلون به الدماء. تعجب الطبيب قـــائلا: إن رجلا مثل الدب هكذا فلا بد وأن ينزف الدم منه مثل النافورة.

راح الطبيب يضرب رجل المريض بحافة يده كى يجرى الـــدماء فى رجله ولكن لم يسل الدم من الجرح الذى عمله الطبيب. عند ذلك قال سائلا المريض: ربما تكون قد أجهدت نفسك ووقفت طوال اليوم على رجليك تخطب فى الناس؟ ولم يتلق الطبيب إجابة من المـــريض الذى كان فاغرا فمه الجاف مثل رمال الصحراء. لقد حاول الرجـــل جاهدا أن يتحدث ولكنه لم يستطع إخراج صـــوته وظلـــت معاناتـــه وآلامه سرا مختبئًا فى صدره لا يعلم عنه أحد شيئا. لقد حاول الرجل أن يضم يديه للصلاة فلم يستطع وبدا وكأنه قريبا سيلقى ربـــه. ثـــم يحاول الرجل أن يلتقط أنفاسه فلا يستطيع. أثناء ذلك قام ســـتيفوكاتو بوضع أكواب الهواء الساخن على ظهره حتى تنشط الدورة الدمويـــة لدى المريض كى يسيل من سمانة رجله الدم الذى ربما يكـــون قـــد تجلط فى عروق المريض ولكن ذلك لم يحدث. فأشـــار ســـتيفوكاتو بأصبعه كى يحضر له مساعدوه كوب هواء ساخن آخر كى يـــضعه فى مكان آخر فى جسم المريض إنه كان بارعًا فى تخصصه، حتـــى إن بقية الأطباء لم يستطيعوا مجاراته فى ذلك لأنهم لم يكونوا بارعين

فى التشريح مثله. ولكنه حتى وبعد أن وضع الكوب الثانى على ظهر المريض لم يشعر بأى حركة فى جسم المريض، بل أن نبض المريض لم يكن لينبض، إن خطيب المسيحيين الذى كان بالأمس يبشر بالمسيحية ويخطب فى الكفار قد مات، فأغلق ستيفوكاتو عينيه وقال لزوجة المريض لقد طلبتنى بعد أن ساءت حالته. لقد انتظرت طويلا إنه مات. فأخذت زوجة المتوفى تلطم وجهها بكفيها وتصيح وتندب قائلة: ماذا أفعل من بعدك يازوجى؟ ولكن الطبيب لم يجبها عن هذه الأسئلة كلها لأن مصير مرضاه بعد وفاة ذويهم لا يهمه.

كما أن الطبيب الآن يفكر فقط فى أن ينتزع أجره من هذه المرأة التى مات زوجها على يديه. ثم أخذ ينظر إلى المرأة التى أدركت أخيرا أنه يريد أن يحصل على أجره فذهبت إلى ركن مظلم من البيت وأخرجت منه كيس من القماش يحتوى على النقود. فتحت المرأة كيس النقود أمام الطبيب وقالت له خذ ما تراه مناسبا كأجر لك، فأخذ الطبيب بدون تردد ما يكفيه من كيس النقود وزيادة، فلم يكن يكتفى أبدا من تحصيل النقود فهى غايته ومتعته. بعد أن حصل الطبيب على أجره أسرع مبتعدا عن هذا الحى الفقير. إن الحى يتكون من حارات ضيقة بيوتها من الطين وأسقفها من القش وأسرتها عبارة عن حصيرة فقط ومواقدهم من الطين الذى يشعلون به الحطب. الناس فى هذا الحى لا يعرفون النعال، حيث يمشون جميعا حفاة. ترى من

بينهم من هو ذو لحية ومن لا لحية له، كما ترى من بينهم مـــن هـــو أبيض البشرة والبنى وذوى البشرة الداكنة أيضًا.

أما تاليا التى راحت تراقب هذا البؤس والفقر كلـــه، فقـــد وجـــه انتباهها عربة كارو يجرها حمار وقفت أمـــام أحـــد الأكـــواخ وراح الرجال يحملون ربطتين فوق هذه العربة. لقد اعتقدت تاليا أن هـــاتين الربطتين ربما كانت أشياء أراد أصحاب الدار بيعها. ولكن ليبتينوس الطبيب ذا العينين الخبيرتين فقال: إنهما جثتان، حتى إذا وصلا إلـــى العنوان المقصود قفز ليبتينوس من المحفة ولم يشأ للعبيد أن ينصرفا حتى تأكد أن هذا البيت الذى وقفنا أمامه هو البيت المقصود.

لقد كان البيت ذا أسوار مدهونة بلون أبيض، ونظـــر مـــن فـــوق سطح هذا البيت رجل ذو لحية مهندمة، فحدق به ليبتينوس ثم قال له هل أنت كليون؟ فقال الرجل: وهل أنت الطبيب ليبتينوس الذى يسكن فى مدخل القمر؟ ثم وضع الرجل سلم على سطح منزله ونزل عليـــه متجها إلى ليبتينوس بينما كان ليبتينوس يدفع أجر العبيد الذين حملوه هو وتاليا حتى بيت الرجل المريض. ولما دخلت تاليـــا وليبتينـــوس منزل الرجل سمعت صوتا مبحوحا عاليا ينادى على أحد كى يـــسقيه ماء وقبل أن يرى ليبتينوس المريض قال: إننى أعتقـــد أن جمـــيعهم لديهم المرض نفسه، ولكن كليون وزوجته يبدوان بصحة جيدة. لقـــد لاحظ ليبتينوس أن زوجة كليون قد نظرت إلى تاليا وهـــى متعجبـــة

رافعة حواجبها، ثم قالت المرأة: أنها لا تشبع من المياه حتـــى أنهـــا لتستطيع أن تشرب صفيحة مياه دون أن ترتوى. لقد رقد فى غرفـــة المرضى رجل وامرأة على سرير منخفض وبينهما طفل صغير، كما أن البشكير الذى يمسحون به عرقهم كان مبللا ويقطر مياه من شدة عرقهم. أما الطفل فقد بدا مصفرا مكرمش البـــشرة وكأنـــه شـــخص عجوز. إن هذا الطفل ساعدت تاليا أمه على ولادته، أمـــا أم الطفـــل الشابة فكانت تبدو وكأنها موشكة على الهلاك. جلس ليبتينوس بجوار سيماخوس وراح يفحص المرضى بينما تساعده تاليا عنـــدما راحـــت تفحص الزوجة بيربتاوا التى أخذت تاليا تجس نبضها فلم تكد تجد لها نبض ولكن المرأة كانت لا تزال تتنفس. ثم قـــال ليبتينـــوس لتاليـــا احفظى هذه الأعراض ودونيها فى ذاكرتك جيدا. ورغم أن المرضى يوشكون على الموت قام ليبتينوس بتعليم تاليا وتوعيتها بماهية هـــذا المرض. لقد كانت الأعراض واحدة: البشرة متكرمشة والجسم بـــارد لزج واللسان لونه أبيض من لون الطباشير، وأنفاس المرضى بـــاردة جدا. براز المرضى وكذلك قيئهم ليست له رائحة، كما أن بها قطـــع بيضاء كثيرة. ثم انطلقت زوجة الرجل مثل الشلال وهى تقول: " إننى لم أرد استضافة هؤلاء المرضى كما أن هذا المرض منتشر فى الحـــى بأكمله وأنا خائفة جدا من هذا المـــرض، كمـــا أننـــا لا نـــستطيع أن نطعمهم طوال الوقت" قال الزوج: إنهم لا يأكلون ولن يضيرك فـــى

شيء، إنهم راقدون على السرير فأنت لست في حاجة إلى هذا السرير. زمت المرأة شفتيها بغيظ ولم تخف من زوجها ولم تحترم وجودنا وأخذت تقول لزوجها: " إنك لا تعرف شيئا، ولم تدر كم من سلال الملابس المتسخة قد حملتها إلى القناة كي أغسلها، هل تساعدني في ذلك مرة؟ إنك تحتسب دوما الجزاء عند ربك الذي تبغي منه المثوبة، أما أنا فإنك تتركني أقوم بالعمل. أي يونانية هنا تقوم بكل هذه الأعمال هل تستطيع أن تخبرني بذلك؟ ويجيب الرجل: اهدئي ياهيبارشيا ولا تجعليني مضحكة للحاضرين أم أنك تريدين ذلك بالفعل؟ فقالت الزوجة إنني لا أريد أن أكون دوما خادمة لضيوفك وإلا فعليك أن تستأجر عبدة لهم. فقال لها كليون الزوج مبتسما وهو يحاول أن يهدئ من روعها: " إن الخادمات يأكلن أيضًا ويحبلن وينجبن". فقالت هيبارشيا وهي تسب وتلعن" نعم يحبلن وينجبن بالطبع من سيدهن وهو رب البيت". فرد كليون ذراعيه وكور يديه متهيا للضرب ونظر إلى زوجته نظرة غضب لكي تكف عن سبابها وهو يحذرها ويبدو أنه اكتفى بهذا التحذير حيث إنه لم يضربها. ثم قال ليبتينوس لتاليا: إنهم يعانون من ضعف شديد في الأمعاء والأوردة، وعندما سمعت تاليا هذا فرحت فرحا شديدا حيث اعتقدت الشيء نفسه وفكرت هذا التفكير أيضًا . إن تشخيصها للمرض صحيحا. ثم قال ليبتينوس لتاليا: ماذا سنفعل الآن؟ فأجابت نقاوم هذا

الضعف والوهن فى جسم المرضى. كما أن المرضى فى حاجة إلى جو جاف وماء نظيف، عندئذ نظر ليبتينوس إلى ربة البيت وقال لها هل سمعت؟ لا بد وأن تحضرى من هناك قشا جافا كى يرقدوا عليه، فنظرت هيبارشيا إلى زوجها الذى أجاب بقوله: سأذهب وأحضر المياه حتى إذا رجعت من المحكمة تكونين أنت قد انتهيت من واجباتك. فسأل ليبتينوس متطفلا: هل تحضر الماء كل يوم من هذا المكان البعيد؟ قال كليون: إننى تعودت على ذلك لأن هناك مصريًا صغير الحجم يبيع دوما أعذب المياه بالإسكندرية قاطبة.

إن مذاقها كأنه قد جلبها توا من جبال الألب. ثم قالت هيبارشيا متهكمة إن زوجى يرى أننا أفضل من بقية جيراننا، لهذا فإنه لا يجلب المياه من الآبار أو القنوات مثل بقية الجيران بل يشتريها. أما تاليا فقد أخذت تغير ملابس الطفل المريض المبتلة من كثرة العرق وجميع أطرافه ضعيفة تكاد تنخلع بعضها من بعضها الآخر، ثم قال ليبتينوس لربة البيت: هل لديك خل؟ فأجابت بالموافقة، فقال لها الطبيب: ضعى لكل مريض مقدار كوب خل فى خمسة أكواب مياه ثم أسقى كل مريض هذه الكمية بالملعقة، أما الطفل الرضيع فلا تعطيه سوى ملعقة واحدة. فقالت المرأة ألا توجد وسيلة أفضل من هذه، لأن هذا العلاج لن يعطى تأثيره إلا فى المساء. فأجاب ليبتينوس: سوف نغسل أرجل المرضى بماء بارد ثم ندلكها تدليكا قويا حتى تصبح

دافئة ثم نلفها جيدا بالملابس، أما الآن فاستعجلى وقومى بواجباتك، لأنك لن تغسلى الملابس اليوم.

أما كليون فقد تظاهر بأنه لابد أن يقضى حاجة مستعجلة بالخارج وكأنه أراد الهروب ثم خرج مسرعا، بينما راحت زوجته تنظر خلفه وهى ضجرة حانقة. راحت تاليا تجفف مؤخرة الطفل المتقرحة بقطعة قماش من القطن ودهنت جسمه بالزيت، بينما رأت هيبارشيا ربما إنها كانت على حق فى ثورتها على زوجها كليون الذى أصبح مسيحيا وربما قد ضايقها بمحاولته معها أن تعتنق هى الأخرى المسيحية أيضًا. ثم نادى ليبتينوس تاليا وأخذا معًا يدلكان سيماخوس الذى استطاع الطبيب أن يرى أن جسمه قد دبت فيه الحياة وأصبح به لونا غير اللون المصفر؟ فى أثناء ذلك كانت هيبارشيا قد خلطت الماء بالخل وأحضرته ثم أنها أحضرت كمية من القش الجاف كى توضع أسفل المرضى. ثم سألت ربة البيت قائلة إنهم لا يعيشون فى بيتكم فأجابت هيبارشيا لا لا إنهم متجولون هنا وهناك. ولكنهم عندما مرضوا لجأوا إلينا وذلك لأن زوجى مسيحى مثلهم. فسألها ليبتينوس قائلا هل أنت مسيحية أيضًا؟ قالت هيبارشيا وهى محمرة الوجه لا لست مسيحية إننى ظللت على ديانة آبائى اليهودية، ولكننى لم أذهب إلى أى حاخام فى حياتى. كما أننا يهود الإسكندرية لا نحب أن يرحل الرومان من هنا بل نود أن يظلوا فى الإسكندرية حيث إننا على

النقيض من يهود القدس. ثم قال ليبتينوس مغتاظا ولما لـم تـستدعوا طبيبا يهوديا؟ فقالت المرأة إننا ذهبنا إليهم جميعا ولكـنهم مـشغولون بمرضاهم لأن الحى بأكمله مرضى، كما أن بربتوا تحب تاليا. فنظر ليبتينوس إلى تاليا معاتبا وأنت لمّ لم تقولى لى من هؤلاء المرضـى؟ هزت تاليا أكتافها مستنكرة سؤاله ولم تجب. عنـد ذلـك وضـعت هيبارشيا يديها فى وسطها وصاحت بالطبيب، منذ متى يسأل الأطباء عن ديانة المرضى؟ ألا يعالج الأطباء اليهود المرضى غير اليهـود؟ تمالك ليبتينوس أعصابه وكظم غيظه واستدار ينظـر إلـى الطفـل المريض وقال إنهم يعانون جميعا من الكوليرا. إننى أعنى بـذلك أن جسم المريض يفقد كل ما به من سوائل بسرعة كبيرة وهذا ما يطلق عليه الأطباء الرومان اسم كولى جالا. ولكن هذا المرض لـيس لـه علاقة بالمرارة كما يدعى الأطباء الرومـان، حيـث إن القـىء لا يحتوى على أى شىء من مكونات المرارة. فقالت تاليا: متـسائلة أى لون يكون القىء على ملابس المرضى؟ أجاب ليبتينوس: أصفر مثل صفار البيض.

فى هذا اليوم شعرت تاليا فى قرارة نفسها إنها تغفـر لليبتينـوس كثيرًا من أخطائه السابقة إنه اليوم علمها كثيرًا إنه بحق معلم بـارع. ثم أخذت تتذكر ما قرأته فى كتب سورانو الذى كتب إنه فى أحيـان كثيرة يكون من المفيد أن يعطى الطبيب مرضاه جرعة من الأفيون.

ثم نظرت إلى ليبتينوس وقالت له ماذا ترى فى هذا الـرأى؟ أجـاب ليبتينوس: إن الأفيون يساعد فى حالات إسهال كثيرة ولكن ليس فـى حالات الكوليرا، إنه هنا وفى هذه الحالة يضر ولا يفيـد. ثـم أتبـع ليبتينوس قـائلا: الثلج يعتبـر علاجًا مفيدًا أيضًا ولكننى لم أر ثلجـا فى حياتى، فقالت تاليا وهى فخورة لقد رأيت الثلج إنه مـادة صـلبة وباردة جدا وإذا أمسكت بها لفترة فى يدك فسوف تؤلم يدك من شـدة برودتها؟ واتبعت تاليا: وإذا وضعت هذا الثلج على منطقة تؤلمك فلا تشعر بالألم. نظر ليبتينوس إلى تاليا وهو غارق فى التفكيـر. بعـد ساعات طويلة قضياها لدى المرضى أصبح ليبتينوس متفـائلا بـأن المرضى سوف يشفون بينما هو وتاليا يخرجان من بيت المرضى إذ رأيا كليون أمام الباب وقد جاء يحمل وعاءً كبيرا مليئًا بالمياه علـى كتفه. بينما وقف الحمار بجواره وكليون ينزل من فوقه قدور الميـاه واحدًا تلو الآخر. فقال ليبتينوس له " سوف آتى بعد ثلاثة أيام مـرة أخرى" أجاب كليون وربما لا تأتي! فقال ليبتينوس أتشك فى قـدراتى كطبيب أيها المسيحى؟ فقال كليون لا أشك ولكننى أشك فى المـرض المنتشر بضراوة.

ويرى ليبتينوس وهو فى طريقه إلى منزله كثيـرًا مـن الجنـود منتشرين فى الطرقات ولم يفهم ليبتينوس سبب انتشارهم فى الطرقات هكذا. فى هذا الحى الفقير لا يعثر ليبتينوس على محفة كى تنقله هـو

وتاليا إلى منزله فمشوا بمحاذاة قناة مليئة بالمياه البنية والتـــى كـــان يعلوها سدا قد مشت عليه مع الفيلسوف كرايتس، لقد أرادت تاليـــا أن تخبر ليبتينوس بهذا ولكنها تذكرت إن ليبتينوس لـــم يكـــن يحـــب أن يسمع اسم هذا الرجل فعدلت عن هذه الفكرة حتـــى لا تعكـــر صـــفو علاقتها بالطبيب. كلما اقترب ليبتينوس من عيادته كان يسمع كثيـــرًا من الضجيج والضوضاء وفى الطريـــق رأى كثيـــرًا مـــن الرجـــال يهرولون وهم ينزفون بالدماء ويجرون فأخذ هو الآخر يجـــرى قلقـــا نحو عيادته. فلما اقترب من العيادة لم يجد حولها أى ضجيج ووجـــد كل شيء على ماكان عليه فهدأ وتنفس الصعداء. ولكن تاليـــا قالـــت لليبتينوس أعتقد أن شيئًا ما قد حدث، حيث قابلهم رجلا امتلأ جلبابـــه بالدماء وبجانبه رجل آخر يسنده. فقالت تاليا لهما ألا تودان أن تدخلا إلينا فى العيادة كى نعالج جراحكما؟ فأجاب الرجل بلغة يونانية قـــائلا دعينا وشأننا أتودين أن يقبض علينا الجنـــود الرومـــان؟ فقـــال لهـــا ليبتينوس: هيا بنا واتركيهم ولا تحدثيهم. ولكن تاليا أخذت تنظر إلـــى الرجال المصريين واليونانيين الذين كانوا يقابلونهـــا فـــى الطريـــق فجذبها ليبتينوس من ذراعها وصاح بها: " إن ذلك ليس مـــن شـــأننا وهيا امشِ ولا تفكرى سوى فى عملك".

وما إن وصلا إلى العيادة حتى دخل الجنود الرومـــان يحملـــون جنديا رومانيا جريحا وما أن أرقدوه على كنبـــة خـــشبية حتـــى راح

يصرخ من الألم. ثم قال سينتريو الصغير الذى يرافق الجنود الرومان بلهجة آمرة لليبتينوس" أيها الطبيب اربط له رجله كى نستطيع نقله إلى نيكوبوليس حيث يوجد طبيبنا الخاص هناك" ولم يستطع ليبتينوس الاعتراض على هذا الأمر، وقال لتاليا: أحضرى لى ألواح الكسور، بينما ذهبت تاليا إلى حيث توجد هذه الألواح مشى خلفها جندى رومانى ربما كى يراقبها أو ربما حب فضول من الجندى فلم تعرف لمّ تبعها الجندى هنا وهناك داخل العيادة؟ سألت تاليا الجندى قائلة: فيّم وجودكم هنا؟ أجاب الجندى الرومانى إننا هنا لنحميكم ممن يلقون الحجارة. ثم أخذت تاليا تعد الجبائر واللفائف بينما وقف الجندى الرومانى ينظر فى أركان الحجرة كما لو كان يبحث عن شخص مختبئ فى هذه الغرفة حتى وقعت عينيه على القرد. فقال لتاليا هل هذا قردك؟ فأجابت تاليا: إنه قرد حر لأننى لا أستعبد أحدا ولا أحب أن أمتلك أحدا ولكنه يعيش معى. فأجاب الجندى الرومانى: أرجو أن يكون هذا هو القرد الوحيد هنا حيث أراد بقية القرود أن يسرقوا القمح الذى نريد شحنه إلى روما، ولكننا أفسدنا عليهم خطتهم وقتلنا عددا كبيرا منهم وجرح الباقى. ثم قال الجندى أرجو أن يكون سيدك عاقلا ولا يعالج أحدا منهم حتى بعد أن نمشى من هنا. فقالت تاليا للأسف: إن سيدى دائما ما يكون عاقلا مع الرومان ولكننى لا أجد ذلك حسنا منه. حيث إن هذا القمح الذى

تودون شحنه إلى روما هو ملك المصريين وإننى أرى أنهم فى حاجة إليه لأنهم يأكلونه ويعيشون منه. فأجابها الجندى الرومانى بغلظة: "ولكن روما فى حاجة إلى هذا القمح" فقالت تاليا": إن روما تستطيع أن يكون لها قمحها الخاص بها إذا كفوا عن إرسال الرجال إلى البلاد الأخرى لنهبها، فعليهم أن يرسلوا رجالهم إلى حقولهم ليزرعوا ويحصدوا لهم" . صاح ليبتينوس بلهجة محذرة تاليا: أين أنت ما الذى أخرك هكذا بالجبائر؟ فأسرعت تاليا إليه بالجبائر وقد أزاحت الجندى من طريقها بضيق وقالت: " رومانى يعرف كل شىء عن القمح يا سيدي" صاح الجندى الرومانى قائلا: لم أجد أحدا سنتريو ولكن هذه العبدة لا تحب الرومان. عند ئذ نظر سنتريو إلى ليبتينوس محذرا وقال له: " إننا نستطيع تنظيف المكان منها إذا استدعى الأمر ذلك، إنك تعرف أن الوالى تريمالخيو لا يعرف الرحمة مع من يثورون ضد الرومان، حتى السكندريون واتتهم الجرأة أن يسبوا نائب الملك ويصموه بنهب البلاد، ثم ضحك ساخرا" فصاح ليبتينوس فى تاليا كى تضغط بأصابعها على الكسر برجل الجندى بينما قال للجندى الآخر أن يحكم قبضته على المريض حتى لا يتحرك وعندما ضغطت تاليا بأصابعها على مكان الكسر صاح الرجل صارخا من شدة الألم. إن تاليا تعاطفت مع الجندى ذى الرجل المكسورة وأحضرت كأسا من النبيذ ووضعته أمام شفتيه كى يشرب منه، رغم

أنها كانت تود لو شربته هى. ثم راحت تساعد ليبتينوس فى معالجـــة الرجل المكسورة أسفل ركبة الجندى. ثم قال ليبتينوس: إننى أنـــصح أن تحضروا له محفة لنقله. أجاب سنتريو: إنه جندى رومانى ولـــيس شخصا سكندريا إنه لا بد له وأن يركب حصانه فلم يوافقه ليبتينـــوس الرأى وأخذ يتحرك سنتريو فى العيادة حركات رياضية وكأنه قلـــق. فقالت تاليا بصوت منخفض: إن المكان هنا عيادة لعـــلاج المرضـــى وليس صالة للتمرينات الرياضية. ولم تكن تـــدرى إن كـــان ســـمع سنتريو ذلك أم لا. فإنها لم تسمع منه أى إجابـــة. ثـــم جـــاء رجـــال سنتريو وحملوا المريض من أسفل كتفيه ووضعوه على ظهر حمار. ثم انتظروا حتى ركب سنتريو حصانه ليتقدمهم وهم خلفه بينما يـــئن المريض ويتأوه من شدة الألم. أخذ ليبتينوس يهز رأســـه أســـفا مـــن تصرف سنتريو هذا الذى نقل الجندى المكسور على ظهر حمار بدلا من أن يحضر له محفة، حيـــث إن ذلـــك يعـــرض رجـــل الجنـــدى المكسورة للخطر. ثم قال ليبتينوس: أنهم لم يكلفوا أنفسهم أن يقولـــوا كلمة شكرا. سألت تاليا ليبتينوس: هل نـــستطيع أن نـــضع الرجـــل المكسورة فى الأسمنت؟ قال ليبتينوس لم أسمع عن هـــذا مـــن قبـــل ولكننى سوف استعلم عن ذلك،كما أننى سوف اســـتعلم عـــن كيفيـــة خياطة شفاه العبيد الملاعين ذوى الشفاة الأرنبية أيضًا!!! صكت كلمتـــه هذه آذانها ربما لأنها تسأله عن أشياء لا يعرف هو إجابة عنها..

في الصباح الباكر أيقظها تيل بتاح وهو يصيح بصوت مرتفع تاليا، تاليا، ثم يهزها ويشد أذنها حتى استيقظت بصعوبة من شدة الإجهاد. اتجهت إلى قدر المياه، شربت ثم اتجهت إلى المكان الذى يعالج فيه ليبتينوس مرضاه. هناك جلست امرأة القرفصاء ووقف بجوارها تيل بتاح. وسألت تاليا المرأة بصوت مهذب خفيض هل أستطيع مساعدتك؟ صاحت المرأة وهى تلتفت صوب الصوت الذى عرض عليها المساعدة فعرفتها تاليا فى التو واللحظة. إنها المرأة التى من المفروض أن يكون قد عالجها الخطيب المسيحى كوادراتوس. قالت تاليا بصوت حنون دافئ: إننى تاليا مساعدة الطبيب ليبتينوس، ثم أمسكت تاليا بيد المرأة الشابة التى كانت ترتعش من الخوف بحنان شعرت به المرأة الخائفة فاطمأنت وهدأ روعها. فقالت تاليا: ما اسمك؟ أجابت المرأة الشابة اسمى تيانو ثم ساعدتها تاليا فى الجلوس على المقعد الخشبى. ثم قالت تاليا بصوت هامس لا يسمعه سواهما: إننى رأيتك عند الخطيب المسيحى كواراتوس. فانخرطت المرأة فى النواح والبكاء عند ذلك صاح بها تيل بتاح محذرا لا يعلو صوتك حتى لا يستيقظ سيدى. ثم فكرت تاليا قائلة ربما يكون الخطيب قد مات لهذا تبكى المرأة. سألت تاليا المرأة قائلة: هل مات كوادراتوس؟ قالت المرأة إنه انتقل إلى ملكوت الآب والابن وكنت أتمنى لو كان قد أخذنى معه. حيث إن أسرتى جميعها قد ماتت من جراء الطاعون الأخير ولم يبقَ سواى. هل أنت زوجة كوادراتوس؟

قالت المرأة لتاليا: إننى كنت له أكثر من زوجته ولكن تعاليم المسيحية لم تسمح له بالزواج منى، ولكننى كنت مخلصة له وكنت أرافقه فى كل مكان يذهب إليه، وأساعده فى كل أعماله. وكنت أذهب معه فى كل مدينة يذهب إليها. ثم قالت تاليا وماذا ستفعلين الآن؟ فبكت المرأة وهى تقول لست أدرى لقد تركنى الآن قبل أن يشفينى ويرد إلى بصرى والآن لا بد وأن أظل عمياء طيلة حياتى. فقالت لها تاليا: إننى كنت أسير بجوار القناة ورأيتك وسمعتك وأنت تصيحين فرحة مهللة وتقولين إنه قد شفاك وتستطيعين أن ترى. فقالت: المرأة كان فى كل مرة يلقى فيها خطابا فى مكان جديد يسكنه الوثنيون يجعلنى أبصر ثم لا أبصر بعد ذلك. ولقد مات البارحة وكان ميعاد خطابه اليوم حيث كان من المفروض أن يرد إلى اليوم بصرى. عندئذ سألتها تاليا قائلة ولكن كيف تصبحين كل مرة بعد انتهاء خطابه عمياء؟ فأجابت المرأة إن ذلك شيئًا بسيطا حيث إنه قبل خطابه بيومين كان يقطر لى فى عينى فأفقد البصر ثم يقول لى: إن الرب سوف يعيد لك بصرك عندما أخطب. فأكملت تاليا قائلة وهى مغتاظة والآن بالطبع لن يعطيك الرب بصرك مرة أخرى لأن كوادراتوس قد مات. فقالت تيانو وهى تنوح وتبكى نعم. فقالت تاليا لها: أريد أن أقول لك شيئًا دون سحر ودون خطابة كاهنك المسيحى هذا، إنك سوف ترين بعد بضعة أيام دون أى علاج فإنك لست فى حاجة إلى علاج.

خرج عليهم ليبتينوس الذى كان قد سمع كل شىء. واقترب من المرأة وجحظ عينها إلى أعلى فقال: إن عينيك بها بودرة زينة مصرية، وغدا سوف ترين يديك. إن تأثير هذه المادة التى كان يضعها لك كوادراتوس سوف ينتهى غدا حيث أن تأثير هذه المادة لا يستمر أكثر من ذلك، عندئذ سألته تاليا متلهفة كى تعرف الإجابة كيف عرفت هذا ياسيدى ليبتينوس؟ ولكنه استدار وهم بالذهاب وهذه هى عادة ليبتينوس لم يكن يحب أن يطرد المريض بعد فحصه ولكنه كان دوما يدير ظهره وكأنه يهم بالانصراف فيفهم المريض أنه انتهى من فحصه وعلاجه وينصرف.

قال ليبتينوس: هذه المادة عندما تكون فى طور التأثير تكون عينها حمراء؟ ومع مرور الوقت ينقشع هذا اللون بالتدريج حتى يعود للعين لونها الطبيعى. وهذه المادة ما هى إلا خليط من مسحوق الكريز وعيش الغراب وقشر التفاح معا. ثم أتبع قوله إن هناك كثيرًا من الحيل والسحر للتأثير على عقول الناس من أجل إقناعهم بفكرة أو عقيدة ما. لقد غدا ليبتينوس قريبا بعْض الشىء من قلب تاليا. قالت تاليا لتيانو: والآن يمكنك الذهاب إلى منزلك مع من أحضرك إلى هنا. قريبا سوف تستطيعين عد أصابعك مرة أخرى دون الحاجة إلى واعظ مسيحى.

ابتسمت تيانو ابتسامة حزينة وهى تقول لقد أدركت الآن أن كوادراتوس قد خدعني،فأجابتها تاليا إن ربكم الذى تزعمون لهو أسوأ من كوادرتوس حيث كاد أن يقضى على حياتى فى لحظات قليلة. كما أن كوادراتوس وأنت وأمثالكم الذين يستغلون الحيل الطبية لخداع الناس لن يسامحهم أى إله أو رب. فقالت تيانو: إن المغفرة لا تأتى إلا من رب الآلهة فهى تأتى مثلما تأتى الأمراض ومثلما يأتى الشفاء منها أيضًا. أما تيل بتاح الذى لم يستوعب عقله هذه المناقشات الفلسفية فقد فاض به الكيل عندما سمع حديث المرأة التى قالت إن الشفاء يأتى من عند رب الآلهة. فهجم عليها وأمسكها من ذراعها وهو ينوى الإلقاء بها خارج العيادة قائلا ولماذا أتيت إلينا هنا طالما تعتقدين أن الرب هو الذى يشفيك؟ همهمت تاليا فى سرها قائلة: نعم إن تيل بتاح محق وليبتينوس محق لماذا يأتى إلينا المرضى إذا كانوا يعتقدون أن رب الآلهة هو الذى يشفيهم؟ أما الوالى تريمالخيو فقد كانت أخبار المرض الذى تفشى فى الحى الذى يقطنه الفقراء مفرحة ومسعدة حيث إن معظم سكان هذا الحى من المسيحيين وعندما تحصدهم الكوليرا توفر عليه عناء قتلهم. كما أن تريمالخيو استفاد من تفشى المرض حيث إنه أرسل مكتوبا إلى روما يطلب مزيدا من النقود كى يكافح المرض ثم أنه كتب لهم سببا آخر ألا وهو البحث عمن اعتنقوا المسيحية ومحاربتهم. استراح تريمالخيو فى مقعده

الوثير وراح يفكر باطمئنان، حتى جاءت أخته داخلة عليه فعكــرت عليه خلوته لأنه يعلم إنها لا تأتى إليه عندما يكون لديها مــا تــشكو منه. عندئذ قالت له أخته: ماذا ستقول عندما يراك أحد هكذا وأنــت مضجع على الكرسى وتضع أقدامك على كرسى آخر؟ فقال لها: يــا أختى العزيزة إنه الآن لا يرانى أحد سواكِ، حتى وإن رآنى أحد فإن أقدامى لها الحق فى أن تستريح بعد كل هذا العناء فى تلال العمــل. وانتظر حتى خرجت أخته كورنيليا من الباب ثم راح يكر حبل أفكاره من جديد. أخذ تريمالخيو يفكر فى كيفية أن يفرق المرء بين المسيحى وغيره، إنه عندما يرى الناس فى الشارع لا يستطيع أن يقرر إذا كان هذا أو ذاك مسيحى أم لا؟ ثم قال: إن الشيء الوحيد الذ يفــرق أصــحاب العقائد من بعضهم هو الموت، حيث إن بعض الناس يحرقون جثــث موتاهم، وبعضهم الآخر يلقون الجثث للنسور تأكلها وبعضهم الآخــر يضع رماد الجثة فى قدور من الفخار. وهناك من يقوم بتحنيط الجثة والآخرون يدفنونها فى التراب كما هى، وبعضهم الآخر يضعها فــى نعش خشبى وهى عارية تماما.

إن الذين يعرفون عادات الموت والدفن هم الأطباء لأنهم أقــرب الناس إلى الموتى، ثم دق تريمالخيو الأرض بقدميه وقال إن خير من يخبرنى عن عادات الدفن هذه هو الطبيب اليونانى كريــسنس وهــو ليس مسيحيًا وسوف يحصل على أجره جيدا فى نظير ذلك. نادى بعد

ذلك تريمالخيو على عبده وأمره أن يحضر له عبـــاءة غيـــر جميلـــة وغير ملفتة للنظر وذات ألوان زرقاء فى الأكمام، ثم ارتداها واتجـــه إلى مركز الأبحاث. بعد يومين فقط، اتجهت تاليا يحملها العبيد فـــوق محفة إلى بيت كليون مرة أخرى وذلك كى ترى وحـــدها المرضـــى الثلاثة وذلك لأن ليبتينوس كلفها أن تقوم هى برعايتهم بدلا منه. وقد كان ذلك بالنسبة لتاليا واجبا كبيرا، افتخرت به. بعد أن هبطت تاليـــا من المحفة رأت عربة كارو تحمل خمسة من الجثث فوقها وكانـــت الجثث مغطاة بلفائف بيضاء. بينما راح العبيد الذين كـــانوا يحملـــون محفتها يجرون مبتعدين عن الحى وكأن أحدا يلاحقهم. كما لاحظـــت تاليا أن كثيرًا من البيوت التى كانت تعلق على أبوابها قرنى الكـــبش، قد أصبحت خاوية بعد أن حصدت الكوليرا قاطنيهـــا دون أن يقـــوم الكبش الإله بمساعدتهم وشفائهم. لقد ارتعشت يدى تاليا خوفـــا علـــى مرضاها فى بيت كليون. ولكن على ما يبدو فإن الأمور تسير علـــى مايرام حيث أنها دخلت المنزل بعد أن استقبلها كليـــون رب المنـــزل وقد ألقى عليها كثيرًا من الأسئلة. ولما دخلت تاليا إلى حيـــث يرقـــد مرضاها رأت بربتوا وهى ترضع طفلها بينما وقف سيماخوس فـــى مدخل الباب وهو ينظر ثم خرج مرة أخرى بينما جلست تاليا علـــى الحصير بجوار بربتوا وهى سعيدة أن مرضاها بصحة جيـــدة. ثـــم نظرت تاليا إلى الطفل الذى كان يرضع من أمه، لقد غدا لسان الطفل

طبيعيا. إلا أن لون وجنتيه كان محمرا فقالت تاليا لبربتوا هل تعرض الطفل للشمس؟ فأجابت بربتوا لا لم نخرج خارج المنزل منذ عدة أيام. كما وضعت تاليا يدها على جبهة الطفل فوجدتها ساخنة فقالت تاليا لها: إنك لا بد وأن تعملى له كمادات باردة هل تستطيعين ذلك؟ فأجابت المرأة بنعم. ثم أردفت المرأة أشكرك أنت والطبيب ليبتينوس على المجيء ورعايتنا، وأتبعت بربتوا إننا جميعا فى يد الرب وهو الذى أعطانا الحياة ويقدر علينا الموت حسب حكمته. فلم تهتم تاليا بحديثها وقالت لها: إننى مكلفة من ليبتينوس بالنظر إليكم وكما أرى أنكم تتماثلون للشفاء ولا بد أن أذهب الآن. ثم سألت تاليا هيبارشيا هل يموت أناس كثيرون هنا فى هذا الشارع يا هيبارشيا؟ فقالت هيبارشيا: نعم إن عربة الكارو تأتى من الشارع مرتين يوميا كى تنقل الموتى. ثم سألت تاليا: ولكنكم فى حالة جيدة؟ قالت هيبارشيا وهى تهز كتفيها: لست أدرى، ربما، لماذا تسألين؟ وقبل أن تتكلم تاليا قالت بربتوا أن كليون قد طلب طلبا من هيبارشيا ولا بد لها وأن تقوم به. بل أن الرب لن يقبض روحه حتى تنفذ هيبارشيا طلبه. قالت بربتوا هذا بكل ثقة واستعلاء. فقالت تاليا محتدة وهى تسأل بربتوا: هل يموت الناس الذين يؤمنون بربك هذا أو الذين لا يؤمنون به؟ لقد تجاهلت بربتوا السؤال وكأنها لم تسمعه وبالطبع لم تجب عليه بينما تبادلت هيبارشيا وتاليا النظرات الساخرة من بربتوا ، حيث يعلم

جميعهم أنها مسيسحية متعصبة تمامًا مثل الخطيب المسيحى كوادراتوس. ثم نظرت تاليا إلى هيبارشيا وقالت لها إنه لشىء عجيب أن يمرض من فى الحى جميعهم ما عدا أنت وزوجك ياهيبارشيا؟ فردت هيبارشيا نعم إننا لا نعرف السبب فى ذلك أيضًا. قالت تاليا إننى سأعرف السبب قريبا. فأجابت هيبارشيا إذا عرفتِ السبب فإننى أود معرفته أيضًا.

عندئذ ضحكت بربتوا ضحكة شامتة منتصرة تجاهلتها تاليا وكأنها لم تسمعها. ثم مدت هيبارشيا يدها بكل حرارة إلى تاليا مودعة إياها. ثم خرجت تاليا مسرعة تبغى الوصول إلى المنزل قبل حلول الظلام. ثم رجعت إلى الحارة التى توصلها إلى القناة إلى تؤدى إلى منزلها والتزمت بها فى سيرها. إن المياه قد ازدادت فى القناة ولكن بازديادها ازدادت الروائح النتنة بها أيضًا. لقد كان المصريون يلقون بها الحيوانات النافقة، كما كانت هذه القناة مليئة بالفئران والقوارض والحشرات. إن رائحة القناة كانت كريهة حتى أن تاليا غطت أنفها بمنديل وأسرعت الخطى حتى تبتعد عن هذه الروائح النتنة. وشاهدت تاليا أعدادًا من البشر تعيش بجوار هذه القناة، يغسلون ثيابهم بها ويشربون منها أيضًا. لم تبتعد تاليا كثيرًا حتى رأت نساء مصريات يجلسن على هذه القناة فى ظل شجرة جميز ويغسلن الملابس بلا خوف من الفئران الضخمة أو القاذورات. وتقف تاليا تراقب هؤلاء

النسوة على القناة وهى تفكر جثث حيوانات نافقة وبراز وقىء مرضى الكوليرا وبقية الأوساخ الأخرى تصب فى هذه القناة. ثم يأتى المصريون ويشربون منها بالطبع ما عدا كليون وزوجته فإنهم لم يشربوا من هذه القناة. إذن فلا عجب أن يمرض جميع أهالى الحى بالكوليرا ما عدا كليون وزوجته الذين كانوا يشترون المياه بالقرب من المحكمة اليونانية وهى مياه نظيفة أعادت لبربتوا وزوجها الصحة والحياة واللذان كانا قد مرضا بالكوليرا أيضًا. أغلقت تاليا عينيها وخيل إليها كأنها تسمع صوت كرايتس وهو يسب ويلعن الرومان الذين لا ينظفون القناة ولا يطهرونها، مما أدى إلى انتشار الكوليرا فى هذا الحى الذى يشرب فيه الناس من القناة. ثم فتحت تاليا عينيها وأخذت تجرى بسرعة وقوة ولم تتوقف سوى أمام البرج المؤدى إلى العيادة. عندئذ توقفت وهى تلهث تحاول أن تلتقط أنفاسها. أمام العيادة ما زالت الأضواء مضاءة فى انتظار عودة ليبتينوس إلى منزله. دخلت تاليا إلى غرفتها بهدوء حتى لا توقظ أرسطو ولكنه استيقظ وقفز على حجرها وأغلق عينيه واستسلم للنوم. أما تاليا فقد أخذت تفكر فى العلاقة بين الكوليرا وبين القناة القذرة، وقررت أن تتحدث مع كرايتس بهذا الشأن وذلك لأن التجريبيين يحاولون أن يجدوا حلا للأعراض فقط دون أن يهتموا بالأسباب ولكن الفلاسفة لا بد لهم وأن يعرفوا أولا الأسباب التى أدت إلى هذه الأعراض.

الفصل الثامن

سباق العربات

كم سعد العجوز كرايتس برأى تاليا الذى أدلت به فـــى مــسألة فلسفية تشغله وراح يعمل عقله تبرق عيناه الزرقاوان حادتـــا الـــذكاء وهو يقول: فلنناقش المسألة من الأعم أولا ثم الأخص. فى هذا اليوم لم يكن يرتدى التوجا الرومانية بل كان مرتديا عباءة يونانية قــصيرة تكشف عن ركبتيه وفى قدميه حذاء يونانى ذو رباط وقد جلس علـــى مصطبة من المرمر بينما وضعت تاليا له مخدة كى يتكئ عليها. ثـــم راحت تاليا تتناقش مع كرايتس عن علاقة الكوليرا بالميـــاه الملوثـــة وكذلك علاقة المياه الملوثة بأمعاء المرضى. وضـــربت لـــه مـــثلا بالعظام المكسورة والسليمة. وما ينتج عن العظام المكسورة وما ينتج عن العظام السليمة. ثم قالت تاليا إننى استنتج أن قنـــاة الميـــاه هـــى السبب فى الكوليرا مثلما يكون الحجر هو السبب فـــى كـــسر رجـــل شخصٍ ما. ثم قالت تاليا: إننى إذا أردت أن أوضح لك أكثر وأضرب لك مثالا بأن شخصا ما يقوم بضرب أصبع رجلك بهـــذه القـــارورة. عندئذ قاطعها كرايتس بقوله لا لا أحب أن أسمع هذا المثل على الأقل

ليس أمام أعين أرسطو القرد حتى لا يرى أمام عينيه مثل هذه التجارب.

فوضعت تاليا يديها على شفتيها حتى لا تضحك من تصرف كرايتس الذى أخذ يقول إن هذا القرد يمكن أن نضحى به فى حقل التجارب العلمية ولم تجبه تاليا على جملته هذه. ثم أتبع قائلا: إن لديك الحق فى أن الذين شربوا من القناة وهم الأغلبية قد مرضوا بالكوليرا، أما الذين لم يشربوا من القناة وهم اثنان فقط فلم صابا بالكوليرا، ولهذا فإن آراءك صائبة بأن السبب الرئيسى فى تفشى المرض هى القناة الملوثة فصعقت تاليا عند سماعها رأى كرايتس وفعل أرسطو الشيء نفسه وهو جالس تحت المنضدة. ضحك كرايتس عندما رأى القرد أرسطو وهو يصفق له وقال لتاليا إن ملاحظاتك هذه دقيقة ولم يقم بها أحد من قبلك إننى لم أسمع من أحد قبل هذا من الدراسين، فقد كانت له هذه النظرية وهى الربط بين المياه الملوثة والكوليرا. إن رفاقى الفلاسفة لم يهتموا قبل ذلك بمياه القنوات ولم يفكروا فيها. فقالت تاليا له يا كرايتس العظيم: لا بد وأن تكون هناك أفكار جديدة يفكر فيها الناس والفلاسفة غير تلك الأفكار القديمة. فقال لها كرايتس: نعم أفهم ما تعنين وأخذ ينظر إلى لوحة بها رسم زيتى لشخص يونانى كان فى نقاش فلسفى وهو يشير بيده وسط تجمع من البشر. ثم قال: ولكن كى ينشغل المعلمون بأفكار جديدة لا بد وأن يمر

وقت طويل وتفنى أجيال حتى يقتنع المتعلمون بصدق الفكر الجديد الغريب والذى رفضوه سابقا وتم رفضه فى عهد أجدادهم أيضًا حتى تحين اللحظة التى يقتنعون فيها بصدق تفكيرهم الجديد الغريب هذا ولم يروا طريقا آخر غير تجريب هذا الجديد الغريب ثم يقتنعون بصلاحيته بعد أن كانوا قد رفضوه سابقا فيأخذونه ويعملون به. فقالت تاليا: نعم إنها دوما أفكار الرجال المسنين ثم أشارت بيدها إلى اللوحة التى كان يتأملها كرايتس كل من بها كانوا رجالا لم تكن باللوحة امرأة واحدة. وقالت تاليا: هل ترى أن اللوحة تخلو من أى امرأة إن تلك حقيقة لا تحتاج إلى برهان. وهذا ما أريد أن أقوله لك أحيانا لا تحتاج الحقيقة الملموسة المرئية إلى برهان كى يدلل عليها. عندئذ بدا كرايتس وكأنه هزم فى النقاش الفلسفى أمام تاليا فقال لها وهو يتفحصها: إننى أرى أنك لست فى حاجة إلى براهين على قضية الكوليرا لأنك قد أدركت حقيقتها ولكننى أشعر بأنك تبحثين عن شيء ما' اعترفى!! شعرت تاليا عند ذلك وكأن كرايتس قد قرأ أفكارها، فقالت إننى كنت أتمنى أن أجد مساعدة فى الفلسفة ولكن على ما يبدو لا يستطيع الفلاسفة مساعدتى.

هب كرايتس واقفا وقد طبق ذراعيه ورفع حاجبيه إلى أعلى وقال ماذا يجب على أن أفعله؟ فقالت تاليا بحزم العودة من الأخص إلى الأعم ألا وهو أن القناة الملوثة بالقذورات والأمراض فى حى

راقودة تتشابك مع قنوات أخرى وتتصل بها وهذا لا بد مــن منعــه وبسرعة حتى لا تتفاقم المشكلة ويزداد انتشار المرض. عندئذ تنهــد كرايتس بعمق وقال الآن بدأت أفهم ما تريدين. فأجابهــا بقولــه: إن حديثي مع مندوب القيصر كان دون جدوى حيث إن الأخيــر كــان مقتنعًا تمامًا أن قنوات المياه نظيفة جدا وأنه ليس فى حاجة إلــى أن يقوم بأية أعمال فى القنوات. ثم قال كرايتس: إن الحالة الآن متأخرة فماذا عسانا الآن أن نفعل؟ قالت تاليا إننى أعرف أن أى قناة مصرية يمكن أن تغلق كما يمكن أن تفتح أيضًا، فراح كرايتس يحك أنفه وقال أيتها الصيداوية الصغيرة إنك تفكرين تفكيــرا يختلــف عــن تفكيــر اليونانيين كما أنه يختلف عن أفكار الرومان أيضًا ولكنه قريب مــنهم إننى سمعت أن الصيداويين دائما ما يختلفون عن بقية النــاس حتــى لغتهم فهى لغة مختلفة عن اللغات الأخرى أيضًا. فقالت تاليا: يمكنك أن تصنفنى كما تحب وتشاء ولكن أرجوك ألا تصنفنى علــى أننــى قريبة الشبه من أفكار الرومان لأننى لا أحب ذلك. فقال لها كــرايتس إننى لم أقصد تحقيرك وإهانتك ياتاليا بوصف أفكارك شبيهة بأفكــار الرومان لأننى أعلم أن الرومان ليسوا جميعا بسيئين بل إنهــم فــى بعض المجالات سبقونا نحن – اليونانيين – على سبيل المثــال فــى تخطيطهم للشوارع والقنوات. فأجابته تاليا بقولها: إذا كان الرومــان لديهم الذكاء والحكمة كما تقول فأنا أتمنى أن يقوم نائب الملك بعمــل

شيء من أجل القنوات فى الإسكندرية. فقال كرايتس: إننى لا أعتقد أن ذكاءه سوف يصل إلى هذا الحد كما أن ذكاءه لن يقبل مساعدتك ومجهوداتك من أجل أهل الإسكندرية أيضًا ثم إننا لا ندرى ماسيحدث مع أهل الإسكندرية وبصفة خاصة فى الصيف. ثم توقف كرايتس عند مدخل الباب ونظر إلى تاليا قائلا بالمناسبة لا تذهبى مع أرسطو إلى مكتبة مركز الأبحاث لأن القرد يمكن أن يسبب إزعاجا كبيرا للرومان وأنا لى حدودى ولا أستطيع أن أساعدك دوما وفى كل مكان. عندئذ وضعت تاليا أنفها فى وسط رقبة أرسطو المليئة بالشعر وقالت: يا أرسطو المسكين هل سمعت أنك ممنوع من دخول مكتبة الإسكندرية وبأمر من رئيسها شخصيا. عندئذ ضحك كرايتس حتى اهتز كتفاه وذهب وهو يكاد يقع من شدة الضحك.

مع حلول الصيف بدأ فصل سباق العربات الذى كان السكندريون يفضلون رؤيته عن صراع الحيوانات. ورغم أن استاد الإسكندرية كان قصيرا لمثل هذا السباق ولكن السكندريين راحوا يتهافتون على مشاهدته أكثر من أى شيء آخر حتى أن المقاعد قد حجزت جميعها وجلس كثير من المشاهدين فى الطرقات بين المقاعد. أما أفرانيا التى جاءت خصيصا من روما لمشاهدة هذا الحدث وجلست فى الأمام تحت شمسية نصبت لها خصيصا حماية لها من الشمس وراحت تتفحص الحاضرين، ثم قالت لوكيوس: إن فى روما مقصورة مبنية

لعلية القوم من المسارح فلماذا لا تفعلون مثل هذا فى الإسكندرية، ثم أن المسرح هذا لا يتناسب مع العصر الحديث، فلماذا لا ترسل خطابا إلى تراجان تطلب منه مبلغا لتحديث هذا الاستاد بأكملـه، إنـه الآن يبنى فى كل مكان. قال بوبليكولا: إنك تقصدين أن تقولى إنه يبنـى فـى كل مكان ولكن هنا لا يحدث هذا، ولكننى أود أن أذكرك بهذه القنـاة التى تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ولكن الرومـان كمـا تعرفين ينظرون أولا إلى الفائدة التى ستعود عليهم من أى مـشروع أولا وقبل أن يبدأوا فى بناء أى مشروع ولكننى أعطيك الحق، لقد آن الآوان أن نقوم بتجديد بعض المبانى فى الإسكندرية على الأقل إزالة هذا العجوز كرايتس من رئاسة مركز الأبحاث وتعيين شخص جديـد يضخ فى المكان دماء الحياة، حيث إن شهرة الإسكندرية العلمية قـد اضمحلت وقلّت، ولم يعد لها الصدارة كما كانت قديما. فقالت أفرانيا: ما رأيك لو أن يتولى ليبتينوس هذا المكان؟، ثم انحنت إلى الأمـام تتـابع ما يحدث فى الاستاد وكأنها غير مهتمة برأى بوبليكولا فى ليبتينوس. فى الاستاد كان الجمهور يلوح بالأعلام الحمراء ويتقـافز ويتـصايح بكلمات غريبة عليها لم تفهمها. أجاب بوبليكولا وهـو يهـز رأسـه رافضا فكرة تعيين ليبتينوس رئيسا لمركز الأبحاث وهو يقول لها إن رئيس مركز الأبحاث لا بد وأن يكون رومانيا ولكننـى أسـتطيع أن أبحث له عن مكان أفضل من طبيب مدرسة المصارعين. إننى سوف

أذكر اسمه عندما تخين الفرصة أمام تراجان. فقالت أفرانيا إننى يمكننى أن أفعل هذا أيضًا، ثم سمعت صياحا شديدا من مشجعى الأعلام الحمراء ، فنظرت عما يحدث ثم سألت قائلة من هذا الذى يجلس هناك يابوبليكولا؟ فقال لها: إنهم أتباع الحزب الأحمر من بلدة أوتيكا بشمال أفريقيا وزعيمهم يتبع الطبقة الأرستقراطية الكبرى وأتباعه قليلون ولكنهم عدوانيون ومتكبرون وكأننا نحن الرومان لم نحتل منهم قرطاجة ولم ندمرها، انظرى الآن تأتى خيوله إنها فى الواقع جميلة وغالية الثمن.

أنت ترى الآن ثلاثة من الخيول الحمراء المرقطة باللون الأبيض وهى تجر خلفها عربات حمراء اللون، أما سائق هذه العربة فقد ارتدى قميصا أحمر علامة على أنه يقود هذه العربة لصالح هذا الرجل صاحب الحزب الأحمر. فقالت أفرانيا: إننى سوف أشجع الفريق الأبيض فقال لها بوبليكولا: إنهم من سوريا ثم قال لها أما اللون الأزرق فهم الرومان. ثم قالت أفرانيا: إننى سأشجع اللون الأبيض لأنه لون عباءة السيناتورات فى روما وأنا سأبقى وفية لهذا اللون. وأنت يابوبليكولا لم لا تشجع الأبيض؟ فقال لها: أنا لا أستطيع أن أكون سوى رومانى. ثم رفع بوليكولا يده فجاءه عبد مسرع وانحنى أمامه فقال بوبليكولا: إننى سأمنح الفريق الأبيض الذى تشجعه أخت زوجتى ألف دينار، ولفريق الرومان الأزرق ألف دينار أيضا.

فأجابه العبد بقوله أمركم ياسيدى. ثم ذهب العبد مسرعا يصارع زحام المتفرجين.

في حلبة السباق كان هناك لون أخضر وهو حصان يجر عربة ذات لون أخضر وكان هذا الحصان يملكه رجل يونانى يعيش فى الإسكندرية وبدأ سباق العربات التى تجرها الخيول بداية قوية عندما انطلقت العربات ذات اللون الأزرق انطلاقة قوية وتقدمت قليلا عن بقية العربات. عند ذلك صاح الجمهور السكندرى يسب العربة الرومانية ذات اللون الأزرق. ثم أخذ اللون السورى الأبيض يلاحق الرومانى الأزرق حتى اقترب منه. وصاحت أفرانيا تشجع الأبيض الذى يلاحق الرومانى الأزرق حتى اقترب منه. وصاحت أفرانيا تشجع الأبيض الذى راح يسرع حتى تساوى مع الأزرق للحظة ثم تقدم عليه فرفعت أفرانيا الشال الأبيض وهى تصيح بكل حماس ، لقد سقط الروماني!! بينما صاح الجمهور السكندرى الذى كان يشجع بالطبع اللون الأبيض السورى لقد سقطت روما، لقد سقطت روما، بينما راحت أفرانيا تشاركهم الصياح، لقد سقطت روما!! فجذبها نائب الملك إليه ولكنها دفعته بيدها وأخذت تصيح مع جمهور السكندريين. لقد سقطت روما!! بينما يصيح بها بوبليكولا أيتها المجنونة أيتها المجنونة.

في وسط هذا التشجيع المحموم سقطت عجلة من عجلات العربة الرومانية الزرقاء ووقع سائقها الروماني على الأرض فداسته العجلات البيضاء. وقفز العبيد إلى مكان السباق وأخرجوا الخيول الرومانية من مكان السباق ورفعوا جثة السائق الروماني وعربته حتى يخلو المكان. في وسط هذا الصياح والضجيج وقعت عينا أفرانيا على ليبتينوس الذى لم يكن بعيدا عنها وقد أمسك بيده علامة بيضاء أيضًا وراح يشجع الفريق السورى الأبيض. فنظرت إليه نظرة فهم هو معناها هو أن يذهب ويجلس بجوارها. وما كاد أن يجلس بجوارها حتى تسارعت دقات قلبها حتى أنها شعرت بأن قلبها سيقفز من صدرها. ثم قدمت له كأسها الذى تشرب منه النبيذ كى يشرب هو منه فقبل وشرب من كأسها، ثم وضع يده فوق يدها وراحت تنظر بعمق في عينيه وكأنها تعده ملك روما. بعد لحظات شعر ليبتينوس أن أفرانيا تتحرك فوق فخذه فاستسلم لها ولم يبد أى اعتراض وترك لها نفسه تفعل به ما تمنت. في تلك اللحظة كان الحصان السورى الأبيض قد كسب السباق بينما كانت أفرانيا وليبتينوس في عالم آخر قد وصلا لتوهم إلى لحظة النهاية. راح مشجعو الفريق الأحمر الفنيقي يسبون ويلعنون الحظ لأن حصانهم قد جاء ثانيا بعد العربة السورية البيضاء وذلك بفارق صغير. ثم صاحت أفرانيا وهى تقول: أبيض أبيض!!

ثم راح ينادى صوت المنادى عن الجولة الثانية فى السباق وأفرانيا تصيح مشجعة أبيض أبيض صاح بها بوبليكولا مغتاظا الآن أغلقى فمك ألا تشعرين بالتوتر الذى يحدث بين مشجعى الأبيض السورى والشخص الأخضر اليونانى؟ فسخرت منه أفرانيا وأخذت تقذفه بأحاديثها وكلماتها اللاذعة بلا حياء.

أما ليبتينوس الذى كان يجلس بجوارها فقد بدا وكأنه مخدر من تأثير ما فعلته به أفرانيا وتأثير النبيذ وتأثير الجو الحار. أشاح بوبليكولا بوجهه عن أفرانيا مغتاظا حيث إنه رأى ما فعلته مع ليبتينوس وما فعله ليبتينوس معها وهو لم يستطع أن يطيق هذا كما أنه غيور جدا وكان يتمنى لو كان هو الذى يفعل معها هذا كله. وركز اهتمامه فى متابعة أحداث الجولة الثانية من السباق أو تظاهر بأنه يتابع أحداث السباق. ولما وضع العبد كاى يده برفق على كتف بوبليكولا وهمس فى أذنه وهو يقول له: سيدى انظر ما يفعله اليونانى بسيدتى أفرانيا! صاح به بوبليكولا مغتاظا إن هذا ليس من شأنك اغرب عنى. قام بوبليكولا من مكانه حتى لا يرى ما تفعله أفرانيا مع ليبتينوس وقال بصوت منخفض معاتبا هل هذا وقت ما تفعلين يا أفرانيا وأمام اليونانيين جميعهم أيضًا، فلم تعره اهتمامًا ولما نظر إلى ليبتينوس متوعدا هز ليبتينوس كتفيه معتذرا وكأنه يلقى عليها بالذنب فإنه لم ينس فى يوم من الأيام أن أفرانيا كانت عشيقة لبوبليكولا.

وراحت تتابع أحداث السباق سريعة كسرعة الخيل وعندما تقدمت الخيول الرومانية الزرقاء انهالت عليها أحجار السكندريين كالمطر فوقف بوبليكولا رافعا يديه لتهدئة الشعب السكندرى ومحذرا إياه. وفى لحظة، تقدم الخيل السورى إلى الأمام وكسب السباق منهيا هذه الجولة لصالحه أيضًا. ثم راح جمهور المشجعين السكندريين يصيحون بصوت مرتفع سقطت روما، سقطت روما.

إن نائب الملك لم يعد يطيق الإهانات التى تأتيه من كل مكان، تارة من المشجعين وتارة من أخت زوجته المتوفاة وعشيقته التى لا تتورع أن تفعل أى شيء فى العلن وأمام أعين جميع الناس حتى إن الحاضرين كلهم ينظرون إليه ولا يجرؤون أن ينبسوا ببنت شفة. إنه الآن يستطيع السيطرة على مشاعر الغضب وراح قلبه يدق فى صدره كقرع الطبول. فصاح مناديًا قائد الشرطة أن يحضر إليه فجاءه الرجل مسرعا وكأنه يعلم ما يعتمل فى صدره ولا غرو فى ذلك فإنه رجل مدرب قد خدم كجندى فى الولايات الرومانية جميعها حتى وصل إلى مصر كمكافأة له لخدماته وهو رجل قدير على التصرف بحكمة فى المهمات الصعبة.

أعطى الرجل أذنه منحنيا إلى بوبليكولا الذى أخذ يقول إن الوقت الآن أصبح صعبا وحساسا، بينما ينظر بوبليكولا إلى أذن الرجل وهو منحنى أمامه خيل إليه أن أذنه تشبه جلد قديم مثل جلد برجامون الذى

كانوا يستخدمونه فى الكتابة. ثم أجاب الشرطى وحق جوبتر العظـيم إنها تتفاقم.

إن الحالة المتصاعدة تذكرنى بالمذبحة التى قام بها تراجان. مـا اسم هذه المذبحة؟ إننى لم أعد أتذكر اسمها. فقال بوبليكولا إن اسمها لا يهم الآن ، المهم فى الموضوع أن القيصر قد كسب المعركة وهذا ما يجب علينا الآن أن نفعله. فقال الشرطى هل علينا أن نقوم بمذبحة مثلما فعل تراجان؟ ولكن نائب الملك أشار إليه بذقنه حيـث أنـصار الفريق الأحمر الذين هجموا على جيرانهم. ثم قال بوبليكولا اختـر أفضل مائة جندى من جنودك وطوق بهم رجال سيكوردوس أنـصار الفريق الأحمر. فتردد الشرطى لحظة ثم قال إن زوجات عـساكرى ينتمون إلى ليبيا وسوريا واليونان والقليل من جنـودى تـزوج مـن روما. إننى لا أدرى مع أى حزب سينضم جنودى؟ فقال له بوبليكولا مغتاظا: بالطبع سوف ينضمون إلى زوجاتهم ثم نظـر إليـه حانقـا مغتاظا وتحرك الشرطى يريد أن ينفذ ما أمره به بوبليكولا. ولقد أخذ قواته معه.

بينما كان الجمهور ما زال يلقى بالحجارة. فكر بوبليكـولا وهـو يقول: إن حالة مجمع الأبحاث لا تقل سـوءا عـن حالـة الجـيش والشرطة الرومانيتين فى مصر ولكن من الذى يستطيع أن يقول ذلك للقيصر؟ إن هؤلاء الجنود كانوا فى يوم من الأيام تحت إمرتـه شخـصيا

ومن يقول له إن هؤلاء الجنود سيئون فإنه يسب القيصر في ذات الوقت. إن من واجب رئيس الشرطة أن يقوم بنفسه بالسيطرة على هذه الاضطرابات دون انتظار أن يوجه له بوبليكولا له الأوامر ، فهذا من واجبه كشرطى ولكن هذا اللئيم الجربوع لا يريد أن يتحمل مسئولية أى شيء. بل يلقى المسئولية على غيره وفى هذه الحالة على بوبليكولا. ثم أمر بوبليكولا اثنين من عبيده أن يقوموا بحراسة أفرانيا فوقف الاثنان خلفها بينما هى لا تشعر وعندما رأتهما ضربت أحدهما بمروحة يدها فى وجهه وقالت له: اذهب واحضر لى شيئا أشربه بدلا من أن تحجب عنى الضوء والهواء هكذا. جرى العبد مطيعا كى يحضر لها مشروبا من البائعين الذين انتشروا بين المقاعد يبيعون مشروباتهم ومأكولاتهم للمشجعين أثناء ذلك كان رئيس الشرطة والجنود المائة قد أحاطوا بالفريق الأحمر الذين راحوا بدورهم يلقوا بمقذوفاتهم على الجنود الرومان الذين كانوا محصنين بخوذات ودروع فلم تؤثر فيهم هذه المقذوفات. ثم قال بوبليكولا لنفسه: الآن حان الوقت أن أغادر المكان فألقى عباءته على كتفه وهم بالانصراف بينما كان جمهور المشجعين ينصرف تاركا المكان أيضًا. أما المشجعون اليونانيون فقد ظلوا جالسين فى أماكنهم. بينما وضعت أفرانيا ذراعها فى ذراع ليبتينوس وهما بالانصراف وهى تسأل ليبتينوس قائلة: هل السكندريون هكذا مثيرون للشغب دائما؟ فقال

لها ليبتينوس: ليس دائما ولكن عندما تشتد حرارة الجو فقط. حولهم كان الصياح عاليا والشتائم واضحة ضد الرومان، رفع ليبتينوس شالا أزرق كان فى يده على رأسه حماية من الشمس الحارقة.

أما الآن فقد وصل بوبليكولا باب الخروج، وهم خارجا منه عندئذ استوقفه صوت من أنصار الحمر وهو يقول إن الرومان كمصارعين فى السيرك يقدمون فكرة جيدة يابوبليكولا أليس كذلك؟ ثم أتبع الرجل قائلا: بأى سلاح ستصارع اليوم بلسان النميمة أم بعضوك الذكرى؟ عندما سمع بوبليكولا هذا التحرش الوقح من الرجل احمر وجهه غيظا وغضبا ونظر حوله يبحث عن رئيس الشرطة فلم يجده وتعالت الضحكات الساخرة من أتباع حزب الحمر وكذلك الجهة التى كان يجلس بها اليونانيون أيضًا. بينما راح السكندريون يتمايلون للأمام والخلف من شدة الضحك والسخرية على بوبليكولا وراحو ينادون فى صوت واحد مع اليونانيين " الآن أعطِ له " الآن أعطِ له". ثم مد الرجل الفينيقى رجله أمام بوبليكولا والتى كان يرتدى بها حذاء أحمر أيضًا. ولم يستطع بوبليكولا تحمل أكثر من هذا من الإهانات ونظر مرة أخرى يبحث عن رئيس الشرطة فلم ير سوى جندى وحيد ولم يكد ينادى عليه حتى رأى شابا رومانيا بشعر أحمر منتفخ الأوداج وقد هم متجها نحو الفينيقى ذى الزى الأحمر. إن هذا الشاب هو

روفوس كونتوس إيميليانوس. تنفس نائب الملك الصعداء عندما رأى شابا رومانيا وسط هؤلاء الرعاع يدافع عنه.

خلف الرجل ذى الزى الأحمر كان أتباعٌ كثيرون يصيحون ويشجعون بينما الشاب الرومانى وحيدا يدافع عن نائب الملك بوبليكولا مما أثار ذلك إعجاب أفرانيا التى قالت إن هذا الفتى الشجاع يقف أمام هؤلاء الحفنة من الرعاع بمفرده إن هذا لشىء جميل حقًا. فى الحقيقة كان ردفوس يعلم تمامًا أن خلفه مائة من الجنود المسلحين وإنه ليس وحده أمام هؤلاء الحمر الذين يعتبرون بالنسبة له والجنود المائة أقلية ضعيفة. عندئذ صاح ردفوس الفتى الرومانى " اخلع هذا الحذاء ياروح أمك العاهرة قبل أن أريك كيف يرد رومانى نبيل على وقاحات جرذ من الصحراء "مثلك". فأجاب الفينيقى هل أنت على يقين بأنك تريد هذا الحذاء ولكنك لست بفارس ولست بسناتور. وراح الجمهور يضحك ساخرا على الفتى الرومانى، وبسرعة البرق كان الفينيقى قد خلع حذاءه الأحمر وقذفه فى وجه الفتى الرومانى فتورمت شفتاه فى الحال. لعق الفتى الرومانى الدم الذى يسيل من شفتيه وضرب يده فى عباءته وأخرج منها سكينا وضرب بها الفينيقى ولكن فى تلك اللحظة قفز رجل آخر بين المتصارعين فأصابته هذه الضربة. وبينما تنظر أفرانيا هذا الصراع وتتعجب قائلة يا له من سباق.

هرول بوبليكولا مبتعدا عن المكان بينما جذب ليبتينوس أفرانيا من يدها كي يبتعدا عن المكان أيضًا. إن بوبليكولا لم يقل شيئًا عن هذا الفتى الرومانى الذى كان يحمل سكينا فى طيات ملابسه رغم أنه ممنوع أن يدخل شخص بأى سلاح أو أداة حادة صالة السباق. حتى بوبليكولا قام رجل الأمن على البوابة بفحص ملابسه. فكيف دخل هذا الفتى بالسكين إلى هذا المكان؟ تقدم الجنود الرومان لحماية الرومان الذين كانوا يهربون من صالة السباق بينما تقول أفرانيا لليبتينوس: دعنى أنظر إننى أحب أن أرى مثل هذه المشاجرات. فأجابها ليبتينوس إن ذلك ليس للفرجة وليس جميلا لأعين النساء أن ترى الدماء تسيل هيا انصرفى من هنا.

ولما عبر ليبتينوس إلى الجهة الأخرى من الشارع، لاحظ أن الجنود قد أفسحوا ممرا فى السيرك كى يمر منه نائب الملك وأقاربه وضيوفه دون أن يمسهم أذى من المتشاجرين، ولكن على جانبى هذا الممر تجمهر السكندريون وراحوا يلاحقون بوبليكولا بأسئلتهم الملحة وهو محمول فى محفة من قبل الجنود. هل ستعيد كل شىء إلى نصابه؟ فلم يجب بوبليكولا على هذه الأسئلة وأخذ يتقدم للأمام حتى رأى محفة أخرى بجواره فنظر إلى من بها فوجد أن بها كرايتس العجوز رئيس مركز الأبحاث وحوله كثير من المجتمع الرومانى. فى الواقع أراد بوبليكولا أن يتجاهله ولكن كرايتس صاح عليه مناديا

فلم يستطع أن يتجاهل نداءه عليه أمام الجمهور الرومانى. وأخـــرج كرايتس رأسه من المحفة وهو يقول لبوبليكولا إننى أريد أن أتحـــدث معك بخصوص مرضى الكوليرا فى حى راقودة. امتعض بوبليكـــولا وأظهر ضيقه من كرايتس وهو يقول له" تكلم بسرعة من فضلك إننى لابد وأن أقمع ثورة الآن" فأجابه كرايتس بحدة كذلك الكوليرا لا بـــد وأن تقمع. إن المرض ينتقل عبر المياه وسوف يصل منازل الرومان أيضًا. عندئذ تحرك ليبتينوس من وسط الناس ووقف بجوار بوبليكولا قائلا إن ما تقوله هذا لا يأتى سوى من مشعوذ أو شخص لـــيس لـــه علاقة بالعلم التجريبى ثم اتبع ليبتينوس يقول: أيها العظـــيم كـــرايتس صدقنى إننى مهتم جدا بصحتك وأنصحك من أجلها أن تكـــف عـــن الذهاب إلى هؤلاء الأطباء المسيحيين حيث أنهم لا يخبرونك ســـوى بالخرافات والخزعبلات. ثم أشاح عنه نائب الملك بوجهه ويده وتابع سيره للأمام فصاح كرايتس قائلا إننى لم أحدثكم عـــن صـــحتى ولا أريد شيئًا لنفسى فصاح بوبليكولا ماذا تقصد بمنازل الرومان؟ فقـــال كرايتس من الأفضل سد القناة المتقاطعة مع قناة راقودة من الناحيتين لأنه ملوث ولم ينظف هذا العام. ومن الممكن أن يتصل بأنابيب المياه التى تزود بيوت الرومان بالمياه فتلوثها. فلم يجـــد كـــرايتس آذانـــا صاغية بل على العكس وجد وجوها كالحة تريـــده أن يبتعـــد عـــن طريقهم. بل أن الموقف ازداد سوءا عندما خلع رئيس الشرطة حذاءه

وقذف به على الأرض وهو يقسم أمام بوبليكولا بأنهم يقومون بتنظيف القنوات تنظيفا جيدا. مما دعا كرايتس لأن يفكر فى الأمر مرة أخرى وهز بوبليكولا رأسه متفقا مع رئيس الشرطة. ثم أخذ الشرطى يقول بصوت يملؤه الغضب ياسيد بوبليكولا هل يعقل أن يهتم مدنى مثل السيد كرايتس بقنوات الإسكندرية مثل الجنود الرومان الذين من صميم واجباتهم نظافتها؟ أرجو ألا تدعهم يخدعونك وثق تمامًا أن الجنود الرومان يقومون بواجباتهم فى الإسكندرية خير قيام. فى الواقع فإن بوبليكولا يميل إلى تصديق رجل عسكرى رومانى أكثر لأن يصدق عجوزا خرفًا يونانيًا لا هم له سوى معارضة كل شىء. سأل بوبليكولا بصوت مرتفع: من أين أتيت بهذه الشائعة ياكرايتس؟ وأخذ يفكر كرايتس فى الإجابة حيث إنه لا يستطيع أن يقول له: أنه سمع بذلك من تاليا حيث إن تاليا عبدة ولا يجب على عالم كبير مثله أن يعتد برأيها. ولكنه على ما يبدو لا بد له وأن يذكر اسمها لأنه لم يخترع هذه الفكرة.

تنهد كرايتس وقال: إنها ليست بإشاعة ولكنها حقيقة وإننى أشكر عليها الطبيب ليبتينوس الذى راح يعلم تلميذته تاليا حتى استطاعت أن تعرف هذه الحقيقة ولولا مجهودات ليبتينوس معها لما اكتشفت تاليا بمفردها هذا. فزع ليبتينوس عندما سمع ذلك وقاطع الرجل العجوز وهو يقول: إننى لم أعلمها هذه الأشياء التافهة. إن هذه

المعلومات القديمة البالية لا يمكن أن يكون مصدرها سوى مكتبة مركز الأبحاث التى كان من المفروض إعدام كل ما فيها منذ زمن بعيد لأنها معلومات قديمة ولم تعد تصلح لعصرنا الحديث. هز بوبليكولا رأسه موافقا ليبتينوس الرأى بينما وضع رئيس الشرطة ذراع فوق الأخرى وأخذ ينظر إلى كاهن الإسكندرية غاضبا مغتاظا. قال الكاهن العجوز: إننى رأيت بعينى مع آلاف السكندريين والرومان والمهرجون أطنان القمامة والقاذورات بهذه القناة. قالت أفرانيا متهكمة إنه لشىء عجيب جدا إنه لم يذكر أحد قبل ذلك تلك الأطنان من القاذورات سواك أنت وهذه العبدة تاليا، كما لم يأت أحد قبل ذلك بهذه الفكرة سواكما. ولا تنس ما قامت به هذه العبدة التى أرادت أن تدنس المعبد المقدس بقردها القذر هذا. اعتقد أنكما تريدان أن تثيرا الفتنة هنا بالإسكندرية وإن كان هناك مرض بهذه القناة فأنتما السبب فيه بسحركما.

تأمل الرجل العجوز أفرانيا وقال لنفسه امرأة رومانية تافهة وحقيرة وسطحية ومتعطشة للدماء تمامًا مثل التماسيح. ولكنه قال المهم ما يفعله نائب الملك وليس ما تفعله هى فإنه صاحب الكلمة الأخيرة، ثم اقترب بوبليكولا بوجهه من كرايتس فتراجع كرايتس إلى الخلف ليتجنب رائحة الخمر المنبعثة من فم بوبليكولا. ثم قال لكرايتس: لقد أخبرتك أننى فى طريقى لكى أقضى على ثورة وسوف

أقبض على الثوار سواء شاءوا أم أبوا هل سمعت؟ ثم صاح قائلا: يا رئيس الشرطة فجاءه الآخر مسرعا فقال له: هذا الرجل كرايتس لا بد وأن تقبض عليه ويظل حبيسا فى منزله. فقال الشرطى يا سيد بوبليكولا إنه معين من قبل القيصر كرئيس كهنة الإسكندرية ومركز الأبحاث. فقال بوبليكولا: أنا هنا نائب القيصر وملك على مصر العليا والسفلى ولى الحق أن أفعل ما أراه صالحا للبلاد. ثم أتبع بوبليكولا قائلا: أما هذه العبدة فقد قضت على نفسها بيديها. ثم صاح ليبتينوس يقول لا، ولكن أفرانيا نظرت إليه وهى تقول له هامسة: إنها تريد أن ترى تاليا وهى تعاقب. عندئذ وضع ليبتينوس ذراعه حول وسطها وهمس فى أذنها وهو يقول لها: إن وجودها فى العيادة مهم حيث إنها عندما تكون موجودة فى العيادة أستطيع أن أقضى مزيدًا من الوقت معك. وذلك حيث إنها سوف تستقبل المرضى وتعتنى بهم أما أنا فسوف أعتنى بك أنت. إنه يريدها بأى ثمن. وافقت أفرانيا وهى تمنى نفسها بلقاء ليبتينوس على انفراد. ثم راحت تخاطب نائب الملك بصوت حازم قائلة يابوبليكولا ألا تعرف أن الأوز قد أنقذ معبد الإله جوبتر ومثل هذا العمل البطولى ربما تقوم به هذه العبدة أيضًا.

إن عبدة حقيرة مثل هذه لا تستحق منك هذا الاهتمام كله. أرجوك أن تصفح عنها وتتركها وشأنها كما لا تنسى إنها تساعد النساء فى ولادة العبيد الذين يخدموننا نحن الرومان. نظر بوبليكولا إلى

ليبتينوس وهو يقول له: إن تلميذتك هذه قد سببت لنا كثيرًا من المتاعب، ولكننى سوف أسامحها من أجل أفرانيا التى لا أستطيع أن أرفض لها طلبا. ولما اقتربت منه أفرانيا وهى تتمسح به فنظر بوبليكولا إلى أعلى حيث سماء الإسكندرية الصافية وهو يتذكر اللحظات الحلوة التى قضاها قديما مع أفرانيا، ثم قال لها: نعم سوف أعفو عنها من أجلك ومن أجل آلهة روما ومن أجل القيصر أيضًا. لم تمر لحظات على كلمته هذه ونظر بجواره فإذا بأفرانيا قد سقطت فجأة على الأرض زائغة العينين كمن انتابته حالة صرع. فى هذا المساء جاء تريمالخيو إلى العيادة كعادته زائرا تاليا كما اتفقوا ولكنه اليوم كان مختلفا شيئًا ما. لقد كان شارد الذهن وعندما قدمت له تاليا كأس النبيذ أزاحه عنه وقال لها لا أريد مشروبا منوما مرة أخرى. فارتجفت تاليا عندما سمعت منه ذلك. وأردف يقول لقد غدوت بارعة فى وضع المنوم بالنبيذ حيث إن المنوم يساعد على النوم الهادئ بلا كوابيس وبلا صداع. أما الآن فإننى أعتقد أننى يمكننى أن أثق بك ياتاليا. إن علاقتنا أمام باقى الأفراد لا بد وأن تظل كما هى، فتلك العلاقة تحمينى من تدخل أختى وحشر أنفها فى شئونى. ثم قاطعته تاليا قائلة: هل تريد أن أصب لك نبيذا بدون منوم؟ وإذا لم تثق بى يمكنك أن تصب أنت النبيذ بنفسك؟ فقال لها تريمالخيو: لا بل صبى لى أنت النبيذ إننى أثق بك.

بينما أخذت تاليا وهى تصب له النبيذ تفكر عما سوف يخبره بها اليوم وما الجديد الذى يريده منها؟ حتى إذا أعطته النبيذ، قال لها بالنسبة لك الموقف لم يتغير فإننى عندما أكون هنا فى هذا المنزل فسوف يزورنى أشخاص لم تكونى تعرفينهم وسوف أجلس أتحدث معهم عن أشياء كثيرة، فى أثناء ذلك يمكنك أن تذهبى إلى سريرك وتنامى كالعادة فهذا شىء لا يزعجنى ولكن ما أطلبه منك هو ألا يعرف أحد شيئًا من الحديث الذى يدور بينى وبين زوارى. كما لا يعلم أحد بما يحدث بينى وبينهم.

راحت الأفكار تجول فى عقل تاليا لقد أدرك أنى كنت أضع له منوما فى النبيذ كلما أتى، كما أنه أدرك إننى لم أرغب فيه وفى زياراته وقرأ أفكارى. ثم شرب تريمالخيو من كأسه وهو يبتسم لتاليا ابتسامة الرومانى المنتصر. ثم قالت له تاليا: " إن تيل بتاح فضولى جدا ماذا أقول له عندما يرى أحدا من ضيوفك؟ فقال تريمالخيو أتقصدين هذا المصرى الصغير إنه غير ذات أهمية أبلغى عندئذ ليبتينوس بأن شخصا ما كان يريد مساعدتك فى توليد زوجته. ثم قالت تاليا: وماذا سيحدث إذا رفضت كل ما تريده منى؟ فقال تريمالخيو وهو ينظر إليها: أعتقد أنك أذكى من أن ترفضى ما أطلبه منك. لأن هناك كثيرًا من الحيل والطرق التى أستطيع أن أجبرك بها على تنفيذ ما أزيده منك أيتها الصغيرة. تذكرى جيدا يوم خروجك

من السجن ويوم محاكمتك إننى لو لم أتدخل وأخرجتك من السجن لحكم عليك القاضى المصرى بالإعدام كبقية المساجين. إنه لا يجب عليك أن تنسى هذا. ارتعشت تاليا وهى تقول له: لقد كنت أعتقد طوال الوقت بأن ليبتينوس هو الذى أخرجنى من السجن. ولقد شكرته على ذلك فلم يرد بلا أو نعم. فقال تريمالخيو لها وهو متقزز لسماع اسم ليبتينوس: " إنه لا يفكر فى شىء سوى فى نفسه وفى روما" إن كرايتس قد جاءنى ورجانى أن أخرجك من السجن" ثم أتبع تريمالخيو بقوله لتاليا: إن أجر صمتك على ما ترين وتسمعين منى ومن ضيوفى هو أننى سوف أتركك وشأنك ولن أضايقك مرة أخرى.. وقبل أن تجيب تاليا بالموافقة أو الرفض أزاحها تريمالخيو من على السرير الذى تجلس عليه واستلقى هو عليه ثم قال لها: لا تلتقى بليبتينوس ثانية ثم راح يغط فى نوم عميق..

الفصل التاسع

تشريح المصارعين

إلى وقت متأخر من الليل راح ليبتينوس يصارع من أجـل حيـاة أفرانيا، فهو لا يعرف ما سر هذه الحمى التى اجتاحت جسد أفرانيـا وظل ساهرا بجوارها فى قصر نائب الملك. أخيرا عاد إلى منزلـه مرهقا منهكا، حيث استقبلته تاليا، وفتحت له غرفة نومه. ثم أخبرهـا بأن أفرانيا لا تزال فى غيبوبة. ثم أخذت تاليا تسأله بعـض الأسـئلة التى تتعلق بأعراض مرض أفرانيا ولكنها فى الواقع تقول إن ذلك ما هو إلا عقاب الآلهة لها. إن تاليا ما زالت تشعر بالآلام التى سـببتها لها أفرانيا وكيف أنها أرسلت من يقبض عليها ويحكم عليها بالإعدام.

أما أحداث اليوم بالكامل فقد أخبرها بالكامل تيل بتاح وبالتفـصيل وضاق صدرها ضيقا شديدا من اهتمام ليبتينـوس الشخـصى بهـذه المرأة الرومانية. ثم أخذت تاليا تفكر لماذا تنتقم الآلهة من أفرانيا قبل أن تنتقم من بوبليكولا والقياصرة الرومان؟ أجاب ليبتينـوس: لـست أدرى، إن الآلهة لا تخبرنى بما خبأت من أسرار. أغلـق ليبتينـوس الباب من شدة الإرهاق كى ينام ولكن تاليا لم تستسلم إذ وضعت فمها

فى فتحة صغيرة كانت بالباب وسألت مجددا هل هنـــاك كثيـــر مـــن الأشخاص الذين سقطوا مرضى اليوم؟ فصاح ليبتينوس من الـــداخل وهو يقول: دعينى أنام الآن. ولكنه فى الواقع أخذ يفكر بقوله إن تاليا تريد أن تربط بين سقوط أفرانيا والمرض المنتشر فى الإســكندرية، نعم إنها راحت تبصق فى رأس العجوز بأفكارها هذه حتى ألقت بـــه بين براثن نائب الملك. إنها سيدة ملعونة. لم تذهب تاليـــا مـــن أمـــام الباب، لقد كان يسمع تردد أنفاسها أمام الباب، فأراد أن يجيبها علـــى سؤالها كى تذهب إلى سريرها وتنام، فقال لها من خلف البـــاب لـــم يسقط أحد اليوم سواها ولكن هناك حالات قىء وإسهال كثيـــرة، ثـــم أجابت تاليا من خارج الباب لقد اعتقدت أن أفرانيا حبلى!

عندما سمع ليبتينوس هذه الإجابة من تاليا ألقى بنفسه على أقـــرب كرسى بجواره ووضع ذراعيه خلف رأسه وراح يفكر ممـــن يكـــون هذا الجنين؟ ثم قال ربما يكون من بوبليكولا لأنه رأى كيـــف كـــان غيورا وحانقا عليه عندما كان لصيقا بأفرانيا ولكـــن أفرانيـــا لـــديها طريقة تستطيع بها أن تجذب إليها أكثر الرجال عفة حتـــى أننـــا لـــم نستطع مقاومة سحرها ولكنها تستطيع أن تضع روما بأكملها تحـــت قدمى.

بينما هو غارق فى أفكاره سمع طرقات تاليا على البـــاب وهـــى تسأله مجددا: هل شربت أفرانيا أثناء السباق ماء؟ فقال لهـــا مغتاظـــا

إننى سوف اشترى اثنين من العبيد كى يقفـوا أمـام غرفـة نـومى ويبعدوا هذه العبدة الفضولية من أمامها ، بالطبع شربت ماءً فى ذلك اليوم الساخن تماما مثل بقية كثير من المصريين الذين شـربوا ميـاه أيضًا، وقـبل أن يكمـل حديثه كـان قد اسـتغرق فى النوم، بينما لا تزال تاليـا واقفة أمام باب غرفته وهى تقول لنفسها لماذا لا يريد أن يفهم أن إجابته مهمة لتشخيص المرض؟ إن علاجه هـو أفـضل طريقة لمعالجة أفرانيا ولكنه لا بد وأن يقتنـع أولا بأنهـا مريـضة بالكوليرا. ولكنه إذا اقتنع بأنها حبلى فسوف يذهب فى الحـال إلـى أقرب حانة ويشرب فى نخب أفرانيا وجنينها وربما يشرب فى نخب نفسه أيضًا، ثم راحت تاليا تطرق الباب مجددا ولكن هذه المـرة لـم يجيبها أحد.

فى اليوم التالى استيقظ ليبتينوس من نومه وقام بالطقوس اليوميـة وعندما هم بمغادرة العيادة لاحظ أن تاليا جالسة أسفل عمـود وقـد وضعت وجهها بين يديها وبدت وكأنها كانت نائمة ولكنهـا عنـدما سمعت حركة رجليه استيقظت ونظرت إليه وكأنها تنظر إلى إله مما أثار ذلك ضحكه الهستيرى. ثم قالت تاليا له: أرجوك يـاليبتينوس أن تعالج أفرانيا على أنها مريضة كوليرا لأنها شربت من ميـاه القنـاة الملوثة. فأجابها ليبتينوس: ربما لا يستجيب جسمها الرومانى للعلاج الذى يستجيب له جسم المصريين، كما أن نائب الملك سوف يعاقبـك

إذا كانت أفرانيا حبلى وتتركها أنت تموت بجنينها. خرج ليبتينـــوس الذى كانت فى انتظاره أمام الباب محفة نائب الملك الوثيرة، وهو قد لاحظ أن تاليا قد كانت خائفة عليه وفى ذات الوقت غيـــورة أيـــضًا، فسخر من ذلك أيضًا وأخذ يضحك مع نفسه لأن تفكر عبدة مثل تاليا هذا التفكير. تاليا ذات الفم الذى يشبه فم الجمل تقارن نفسها بأجمـــل امرأة فى روما ثم راح يضحك مجددا. وما إن وصل إلى منزل نائب الملك ورأى أفرانيا ونظر إلى عينيها تذكر المرضى المسيحيين الذى كان قد عالجهم من الكوليرا منذ بضعة أيام. أخذ ليبتينوس يديها بـــين يديه وراح ينظر إليها بكل حب وتركها تقرأ في عينيه مـــدى خوفـــه وقلقه عليها. ثم راح يدلك يديها حتى تدب بهما الحرارة. إن حالتهـــا بجد حرجة وخطيرة، ثم أخذ ليبتينـــوس يعـــزف بعـــض الموســـيقى اليونانية بجوارها التى كان لها تأثير مهدئ لها، ولكن دون أن يكون لها تأثير شاف حيث ظلت حالتها دون تغيير. بعد فترة مـــن الوقـــت استيقظت أفرانيا من نومها وقد أعد لها ليبتينوس شرابا دافئا حيث إنه لم يعد يدرى ماذا يستطيع أن يفعله لها. وبمجرد أن شـــربت أفرانيـــا هذا الشراب سمع قرقعة غريبة تصدر من أمعائها. وفى لحظة كانت أفرانيا تعانى من حالة إسهال شديدة لم تمكنها من الذهاب إلى الحمام، فامتلأ السرير بافرازاتها. وراح ليبتينوس يتأمل إفرازاتها ويـــشمها. لقد كانت الإفرازات بيضاء ولا رائحة لها. عندئذ شـــكر ليبتينـــوس

الآلهة، لأنه أدرك أخيرا ما تعانية أفرانيا. إنه الشيء نفسه الذى كان يعانى منه المسيحيون الذين استفاد من تجربته معهم. ولكن إلـــى الآن لم يستطع تجنب الخطر الذى يحدق بهـــا فهـــى إلـــى الآن لا تـــزال مريضة ولم تشف. ثم تجمع العبيد فى مدخل باب المريضة ينظرون ما يحدث فصاح بهم ليبتينوس فانتشروا مبتعدين يجرون فى كل اتجاه بالقصر.

أما نائب الملك فقد جاء إلى غرفة أفرانيا ووقف بمـــدخل البـــاب ومعه العبد الخاص به. فقال له ليبتينـــوس إن أفرانيـــا تعـــانى مـــن الكوليرا. أجاب نائب الملك بحق الآلهة أنها كانت البارحـــة بـــصحة جيدة. قال ليبتينوس إننى كنت أعتقد أن الكوليرا منتشرة فى راقـــودة فقط. فرد عليه بوبليكولا وأنا لا أشك فى شخصك كطبيـــب ولكننـــى أشك فى تقديرك للأمر. هل أرسل الآن لإحضار شخص آخر يـــدرك الأمور بطريقة أفضل منك؟ أحد التجريبيين مثلا؟ لقد أخذ بوبليكـــولا يكيل له اللعنات ولم يستطع ليبتينوس أن يرد عليه لأنه يعلـــم نتيجـــة رده هذا. إنه يدرك الآن إنه سقط فى الاختبار أمام تاليـــا الـــصغيرة. كما أن ليبتينوس يجنى الآن نتيجة تقاربه من أفرانيـــا أمـــام أعـــين بوبليكولا الذى يرد عليه الإهانة الآن بأكثر من مثلها. أما العبد كـــاى فقد أدخل رأسه تحت إبط سيده بوبليكولا وقال فى نغمة مفهومة أعتقد أن ممارسة الجنس مع الطبيب قد أنهكت قواها، فصكت كلمته أذنـــى

بوبليكولا الذى صاح به أغرب عن هنا ولا أريد رؤيتك اليوم. جرى العبد كاى مبتعدا بينما لاحقه ليبتينوس بنظراته الحانقة حيث إنه يكره هذا العبد الحقير ذا الشعر الأسود المجعد. أخذ ليبتينوس يفكر فى نفسه قائلا إنه فى يوم السباق هذا كان هناك كثير من الرومان الذين شربوا وأكلوا من المشروبات التى كان يقدمها لهم الباعة الجائلون. إنه هو وأفرانيا لم يكونا فى كامل وعيهم أو تعقلهم ساعة السباق، بينما صاح به صوت بوبليكولا قائلا: أفعل ما بوسعك لإنقاذها. بل أخبرنى ما على أن أفعله أنا كى ننقذها وسالت الدموع من عينيه تتدحرج على تجاعيد وجهه. نظر ليبتينوس إليه بعين منكسرة وهو يقول له قدم أضحية إلى ... فأجابه بوبليكولا متداركا تقصد إلى أوزوريس؟ ثم أسرع بوبليكولا خارجا يقدم القربان بسيرابيون الإسكندرية. وفى تلك الليلة لم يأمر بوبليكولا بإحضار طبيب آخر لأفرانيا بينما وضع العبيد سريرا آخر لليبتينوس فى غرفة أفرانيا كى يظل بجوارها طوال الليل ولا يبرح غرفة نومها. تارة يسقيها بالملعقة الأعشاب وتارة يأمر العبيد بتدليك ذراعيها ورجليها وتغيير ملابسها بملابس أخرى جافة. ثم يأمر العبيد بتحريك ذراعيها ورجليها. ولما أصبحت أفرانيا منهكة تمامًا لا تستطيع تحريك ذراعيها ورجليها أمر ليبتينوس العبيد أن يحملوها فوق قطعة من القماش ويأرجحوها فترة طويلة.

مع بزوغ الفجر كانت أفرانيا تهذى وتتمنى المـوت مـن شـدة آلامها. ومع بزوغ شمس هذا اليوم كانت تتحسن تحسنا طفيفا. وبعـد ثلاثة أيام كانت قد تحسنت أكثر، ثم بقيت فى السرير بـضعة أيـام أخرى، كان يتصارع فيها بوبليكولا وليبتينوس على تلبية أية رغبـة من رغباتها قبل أن تنطق بها واستمتعت هى بهذا الشعور اسـتمتاعا غير عادى. على أية حال إنها يجب أن تبقى بالإسكندرية حتى يحين ميعاد المصارعة الأولى. لقد كانت تسليتها الكبـرى أثنـاء ذلـك أن تقضى وقتها مع ليبتينوس. أما إذا لم يكن ليبتينوس موجودا فكان ذلك وقتا سيئا بالنسبة للعبيد حيث إنها أرهقتهم وأتعبتهم بطلباتها ورغباتها الكثيرة.

كان ليبتينوس بالنسبة لها مثل شارون قائد العالم الـسفلى الـذى يحملها بقاربه إلى الضفة الأخرى من نهر الأستكس وهـى سـليمة معافاة. فى خارج غرفة أفرانيا كان العبد كاى وعبدة أخرى متقدمـة فى السن قد أرادا إرسال عبدة صغيرة إلى غرفة أفرانيا كى تتلصص عليها ماذا تفعل الآن مع ليبتينوس. وعندما بـدأت الفتـاة الـصغيرة تسعل استبعدها كاى وأحضر أخرى وذلك خشية أن يـسمعوا هـذه الفتاة فينكشف أمرها. وعلى أى حال كان لا بد للفتاة أن تطيع أوامر كاى العبد، فنظرت بداخل الغرفة التى بها ليبتينوس وأفرانيا وصاحت خارجة من الغرفة فسبتها أفرانيا التى كانت فى وضع غرامى ملتهب

مع ليبتينوس ثم أبعدها ليبتينوس عنه بحنان وهو يهمس فى أذنهـا لا بد وأن تتوخى الحذر. وتذكرى أننا فى قصر بوبليكولا الذى يستطيع الدخول علينا فى أى لحظة. فأجابته أفرانيا التى استلقت على ظهرها قائلة إن هذا لا يهم إذا دخل الغرفة فسوف نصبح ثلاثة بها فهل هـذا يزعجك فى شىء؟. نظر إليها دهشاً ولكنها قاطعت دهـشته بـسؤال آخر عندما قالت له إننى دهشة أن يترك تريمالخيو تاليا دون عقـاب رادع حيث إنها تثير القلاقل وتعمل ضد روما وهذا عقوبته الإعـدام. فقال لها ليبتينوس ملاطفا ولكن يا أفرانيا لقد حكمت أنت بنفـسك أن تبقى تاليا حبيسة المنزل وقد نفذت العقوبة. أجابت أفرانيا نعم ولكـن هذا ليس له علاقة بالقانون الرومانى. إننى كنت أتمنـى أن يعاقبهـا تريمالخيو حسب القانون الرومانى عقوبة إضافية. إننى أعتقـد أنـه شىء مشين لروما على النقيض منك حيث إنك فخـر لرومـا أيهـا الرومانى اليونانى. فعندما سمع ليبتينوس مقولتها هذه قفز قلبـه فـى صدره فرحا حيث إن ما قالته هو غايته وما يتمناه. فأمـسك بيـدها وراح يقبل كل أصبع على حدة. نعم إنه يحب جمالها الذى يبدو وكأن نحات بارع قد قام بنحته.وأخذ يفكر قائلا إن جسم تاليا لم يعد صالحا لشىء سوى العمل وذلك من طول العقاب والتعذيب. وراح يـستمتع بقبلات أفرانيا التى لم تخلق سوى للحب والمتعة. ثم قـال ليبتينـوس لأفرانيا يلمح لها عن علاقة تريمالخيو بتاليا فقالت أفرانيا ممتعـضة:

ألم يجد غير تلك التى لها شفة عليا تمامًا مثل شفة الجمل، هل يـدفع لها؟ غمغم ليبتينوس وهو يعطيها إيحاء بأنه لا يـدرى وراح يقبـل ذراعها حتى وصل إلى صدرها. قالت أفرانيا إن هذا يـصدق كـل توقعاتى حيث إننى كنت أعتقد أن بينه وبينها شيئًا ما، فنظـر إليهـا ليبتينوس إلى أعلى وهو يقول لها: هل تتحدثين عن مثل هذه الأشياء مع نائب الملك؟ فقالت مستنكرة سؤاله: نعم إننى أتحدث معه عن كل شيء يخص مصر، إنه لا بد وأن يعرف من يحكمهم، نقاط قـوتهم، نقاط ضعفهم، كذلك ما هو جميل وما هـو سيئ بهـم. ثـم تـذكر ليبتينوس مقولة بوبليكولا التى قالها ذات مرة إن مصر تحت إمرتـه وحكمه تعتبر فى أيدى أمينة. ثم ارتمى فى أحضان أفرانيـا عنـدما فتحت له ذراعيها. أما نائب الملك فقد كانت تربطه بتريمالخيو علاقة طيبة قد حرص الاثنان على أن تكون لمصلحة كل منهما، حيث إنـه عندما جلس بوبليكولا مع تريمالخيو لم يعتب عليه غيابه يوم الـسباق ولم يتحدث عن ذلك إطلاقا. بل قدم له أجود ما عنده من مـشروبات ثم قال له ما رأيك فى أن نعطى المـسئولية لمدرسـة المـصارعين القيصرية كى تتولى الإشراف على المساجين الفينيقيـين الـذين تـم القبض عليهم يوم السباق. فوافق تريمالخيو على الفور. إن بوبليكولا قد طلب منه ذلك بصورة مهذبة كى يحفظ له ماء وجهه ولكنه كـان باستطاعته أن يأمره أن يفعل ذلك. عندما هم تريمالخيو بالانـصراف

صفق بوبليكولا بيده فجاء عبد صغير أمـره بوبليكـولا أن يحـضر مشروبا طيبا لتريمالخيو من إناء مصرى جميل

وضع تريمالخيو المشروب فى يده وراح يرشف منه وهو يستطعم طعم المشروب المحلى بالعسل ويستمتع بمنظر الكأس المصرى، ثـم قال له بوبليكولا فى اللحظة المناسبة: ما رأيك أن تقوم أنت بافتتـاح دورة الألعاب القادمة ونقدمك على أنك المانح لهذه الألعاب وجوائزها يا تريمالخيو؟ ففوجئ تريمالخيو بهذا العرض الكبير، لأن مثل هـذا العمل لا يقوم به سوى القيصر أو من ينوب عنه فى حالة غيابه وأخذ يفكر لحظات قبل أن يجيب. ثم قال بوبليكولا إن هذه الألعاب لا بـد وأن تكون قيمة وعظيمة وتظهر بصورة لائقة. أجـاب تريمـالخيو لتشهد الآلهة أنى سأقوم بهذا العمل خير قيام حتى تصبح دورة ألعاب الإسكندرية من النوادر التى يتحدث عنها المرء فى كل مكان. وهـذه الجملة كانت بمثابة الموافقة من تريمالخيو على عـرض بوبليكـولا. فقال بوبليكولا: أعرف أنك ذكى ولن تخيب ظنى بك كما أن مـن يرفـع اسم روما فى الولايات سوف يكافأ جيدا من المنعمين ثم رفع نائـب الملك كأسه إلى أعلى وقال لتريمـالخيو: فلنـشرب نخـب تعاوننـا وصحتك. أجاب تريمالخيو: فلتحيا يا بوبليكولا وتهبك الآلهة عمـرا مديدا، بينما راح يحلم باليوم الذى يعود فيه إلى روما قاضيا عظيمًـا رفع اسم روما فى الإسكندرية ونظم الألعاب بها تنظيما بارعـا. ثـم

شرب تريمالخيو من كأسه بشراهة تشى عما كان يعتمل فـــى رأســـه من أفكار ومطامح. أشار بوبليكولا بخفاء إلى العبد كى يصب مزيدًا من الشراب فى كأس تريمالخيو حتى إذا شرب تريمـــالخيو كأســـان آخران وأصبح لسانه ثقيل الكلام نهض واقفا وهو يقول بلسان ثقيـــل استودعك الآلهة يابوبليكولا ثم انصرف. ورافقـــه بوبليكـــولا حتـــى الباب . عند ذلك مد بوبليكولا يده ليصافح تريمالخيو مودعا. أما العبد الصغير كاى فقال لنفسه: إنه وقع فى المصيدة، حيث إنه كان يجلـــس دوما تحت أقدام الضيوف يلبى أوامرهم ويتابعهم بنظراته.

أما بوبليكولا فقد قال لنفسه بمجـــرد أن ودع ضـــيفه هـــذه هـــى السياسة الناجحة لروما . أما تريمالخيو بمجرد أن أخبر أخته بما دار بينه وبين بوبليكولا صاحت به قائلة: إنك تجلب لنـــا الفقـــر بعـــد أن أصبحنا فى حالة ميسورة. فأجابها تريمالخيو: إننى أنا الذى تسببت فى هذا اليسر ولست أنت. كما أن هذا المشروع سوف يعود علىّ بـــالنفع وليس الفقر كما تدعين أنت. بعد لحظات قليلة كان تريمالخيو يـــسوق أمامه الفينيقيين الذين تم القبض عليهم متجهـــا بهـــم إلـــى مدرســـة المصارعين الملكيـــة بالإســـكندرية كـــى يـــودعهم إياهـــا ويتـــولى المصارعون أمرهم كما اتفق على ذلـــك مـــع بوبليكـــولا. إن عـــدد الفينيقيين المقبوض عليهم هو خمـــسة وثلاثـــون مـــشاغبا يحرســـهم خمسون جنديا رومانيا مدججين بالسلاح. ثم قال تريمالخيو لنفسه: إز

هؤلاء سوف يتم تدريبهم فى مدرسة المصارعين على يد لانستا وأن ذلك لأنسب الأوقات لهذا التدريب، إنه أى تريمالخيو يعرف جيــدا أن الرومان يحبون مصارعة المدنيين ضد المصارعين المحترفين. لأن المصارعين المحترفين قد اعتادوا الروتين بينما المدنيين قــد تكــون لديهم أفكار ليست لدى المصارعين القدامى. لقد كانت المدرسة تقــع بجوار السور الشرقى من أسوار الإسكندرية عندما مشى تريمــالخيو بمحاذاة السور أخذ يغنى أغنية كان الناس يتغنون بها فــى أحيــاء روما الفقيرة حتى إذا وصل المدرســة كــان ســوليوس كلــودويس فلاكوس ذو الأقدام القصيرة فى انتظاره ولم يتعجب تريمالخيو عندما أخذ هذا الأخير بلجام حصانه حتى قفز تريمالخيو عنه وهــو يقــول دون أن يحيى الرجل إن من بينهم رجال أشداء. فقال فلاكوس أعرف ياتريمالخيو وإننى أشكر لك هذا الصنيع. أردف تريمالخيو قــائلا: إننــى رأيتهم خسارة كى نعلقهم فى المشانق وقلت: إنه من الأفضل شيهم بــدلا من شنقهم. وراح الأشخاص يتقدمون إلى الأمام بخطوات سريعة.

ثم جاء لانستا بخطوات قصيرة وسريعة يعدو إلى المقبوض عليهم وأخذ يتفحصهم وهو يقول: إنهم جيدون ممتازون ما عدا بعض منهم الذى يبدو وكأنه متقدم فى السن حيث إن ملامــح وجــوههم تــوحى بالفلسفة والأدب ولكننا مع الوقت ســوف نطــوعهم ونعلمهــم. راح سيوليوس يعدو بسرعة حول المصارعين الجدد يتفحصهم بينما تقفــز

أمامه بطنه السمينة الممتلئة مع كل خطوة. بينما لاحـــظ لانـــستا أن الرجال يضحكون سرا على كرش سيوليوس الذى يعلو وينخفض مع كل خطوة إن الرجال رغم أنهم غرباء فهم يعرفون اســـمه الحركـــى المشهور به سيوليوس ويعنى الخنزير الصغير. بعين مدربة صـــقلتها التجارب الرومانية العظيمة أدرك سيوليوس أن قائد الفينيقيين موجود بين هؤلاء الرجال.

تقدم سيوليوس إلى الرجل الذى يقف فى الوسط والذى كان يتحلى بابتسامة ساخرة عريضة. ثم سأله سيوليوس قائلا: هل سمعت قبـــل ذلك عن شخص رومانى يدعى فاديوس؟ ولم يكلف الفينيقى نفـــسه عنـــاء الإجابة على هذا السؤال فقال له سيوليوس إنه قد تم إحراقه حيا فـــى مدرسة المبارزة. وذلك لأنه لم يرد أن يتعلم المبارزة والمصارعة إنه لشىء بشع ولكننى سأخبرك بما هو أبشع من ذلك وهو وضع خازوق من الخشب فى المؤخرة ونخرجه مـــن الفـــم. والآن ســـوف نـــرى ياعزيزى. لقد جف حلق الرجل الفينيقى عندما سمع هذا حتى أنه لـــم يستطع أن يبلع ريقه. ثم سأله سيوليوس بقوله ما اسمك؟ أجابه الرجل موتومبال. فقال له سيوليوس من أين؟ فقال الرجل أنا من أوتيكا وهى تتبع الولايات الأفريقية. فقال سيوليوس: إن كل شىء يمكن إدراكـــه ولكن مع بذل الجهد ثم ابتعد بخطواته داخلا من مدخل متسع سيصبح من الآن فصاعدا مقرا لهؤلاء المصارعين الجدد. ثم راح موتومبـــال

يتابع الرجل بنظرات حاقدة كارهة. ثم جاء عدد كبير من العبيد أخــذ يفك القيود والأغلال من أرجل الفنيقيين، بينما يفكر موتومبــال فــى وسيلة كى يخبر بها والده عما جرى معه حيث إن أباه مــن أقــوى رجال المدينة نفوذا وكيف له أن ينتقم من الرومان لهذا الذى لحق به. دخل لانستا إلى مكانه المخصص به والذى كان فى انتظــاره هنــاك تريمالخيو الذى لم يرد أن يستقبل سيوليوس فى بيته لمناقــشة أمــر هؤلاء المصارعين الجدد، بل أراد أن يأخذ أجر هذه الصفقة منه فى الحال فى مكان تواجدهم الآن. أما سيوليوس الذى كان قد تفصد منه العرق وبدا سعيدا حيث إن كل توقعاته قد صــدقت. وصــدق معــه تريمالخيو فى وعوده ولكن تريمالخيو رجل رومانى وله من الحقوق ما يزيد على ما كانت لرئيس القضاة السابق وهو يونــانى الجنــسية. أخرج سيوليوس صندوقا من مكتبه مليئًا بالنقود وراح يعد أمام أعين القاضى الذى كان يتابع كل قطعة نقود حتى وصل عــددها خمــسة آلاف سيسترن ثم وضعها فى كيس كبير وقدمها أمام تريمالخيو الذى راحت أصابعه تتحسس النقود بجشع وطمع وهــو لا يكــاد يــصدق نفسه. فى حوذته خمسة آلاف سيسترن ثم قال سيوليوس ربما تعثــر على مزيد من مثيرى الشغب فى الفترة القادمة ياتريمالخيو؟ فأجــاب تريمالخيو وهو يقول ربما. إن هذه المدينة مليئة بكل شىء وكل شىء بها ممكن: آلهة ومسيحيين وفنيقيين، فقال لانستا: ونقود أيضًا. أمــا

تاليا فقد كانت مغتاظة حزينة حيث إن ليبتينوس قد أهمل العيادة ومرضاه وانشغل طوال الوقت بأفرانيا.

إن غياب ليبتينوس عن العيادة قد تسبب فى حدوث أشياء كثيرة أخرى بالمنزل وهى أن العبيد لم يقوموا بواجباتهم كما ينبغى، حيث أحضر تيل بتاح سلة اللفائف التى يلف بها جراح المرضى ملوثة بالدماء وذلك أنه قد سكب الدماء عليها عنوة بدلا من أن يسكبه فى المكان المخصص له. وأحضر لها اللفائف قذرة متسخة لا يمكن استعمالها. لقد خافت تاليا أن تلمس هذه السلة فلربما يكون تيل بتاح قد خبأ بها ثعبانا آخر. عندئذ قلبت السلة بما فيها من لفائف برجلها كى ترى إن كان بها ثعبانا أم لا؟ ثم أزمعت تاليا أن تشكو تيل بتاح على سلوكه المشين هذا. فجأة سمعت تاليا صوت تيل بتاح الرفيع وهو يصيح أمام الباب قائلا: " الآن يمكنك أن تبدئى العمل" لقد قال بلغة مصرية وفى صوته تكبر وغطرسة. ثم سحب العبد الجديد إلى غرفة العلاج وهو يقول هذا سوف يقوم بالتخلص من الدماء التى تسيل من المرضى ويقوم بنقل بقية القاذورات خارج العيادة. ولما رأت تاليا العبد الجديد، لم تكد تصدق عينيها حيث انتابها الفزع إذ رأت فتى أسود صغير السن مثل الليل الحالك يبدو منهكا أو على الأصح فإنه مريض لأن تاليا أصبحت ذات عين مدربة تستطيع أن تدرك بها من هو مريض ومن هو صحيح. ولكن كيف يستطيع هذا

الفتى أن يفهمها إذا طلبت منه شيئا. لقد وقف الفتى ملتصقا بالحـــائط وفجأة أغلق عينيه وكأنه قد غلبه النعاس. فسألته تاليا ماذا بك يا جاب الله؟ فانتظرت تاليا لحظات حتى استطاع جاب الله تجميع قواه لكـــى يقول لها إن أناس قد قاموا باختطافه مع أطفال آخرين مـــن قريتـــه وباعوهم فى سوق العبيد بالإسكندرية، حيـــث قـــام ســـيده الجديـــد بالإسكندرية بخصيه ولكن العملية لم تتم بنجاح. عندئذ أشارت تاليـــا بأصبعها إلى الأدوات الجراحية التى كانت معلقـــة علـــى الحـــوائط وشرحت له تارة بالإشارة وتارة بلغة مصرية ضعيفة بأنه الآن فـــى عيادة ويمكنها معالجته، فوافقها جاب الله مضطرا تحت إلحـــاح الآلام التى كانت تعذبه. قامت تاليا بتطهير جراحه مكان قطـــع الخـــصيتين حيث كانت جراحه متورمة ثم جففت تاليا مكان الجرح وأرقدته على ظهره كى تكمل علاجه. أخذت تعد له مرهما كى تدهن له به جراحه بينما راحت تفكر فى أن ليبتينوس قد اشترى هذا العبد رخيصا. وذلك لأنه مريض وغير متعلم ولا يستطيع عمل شيء. ولو كـــان كبيـــرا وقويا وذكيا بعض الشيء لكان سعره أغلى من ذلك بكثير.

وعندما طلبت تاليا من تيل بتاح بأن يقوم بالإمساك بيـــدى العبـــد الجديد أثناء وضع المرهم له فى خصيتيه المجـــروحتين راح يعـــدو مبتعدا عن المكان يبحث لنفسه عن مخبأ فى حضن أمه التـــى كـــان دوما يجرى إليها عندما يريد أن يختبئ من شيء يكرهه. فى الواقع

لم ترد تاليا مساعدة من تيل بتاح بقدر ما أرادت أن تبعده عن المكان، ثم دهنت المرهم لجاب الله فى موضع جراحه، ارتعشت رجلاه من الألم ولكنه تحامل على نفسه حتى وضعت تاليا له المرهم. ثم قالت له تاليا: إننى الآن سوف أعطيك مخدرا يجعلك تنام ولا تشعر بالألم.

وافق العبد الصغير دون أن يتحدث. وأعطته مواد مخدرة ثمينة كان يستعملها ليبتينوس فقط لمرضاه الأعزاء الذين دفعوا له جيدا. وراحت تراقب العبد الصغير تنخفض أنفاسه ويروح فى النوم. أثناء ذلك بدأت تاليا تسمع أصوات همس أمام باب غرفة العلاج، لم يستمر ذلك طويلا حتى دخل ليبتينوس مسرعا وفى عقبه تيل بتاح الذى أخبره بكل شيء. وصاح ليبتينوس بها غاضبا من أمرك أن تعالجى العبد؟ فنظرت إليه تاليا وهى دَهشة وقالت: لقد جاء به تيل بتاح إلىّ وأخبرنى بأنه عبد جديد يستخدم فى العيادة ولكنه مريض لا يستطيع العمل وهو فى هذه الحالة المرضية السيئة. فقال ليبتينوس: نعم لقد كلفت تيل بتاح بإحضار العبد إليك ولكن لا يجب عليك أن تعالجيه بالأدوية الغالية. كان يكفى أن تعطيه نبيذا مخلوطا ولا تعطيه من الأدوية. فقالت تاليا: ألا ترى كم يعانى جاب الله؟ فلم يشاركها ليبتينوس هذا الشعور، شعور الإحساس بآلام الآخرين. لقد استيقظ الآن جاب الله وأخذ ينظر إلى ليبتينوس حانقا وهو يحاول أن ينزل برجله من على سرير العلاج ولكن تاليا أزاحت برجله فوق السرير

مرة أخرى كى لا ينزل. ثم قال ليبتينوس لتيل بتاح لقد حان الوقت لكى تضع له طوقا حول رقبته يفيد بأنه عبد يعمل هنا ، فوافق تيل بتاح سعيدا بهذا الواجب. ثم قال ليبتينوس لتاليا: يمكنك أن تتركيه راقدا على السرير ولكن يجب أن تمسحى السرير بعد ذلك جيدا. والآن تعالى معى فإننى فى حاجة إليك. تنهدت تاليا وهى تقول: إن على الفرد أن يتحمل كل ما يأتى به اليوم ويشكر سيده على كل شىء وإن كان هذا الشىء عقوبة. ثم قالت تاليا: إلى أين يا سيدى؟ فقال ليبتينوس إلى مدرسة المصارعين حيث إننا لدينا عمل هناك. عندما وصل ليبتينوس مدرسة المصارعين كان سيوليوس فى استقباله وقال له: مرحبا بك يا أعظم أطباء الإسكندرية إن كل شىء تحت أمرك ورهن إشارتك. ولتبارك الآلهة أصابعك. أما تاليا فلم يعجبها لانستا فقد بدا لها أنه ذو ابتسامة صفراء ماكرة وشعره مصبوغ بلون أسود ومدهون بالزيت. لا يكاد المرء يتبين أصابعه من كثرة ما بها من خواتم ذهبية ولم تر تاليا شخصا يرتدى خواتم ذهبية كثيرة خلاف هذا الرجل سوى نائب الملك. جلس الرجلان وشربا معًا نخب تعاونهما ، بينما كانت هناك يافطة معلقة على الحائط خلف لانستا مكتوب عليها ميعاد المصارعة القادمة فى منتصف سبتمبر وتتكون من عشرين زوجا من المصارعين. إنه سيكون يوما حارا ولكن سيتم نصب خيمة كبيرة تسعهم جميعًا.

إن أسماء المصارعين الذين سيقومون بالمصارعة هذا اليوم مدونة فى مدخل المدرسة. لقد قرأ ليبتينوس أسماءهم. وقال ليبتينوس سوف أسعد برؤية هذا الصراع كما أن مساحة المكان كبيرة جدا توحى بالثراء والقوة؟ إن ليبتينوس لم يحضر هذه المصاراعات من قبل. فجأة قال سيوليوس إن المكان هنا جميل أيها الطبيب أليس كذلك؟ إن الطبيب الذى كان يعمل هنا قبلك قد وجد مشنوقا ولكننا استطعنا أن نعثر على الجانى وأعدمناه ولكنك لا يجب أن يساورك القلق ، حيث أن كل شىء تحت السيطرة ثم وضع كأسه على المنضدة وقال لليبتينوس هيا بنا. نهضت تاليا معهم رغم أنها كانت تود البقاء فى هذا المكان بعض الوقت ولكنها لا بد وأن تتبع ليبتينوس. إن المبنى الذى كان يجلس به الثلاثة كان مبنى الإدارة وهو فى الوسط بينما كانت تسير خلفهم سمعت تاليا أرقامًا كانت تكرر وتعاد من العبيد الذين كانوا يحملون ألواحا ورقية تحت أبطهم. ثم أشار سيوليوس إلى مبنى جانبى به نوافذ ذات حواجز حديدية وأسفل هذا المبنى يوجد المطبخ وأماكن النوم المخصصة للمصارعين. ثم قال ليبتينوس متسائلا: لماذا يبدو هذا الدور وكأنه غير مكتمل الارتفاع؟ فأجابه لانستا : إن من يسجن لا بد وأن يكون بالسجن إما جالسا أو راقدا. تبع ليبتينوس سيوليوس بينما كانت تاليا تسمع صوت قعقعة السلاح آتية من بعيد ثم دخلوا صالة هادئة لا يسمع بها أى صوت. فى الصالة تم رص الأسرة فى خمسة صفوف

ورقد على الأسرة العداءون والرياضيون وراح المــدلكون يــدلكون أجسامهم ويخبطون عليهم بأيديهم. ولما دخل الثلاثــة الــصالة راح المصارعون يرفعون رؤوسهم ويتفحصون الزائرين بفضول. أما أحد المصارعين الذى كان ذا صدر عريض جدا وفى وجهــه جــرح ذو لون أحمر موجه للنظر رغم أن لون بشرته أسمر قــد أزاح المــدلك جانبا وقفز جالسا على السرير وصاح بصوت مرتفــع قــائلا بحــق جوبتر ماذا تفعل هذه الأنثى هنا؟ ثم صاح فى بقية المصارعين الذين قفزوا من أسرتهم وراحوا يستعدون للنزال. صاح ســيوليوس بقولــه الأجراس، الأجراس فدخل الجنود صالة المساج من أبــواب عديــدة استعدادا للهجوم على المصارعين. فى الوقت نفسه دخلــت الكــلاب الصالة أيضًا فلم يجد المصارعون بدا سوى اللجوء مرة أخرى إلــى أسرتهم وأخذت الكلاب تجوب الصالة وهى تمر مــا بــين الأســرة واضعة أنوفها فى الأرض تشم فى صنادل المصارعين وفــى نعــال أحذية المدلكين والضيوف. حتى أن أحد الكلاب اشــتم نعــل تاليــا ووضع أنفه مارا بها على رجلها. ثم راحت أعين سيوليوس اليقظــة تمر عبر الطرقات ما بين الأسرة تنظــر إن كــان لا يــزال أحــد المصارعين مختبئا فى مكان ما . حتى وقعت عينيــه علــى أقــوى المصارعين الذى ما زال جالسا على الأرض وأمامه كلب يزمجــر عليه يهم أن يقضمه. صاح به سيوليوس هيا انهــض مــن مكانــك فنهض الرجل من مكانه وأخذ يحدق فى سقف الــصالة وكأنــه لــم

يتسبب في حدوث أي شيء. نظرت تاليا خلسة إلى هــذا المــصارع الأسود تتفحصه بينما راح لانستا يحرك أصــابعه القــصيرة بــشكل دائرى كى يختار أحدهم كى يعاقبه على تحريضه على الثورة حتــى وقع اختياره على أحدهم، بينما جاء جندى وأمسك تاليا من ذراعهــا وذهب بها إلى مبنى الإدارة مبتعدا بها عن المصارعين. أما ما أحزن تاليا وضايقها صوت المصارع الذى راح يصرخ عندما وقــع عليــه اختيار لانستا لمعاقبته، حيث أن صوت صراخه ما زال يــرن فــى أذنيها. لقد سحبه اثنان من الجنود إلى فناء المدرسة وبسرعة شــديدة ضربه أحدهم بسيفه فى بطنه فتناثرت أمعائه خارج بطنه وتدفق الدم من صدره ومن رقبته وسقط جسده على الرمال الحمراء المخــضبة بدمائه.

لما رأت تاليا هذا المنظر يعينيها لطمت وجههــا بكلتــا يــديها. وراحت كل أعضائها ترتجف. بينما عادت إلى مكانها مختبأة مرتجفة بينما يدوى فى آذانها صوت لانستا الغاضب، وهو يقول: إن هــؤلاء الرجال مصارعون مثل الوحوش ليسوا رجالا عــاطفيين ويعرفــون أننى لا أقبل أى علاقات بالنساء مثلما يحدث فى روما ولهذا ثــاروا عندما رأوا تاليا. فأجابه ليبتينوس إننى أخبرتك أن تاليا مــا هــى إلا عبدة وليس أكثر من ذلك. فأجابه ســيوليوس هــؤلاء المــصارعون ممنوع عليهم أن يروا أنثى. وأنهم عندما يرون أنثى سيظلون يحلمون

بها ولا يستطيع الواحد منهم التركيز مرة أخرى فـــى المـــصارعة. وبسبب هذه العبدة فإننى فقدت الآن مصارعا مدربا لك أن تتخيل كــم سيكون ذلك مغضبا للقيصر. ثم دخل الاثنان المبنـــى الإدارى بينمـــا انكمشت تاليا بجوار الحائط تتمنى ألا يراها أحد. ثم قال ليبتينوس له: إن على المصارعين أن يعتادوا رؤية تاليا لأنهـــا تلميـــذتى، فقـــال سيوليوس: هل أخبرك أحد أن تحضر تلميذتك معـــك؟ ثـــم إن مـــن الطبيعى أن يكون هذا التلميذ رجلا وليس امرأة؟ فقال ليبتينوس مـــن يتقن مهنة الطب ليس من الضرورى أن يكون رجلا فالمرأة تستطيع ذلك أيضًا ولا تجادلنى فى هذا مرة أخـــرى. إن نائـــب الملـــك قـــد اختارنى باسم القيصر كى أعالج المصارعين وليس أعالجـــك أنـــت. وضع سيوليوس رأسه إلى أعلى وأظهر أسنانه للخارج مما بدا شكله لتاليا مثل شكل الكلاب التى دخلت صالة المصارعين منـــذ بـــضعة دقائق. ثم قال ليبتينوس والآن دعنى أعرض على تلميذتى درسا فـــى التشريح على أجسام المصارعين. فقال له سيوليوس أرجو أن تراعى أن رجالى لا يموتون بسرعة كبقية الناس. ثم خـــرج لانـــستا يقـــود ليبتينوس الذى تتبعه تاليا فى كل خطوة يخطوها. فوجدوا أنفسهم فى فناء تعلو فيه صدامات الأسلحة عند ارتطام بعضها ببعض، ثم ولـــج بهم لانستا إلى حجرة يرقد بها ثلاثة من المرضـــى فـــوق الأعـــواد الجافة من القش والخوص. ثم قال سيوليوس لليبتينـــوس: والآن ســـأدعك

مع هؤلاء المعاقين وإذا احتجت إلى مساعدة فعليك بأن تنادى أحد العبيد ليساعدك فى بتر ذراع أو ساق أو حتى الجثة بأكملها. ذهلت تاليا لسماعها جملة سيوليوس هذا ثم سمعت صوت الرجل وهو يتألم فوضعت تاليا صندوق الأدوية بجواره وراحت تفحصه، لقد كان ملطخًا بالدماء من ذقنه وحتى أسفل صدره. قال الرجل لتاليا: سوف أكافئك جيدا إذا عالجتينى وشفيت. فجأة ارتجفت تاليا ورفعت يدها عن المريض عندما قام سيوليوس بضرب المريض فى ضلوعه بقدمه من الناحية الأخرى. ثم قال للرجل المريض لا تكذبْ على الطبيب فإنك لا تملك أية نقود. أغلق المصارع المريض عينيه ولم ينطق بأى كلمة، ربما نسى هذا المسكين بأنه ملك لقيصر. ثم تبع ليبتينوس سيوليوس فى حجرة المرضى نفسها الذى توقف أمام مصارع جريح وقال ما رأيك فى هذا إنه فى حلبة المصارعة يراهن عليه بخمسة عشر ألف سيسترن فى كل نزال.

إن بوبليكولا لم يرد أن يعلن نبأ إصابته على الملأ حتى لا يفقد قيمته وهو من أحسن المصارعين. انحنى ليبتينوس إلى أسفل كى يتفحص الرجل الذى كان يرقد على بطنه دون أن يبدى أى حركة. أثناء ذلك توالت أسئلة سيوليوس على ليبتينوس ما رأيك فى قاضى القضاة؟ هل تعتقد أنه شخص كريم؟ هل تزوره كثيرا؟ هز ليبتينوس رأسه وقال مجيبا إن السيد تريمالخيو يلتزم دوما بالعادات الرومانية

العتيقة وهو حريص عليها. فقال سيوليوس: إذا فإنه سوف يقيّم هـذا المصارع تقييما كبيرا، حاول أن توقفه مرة أخرى على قدميه فـى أسرع وقت. فسأل ليبتينوس لماذا ضرب بسيف معقوف فى ظهـره؟ كان من المفروض أن تكون طعنة السيف فـى صـدره؟ فأجابه سيوليوس إن ذلك غير مهم حيث إنه كسب النزال ضد خصمه.

وبينما يقف فى انتظار أن يعلن بوبليكولا فوزه بالنزال جن أحـد أتباع المصارع المهزوم وراح يطعن بسيفه كل مـن يطوله وقـد خسرت فى هذا اليوم أربعة من المصارعين غيـر الجرحـى وهـذا المصارع واحد منهم. فأجابه ليبتينوس مصححا بل قل إنك خـسرت خمسة من المصارعين لأن هذا الرجل الجريح ميت. تجهـم وجـه سيوليوس وهو يقول أتمنى أن تكون أفضل من سابقك بالفعل؟ حيـث إننى أستطيع أن أرى بنفسى عما إذا كان هذا المصارع ميت أم حى؟ ثم تركهم وخرج .

قال ليبتـينوس يـاله من رجل وقح، تعالى هنا ياتاليا ثـم رفـع قطعـة من بشـرة المصـارع الميت وقطعة من العضلات أيـضًا وقال لتاليا أنظرى هنا إلى هذين الضلعين. فقالت له تاليا: وهى ترى أن الرجلين الآخرين قد استدارا برؤوسهما وراحا ينظران إلـى مـا يفعل الطبيب بالمصارع الميت: أليس من الأفـضل لنـا أن نعتنـى بالأحياء بدلا من أن نفحص المتوفى. فقال لها ليبتينوس: إننى أريـد

أن أعطيك درسا فى التشريح. فقالت تاليا: إننى أريد أن أصبح طبيبة ولا أريد أن أكون مشرّحة. فقال لها ليبتينوس: إن الذين يشرحون الجثث هم أدرى الناس بمهنة الطب لأنهم يعرفون الأعضاء البشرية معرفة جيدة. انظرى بداخل الفتحة هنا أترين أن الرجل قد خنق لأن عظام ضلوعه قد فصلت والرئة قد غدت بلا حماية الآن. سألت تاليا قائلة: ماذا تفعل عندما يأتيك مريض وقد كسرت ضلوعه وكيف تكتشف أن ضلوعه مكسورة؟ قال ليبتينوس الأول لا بد وأن أتحسس الضلوع بالأصابع ثم أسمع كيف أن العظام يسمع لها صوت مثل صوت احتكاك الأخشاب ببعضها. ثم قال ليبتينوس أما العلاج لهذه الحالة – كسور – الضلوع لا بد وأن تخبرينى أنت به؟ قالت تاليا سأقوم بربط الضلوع المكسورة برباط قوى وأمر المريض أن يتحرك بحذر وبطء لبضعة أسابيع حتى يشفى. قال ليبتينوس عظيم! أما الآن فعليك أن تغلقى وتتحسسى بأصابعك فى ضلوع هذا المصارع الميت حتى تجدى مكان الكسر فى ضلوعه. فقالت تاليا: لا إننى لا أود أن أقوم بذلك فى جثة ميتة. أجابها ليبتينوس هل تريدين أن تفعلى هذا مع شخص ينبض قلبه بالحياة وتتسببى فى تعذيبه وإيلامه؟ عند ذلك قبلت تاليا أن تتحسس ضلوع الجثة الميتة كى تجد بنفسها الكسر.

رقدت تاليا على ركبتيها وغاصت بأصابعها فى لحم الجثة البارد حتى عثرت أصابعها على مكان الكسر فى ضلوع الجثة. فقال لها

ليبتينوس: إن أصابعك الآن هى أدواتك أما مخك فلا يريد أن يتقبـــل هذا العمل لذلك يجب أن تكررى هذه التجربة مرات عديدة حتى يثبت ذلك فى ذهنك. قالت تاليا: أيتها الآلهة ديمتر العون والمدد ثم راحــت تاليا تكرر التجربة مرات عديدة حتى يقتنع ليبتينوس بأن الدرس قــد ثبت فى ذهنها، ثم خرج الاثنان إلى مكان لا يوجد به أحــد، عندئــذ تجرأت تاليا وسألته متى سنعالج المصارعين؟ أجابها ليبتينـــــوس : إننا نعالج فقط الحالات التى يرجى شفاؤها وليس الحالات الميئــوس منها. والآن نعود إلى درسنا حيث إننا اليوم تفحصنا الأعضاء التـــى تقع فى نطاق القفص الصدرى. فقالت تاليا بصوت مرتعش: هل من أجل هذا فقط أتينا؟ فهز ليبتينوس رأسه ببرود وعدم مبالاة موافقا، ثم تحدث ليبتينوس قائلا: إن قيمة العبيد فى سوق العبيد ترجع إلى قــدر ما يعرفون وما يتقنون وبالنسبة لسيوليوس فإن هذا المصارع الميت له قيمة عنده أما الاثنان الآخران اللذان مازالا على قيد الحياة فليــست لهما عنده قيمة. تمامًا مثل جاب الله الذى لا يتقن شيئًا فإنه ليست لـــه قيمة عندى. فقالت له تاليا: لهذا فإنك تحاول أن تعلمنى كثيــرًا كـــى يرتفع ثمنى ويصبح لى سعر جيد عندما تبيعنى فقال لها ليبتينوس: نعم هو كذلك لهذا يجب عليكِ أن تجتهدى فى التعليم وتشكرينى إذ أمنحك هذه الفرصة أيضًا. تاليا ابتلعت غيظها وحنقها وقالت: إننى أتــساءل دوما لماذا لا تأخذنى معك إلى برنابة. تاجر الأطفال الــذى تــزوره

دوما فى السر فأنا أود أن أعرف ما يعانيه من مرض أيضًا ؟؟ تجهم وجه ليبتينوس عندما سمع ذلك من تاليا وتظاهر بأنه لم يسمعها ولكنه قال لها أيتها الوزة الغبية* إنك لا تعرفين عما تتحدثين؟ كظمت تاليا غيظها وراحت تتبعه كعبدة مطيعة مثلما يفعل العبيد مع أسيادهم الرومان.

فى هذا المساء كانت حالة تاليا المزاجية سيئة وسوداوية حتى أنها قد أحضرت نبيذا مركزا من نبيذ ليبتينوس وشربت منه. بعد أن فرغت من الكأس الثانية ألقت بنفسها فى سريره وهى لا تدرى أى شعور يجب عليها أن تتخذه نحوه فهى أصبحت مشتتة الفكر شريدة الذهن. فى منتصف الليل سمعت أصواتا فى المنزل فنظرت فوجدت تريمالخيو فقالت: إن ذلك ليس بالشىء السيئ ، على أقل تقدير فإنه إنسان يمكن التحدث إليه. قبل أن تذهب تاليا إليه اكتشفت أن معه شخصا آخر إنه الشاب ذو الشعر الأحمر المدعو ردفوس. راحت تاليا تتنصت على ما يقولون إنها لم تسمع كثيرًا حيث إنهم كانوا يتهامسون.

لقد سمعت جملا متقطعة حيث قال تريمالخيو لردفوس: إن الأخبار العسكرية هى الأهم. ولك منى أس عن كل خبر، كما أننى سوف

---

* تعبير اصطلاحى فى اللغة الألمانية يقال للمرأة حينما توصف بالغباء فى تصرفاتها(المراجع).

أعطيك مزيدًا منها عندما تأتيني بأخبار مهمة. ثم سأل الشاب سؤالا لم أسمعه ولكن تريمالخيو أجابه بقوله: إننى فى حاجة ماسة إلى أخبار من المسيحيين من يتبعهم ومن يأتى إليهم؟ ومن يدخل فى المسيحية؟ ومن يمدهم بالمعلومات؟ فسأل الزائر هل تعتقد أن المسيحيين سوف يرتدون خاتما عليه مرسوم الصليب كى يتعرف عليهم الشخص بسرعة؟ فأجابه تريمالخيو مغتاظا بقوله: إنهم ليسوا بهذا الغباء والسذاجة حتى يرتدوا خاتما مرسومًا به صليب. ثم قال تريمالخيو: ولكنها فكرة طيبة إذا ارتديت أنت هذا الخاتم عندئذ سوف يتحدث معك كثيرون الذين دخلوا المسيحية سرا عندئذ تستطيع أنت أن تستدرجهم وتعرف منهم المعلومات الكثيرة عندما يسمعون منك أنك اعتنقت المسيحية حديثا. سادت لحظة من الصمت ثم أعطى تريمالخيو الخاتم للفتى الذى راح يتأمل الخاتم وهو يقول إنه جميل. سادت لحظة صمت بين الرجلين ثم سمعت تاليا صوت تريمالخيو وهو يقول والآن أتمنى لك صيدا ثمينا هيا اذهب فمن الآن عليك أن توافينى بأخبار كثيرة.

لقد أدركت الآن أن تريمالخيو يريد أن يراقب المسيحيين ويتجسس عليهم من خلال العيادة. تسحبت تاليا على أطراف أصابعها بسرعة إلى سريرها حيث اعتادت أن تنام فخلعت عنها حزامها وألقت بملاءتها على جسمها وتظاهرت بأنها تغط فى نوم عميق بينما

القرد أرسطو يراقب كل شيء بعينيه الفضوليتين. لحظات قليلة وسمعت تاليا باب غرفتها يفتح بحذر فراحت تتظاهر أمام الرجل الرومانى بأنها نائمة وذلك بأنها غدت تتنفس ببطء مثلما يفعل النائمون . عندئذ خرج تريمالخيو وهو يغلق الباب خلفه بحذر دون أن يوقظها بينما هى كتمت ضحكتها فى فرو رقبة أرسطو الغزير.

الفصل العاشر

يوم الألعاب

لم يتبق على منتصف سبتمبر سوى أسبوعين، فى تلــك الفتــرة كان ليبتينوس دائم الغياب عن العيادة وكانت تاليا هى التــى تــستقبل المرضى، وإذا جاءها مريض لم تعرف ما يعانيه من مرض كانــت تعطيه ميعاد يكون ليبتينوس موجودا فيه حتــى يــرى بنفــسه هــذا المريض. إنه كان يقول لتاليا دوما إنه فى مدرسة المصارعين يشاهد تدريباتهم ولكنه فى الواقع كان مع أفرانيا إنها تعرف ذلك. فى تلــك الفترة كان هناك كثير من الرومان والسائحين الــذين جــاءوا إلــى الإسكندرية خصيصا لمشاهدة هذه الألعاب، التى كان المرء يشاهد لها الدعاية فى كل مكان حتى على حوائط المنازل كانــت توجــد لهــا دعاية. أما نائب الملك فقد كان متحمسا لتريمالخيو على أنــه راعــى هذه الألعاب ومانحها، وسمى ليبتينوس أمام الناس جميعهم على أنــه طبيب المصارعين، بينما راح تريمالخيو يتحدث مع ليبتينوس أحاديث مستفيضة لأنه يجب أن يعرف كل شيء يدور حوله.

وهكذا راحت الدعايات تتحدث دوما عن تريمالخيو مالك المصارعين وليبتينوس طبيب المصارعين، وأفرانيا التى تمتدح المصارعين. هكذا أصبح ليبتينوس مشغولا طوال الوقت بهذه الأخبار حتى أن تاليا لم تطق أن تسمع أى شيء عن أخبار هذه الألعاب. وعندما رأت تاليا تيل بتاح قالت له ممازحة: ألا تود أنت أن تكون مصارعا أيضًا ؟ فقال تيل بتاح وهو يبتسم إذا أراد منى سيدى ذلك سأفعل. ثم سألها هو بدوره هل تريدين أنت أن تكونى مصارعة؟ ولماذا؟ وهكذا استمرت هذه الأسئلة حتى قالت تاليا: أرجو أن يذهبوا جميعا إلى الجحيم وهى تتنهد بعمق. فأجاب من خلفها صوت ليبتينوس! إنك سوف ترافقينهم إلى هناك.

فى يوم الألعاب منتصف سبتمبر فى استاد الإسكندرية ذى الشكل نصف الدائرى، كانت تاليا تجلس فى منطقة حارة أسفل سقف حجرى، وأمامها فى الاستاد تجمع المصارعون وتجمعت الحيوانات المفترسة، الاستاد ملىء عن آخره بالمشاهدين، الضجيج يأتى من كل صوب وحدب، ضجيج من البشر والحيوانات حتى بدا لها هذا الضجيج شيئًا لا يطاق. أمامها توجد مقصورة يجلس بها نائب الملك وبجواره جلس تريمالخيو قاضى قضاة المدينة ومانح الألعاب ومنظمها يرتدى العباءة الرومانية ذات اللون الأرجوانى مزينة بالأوسمة والنياشين. إنها تعرف هذا الرجل أكثر من غيرها حيث

رأته عاريا لا يتحرك به ساكنا وهو الآن أمام الناس فى هذه الصورة الخادعة الكاذبة. ولكن كل هذا لا يدرى به القيصر الذى تنظم باسمه هذه الألعاب وينوب عنه هنا نائب الملك. بينما تاليا غارقة فى أفكارها هكذا تسب هذا العالم الظالم الذى لا يوجد به أى نوع من العدل، راحت الموسيقى تعزف معلنة بدء دورة الألعاب. فدخلت فى البداية الحيوانات وهى تتهادى ثم قفز خلفها المصارعون وهم ينظرون من خلف الحواجز بعيون نهمة متعطشة رغم أنهم يعلمون بأنه مع نهاية هذا اليوم سوف يموت نصفهم. لقد استطاعت تاليا أن تتعرف على أحد المصارعين، إنه هو الذى قاد الثورة بداخل صالة المساج، نعم هذا الأسود ذو الجرح الطويل الأحمر فى وجهه.

إن لون بشرته ليس أسود مثل بقية العبيد السود الذين عرفتهم كما أن أنفه لم يكن غليظا كبقية العبيد السود بل كان أنفه رفيعا طويلا. إنه لا يبدو قبيحا بل على العكس مقبول الشكل. إن بقية المصارعين كانوا يخشونه ويحترمونه. فجأة توقف الضجيج وصمت الجميع فلم يعد المدربون يتحدثون والمشاهدون أيضًا . كما توقف المهرجون عن جريهم وقفزهم ووقفوا أيضًا وأذرعهم متقاطعة فوق صدورهم ينظرون مجريات الأحداث. أخذت تاليا تنظر بعينيها علّها ترى ليبتينوس فلم تعثر له على أثر. ثم رفعت تاليا كرسيها وتأخرت به عن بقية المشاهدين وأسندت ظهرها إلى الحائط، حيث إنها لم ترد أن

ترى هذا العرض الذى تنقض فيه الحيوانات الإفريقية المفترسة على عجول شرق الدلتا وتفترسها. ثم أرادت أن تجلس بجوار المدخل فصاح بها الرجل الذى فى وجهه جرح غائر وهو يقول: ابتعدى من هنا أيتها الأنثى إنك تحجبين عنى الرؤية. وسمعت تاليا مصارعا آخر يقول: اسمعى كلامه وابتعدى إنه يقتلك دون أن يبالى.

سمعت تاليا الأمر وابتعدت وهى لم تجد مكانا سوى أن تجلس بجوار المكان الذى يجلس به المشاغبون الفينيقيون، إنهم لم يكونوا مصارعين محترفين مثل المصارعين الرومان، ولكن بعضًا منهم كان مدربا تدريبا جيدا. ولم تكد تجلس حتى رأت أحد هؤلاء المساجين ذا عينين سوداوين ينظر إليها باهتمام ويشير إليها أن تقترب منه ففعلت رغم أنه ممنوع عليها أن تتصل بأى من المسجونين ولكنها تعلم مدى معاناة الإنسان عندما يكون بعيدا عن أهله وأسرته. إنها رأت إنه طيب وليس بشرير فسألها وهو فى عجلة لأنها هى فرصته الوحيدة. وقد استغل انشغال الحراس والجنود والجمهور فى تلك اللحظة بالنظر إلى الأسد وهو ينقض على الثور ويلتهمه. فقال لها: هل تفهمين اليونانية؟ قالت تاليا: نعم فقال هل تستطيعين أن تكتبى رسالة إلى أسرتي؟ رغم الزحام والضجيج كانت نبرة صوته توحى بأنه مثقف ومهذب ومتعلم. فهزت تاليا رأسها بالموافقة. فقال لها: اسمى موتومبال من منطقة لا أوتيكا بشمال إفريقيا

إننى معروف جدا هناك. أرجو أن تبلغى عـــائلتى هـــذه الأســـماء: "لوكيوس فاليروس بوبليكولا، جـــايوس كورنيلليـــوس تريمـــالخيو، سيوليوس كلوديوس فلاكوس." فقالت تاليا تسأله: هل هذه رســـالتك؟ فقط هذه الأسماء أبلغها عائلتك؟ فقال لها: نعم ثـــم أزاح لهـــا ختمـــه الخاص به كى تختم به الرسالة كى يعرف أهله أن هذه الرسالة منـــه ورجاها أن ترسل هذه الرسالة مرتين بطريقتين مختلفتين كى يضمن أن تصلهم رسالته. ثم قال لها: إذا ختمت هاتين الرسالتين بختمى هذا فأصهرى الختم واختفظى بالذهب لك كشكر للجميل لأننـــى ســـأموت اليوم ولن أستفيد بالذهب. أخذت تاليا الخاتم من موتومبـــال وعـــادت إلى مكانها. بينما راحت الموسيقى تعزف نهاية صراع الحيوانات، ثم انسدلت ستارة خشبية كبيرة على مـــسرح الأحـــداث حيـــث كانـــت الحيوانات تتصارع. عندئذ جرى العبيـــد وأخـــذوا يجمعـــون جثـــث الحيوانات المقتولة : ثيران وأبقار وغزلان وقرود وأسود. ثم راحـــوا يدارون بقع الدماء الكبيرة بالرمال. مع مرور الوقت وارتفاع درجـــة حرارة اليوم اشتدت رائحة الدماء وتكاثرت الحشرات التـــى جـــاءت على هذه الرائحة . خارج صالات الصراع كانـــت تعلـــو أصـــوات الموسيقى التى راح الجمهور يغنى ويصيح على نغماتها.

أما الآن فقد حان الدور على الحيوانات المدربة الأليفة كى تقـــوم بتقديم ألعابها وفنونها أمام الجمهور. أما تاليا فقد أخذت تتأمل خـــاتم

السجين، إن به منظرًا لسمكة فاتحة فمها وحولها كلمات مكتوبة بلغة لا تعرفها. إنها لم تقم بمثل هذه المهمة فى حياتها من قبل وهى أن تبلغ رسالة شاب إلى أهله قبل أن يموت؟ إنها رسالة وداع. عندما صمت الضجيج فى الخارج، أدركت تاليا أن الآن سوف يتم عرض فقرة جديدة فخبأت الخاتم وأخذت تنظر ما سيحدث ، والآن سيتم إعدام اثنين من المجرمين على مسمع ومرأى من المشاهدين. فدخل المحكوم عليهم بالإعدام وفوق كتف كل منهم لوح عريض من الخشب مربوط به ذراعى كل منهما وهما يسرعان الخطا خوفا من ملاحقة الحارس الذى راح يلهبهما بضربات السوط. نصب لكل منهما عامود خشبى كبير ثم راح العبيد السود يجذبون الرجلين إلى أعلى كى يضعوهما على العمودين، بينما يعد المشاهدون: واحد، اثنان وهب أحد الرجلين صارخا افتح من الألم، أما الرجل الثانى فقد ضرب بكل قوته رأسه فى الحائط الذى بجواره وسقط ميتا فوق الرمال. ثم قام العبيد بتعليق الرجلين وتثبيتهما على العمود الخشبى. وفى لحظة انفتح باب جانبى انطلق منه فهدان أسودان حتى إذا رأيا الرجلاين المعلقين راحا يقفزان إلى أعلى من شدة الجوع وهم ينهشان فخذى الرجلاين حيث يصرخ أحدهما من شدة الألم، بينما لا يتحرك الآخر ولا يصدر عنه صوت حيث إنه قد مات قبل ذلك بلحظات.

الجمهور خارج أسوار الاستاد يتصايح ويصرخ وتاليا ساءت حالتها حتى كادت أن تفقد الوعى من سوء ما رأت.

بعد ذلك رأت مجموعة من الدارسين يرتدون المعاطف ويضعون على أكتافهم العباءات وهم يتقدمون إلى بقايا الرجلين المعلقين بالعامودين الخشبيين تاركين خلفهم جثث الفهدين اللذين تم قتلهم بعد افتراس الرجلين المحكوم عليهما بالإعدام. حتى إذا وصل الدارسون إلى الجثتين راحوا يتفحصون الجثث وينظرون ما بين عظام الضلوع. لقد رأت تاليا وسط هؤلاء الدارسين ليبتينوس بوجهه الذى يبدو وكأنه عديم المشاعر ولكنه عملى بحثى. ثم راحت تتخيل أنه يقول لها سائلا: كيف تتأكدين ما إن كان القلب ما زال ينبض أم لا؟ وتخيلت تاليا أنها تجيبه قائلة إننى أضع القلب فى يدى وأتحسسه حتى أشعر بنبضه أو عدمه فى يدى. إن رائحة الدماء فى صالة الألعاب قد ذكرتها بتلك الليلة الظلماء التى هجم فيها القراصنة على قريتها وراحوا يقتلون كل من يعثرون عليه حتى قتلوا أفراد أسرتها أما هى فقد أوسعوها ضربا وركلا حتى فقدت الوعى ولم تستيقظ إلا وهى فى السفينة التى كانت قد اتخذت طريقها فى عرض البحر. فوجدت نفسها فى قبو مظلم بين أناس غرباء لا تعرفهم تتقاذفهم جميعا أمواج البحر يمينا ويسارا، عندئذ أدركت الحقيقة السوداء ألا وهى أن القراصنة قد اختطفوها مع هؤلاء التعساء ثم أزاحت تاليا يديها عن

وجهها وهى تقول إن اجترار الذكريات الأليمة شيء ليس بجميل. إن تلك الذكريات ليست بأشد حلكة من تلك اللحظات التى أعيشها ثم فتحت عينيها علها تنسى تلك الذكريات الأليمة المرة. نظرت تاليا فرأت قزما صغيرا راح يتأملها حيث إنها بالنسبة له شيء عجيب المرأة القادمة من الشمال ذات الشعر الأحمر والعيون الزرقاء. بعد ذلك سمعت تاليا المدربين وهم يتناقشون فيما بينهم ويلقون بتعليقاتهم ثم تخللت تلك الفقرات فقرة ترفيهية إذ خرج من مسرح الألعاب صبيان عراة وراحوا يقومون بحركات إيحائية بلا حرج أو حياء بينما تسللت تاليا خارجة وتاركة مكانها حيث بحثت عن شيء تأكله فوجدت من يبيع البطيخ فاشترت منه ربع بطيخة وبحثت عن مكان هادئ بعض الشيء وأخذت تقضم من هذه الفاكهة الشهية. يهطل من يديها ماء البطيخ وتبصق من وقت لآخر البذور على الأرض. ولم تكد تاليا تنتهى من أكل البطيخ وقد شعرت بالشبع والارتواء حتى رأت ليبتينوس يجلس بجوار نائب الملك تمامًا مثل قيصر وبجواره طبيبه الخاص وبجواره جلست أفرانيا وخلفهم وقف الخدم، بينما يهمس ليبتينوس فى أذن أفرانيا بكلماته التى تدغدغ حواسها.

لقد تقبل نائب الملك أن يكون لأفرانيا عشيق آخر بجواره بعد أن كان هو العشيق الأول الأسبق. لم تكد تاليا تصل إلى مكانها الذى كانت تجلس به حتى علا صوت المصارعين وراحو يسبون ويلعنون

بعضهم بعضا ويتهيأون للنزال بينما كان بعضهم الآخر يجلس صامتا في زنزانته لا يتكلم. ثم راحت الصالة تمتلئ بالجنود الذين أخذوا يرتدون الخوذات البراقة الملونة ويضعون الواقيات على أذرعهم وأرجلهم بينما يحضر العبيد صناديق الأسلحة وكثير من الأدوات والتجهيزات الطبية مثل الضمادات والأربطة والجبائر.

جاء ليبتينوس مع الجنود وقد فاحت منه رائحة عطر خفيفة من عطر أفرانيا ولكنه كان سيئ المزاج ومتوترًا. وبمجرد أن بدأ صف المصارعين يتقدم فى المسرح مستعرضا أخذ ليبتينوس يسب ويشتم وهو يقول ما لهؤلاء النظريين والطب والتشريح إنهم لا يعرفون شيئًا عن الطب ولكنهم فى ذات الوقت يعيبون علينا نحن الأطباء بأننا قليلو الخبرة. ثم قال ليبتينوس لتاليا فى أى شيء يفيدهم علم التشريح إذا كانوا لا يفهمون شيئا، هل تستطيعين أن تجيبينى؟ ولم تجب تاليا، بل قالت لنفسها سرا إنها تكره التشريح أيضًا بل تمنت تاليا أن يكون قد تشاجر مع أفرانيا أو أنها هى سبب ضيقه. ثم أتبع ليبتينوس بقوله ولكن على أى حال فإن نائب الملك قد اختارنى أنا لهذه الوظيفة، ولم يختر أحدا منهم وهذا عزاء لى. ثم وضع ذراعيه متقاطعين على صدره وأخذ يتابع صفوف المبارزين التى راحت تمشى فى خطوات بزيها الملون وخوذاتهم التى يعلوها ريش النعام وريش الطاووس.

فى نهاية طابور المصارعين جاء طابور الفينيقيين الذين راحوا يسيرون فى الخلف، وهم يجرون أرجلهم الثقيلة من على الأرض مثل قطيع الغنم، فدق قلب تاليا عندما تذكرت أن وسط هؤلاء الشاب الفينيقى الذى سلمها الرسالة. أخذ الجمهور يلقى عليهم بعبارات السخرية والاستهزاء . وفى نهاية طابور الفينيقيين استطاعت تاليا تعرف موتومبال حيث كان كبقية الأفراد نصفه الأعلى عار حيث إنه ينتمى إلى مجموعة المصارعين الذين يصارعون بالشباك. أخذ موتومبال يهز رأسه إلى أعلى وأسفل ففهم الجمهور إشارات رأسه وصمت الجميع ولم يعد أحد يسمع صفيرا أو صياحا. وعم السكون أنحاء السيرك. ثم توقف المصارعون عن المشى فى خطوة منتظمة واصطفوا أمام المقصورة التى يجلس بها نائب الملك وقاضى القضاة فى أربعة صفوف وهم يضربون الأرض بأقدامهم بقوة يحيُّون نائب الملك رافعين أسلحتهم إلى أعلى بالتحية لنائب الملك ومانح الألعاب ومنظمها ، يطلقون عليه أصواتا عالية ويضربون بسيوفهم على دروعهم. ثم نهض تريمالخيو وهو يرفع عباءة الشرف فوق كتفه ثم نظر يمينا ويسارا فانطلقت صيحة عالية تؤذن له بالقيام بواجبه فنزل إلى أسفل بضع درجات حتى وصل إلى المصارعين وأخذ يتفحص أسلحتهم التى وجد بها سيفين غير حادين وأمر بتغييرهما. صفق له الحاضرون بينما أخذ نائب الملك يحدق فى

تريمالخيو خفية وهو يقول لنفسه إلى الآن لم تجد أفرانيا كثيرًا تقصه للرومان عن تريمالخيو على أى حال إن معظم أقاربه لهم أملاك كثيرة فى قلقيلية.

ومن هذا البلد جاءت عبادة الإلهة كوبيلى هكذا راح يحكى نائب الملك لأفرانيا، ثم قال لها إنه هو وأخته كتومان جدا مثل القبر* كما إنه من المعروف عنه إنه لا يحب أخته هذه، بل إن سيرتها تعكر صفوه ومزاجه، كما يقال إنه الآن غدا فقيرا لا يملك شيئًا ثم وضع ذراعه فوق ذراع أفرانيا محاولا استمالة ودها. فى اللحظة الحاسمة كان العبد كاى قد وضع وجهه على كتف بوبليوكلا يهمس فى أذنه قائلا أخشى أن يكون رجلنا جايوس قد تعدى حدوده المرسومة له. فقال بوبليكولا إن ذلك يعجب الجمهور. ثم ضحك بصوت خفيض وهو يقول لقد لاحظت الشيء نفسه أيضًا إننى سوف أرى تريمالخيو فيما بعد كيف يستميل تعاطف الجمهور معه وتصفيقه. قبل أن تنظر أفرانيا إلى نائب الملك كى توجه له سؤالا كان يحيرها جاء فى تلك اللحظة تريمالخيو وجلس بجواره وهو يقول أرجو الإذن بأن يبدأ المصارعون نزالهم الآن. عندئذ صاح المدرب كى يفسح الفينيقيون المكان لأول اثنين من المصارعين ولكن الفينيقيون بقوا فى أماكنهم صفا قويا، ولم يفسحو مكانا للمصارعين، وفى لحظة رفع الفينيقيين

---

* تعبير اصطلاحى فى الألمانية يعبر عن أولئك الذين يكتمون الأسرار (المراجع).

موتومبال على أكتافهم الذى صاح بصوت مسموع أنا قائدكم موتومبال وهو يخاطب جمهور الفينيقيين فى الاستاد ثم نظر إلى مقصورة نائب الملك وقال " وسيدكم أيها الرومان الرعاع البرابرة لكم منى التحقير كله أيها النهابين اللصوص المتسلقون يارعاة الغنم. عندئذ توقف الجمهور عن قزقزة اللب وتقشير الفول السودانى وراح ينصت. ثم أكمل موتومبال قائلا " إنكم سرقتم البلاد بعساكركم وغدوتم شعبًا من اللصوص، إنكم لم تروجوا لحضارة ولم تنشروها بقدر ما روجتم اللصوصية والسرقة، وإنكم ستقتلوننى ولكنكم لن تقتلوا إرادتى. إنكم لن تحصلوا منى سوى على لحم لا قيمة له، ولن يصنع مجدا لروما.

أنا موتومبال من أسرة باركيو من قرطاجة نحن الذين لقنّاكم درسا فى الأدب أيها الرومان، نحن الذين جعلناكم تعرفون الخوف والرعب" إن ما قاله موتومبال كله قد أعجب ليبتينوس حتى إن صدى صوته فى هذه اللحظة كان جميلا أيضًا، ولكن ليبتينوس أخفى مشاعره الحاقدة على الرومان، بينما حبست تاليا أنفاسها. ثم قفز موتومبال على الرمال وجثا على ركبتيه بينما ينظر الرومان فى ذهول وهم لا يفهمون شيئًا وكأنهم قد أصيبوا بالشلل. فى تلك اللحظة كان زميله قد أطاح برأسه بضربة واحدة من سيفه. وانكفأ الجسد الذى لا تعلوه رأس إلى الأمام وقد أعطى لنائب الملك درسا كبيرا فى

النبل والشرف وعلو الهمة. إن المفاجأة التى فجرها موتومبـــال قـــد أطاحت باسم جايوس إلى الظل. هذا الذى قد مـــنح هـــذه الألعـــاب ونظمها، بينما أخذ العبد كاى يسب موتومبـــال وصـــياح الجمهـــور يتعالى. وتسب أفرانيا موتومبال وهى تقول أيها الجبان! ويصيح آخر قائلا قطعهم إربا ياانائب الملك!! أما بوبليكولا فقد أسند ظهـــره إلـــى الخلف وفرد ذراعيه على المقعدين المجاورين وأخذ يفكر قائلا والآن فليرينا تريمالخيو كيف يستطيع الآن الخروج من هذا المأزق؟ بينمـــا نهض رئيس القضاة وهو يقول إن جميع الفينيقيـــين ســـيعاقبون الآن وعقوبتهم ستكون كالآتى:- إن على كل اثنين منهم أن يتقـــاتلا ضـــد بعضهما وهما مكبلا الأرجل. فصاح عبد وهو يسب هـــذا الـــرأى! وأجاب تريمالخيو من يفسد الألعاب فلابد من عقابه عقابـــا رادعـــا. وأخذت تحتد المناقشات والجدل بين المدربين والمبارزين والحـــراس بالمسرح بينما يقف فوقهم جميعا مدير مدرسة الألعاب الـــذى يبـــدو وكأنه يحتفظ بمفاتيح الأمور فى يديه. فى واقع الأمر فإن موقفا مثـــل هذا قد يؤدى إلى اندلاع ثورة فى مكان يذبح فيه الخنزير الرجل بينما الطبيعى أن يذبح الرجل الخنزير فى كل مكان. أما مقصورة الشرف التى يجلس فيها نائب الملك فقد كانت تعلو بها الضحكات والنكـــات، أفرانيا تحسس على خد عبد صغير وهى تقول إن وجنته ملساء جميلة ليت لى مثلها، فى روما يتصارع الناس على رؤية شخص سكندرى

وأنا أراهم وألمسهم بيدى. أما نائب الملك الذى كان قد ضاق بهذه الأحداث فلم يعرها اهتمامًا ولم يرد على تعليقاتها. أما بقية الفينيقيين الذين لم يكونوا مدربين تدريبا جيدا فقد ألقوا بأسلحتهم التى جمعها منهم التراكيون والغاليون من المصارعين الذين ساعدهم المصارعون الآخرون. ثم ألقى المصارعون بالشباك والأسلحة الضعيفة البسيطة إلى الفينيقيين بينما احتفظوا لأنفسهم بالأسلحة القوية الحادة وهم يتصايحون ويمرحون. عندئذ اتكأ بوبليكولا وهو مستريح ويقول إذا فلننتظر بما تأتى به الأحداث؟ ليس كل صبى بمؤهل لهذه الحرفة، كما أن ليس له الاختيار. أن يختار ما بين إوزة أوحمار.

بينما أخذت أفرانيا تضحك بعهر وإثارة، إنه غفر لها كثيرًا من ذلاتها وبدا بجوارها وكأنه سعيد ووضع يده على يدها دون أن يدرى أن هناك كثيرًا من الأحداث فى انتظاره وأثناء ذلك كان الحراس قد ربطوا اثنين من الفينيقيين من أرجلهم وأعطوا كلاً منهم شبكة كى يصارعا متحدين ضد أحد المصارعين الآخرين الذى كان يتحلى بسيف حاد أطاح به رأسى الرجلين الآخرين حاملى الشباك. ثم جاء النزال الثانى بين اثنين من الفينيقيين المربوطة أرجلهم ويحملون الشباك فى أيديهم ضد أحد المصارعين المحترفين الذى قتلهم بسيفه أيضًا. ثم نظرت أفرانيا حولها، وكأنها تعترض على تكرار المنظر الذى بدا لها مملاً. أما النزال الثالث فقد كان مختلفا؛ إذ كان هناك

اثنان من الفينيقيين كبار السن ذوى الشعر الأبيض مربوطة أقـدامهما ببعضهما بعض. فلما رآها ليبتينـوس قـال: إنهمـا عجـوزان ولا يستطيعان المصارعة فهزت تاليا رأسها موافقة رأيه.

بينما كان خصمهما رجلاً من المصارعين يحمل درعـا كبيـرا يحوم بدرعه وسيفه حولهما، وهما يجلسان علـى الأرض ينتظـران اقترابه منهما فيلقيان الشبكة عليه، ولكن المصارع كان حذرا وحاول أن يقتنص هذين الفأرين اللئيمين تمامًا مثلما يفعل الأسد مع فريسته، هكذا فكرت تاليا فى سرها. وفى كل مرة كان الفينيقيان يلقيـان بالـشبكة تجاه المصارع فيقفز مبتعدا عنها. كان يقف ويهـز رأسـه علامـة النصر أمام الجمهور الذى كان يتصايح ويـشجع. ثـم صـاح أحـد المشاهدين أيها الفينيقيان الجبانان لماذا تخافان مـن الـسيف إنكمـا ستموتان بأى شكل فلمَ خوفكما من السيف؟ وصاح آخر أيها العبيـد اجلدوهم بالكرابيج حتى يصارعوا بصورة أفضل. ثـم سـألت تاليـا ليبتينوس ماذا سيفعلون بهذين؟ ولم تجد منه إجابة سوى هز الكتفين. فجأة علا صوت المدربين وهم يأمرون العبيد كى ينهـالوا بـسياطهم ضربا على الفينيقيين. ففعل العبيد حتى سالت الدماء مـن أذرعـتهم وأكتافهم. ثم صاح رئيس القضاة قائلا أكووا جلودهم بالنـار حتـى يتحرك بهم وازع المصارعة. فجاء عبد أسود وهو يحمـل الأسـياخ المحمرة من النيران وكوى بها جلودهم وسط صراخهم. ثم رفع نائب

الملك ومعه قاضى القضاة كل منهم إصبعه الأكبر إلى أعلى، ثم إلى أسفل وبذلك أعطوا إشارة إلى المصارع فقام بقطع رقبتى الفينيقيين وأخذ يقذف برأسيهما فى المسرح يمينا وشمالا. الآن يقف اثنان من الفينيقيين يتهامسان مما أثار قلق المدرب الواقف على مقربة منهما. إن أحد هذين الرجلين كان قد ضرب رأس موتومبال بسيفه أما الرجل الآخر فقد كان فارع الطول مديد القامة وهما أصغر الفينيقيين سنا. على الجانب من هذه الصراعات كان هناك جدال من نوع آخر يدور بين تاليا وليبتينوس فهو يقول لها آمرا لا تظهرى تمردك على أى شيء بوضوح هكذا! انتبهت تاليا لأمره وهى تنظر إلى حلبة المصارعة مبدية السمع والطاعة. ثم رأت فى الحلبة أحد المصارعين الذى يستعمل يده اليسرى بينما كان رفيقه فى الصراع يستعمل يده اليمنى، وقالت تاليا بصوت مسموع هل سيستغل هذين الرجلين تلك الميزة لصالحهما؟ عندما سمع منها ليبتينوس هذا السؤال قال لها إن سؤالك هذا لا يخرج سوى من ربة منزل لا هم لها سوى الطبخ والغسيل والخبز. ثم أتبع يقول إنه لشىء غير جميل أن تشاهد النساء مثل تلك المصارعات وهن لا يفقهن فيها شيئا. ارتفع صوت المدرب وهو يقول بحق جوبتر العظيم إنهما ابتكرا طريقة جديدة فى المصارعة لم يسبقهما إليها أحد. بدأ الصراع عندما قام كل مصارع بقذف شبكته على المصارع الذى يحمل سيفا ودرعا فاستطاع الأخير

صاحب الدرع والسيف استقبال الشبكتين بحركة رياضية رشيقة جعلت الجمهور يصفق له. أما القذفة الثانية فكانت مفاجأة لمصارع الدرع والسيف حيث سقطت الشبكة فوق رأسه ولفت جسمه بينما كان الرجل الآخر قد جذبه من رجله واستولى على درعه وفى الحال قام زميله بذبح مصارع السيف والدرع. فقالت تاليا مبتسمة إنهما خططا لذلك إن كرايتس لديه حق. أجابها ليبتينوس ما الذى يفهمه هذا المشتغل بالفلسفة فى المصارعة؟ ولماذا كرايتس بالذات؟ فأجابته تاليا مبتسمة سعيدة لأول مرة طوال اليوم؛ لأن كرايتس يفهم كثيرًا من الحركات والمسائل المتشابكة المعقدة. قال ليبتينوس لتاليا هل يقصدنى كرايتس بذلك؟ ولكن تاليا لم تجبه على سؤاله. أثناء ذلك كان مصارعو الشباك قد ذبحوا خصمهم صاحب السيف والدرع ومثلوا بجثته، وكأنهم قد ذبحوا حوتا كاد إن يودى بحياتهم. لقد كانت سعادتهم كبيرة بهذا الفوز الثمين. بل إن فوز الفينيقيين الشابين قد أعطى بقية الفينيقيين أملا فى الفوز، إنهما سيموتان وقد قدما برهانا على شجاعتهما وبأسهما.

وفى الجهة الشمالية من المسرح كان هناك بعض الجرحى من المصارعين، وكان على ليبتينوس أن يعالجهم. لقد جاءت الآن الفرصة لتاليا كى تعرف طريقة معالجة الجروح؛ حيث إنها لم تعالج الجروح قبل ذلك. إن عليها الآن أن ترى طريقة معالجة كل جرح

على حده سواء كان ذلك جرحا قطعيا أم نافذا. لقد كان ليبتينوس فى علاجه للجروح عديم الإحساس بآلام الآخرين، حيث إنه لم يهتم بآلام الجريح، كما وجه انتباهها أن ليبتينوس قد كان يعقم كل جـــرح مـــن الجروح سواء كان كبيرا أم صغيرا بالنبيذ، ثم يقوم بعد ذلك بربطـــه باللفائف.

أخذ ليبتينوس يشرح لتاليا قائلا: كثير من الأطباء يـــصبون زيتـــا ساخنا على مواضع الجروح، ولكننى أفضل أن أضع خليط البصل أو الثوم فوق الجرح ثم يربط الجرح ويغير عليه كل يوم. لقد كان هناك مصارع مجروح فى منطقة الضلوع فقامت تاليا بعمل لفائف له تحت إشراف ليبتينوس وبعد أن انتهت من ربط المـــصارع. ســـألت تاليـــا ليبتينوس قائلة ماذا عن جروح العضلات؟ فأجابها ليبتينوس قائلا إن العضلات تغذى مباشرة من هواء الرئتين. كما أن جروح العـــضلات تكون عادة مؤلمة وعند الضغط عليها يسمع لها صوت بسيط. كما أن جروح العضلات الكبيرة تؤدى فى بعض الأحيان إلى الموت. أخـــذ الاثنان يراقبان المصارع الذى كانت تاليا منذ فترة وجيزة قد ربطـــت له جراحه، إنه يبدو فى حالة مستقرة ولا يبدو أنه فى حالة خطيـــرة. إن حالة الرجل المستقرة أعطت تاليا الفرصة كى تسأل الأسئلة التـــى لا تجد لها إجابة "عندما تكون الأعراض واحدة والعلاج واحد فهـــل يعنى هذا أن المرض واحد أيضًا؟ عبس ليبتينوس فى وجه تاليا وهو

يقول لها: لو أنك تكونين أكثر نظاما واهتمامًا بما كتبه الأطباء والسابقون لكنت الآن طبيبة بارعة، ولكنك بالطبع لم تفعلى إنه من الأفضل لك أن تبقى متخصصة فى أمراض النساء.

فى أثناء ذلك كان المصارعون قد قضوا على الفينيقيين حتى لم يتبق منهم سوى أربعة فقط. أخذ المنتصرون يتبخترون فى المسرح وهم يتباهون بانتصارهم، وهذا ما لم يستطيعوه فى المدرسة، وذلك لأنهم فى المدرسة تكون الحراسة عليهم مشددة. كما أن مدير المدرسة زير النساء عادة ما ينظر هنا أو هناك إلى النساء، ولكنه اليوم فى شغل عن هذا؛ حيث إنه اليوم مسئول عن كل صغيرة وكبيرة. ساد الصمت للحظة فى استاد الألعاب وزاد فضول الجمهور المتطلع لمزيد من الإثارة. بينما تاليا تذهب مبتعدة عن الجريح اصطدمت بصندوق أسلحة فارغ وكادت أن تسقط على الأرض. ثم سألت ليبتينوس قائلة هل انتهت الألعاب أخيرا؟ قال ليبتينوس لا أعتقد ذلك؛ حيث إن سيوليوس يبحث فى مكان المصارعين عن مصارع يقوم بنزال أخير وهو سوف يعود فى لحظات. لم يكد سيوليوس ينظر إلى خارج الحلبة حتى اكتشف جوهرة المصارعين، بالطبع هذا الأسود ذى الوجه المشجوج، معبود النساء، الذى تتهافت على رؤيته النساء كلهن. لقد قتل خصمه فى نزال سابق وهو الآن يجلس يلوك عشبا فى فمه. بينما ألقت النساء إليه بمناديلهن وبالورود بينما ألقت

إليه إحداهن بخطاب وراح أحدهم يقرأه له، لأنه لا يجيد القراءة. إنه اليوم سيلتقى بإحداهن وعليه أن يختار إحدى تلك النساء الروميات اللاتى أبدين ولعهن به ولربما استطاع السفر مع إحداهن، حيث يعيش حياته هناك مستمتعا بالثراء وربما بعمل جيد أيضًا حتى وإن كان أسود اللون. ثم سمع صوتًا صغيرًا ولما نظر إلى مصدره رأى سيوليوس يشير إليه فنهض من مكانه متثاقلا وهو يتجه إليه وكما أعتقد فقد دبر له سيوليوس صراعا ثانيا وهذا لم يزعجه؛ لأنه كان دوما مستعدا للنزال.

إن النزال هذه المرة مع مصارع قوى، ولكنه كسبه وكسب معه قلوب الجمهور. رفع الأسود يديه علامة النصر والجمهور يتصايح محييا ومعجبا به وبأدائه. ثم نظرت تاليا إلى جثة القتيل الذى راح العبيد يسحبونها مبتعدين بها عن المسرح، بينما المصارع الأسود المنتصر راح العبيد يرشون الرمال تحت قدميه، ثم خلع المنتصر خوذته وراح يحيى الجمهور للمرة الثانية. مع غروب شمس هذا اليوم نهض تريمالخيو من مكانه معلنًا نهاية يوم الألعاب الملىء بالأحداث الدامية وأحكام الإعدام والنزالات الشجاعة العنيفة. إن هذه الألعاب لا تقل روعة عن نظيرتها فى روما. وغدا اسم تريمالخيو كبيرا سوف يذكر عند القيصر أيضًا. كما شكر تريمالخيو الجمهور بيدين مفتوحتين بينما كان كثير من الجمهور يرفرف بمناديله البيضاء

للتحية. ثم وقف المصارعون المنتصرون فى شكل نصف دائرة ينظرون صوب تريمالخيو، الذى أكمل حديثه قائلا: كما إننى أحمل هدية جميلة لشعب الإسكندرية، ألا وهى أننى أهدى لهم أرواح أربعة من أعداء الإمبراطورية الرومانية ثم أشار إلى الفينيقيين الأربعة، عندئذ عزلهم الحراس عن بقية المصارعين بينما أخذ الرومان يشيرون بأصابعهم إلى أسفل بينما يصيح اليونانيون قائلين دعهم وشأنهم.

بينما قاضى القضاة أراد أن يضفى مزيدًا من الإثارة على الحدث حيث رفع إصبعه إلى أعلى للحظات ثم جعل إصبعه فى وضع أفقى للحظات ثم إلى أسفل. همس العبد كاى، وهو يقول إن هذا ليس بعدل يالوكيوس إن الفينيقيين لا يستحقون الموت. فأجاب نائب الملك وهو يضع ذراعيه متقاطعين أمام صدره نعم إنهم لا يستحقون ذلك. ثم أردف يقول إنه بذلك يستفز الشعب ويستخف بعواطفه وهذا ما لا نريده. ولكن كيف تتوقع عدلا من قاضى جاء من طبقة فقيرة من عامة الشعب! تعجب العبد الصغير من هذا التعليق ثم انطلق يضحك ساخرا. كما أخذت أفرانيا تضحك أيضًا. أثناء ذلك كان الحراس قد أجهزوا على الفينيقيين الأربعة. إن هذا الحكم قد احتسبه نائب الملك بمثابة الخطأ الأول الذى ارتكبه تريمالخيو واحتسبه عليه. وأخذ يضرب كفًا بكف آخر متعجبا. وأخيرا قال تريمالخيو أما الآن

فسوف نكافئ المصارعين الذين فازوا فى نزال اليوم وصارعوا باسم روما ببطولة وشجاعة. ثم نزل إلى المسرح يتبعه العبيد يحملون الأوسمة والنياشين. أخذ رجل يقول أسماء الفائزين ثم يرددها تريمالخيو بصوت مرتفع وعندما يأتى الفائز إلى تريمالخيو يقوم بإعطائه فرع من جريد النخل، ويضع على رأسه تاج يونانى من الأغصان. أما أحسن المصارعين هيجسيبوس فقد وضع تريمالخيو يده على كتفه محييا ثم استدار معه دائرة كاملة وهو يستمتع معه بتحية وصياح الجمهور. وعندما انتهى من مكافأة الفائزين لم تصفق له يد واحدة وعاد إلى مكانه صاعدا درجات المسرح بينما يشعر وكأنه يسمع صوت شعاع الشمس الضعيف من شدة السكون والصمت، كما ارتعشت أقدامه حتى إنها كادت لا تحمله.

عندئذ أدرك فى نفسه إنه قام بخطأ فادح، ولكنه لا يعرف ما هو؟. حتى إن عينيه راحت تبحث عن نائب الملك كى تجد لديه إجابة عن تساؤلاته هذه. إن بوبليكولا قد استمتع فى اللحظات الأخيرة أكثر من استمتاعه ببقية فترات اليوم كله. أما الخطأ الثانى الذى سوف يحسب على قاضى القضاة فإنه يدبر له بطريقة جهنمية تكاد تكون من تدبير إله الشر. ألا وهى أن تريمالخيو قد تجاهل أن الشعب السكندرى كان يحب دوما أن يرى أبطاله يغمرون بالنعيم والثراء، كما كان يحب أن يؤله أبطاله، وليس أن يكرمهم المرء تكريما صغيرا هكذا. وقد كان

هذا خطأ فادحًا وقع فيه تريمالخيو. إن الشعور بعدم الارتياح ما زال يسيطر على قاضى القضاة ويزعج أفكاره ولكنه ما زال لا يعلم سـر هذا الشعور. فى الحقيقة لم يحدث من ذى قبل أن يترك المصارعون المسرح دون مكافآت مالية، كما لم يحدث قبل ذلك أن يغـادر بطـل الصراع مكان المسرح دون مكافأة مقدارها حريته ومنزل ومكافـأة مالية. ثم انتظر نائب الملك برهة حتى هـدأت الأمـور. وقـال إن تواضع قاضى القضاة قد منحه الشجاعة بأن يقوم باسمه وبالنيابة عنه بهذه الإهداءات التى تهدى من روما العظيمـة وهـى عـشرة آلاف سيسترن لكل فائز أما بطل الصراع فله منزل ويمنح الحرية. ثم نزل إلى المسرح كى يعطى بطل المصارعين عصا تمنحه الحرية وبهـذا يصير إنسانا حرا طليقا كبقية البشر. قال بوبليكولا وسـط الـصياح والتشجيع إن بطل اليوم هو هيجيسيبوس تم إعطاؤه عصا الحرية بين تشجيع الجماهير وتهليلهم. لمع وجه العبد الأسود وهو فـرح سـعيد بهذا النصر ورفع ذراعيه فى الهواء منتشيا بصياح الجمهور. وأخـذ يفكر فى صاحبة الخطاب التى وعدته السعادة والمستقبل المشرق. ثم جاءت عربات نقل المنتصرين كى تلف بهم بـين الجمهـور وأخـذ الأسود هيجيسيبوس ينظر بين السيدات والفتيات الكثيـرات اللاتـى أخذن جميعهن يلوحن بالمناديل البيضاء ولم يـستطع أن يميـز مـن بينهن صاحبة الرسالة.

بعد هذه الجولة الشرفية بين الجمهور أخـــذت العربـــات تتـــسلل خارجة من المسرح. ثم خرج بعد ذلك ثلاثة من المصارعين قد تـــم إعتاقهم وإعطائهم حريتهم. لم يكن أحد فى تلك اللحظة حزين لإطلاق سراحهم سوى سيوليوس الذى راح يتابعهم بنظراته حتى أغلق خلفهم الحراس الباب. إنه سيفتقد هيجيسيبوس المصارع الأسطورة. إنه لـــن ينسى هذا العمل السيئ لمن تسبب له فى هـــذه الخـــسارة وتحولـــت نظراته إلى تريمالخيو.

أما قاضى القضاة فقد جلس فوق منصة الشرف ممتقـــع الوجـــه مقوس الظهر يفكر فى هذه الهدايا المادية الكبيرة التى حصل عليهـــا الفائزون والتى سوف تفقره، حيث إنه مدين بالفعل ولا يملـــك شـــيئًا بالإسكندرية يمكن العيش منه. إنه الآن أدرك إنه وقع ضحية مخطط ماكر قد دبره له هذا اللئيم نائب الملك. أما أفرانيا فقد أسندت ذقنهـــا على يديها وراحت تتأمل تريمالخيو الذى كان فى يوم من الأيام اليـــد الطولى لأحد أقرباء الإمبراطور بروما.

إنها لا تملك دليل على ظنها هذا، ولكنها سمعت ذلك من هـــؤلاء الذين يزودونها بالأخبار. إن فاليريوس وأقاربه انتصروا على شخص ما، ولكن من هو هذا الشخص فسوف تعرفه قريبا عندما تصل إلـــى روما. أما العبد الصغير فقد همس فى أذن سيده قائلا إنـــه الآن قـــد تحطم. فغمز له سيده بعينه ودس فى يده قطعة من النقـــود وقـــال إن

سمعة روما لهى دائما عظيمة، وإننى الآن أفهم ما كنت تقصده بكلمة سياسة. فضحك العبد الصغير. ونظر بوبليكولا إلى أفرانيا سعيدا بينما أرسلت له الأخرى قبلة عبر الهواء فاستقبلها هو الآخر بشفتيه. ثم نهض بوبليكولا سعيدا وهو يستقبل تحيات الرومان الحاضرين كما أخذ يسلم عليهم واحدا تلو الآخر ونادى بنفسه على حاملى المحفة كى تقل أفرانيا إلى القصر. ثم همس فى أذنها قائلا بأن أحد أعضاء السناتو الذى كان فى رحلة عبر إفريقيا مكث بالإسكندرية بضعة أيام.

استرخت أفرانيا فى مقعدها الوثير وهى تفكر فى بطل المصارعين الذى افتتنت بعضلاته التى تشعر بها على بشرتها إنها تراه تمامًا مثل الأسد الهصور إنها لا بد وأن تجد طريقة كى تأخذه معها إلى روما إنه هيجيسيبوس المصارع الأسود إنه الآن حر طليق ولا بد وأن تفوز هى به. ثم انتبهت على صوت لوكيوس وهو يقول لها إن المحفة قد جاءت. نهضت أفرانيا من مجلسها وهو قابض على يدها ويتهامس معها ويطرقعان الضحكات السعيدة الماجنة حتى فارقا المسرح.

أما تاليا التى كانت تجلس مختبئة أسفل أحد الحنيات فقد راقبتهما وهى تقول لنفسها إنهما يشبهان الزوج وزوجته، ثم راحت تنتظر عودة سيدها ليبتينوس. وأخذ المشاهدون يغادرون المسرح وساد الصمت المكان، ولكن رائحة الدماء مازالت قوية ونفاذة فى أرجاء

المكان. أمامها جلس الرجل الذى من المفروض أن يكون يومه هـذا يوما عظيمًا كبيرا من أيام حياته، ولكن هذا اليوم قد تحول إلى كارثة بغيضة وكابوس أليم. إنها لم تكن تتعاطف معه قبل ذلك ولـم تكـن تحبه، ولكن فى هذه اللحظة قد رثت لحاله وصـعب عليهـا رغـم تجاربها الأليمة معه. فشعرت ببرودة تسرى فى جسدها حتـى إنهـا أخذت ترتعش ولم تفق من حالتها هذه إلا عندما رأت ليبتينوس يقـف أمامها كى يذهبا معًا إلى المنزل.

الجزء الثالث

الشبكة

الفصل الحادى عشر

أرسطو

أخذت تاليا تحدق فى تريمالخيو المخمور نهارا. إنها لم تره فى مثل هذه الحالة من الهذيان من قبل. لقد بدأ يهزو بكلمة الهشت*. منذ يوم الألعاب الذى مر عليه الآن نصف عام وهو قد تغير تماما. ثم غسلت تاليا يديه وهو يحاول مصارعة الهواء بيديه ويهزو من وقت إلى آخر بكلمة الهشت. أن الجميع يعلم إن الرومان قد غدوا حساسين لكلمة هشت، وذلك إن مثيرى الفتن قد قاموا باصطياد نوع معين من هشت النيل المقدسة وقاموا بطبخه وأكله مما أثار هؤلاء الذين كانوا يعبدون هذا النوع من السمك وحدثت مجزرة كبيرة قام الجيش الرومانى بالانقضاض عليها وأخمدها. لقد حدث ذلك فى الشتاء ذلك الوقت الذى كان فيه المصريون يسمونه بفصل الإنبات. منذ تلك

---

* نوع من السمك المفترس ويسمى بالكركى، ويعيش عادة فى المياه العذبة، وقد قدسه المصريون كإله آنذاك(المراجع).

المذبحة ساد الهدوء مرة أخرى بين مدينة الإسكندرية ومايجاورها من مناطق. إن تاليا لا تعتقد بأن تريمالخيو يقصد بذلك حادثة الهشت المذكورة، بل إنها تعتقد أنه يقصد نوعا آخر من السمك. إنه منذ يوم الألعاب وهو عادة ما يبتعد عن أى أحداث رومانية .

إن تاليا تعرف كيف كان ليبتينوس يعالج هذيان تريمالخيو ووساوسه بحبات الفول السوداء التى كانت فيرنيرو تخبئها. كما أن تاليا تعرف أين كانت فيرونيرو تخبئها، ولحسن حظها أن فيرونيرو لم تكن وقتئذ موجودة فى المطبخ. عندئذ أخذت تاليا تملأ يدها من الحبوب السوداء وراحت تعالج تريمالخيو الذى على ما يبدو قد استجاب للعلاج حيث أن أنفاسه بدت أكثر هدوءا وعمقا والأشكال الخرافية التى كان يهزو بها تريمالخيو قد اختفت ولم يعد يتحدث بها، فتركته راقدا فى غرفة نومها واتجهت إلى العيادة التى اكتظت بالمرضى وراحت تساعد فى معالجتهم حتى كان آخر مريض قد ترك العيادة فى وقت الظهيرة. ثم أسرعت تاليا إلى القنال التى تحبها كى تشبع ناظريها منها كالعادة. وبينما هى تنظر إلى المياه تذكرت الأسطول الذى كان يمر بها محملا بالغلال والسلال الممتلئة بالنحل ثم ثورة الغلال التى اندلعت ضد الرومان الذين كانوا وما زالوا يشحنون غلال المصريين إلى روما. إنها تعلم أن أول سفينة وصلت من مصر إلى روما محملة بالغلال أقيم لها فى روما حفل كبير

واتخذ الرومان من هذا اليوم عيدا يحتفل به كل عام. أغلقت تاليا عينيها أمام القنال وأخذت تتخيل كيف أن الرومان يحتفلون ويتصايحون فى شوارع روما احتفالا بوصول القمح المصرى. وعندما فتحت عينيها كانت سفن الغلال قد اختفت من القنال وأدركت أن عليها أن تذهب إلى العيادة لممارسة عملها. إن مشاعرها نحو ليبتينوس قد تنامت وكانت تتمنى أن يدرك هو ما تكنه له من مشاعر خاصة، وأن أفرانيا أجريكولا غير موجودة الآن بالإسكندرية فقد عادت إلى روما كما أن ليبتينوس لم يعد يتحدث عنها كما كان سابقا. كما أنها لاحظت أن العمل فى العيادة لا يمكن أن يستمر بدونها وهو لا يقوم بعمل شيء دون أن يصيح مناديا عليها. عادت تاليا إلى العيادة فلاحظت إن فيرنيرو الطباخة ثائرة فتذكرت فورا الفول الأسود الذى أخذته تاليا من المطبخ.

فجأة خرج تيل بتاح من المطبخ ولما رأى تاليا لم يستطع الحديث. إن تاليا الآن تفهم اللغة المصرية جيدا كما أن قليلاً من الفول الذى أخذته تاليا لا يمكن أن تكون فيرونيرو قد لاحظته. ولكن تاليا لاحظت أن الفتى على غير عادته كانت عينيه مثبتة على الأرض لا تبرحها. على أى حال دخلت تاليا غرفتها منتظرة أن يقفز أرسطو على كتفها كالعادة. تذهب تتمشى بالغرفة وأرسطو يجلس فوق كتفها ولكن أرسطو لم يفعل فاعتقدت أنه يختبئ فى أحد أركان الغرفة فلم

تجده. ثم نظرت إلى أسياخ الشباك فلم تجده. اعتقدت تاليا أن شخصا ما ترك الباب مفتوحا حتى خرج منه أرسطو وضل طريقه. عندما استدارت للخلف رأت أسفل عقب الباب بقع الدماء وقطع لحم صغيرة بها شعر بنى اللون، قالت ربما يكون هناك حيوان مفترس قد التهم أرسطو. ولكن حيرتها لم تستمر طويلا فقد حانت منها التفاتة على الحائط فإذا بشخص قد أعدم أرسطو على الطريقة الرومانية حيث قد تم صلب أرسطو ووضعه على الحائط مصلوبا. إن أرسطو بالنسبة لها لم يكن حيوانا بقدر ما كان عزاء لها مثل أخ صغير وضعت يدها على أنفه وشعره الكثيف بحنان وودعته إلى الأبد، بينما تقف هى غارقة فى أحزانها سمعت صوت جاء من خلفها وهو يقول بوقاحة هل تعملين دراسة تشريحية على القرد، إن سيدنا سوف يسعد بذلك لأنه يعتقد أنك تكرهين التشريح. ونظرت تاليا إلى مصدر الصوت الذى تعرفه فوجدت تيل بتاح يقف وسط غرفتها مفتوح القدمين، ذراعاه متقاطعتان أمام صدره وهو ينظر إليها بتحد ومن خلفه تقف أمه فيرونيرو تنظر إلى تاليا قائلة إن عَبدة القرد لن يفرحوا بما فعلته أنت بالقرد وسوف ينتقمون منك لفعلتك هذه ثم أخذت تضحك سعيدة منتصرة. قبل أن تنطق تاليا بأى كلمة ظهر ليبتينوس فى مسرح الأحداث وهو يقول أين أنت يا تاليا؟ ماذا تفعلون جميعكم هنا؟ ليس لديكم الحق فى مناقشة وفاة الرجل الرومانى، إن هذا ليس من

اختصاصكم ! اذهبوا إلى أعمالكم هيا أسرعوا. خفضت فيرنيرو رأسها وذهبت إلى المطبخ بينما ظل تيل بتاح واقفا وقد استبد به الفضول وهو يقول متسائلا من هذا الرومانى الذى مات ياسيدى؟ فلم يجبه ليبتينوس لانشغاله بمنظر القرد المصلوب قتيلا ومنظر الغرفة الملطخ بالدماء. جثت تاليا على ركبتيها وهى منهارة باكية تقول: هل هذه هى طريقة كى يتعلم بها المرء التشريح؟ قال ليبتينوس: يامتراس ياباعث النور إننى لم أفعل هذا! كيف تفكرين إننى أفعل هذا؟ هيا تحركوا ونظفوا الغرفة من هذه القاذورات بسرعة، لقد كان ليبتينوس مغتاظا، إن قاضى القضاة سيأتى الليلة إلى العيادة بسبب وفاة لانستا الذى ربما يغير مجرى برنامجه اليومى . ثم قال ليبتينوس وهو مغتم مهموم مطأطئ الرأس: إن تريمالخيو يحتاج الآن إلى رجل يلفق له مقتل لانستا فى أسرع وقت. ارتجفت تاليا ووضعت يدها المرتعشة على فمها؛ لأنها تعلم أن العبيد بالنسبة لتريمالخيو أقل شأنا من قنينة نبيذ، بينما ساءت العلاقة بين ليبتينوس وتريمالخيو فى الفترة الأخيرة وشعر تريمالخيو بأنه غير مرحب به من قبل ليبتينوس. إن الرجل لن يتورع فى أن يعاقب ليبتينوس عن طريق تلفيق التهمة لأحد عبيده. ثم نطق ليبتينوس قائلا لتاليا: سأعطيك وقتا كى تنظفى الغرفة حتى تبرق وتصبح نظيفة مثل طبق نحاس وسوف يساعدك تيل بتاح فى ذلك. عندئذ قال تيل بتاح راجيا أن يعفيه ليبتينوس من هذا العمل فقال:

ياسيدى إننى لا أستطيع أن أقوم بهذا العمل القذر، فصاح به ليبتينوس قائلا: هيا أذهب أحضر مقشة ومياه وساعدها فى تنظيف المكان.
استدار تيل بتاح وهو يتمتم بكلمات السباب والشتائم قائلا: كل هذا من أجل قرد قذر تشمئز منه الأسود كلها ثم ذهب يجر رجليه متثاقلا بينما تفكر تاليا بقولها: ربما يكون تيل بتاح هو الذى قتل أرسطو.
فجأة نظرت تاليا إلى ليبتينوس فاكتشفت أنه ينظر إليها بمكر ودهاء وكأنه يشك فى شىء ما تجاهها، ولكن ليبتينوس أغلق الباب خلف تيل بتاح وأخذ يحكى لتاليا تفاصيل أكثر عن وفاة سيوليوس وأخذ يقول لها: إن الناس تتحدث عن انتقام المصارعين منه، وذلك لأنه كان شخصية عنيفة قذرة كما أن الرومان خائفون من ثورة قوية للعبيد. ربما تكون هذه الحادثة هى البداية لتلك الثورة. لقد أرسل الرومان رسلا كى تجلب القوات الرومانية من أرجاء الدلتا. إن الرومان يخشون المصارعين أكثر من خشيتهم من لصوص الدلتا. إن كتيبة المئة شخص بمنطقة نيكوبوليس لا تكفى لصد ثورة المصارعين. إنهم سوف يجردون المصارعين من أسلحتهم ويقومون بتعذيبهم حتى يعترفوا عمن قتل لاتستا. ثم أخذ يعبث بلحيته القصيرة ذات الشعر المجعد وقال: إن القرب من الرومان فى الفترة القادمة لأى شخص غير رومانى ليعد خطرًا كبيرًا. إن تريمالخيو يريد أن يجد القاتل بأى ثمن كما أنه يريد أن يلمع نفسه ويضفى عليه بعض البريق. هل

تفهمين ما أعنى؟ فأجابته تاليا موافقة بينما ترك غرفتها وهو خائف. فكرت تاليا قائلة: إن هذا الرجل يستحق تلك الميتة مـئة مـرة. ثـم راحت تتفحص الغرفة بما فيها من بقايا قطع اللحم الصغيرة والشعر وتفكر فى سلوك الجانى الذى أراد أن يضفى على الحدث مزيدًا مـن الدموية والعنف. فى الخارج سمعت تاليا أصوات أقـدام تيـل بتـاح الحافية على البلاط حتى ولج غرفتها وهو يحمل دلو المياه والمقـشة وقد وضعهما أمامها فقالت تاليا له: يجب أن تنظف كل شىء، فوافق تيل بتاح على مضض ثم استند بجسده على الحـائط. أخـذت تاليـا بعض أوراق البردى تتفحصها فوجدت أنها قد تلطخت بالدماء أيـضًا كما أن بها آثار بصمات أصابع ملطخة بالدماء. ثـم أخـذت ورقـة بردى أخرى كانت ملك لمركز الأبحاث وكانت قد استعارتها منه فإذا بها قد طمست عن آخرها بالدماء أيضًا فـزاد غـضبها وارتفعـت ضربات قلبها حتى كاد أن يقفز من صدرها حيث أدركـت أن قاتـل القرد يريد فى الحقيقة أن ينتقم منها هى وليس من القرد. تمنت تاليـا أن تنعم بالهدوء فى حياتها، ولكن على ما يبدو أن هذه الأمنية غاليـة وصعبة. قامت تاليا بجمع رفات أرسطو ووضعتها فى سلة وغطتهـا بالكتان كى تعطيها للجناينى حتى يُدفن أرسطو فى الحديقة. ثم فتحت تاليا صندوقها تتفحصه، لحسن الحظ وجدت سكينة الطبيب سـورانو وخاتم موتومبال ما زالا موجودين به فأخذت الخاتم وراحت تنظفـه

بقطعة من القماش حتى أخذ يبرق ويلمع من جديد. ثم لمعت بسرعة البرق فى رأسها فكرة ألا وهى أن مقتل لاتستا لا بد وأن يكون له علاقة بالخطاب الذى كتبته هى بخط يدها وأرسلته إلى أهل موتومبال فى أوتيكا. إن هذا الخطاب قد مرت عليه ستة أشهر من الآن إنها تكاد تكون قد نسيت تلك الأحداث. ثم نهضت مسرعة صوب ليبتينوس فى غرفة العلاج ووقفت أمامه مرتبكة وهى تقول أعتقد أننى أعرف ما حدث بخصوص مقتل لاتستا. عند ذلك قفز ليبتينوس غاضبا، وقد ضرب بكلتا يديه على المنضدة صائحا " إنك تحشرين نفسك فى كل شيء فى البيت وهذا ما أقبله على كره ومضض، ولكن أن تحشرى نفسك فى سياسة الرومان فهذا شيء لن أقبله أبداً" فقالت تاليا: إنه من الممكن أن تكون أسرة موتومبال هى التى قتلت لاتستا أخذا له بالثأر. قال ليبتينوس وقد ازدادت حيرته من هو موتومبال؟ فقالت تاليا: إنه الشاب الفينيقى الذى سب الرومان فى يوم الألعاب ثم انتحر على يد أتباعه. فسأل ليبتينوس محتدا: كيف عرفت كل هذه الأخبار؟ ثم كيف تعرفين اسم ثائر ضد روما؟ فقالت تاليا: لقد تحدثت معه يوم الألعاب وهو حبيس فى قفصه، وأتبعت ألا تفهم اعتقادى هذا سوف يرحم المصارعين من تعذيبهم واستجوابهم كما أننى أسدى لك معروفا عندما أخبرك بهذا حيث إنك سوف تتقدم بهذا الخبر إلى الرومان وسوف يكافئونك على مثل هذا الخبر. فقال لها ليبتينوس: إن

مثل هذا الخبر مثل حصان طروادة، حيث سوف يسألنى الرومان من أين جئت بهذه الأخبار؟ ، وما علاقتك بهذه العائلة الفينيقية؟ وهذا ما أريد أن أعرفه الآن منك؟ ارتبكت تاليا وتلعثمت؛ حيث إنها لم تحسب لهذه الأسئلة حسابا، ثم قالت له وهى تعض على شفتيها: لقد كلفنى بأن أبلغ أسرته رسالة. فقال ليبتينوس نعم نعم!! أخبرينى عن مفاد هذه الرسالة ياتاليا. فقالت تاليا:" لوكيوس فاليريوس بوبليكولا، جايوس كورتيلليوس تريمالخيو، سيدليوس كلوديوس فلاكوس" صاح ليبتينوس مهموما وهو يقول: يا أيتها الآلهة لماذا لا تتركى سقط الجنين يموت؟ هل كنت وقتها تعرفين ماذا يعنى أن تبلغى أسرته بهذه الرسالة؟ فقالت تاليا إننى لم أكن أعرف وقتها مغزى هذه الرسالة؟ اختلطت كثير من المشاعر فى نفسها وغدا لونها مصفرا ممتقعا كما أنه تجاهلها وازدراها بعد أن سمع منها هذه الأخبار كلها وهو يقول والآن فإن الدور على تريمالخيو. إن ما تقولينه لهو منطقى تماما، حيث إن تمزيق جسد هذا الخنزير كان عملا مدبرا ومحكم التنفيذ. ثم قالت تاليا: لليبتينوس هل ستحذر تريمالخيو؟ ولما لم تسمع إجابة فورية منه قالت إذا لن تحذره أنت فسوف أقوم أنا بتحذيره. فانطلق ليبتينوس يضحك ساخرا من مقولتها وهو يفكر قائلا إنها تذهب إلى الموت بأقدامها إنها لا تعرف الرومان، إنهم سيحكمون علينا جميعا بالإعدام صلبا وذلك لتواطئنا مع الفينيقين ومساعدتهم. ثم صمت

ليبتينوس واتجه بعينين جامدتين إلى تاليا وقبض على كتفها بقوة وقال لها: إننى أستطيع أن أخرس فمك هذا إلى الأبد وهذا يسير جدا علىّ . إنك سوف تصمتين ولا تفتحين فمك هذا تمامًا مثل القبر. إن الرومان لا يفهمون شيئًا عن الأخلاق أو الضمير الإنسانى. إنهم لا يعرفـــون سوى الدسائس والمؤامرات والقتل، حذار أن تتحدثى مع أى شـــخص كائنًا من كان عن هذا الذى أخبرتنى بـــه الآن وعليـــك بالـــصمت! أتفهمين؟

لقد قبض ليبتينوس عليها بكل قوة وقرب فمه من أذنيهـــا حتـــى لامست شفتيه وجنتيها . لقد كان ليبتينوس شديد الخوف والغـــضب، أما تاليا فقد كانت تعتمل فى رأسها أفكـــر أخرى . لقد كانت تـــذوب فى يديه القويتين حبا وعشقا. لقـــد التـــصقت بجـــسدها فـــى جـــسده وارتعشت ركبتيها من شدة الشبق إليه والرغبة فى أحضانه. فى تلك اللحظة اشتم رائحة شعرها المضمخة بالياسمين والفل وشعر بجسدها الفائر المرتعش بين يديه وتذكر مقولة تيل بتاح له ذات مرة بأن تاليا تحبه فوضع وجهها بين يديه برفـــق وراح يقبلـــه باتقـــان وخبـــرة المجرب. ثم شعر بأنها خائفة فابتعد عنها بجـــسده محتفظـــا بيـــدها اليسرى النحيلة فى يده القوية، ثم قال لها:أرجوك ياتاليا لا تفعلى هذا لا تخبرى أحدًا بتلك الأخبار من أجلنا، من أجل أرواحنـــا معًـــا. إن الرومان ليست لهم قلوب كقلوب البشر أرجوكِ. ثم قالت لـــه دعنـــى

الآن ياليبتينوس أخلو بعض الشىء لنفسى وتركته وعيناهـا مليئتـان بالدموع. ثم جذبها ليبتينوس مرة أخرى إليه وقبل شفتيها وانفلتت منه وهى تجرى إلى غرفتها مثل طفل صغير. وأخذ هو يفكر بمفرده فى تصرفات تاليا وطباعها التى تفاجئه كل يوم بالجديد.

فى تلك الليلة جاء تريمالخيو إليها وهو خائف مخمـور وعنـدما راحت تتحدث معه أدركت أنه خائف من هجوم الفينيقيين عليه . لقـد أدركت من حديثه أن أحدا ما قد حذره بصورة غير مباشرة من انتقام الفينيقيين. لقد بقى تريمالخيو جالسا حتى بزوغ الفجر رابطا حذاءه لم يلمس تاليا، ولكنه كان يكرر دوما عبارة أن هذا العمل ليس من عمل المصارعين. إنه من عمل شخص آخر وسوف أعثر عليه حتى وإن اضطررت إلى تعذيب المدينة بأكملها واستجوابها. ثم ألقـى كالعـادة بقطعة نقود إلى تاليا التى أخذتها وتركته فى مكانه وحيدا خارجة إلى الغرفة المجاورة بينما تدحرجت أفكارها مرة أخرى إلـى اللحظـات العاطفية التى عاشتها مع ليبتينوس يا إلهى لكم انتظرت تاليا طـويلا لمثل هذه اللحظات العاطفية.

فى الصباح كان عليها أن تذهب أولا إلى مكتبة مركز الأبحـاث كى تعطيهم لفافة البردى الملطخة بالدماء. ثم كان يجـب عليهـا أن تذهب إلى السيدة بريتوا التى طلبتها من أجل طفلها الصغير، أما فـى طريقها إلى مركز الأبحاث أخذت تبحث عن شىء تقولـه لبنتـانوس

وكرايتس عن البردية التالفة بسبب القرد إنها خجلة منهم خجلا كبيرا ، حيث أتلفت عليهم الآن كتابا. كانت خطواتها تقصر كلما اقتربت من مركز الأبحاث تود لو أنها لا تدخل المركــز، وبمجــرد أن دخلــت المركز سمعت صوت بنتانوس يناديها وهو فرح.

ادخلى ، تعالى ياليــا ولكن أرجوكِ لا تدخلى ومعك القــرد؛ لأن هذا المكان مقدس ولا يجب على الحيوانات دخوله. فوجئــت بقولــه وراحت تبحث عن رد تقوله له بينما رأت ابتسامة دافئة تكسو وجهه وهو يمد لها يده مهللا ومرحبا وهو يقول إننى لــم أرك منــذ فتــرة طويلة ، إننى افتقدتك. فقالت له إننى كنــت آتــى واســتعير كتابــا وانصرف بسرعة حيث إننى كنت مشغولة فى العيادة . لقد كان لدينا كثير من المرضى فى الفترة الماضية. ثم أخرجت كيسا مــن النقــود من جيبها وأعطته لبنتانوس، فقال ماهذا؟ نقود؟ لماذا من أجل مــاذا تعطينى هذه النقود؟ فأرادت أن تجيبه قائلة إن هذا ما ادخرته وأرجو أن يكون هذا المبلغ كافيا للكاتب الذى نسخ هذه البردية لأن أرسطو.. ولم تكمل حديثها حيث سمعت صوت كرايتس وهو يقول إننى أســمع اسم أرسطو هنا. إن هذا يشغف آذانى، فالتفتت تاليــا خلــف دولاب الكتب فرأت كرايتس قادما يجر قدميه ولم تشأ أن تقاطع حديثه. وهو يقول مرحبا تاليا عندنا يا مرحبا يامرحبا ثم أردف يقــول ألا زلــت تعتقدين يا تاليا أن القرود مثل البشر تحس وتتألم وتبكى؟ ثــم بــسط

كرايتس كلتا يديه مبديا فرحه بوجودها مسلما عليها. فلم تتمالك تاليا نفسها وجهشت بالبكاء وانهمرت دموعها غزيرة وهى تقول نعم لقد كان أرسطو يشعر ويفرح ويحزن تمامًا مثل البشر، وأخيرا فقد عانى وتألم أيضًا مثل البشر عندما قام شخص ما بتمزيق جسده وتقطيعه . إننى واثقة أن عذابه لم يقل عن عذاب الرجال الذين فقدوا حياتهم فى المسرح يوم الألعاب. إننى رأيت الآلام فى وجهه مثلما رأيتها فى وجه أخى الذى قتله القراصنة، وكما أننى لم أستطع مساعدة أخى فلم أستطع مساعدة أرسطو أيضًا. وجم الرجلان وهما حزانى على ما بتاليا من هموم ومسح العجوز كرايتس بيده على شعرها مواسيا. وهو يقول إن الرومان لهم هم وعبء ثقيل على البشر. لكم أتمنى أن يزولوا من على الأرض، ولكن دون أعباء ودون أن يرث البشر منهم عاداتهم الحقيرة. ثم سادت لحظة من الصمت سأل بعدها بنتانوس قائلا وماذا عن لفائف البردى؟ فارتعشت تاليا مجددا وهى تقول له خائفة: إن الذى قتل أرسطو قام بتلطيخ البرديتين بدمه حتى أنهما لم يعودا صالحتين للقراءة. فهم الرجل أن يثور ويكيل لها السباب، ولكن كرايتس رفع يده المليئة بالعروق النافرة محذرا إياه ألا يخطئ فى حق تاليا. وقال: أيها الصديق، لا عليك إننا سوف نكلف أحد الكتبة بكتابة هاتين البرديتين من جديد بخط جميل. ويكفى أننى تعلمت من تاليا ملحوظة جميلة ألا وهى أن ملاحظات الفرد

الشخصية مهمة جدا عندما لا يكون هناك علم محقــق بخـــصوصها. ولما سمعت تاليا مقولته هذه نزلت على جراحهـــا كالبلـــسم الـــشافى فابتسمت وهى تمسح دموعها .

إن ذلك أسعد روحها عندما يقول ذلك فيلسوف كبير مثل كرايتس. ثم قال كرايتس لتاليا بحق أخبرينى عن الكوليرا ماذا توصلتِ بشأنها؟ فأجابت تاليا: إنها المياه الملوثة ليس إلا. إن ذلك قد تيقن منه ليبتينوس أيضًا وذلك عندما شربت الرومانية أفرانيا من المياه الملوثة فقد أصيبت بها أيضًا. ثم إن عديدًا من اليونانيين والرومان الذين حضروا فى يوم السباق بالإستاد وشربوا مياه من السقاة قد أصيبوا بالكوليرا. ولكن العجيب فى الأمر أن مرض الكوليرا أصبح يقل شيئًا فشيئًا حتى كاد يختفى ولا أعرف تعليلا لذلك. تفحصها كرايتس فى أثناء حديثها وقال لها إنك الآن أصبحت طبيبة بارعة يا تاليا ولو أن الحاقدين يقولون دوما إنك تستخـــدمين السحـــر والشعـــوذة، لكننى أرى إنك تنتميـــن إلى مدرسة المجربين أليـــس كذلك؟ ثم إننى أرى أن ملاحظاتك تكاد تكون فى بعض الأحيان أهم من الكتب المطبوعة عندما تخالف ما رأيته بعينك المجردة ألا تتفقى معى فى الرأى ياتاليا؟ فأجابت تاليا بالموافقة، ثم قال كرايتس إنك تتفقين مع التجريبين يا ابنتى وبصفة خاصة فيما يتعلق بالكوليرا. إنه لشىء صعب أن تجد رأسًا ذكية مثل رأسك الفرصة كى تتكلم عن أفكارها

بوضوح فى مجتمعاتنا هذه. قال كرايتس إن مرض الكوليرا تقع خلفه دوافع سياسية أيضًا، وذلك لأن الرومان لم يكلفوا أنفسهم عناء تنظيف قنال المياه ولا يتحملون أن ينتقدهم أحد أو يخبرهم الصواب. كما أنهم مهتمون الآن أكثر برئيس مدرسة المصارعين الجديد ذى البشرة الحمراء وأن الحديث عن الكوليرا وصحة الناس ما هو إلا إثارة لمشاعرهم العدائية الثائرة بالفطرة. ثم قال كرايتس وهو ينصح تاليا لا تفصحى بمعلوماتك ومعارفك أمام أحد حتى لا يحقد عليك الحاقدون واستعمليها فقط لنفسك حتى ينصفك الوقت والزمن والآخرون من الأذكياء الذين سوف يقدرونك. ثم بدت على وجهه ابتسامة مشرقة وهو يعلن أمام بنتانوس انتهاء ساعة الدرس ثم قال له إن تاليا تفهم كل كلامنا كما أنها تدرك كل مشاغلنا عندما تخلو مع نفسها وتفكر فيها يابنتانوس. ثم أعطت تاليا لفائف البردى الملوثة بالدماء لبنتانوس وكرايتس ففتحها الأخير وهو يهز رأسه مستنكرا تلك الفعلة الهمجية. ثم لاحظت تاليا لأول مرة أن شريط الدماء فى ورقة البردى عريض بعض الشىء ، حيث يبلغ عرضه نحو أربع أصبع وهذه الدماء الكثيرة لا يعقل أن تكون كلها من القرد أرسطو حيث لا يحتوى جسمه الصغير على كل هذه الدماء. قال بنتانوس وهو يسأل تاليا هل يقوم التجريبيون بعمليات الحجامة؟ قالت تاليا فى العادة لا، إن ليبتينوس لا يقوم بذلك إلا إذا أصر أحد المرضى على

ذلك. وبالأمس لم نقم بذلك، كما لم يأتِ إلينا أى جريح. ثم أردفت تاليا تقول، ولكن بالأمس قامت الخادمة فيرنيرو بذبح معيز، وقد سمعتها وهى تتشاجر مع ابنها تيل بتاح الذى اعتقد أنه قام بقتل القرد وتلطيخ ورقتى البردى بدمائه. قال كرايتس إننى اعتقد أن الفاعل موجود فى مطبخ البيت، ولكن هذا الاعتقاد يفتقد الدليل. قالت تاليا: ولكن لدى اعتقاد وفكرة تمامًا مثل اعتقادى بأن الماء الملوث هو سبب الكوليرا الرئيسى، نعم إن الاختراعات غالبا ما تبدأ بالأفكار. والأفكار هى روح الفلسفة التى تشكل حياة البشر. ثم ابتسمت تاليا وهى تودع الرجلين المسنين اللذين امتدت أعناقهما إلى الأمام يتابعانها بنظراتهما المتطلعة. لقد بديا لها وكأنهما طائران ذوا عنقين طويلين. ثم راحت تاليا تعدو بخفة متجهة نحو منزل بريتوا الذى غدا بجوار مدخل الشمس بالقرب من الحى الرومانى . إن المنازل فى هذا الحى كانت جميعها ذات طابقين وسقوفها مسطحة وبجوارها كانت هناك أكواخ تطل منها رءوس الغنم والمعيز. دخلت تاليا المنزل ولاحظت أن الرجل قد اشترى كثيرًا من الأطفال الرضع كى يبيعهم بعد ذلك عبيدًا. وعندما رأته أخفت وجهها بشالها . حيث إن المنزل به عدة طوابق ويسكنه عديد من الأسر المختلفة الأعراق والمذاهب حتى إذا رأت تاليا امرأة تنزل السلم سألتها عن السيدة بريتوا فأجابت المرأة اليونانية وهى مستاءة لسماعها اسم السيدة

بريتوا وقالت لتاليا: إننى لا أريد سماع أى شىء عن هؤلاء الناس ولا أريد الاحتكاك بهم وذهبت دون أن تخبر تاليا عن مكان بريتوا. ثم جاءت امرأة شابة تحمل طفلا على كتفها وقد أبدت استعدادا لمساعدة تاليا فى البحث عن السيدة المنشودة، عندئذ أخذت تاليا تصعد الطوابق واحدا تلو الآخر بينما تشتم أنفها الروائح المختلفة فى كل طابق حسبما كان أهله يطبخون حتى وصلت إلى الطابق الخامس وهو الأخير صاحت منادية باسم السيدة بريتوا فخرجت من الباب سيدة شابة عرفتها تاليا على الفور وابتسمت كل منهن محيية الأخرى. سألت تاليا المرأة قائلة هل ابنك مريض؟ فأجابت السيدة لا إنه ليس بمريض إننى أردت فقط أن تريه .

دخلت السيدة بريتوا أمام تاليا حتى وصلت إلى مكان يرقـد فيـه الطفل على الأرض. إن الطفل الآن يبلغ من العمـر عامـه الأول. انحنت تاليا على الطفل تفحصه، حيث لاحظت أن الطفل يفتح يديـه ويغلقهما ثم أن عينيه غائرتان إلى الداخل أكثر مما يجب وقالت تاليا للمرأة هل يرى الطفل؟ فلم تجب السيدة، إن الطفل منذ فترة الكـوليرا وهو مريض. قالت السيدة المسيحية بصوت محتقن يملؤه الحنق كمـا ترين ياسيدة تاليا إنك أنت السبب فى مرض ابنى هذا وبسبب مرضه هذا فقد تركنى أبوه أعانى به بمفردى، حيث إن الطفل لا يمكـن أن

يخلف أبيه فى عمله راعيًا لمصالح المسيحيين وممثلهم بالكنيسة إننى سوف أقدم شكوى ضدك لما فعلته بابنى.

ارتجفت تاليا لسلوك المرأة المعادى وقالت تاليا: لمَ لم ترسلى فى طلبى عندما لاحظت أن الطفل مرتفعة حرارته فأشاحت المرأة بيدها وهى تقول الأطفال كلهم ترتفع حرارتهم ثم تنخفض. كما إننى أخبرتك بأن الرب شخصيا هو طبيبنا. وعندما همت تاليا أن تحتضن الطفل فى أبطها جذبتها السيدة بعنف بعيدا عن الطفل وطردتها من المنزل شر طردة. وقالت المرأة لتاليا: إننى أردت فقط أن ترى ما فعلته بابنى حتى لاتكذبى عندما أشكوك، إنك سوف تدفعين ثمن هذا الخطأ طوال حياتك ولسوف أريك، ثم أغلقت بريتوا الباب بعنف خلف تاليا. بينما وقفت تاليا على درجة السلم تنظر خلفها وهى لا تدرى بما يحدث بينما ترتفع الأصوات حولها وترتفع الأصوات على الدرجات الخشبية صعودا وهبوطا وتفتح الأبواب وتغلق ، وفجأة ضرب أحدهم على كتفها وهو يقول لها إنك مطلوبة للقبض عليك. ثم نظرت تاليا إلى الرجل فإذا به جندى أردف قائلا هل هذا البيت مسكنك؟ كم شخص يعيشو هنا؟ فقالت تاليا: إن المنزل ليس منزلى ولا أعرف كم شخصًا يعيش هنا إننى فقط طبيبة كنت أزور مريضا. إننى أدرس الطب فى عيادة تجريبية تقع بجوار مدخل القمر يا سيدى الجندى.

إن الجندى لديه أوامر أن يقبض على كل من يرتدى زيا يونانيا سواء كان ذلك الشخص يهوديا أم يونانيا أم خلاف ذلك من المذاهب وذلك بعد تلك الاستجوابات المخزية التى قاموا بها ضد المصارعين ولم تثمر بأى نتيجة. إن الجندى قرر أن يترك تاليا تمشى، ولكن فى لحظة فتحت بريتوا الباب وقالت للجندى وهى تبرز ثدييها للأمام أيها الجندى خذها معك فهى عاهرة ماكرة تريد أن تمثل عليك، فقال الجندى وسوف آخذك معها أيتها النعجة. فضحكت بريتوا بإثارة وبصوت مرتفع وهى تقول للجندى هامسة ألا تحب أن تنتظر لحظة. بينما ألصقت صدرها بصدره ووضعت خدها على ذقنه الخشن غير الحليق. فصاح بها الجندى يحثها على أن تذهب وترتدى ملابسها كى تذهب معه. فدخلت بريتوا مسرعة ترتدى لباسا فوق ملابسها وقد حملت ابنها على كتفها وهمت بالذهاب معه ومع تاليا مقبوضًا عليهما. ثم أشار إليهما بالانصراف أمامه وهو يقول مبتسما إن صوتها أى صوت بريتوا بشع تمامًا مثل صوت بائعات الخبز. فلم ترد تاليا ولم تساعده فى أن يتابع إهانة وشتيمة غريمتها بريتوا، كما أن تاليا لم تكن مهتمة كثيرًا بهذا الأمر؛ لأنها تعلم أن ليبتينوس يعلم بمكان وجودها ويعلم أنها هنا فقط كى ترى هذا الطفل ولا بد أنه سوف يعلم عن هذا التصرف من جنود الرومان. ثم صاح الجندى بصفاقة متسائلا من منكما هنا عبدة؟ فأجابت بريتوا مشيرة إلى تاليا

بقولها هى ! فأجابت تاليا: إننى ولدت حرة فجذبها الجندى من رقبتها حتى كاد صندوق الأدوية يقع من فوق رأسها ثم قالت بريتـــوا: نعـــم عاهرة حرة، ثم صاح الجندى: إننا نبحث عن العبيد، ونـــزل بهمـــا السلالم التى راحت تطلق صريرا كلما داست عليهـــا الأقـــدام ورأت تاليا السكان ينزلون من كل طابق يقودهم الجنود أمـــامهم مقبوضًـــا عليهم وهم يسبون ويضربون من قبل الجنـــود. حتـــى إذا وصـــل الجندى إلى رئيسه قبض على تاليا من ذراعها وأزاحها أمامه وهـــو يقول له: إن هذه السيدة خطرة حيث تبدو وكأنها مسيحية . فقال لـــه: الضابط إنك فهمت خطأ أيها الغبى فضحك زميله الجندى الآخر حتى أحمرت تاليا من الخجل. فصاح به الضابط: وأنت أيها الأحمق أغلق فمك ! ثم أخذ الضابط يتفحص الفتاة تاليا التى بدت فى عينيه وكأنهـــا من بيت عريق إنها تشبه أمه فى قريته التى جاء منها. فى أثناء ذلك كان المقبوض عليهم يفسحون الطريق لقاضى القضاة تريمالخيو الذى جاء لتوه إلى مسرح الأحداث، فتمتم الضابط بشتيمة غير مـــسموعة وهو يقول: هاهو عاشق العاهرات. ثم شعر الضابط بيد تربت علـــى كتفه وصاحب اليد يقول له إن هذا الرجل إذا اتهم أحدًا بتهمـــة فهـــو يعلم جيدا لماذا يتهمه بها. لهذا فلا بد وأن تصدقه. ثم أخذ تريمالخيو يتفحص المقبوض عليهم حتى إذا وصل إلى تاليا قال: إن هذه الطبيبة لا بد وأن تخلو سبيلها فالكل يعرف أين تقيم ومع مـــن تعمـــل فهـــى

تسكن بمدخل القمر ولا أعتقد أن لها أى علاقة بمقتل لا نستا. تنفست تاليا الصعداء وقام الجنود بفرد كرسى لقاضى القضاة كـى يجلـس عليه.

وبدأ الضابط ينادى المتهمين بصوت بارد خـالٍ مـن المـشاعر مبتدئًا معهم التحقيق. وقبل أن تغادر تاليا المكان لم تـنسَ أن تنـادى على الجندى الذى قبض عليها قائلة له بصوت بارد ومتعالٍ: أنت أيها الغبى إنك حقا غبى، ولكن إذا مرضت فى يوم من الأيـام فـسوف أكون كريمة معك وأعالجك. فضحك عليه بقية زملائه مـن الجنـود حتى بدت نواجزهم. أما الجندى فطرقع بشفتيه ممتعضا وهو ينظـر إلى تاليا تارة وإلى قاضى القضاة تارة أخرى، وكأنه يشعر بأن هناك علاقة ما تربط بين الاثنين. ثم نظرت بكبرياء وتعالٍ علـى بريتـوا وهى ذاهبة حرة طليقة بينما ما تزال بريتوا رهن الحجـز. إن هـذه الأحداث قد أعطتها كثيرًا من الثقة بنفسها. بينما كانـت الـشوارع ممتلئة بالجنود الرومان والضباط الذين يجلسون فى كل مكـان فـى الطرقات وهم يحققون مـع النـاس ويـستجوبونهم. وعنـدما كـان يعترضها أحد الجنود فى الطريق كانت تاليا تريه الـصندوق الـذى يحتوى على الأدوات الجراحية والأدوية ثم تقول له: إننى فى حالـة مستعجلة هل تريد أن يفقد الإمبراطور واحدا من دافعى الـضرائب؟ فيتركها الجندى إلى حال سبيلها حتى اعترضها أحـد الجنـود وأراد

التحقيق معها فقالت له: إنها كانت الآن بالحجز وقد تركها لتوه قاضى القضاة تريمالخيو. حتى إذا وصلت تاليا إلى العيادة ارتمت على سريرها راقدة على بطنها منهكة متعبة وهى تفكر فى أن تريمالخيو قد أنقذها حتى الآن مرتين، وإنه لو يدرى أنها هى الوحيدة التى تستطيع أن تخبره الخبر اليقين عن مقتل لانستا لترك كل هؤلاء البشر لحال سبيلهم واحتجزها هى. بينما هى راقدة على سريرها متعبة تفكر فيما يحدث إذ فتح تيل بتاح الباب، وهو يقول بوقاحة وغيظ فى يوم من الأيام سوف تقعين، وإن لم يوقع بك جنود الرومان فسوف تفترسك التماسيح. فأشاحت تاليا له بيدها كى يخرج ويغرب عن وجهها ؛ حيث إنها لا وقت عندها كى تسمع خرافاته. خرج تيل بتاح مرة أخرى وأغلق الباب خلفه بينما استلقت تاليا على ظهرها وراحت تحلم بلبيتينوس.

الفصل الثانى عشر

مدرسة العبيد

لقد تغير مسلك ليبتينوس تجاه تاليا ، حيث بات يصطحبها معه فى كل مكان يذهب إليه، عندما كان يذهب لزيارة المرضى، كانت تذهب معه ، بل إنه ألغى تدريباته الليلية التى كان يقوم بها كل ليلـــة فـــى صالة الألعاب وغدا يقضى تلك الليالى بجوارها، كما أنه بذلك أبعـــد قاضى القضاة عن عيادته. حيث جلسا بالمساء معًا على حافة النافورة فى صحن المنزل يستمتعان بالهواء البارد فـــى أمـــسيات الـــصيف الساحرة.

فقد كان ليبتينوس يطلب بعض المشويات والمأكولات المـــصرية إلى المنزل، كما أنه كثيرًا ما كان يشرب النبيذ فى تلـــك الأمـــسيات وذلك لأنه لم يكن يحب الأسماك أو المأكولات البحرية، بينما كانـــت تاليا تخبره بمزيد عن حياتها وعن أسرتها البائدة كما سألها ليبتينوس عن تخطيطها لحياتها لو أنها بقيت فى مسقط رأسها صيدا فلم تستطع أن تجيب على هذا السؤال لأنها لم تكن قد وضعت لحياتها بعد خطة. ثم راح هو يحكى لها عن حياته حيث إنه ولد فى الإســـكندرية وأول شيء أرادت أســـرته أن يتعـــلمه هو صـــناعة القـــلل والأوانـــى

الفخارية كى يصير فى مستقبله فخرانيًا، ولكنه ذات يوم ذهـب مـع خاله إلى أحياء أخرى وراح يتنقل من مكان إلى آخر بصحبة خالـه الذى راح يريه أحياء أخرى غير الحى اليونانى. ومع تنامى العلاقـة الحميمية بينها وبين ليبتينوس نسيت تاليا أن تحذر تريمـالخيو مـن الاقتراب ولكن الوقت غدا متأخرًا. وبدت وكأن الحياة راحت تعاهدها السلام فكانت كلما دخلت المنزل فى الممر الطويل تتـرنم بالأغـانى وبصفة خاصة عندما ترى تيل بتاح بوجهه المتجهم.

ذات صباح بينما تغنى تاليا بصوت عال فاجأها تيل بتـاح بقولـه بالأمس مات أربعة من المصارعين من شـدة تعـذيبهم فـى أثنـاء الاستجواب. وبالأمس قام الجنود الرومان باستجواب كل مـن كـان يسكن بالقرب من النهر فى حى اليهود. فقالت تاليا هل ظهر لهـم أى شىء ، هل عرفوا جديدا؟ فهز تيل بتاح كتفيه بالنفى وقال لها بالطبع عندما يعرفون شيئًا جديدا فسوف نعرفه نحن أيضًا. فكرت تاليا بأن تخبرهم عن الدماء التى تلطخت بها أوراق البردى ومقتـل أرسـطو وكذلك ذبح المعيز فى المنزل. لقد قالت تلك الأفكار بـصوت عـال حتى أن تيل بتاح قد سمعها فأفسح لها الطريق كى تخرج، ولكنه كان خائفا وأخذ يرمقها بنظرات حادة حانقة غادرة. وأخذ يقول فى سره: يا آمون يا إلهى فلتلعنها وتخسف بها الأرض إنها دائما مـا تـسقط

أفكارى ودائما ما تفسد خطط أمى كما أنها سرقت قلب سيدى ليبتينوس الذى كان يحبنى.

ومع مرور الوقت بدأ الرومان يدركون أن تحقيقاتهم وإجراءاتهم الطويلة لم تأتِ بأى نتيجة. فقاموا بالترويج لموسم حصاد الزعفران موسم مجيء الجمال المحملة بالأشياء الثمينة من بلاد أفريقيا كذلك وذلك كى يخبئوا بهذه الأفكار فشلهم فى معرفة قاتل لانستا. فى أحد الأيام قام ليبتينوس بعمل حفل كبير وعزم إليه طلبة الطب بمركز الأبحاث وقال لتاليا: وأنت يا تاليا معزومة لهذا الحفل لأنك قريبا سوف تنتهين من تدريبك كطبيبة وسوف تصيرين بالفعل طبيبة. وأخذت تفكر فيما ترتديه لهذه المناسبة وجرت إلى غرفتها لكى تختار ما ترتديه. عندئذ دخل تيل بتاح إلى ليبتينوس وراح يقول له: يا سيدى منذ فترة وأنت تحزن قلبى وتوجعنى فنظر إليه ليبتينوس وقد امتشق طولا ورشاقة وقد اعتنى بنظافة وجهه من الشعر حتى بدا أملس كبشرة الأطفال وأزال الشعر من ذراعيه ورجليه حتى غدا أكثر نعومة من النساء. ثم أكمل تيل بتاح يقول إنها قد عششت فى قلبك مثلما تعشش الفئران فى مخازن الغلال. فقال ليبتينوس مواسيا وهو يهمس إن قبلة وتحسيسًا على شعر وجسم المرأة لذو مغزى كبير عندها ولكن ذلك لا يساوى عندنا شيئًا نحن معشر الرجال يا تيل بتاح. ثم إن الإله ميتراس قد أنقذنا من هذه النقائض منذ أن خلقنا

ومزج دماءنا، وكل ما تعد به الآلهة المصرية سوف يحققه الإله ميتراس. كما أن الشياطين المصرية لا تستطيع أن تؤثر على الإله ميتراس. حيث إننا لم نسمع عن شخص مات مرتين. ثم ارتفع صوت ليبتينوس وهو يقول لتيل بتاح هل تود أن تصبح أخى فى عقيدة ميتراس يا تيل بتاح فتقاسمنى خبزى ونبيذى باسم ميتراس؟

فى الممر كان هناك ظلام دامس ولم ير ليبتينوس من تيل بتاح سوى المنطقة البيضاء فى عينيه وأسنانه البيضاء وعندما أومأ تيل بتاح موافقا على ما عرضه عليه ليبتينوس. وابتسم ليبتينوس لموافقة تيل بتاح وهو سعيد وراح يرمق تيل بنظرات حانية بينما ذهب الأخير سعيدا قرير العين. بينما وقف ليبتينوس ممتعضا وهو ينتظر حتى تأتى تاليا. إنه لم يجد أى صعوبة فى إن يمثل دور الحب على العبدة تاليا. إن ذلك لشىء بغيض حيث إن الرجل قد ترك تدريباته اليومية الممتعة وجلس بجوارها أسفل كرم العنب كل ليلة يستمع لأحاديثها رغم أنه لم يبادلها الحب وفى قرارة نفسه لم يكن يكنّ لها أى عاطفة ولكنها تمثيلية بغيضة كان يقوم بها.

أما الثوب الذى اختارته تاليا، فقد كان خفيفا وشفافا ولكن كان يصل حتى قدميها. كان الثوب ذا لون أزرق وبدون أى حلية. كما غطت تاليا شعرها بغطاء رأس شفاف يظهر جمال شعرها ولكن يعطيها فى الوقت نفسه وقارًا. أما عينها فقد كحلتهما بكحل مصرى

أزرق اللون خفيف وليس بطاغٍ. ثم راح ليبتينــوس يمتــدح ذوقهــا وجمالها رغم شفتها العليا الأرنبية مما أعطاها ثقة بنفــسها وشــعور بالرضا. لقد كاد قلبها يقفز من صدرها عندما أخذت تمــشى بجــوار ليبتينوس وتلج معه صالة ذات أعمدة كبرى وهناك فى آخرها صالة يجلس بها الرجال لا تتوسطهم امرأة واحدة. وعنــدما رأت هــؤلاء الرجال لم تكن تتوقع أن الإسكندرية بها هذا العدد الكبير من الأطباء. وطوال تلك الجلسة وهذا الحفل لم تتعرف تاليا على أى شخص كمــا أنها لم تتحدث لأى شخص ولم يتحدث إليهــا أى شــخص وعنــدما أرادت أن تسأل ليبتينوس عن هذا رأت أنه أســرع الخطــى تجــاه مجموعة كانت تتجاذب أطراف الحديث فى زاوية من المبنــى. فلــم يبق أمامها خيار سوى أن تتبعه وتسير خلفه نحو تلــك المجموعــة، بينما هى تسير لاحظت أن عيون الرجال تتبعها فــى كــل خطــوة تخطوها. ولم يكن ذلك بغريب حيث إنها المرأة الوحيــدة فــى هــذا الجمع من الأطباء ثم سمعت تاليا صوتا يقول لليبتينوس متهكما: حتى هنا أحضرتها معك يا ليبتينوس؟ هل هــى خليفــة ســيئة للعظــيم سورانو؟ فنظرت تاليا تتفحص الوجوه فلاحظت أن هؤلاء الأطبــاء ليس جميعهم من اليونان بل منهم من هو سورى أو ليبى أو يهودى. أما الرجل الذى سأل ليبتبنوس متهكما فقد كان يونانيا وهو من عائلة متطرفة قد أنشأت مدرسة فى الفلسفة المتشددة ولحسن الحــظ فــإن

ليبتينوس قد تجاهل هذا التعليق من الرجل ولم يعره اهتماما. ثم طلب ليبتينوس أن يحضر له أحد العبيد كأسا من النبيذ الممزوج بالمياه. ثم قال للرجل بكل هدوء: إنك تعطينى أكثر من قدرى يا ستيفوكاتوس إننى أدير عيادة سوارنو كما كان يديرها هو تمامًا ولكن الفارق الوحيد بيننا هو أننى استخدم فتاة كمساعدة لى وهذا أراه طبيعيا جدا. فقال الرجل إن حيك لما هو طبيعى جدا معلوم للجميع ياليبتينوس ثم علا صوت الرجل أكثر حتى يسمعه الحضور وهو يقول: إن سوارنو العظيم كان دائما ملتزما بالأعراف والأصول ولم يقم فى يوم من الأيام بفعل ما يخالف القواعد والأصول. فأخذ ليبتينوس رشفة من كأس النبيذ وقال للرجل: فى مثل تلك الحالات فإن الأعراف والقوانين لا بد لها وأن تنفصل عن العلم وكذلك لا بد للعلم أن ينفصل عن هذه الأصول وأنا أعرف كيف أقوم بعملى الذى أنا مسئول عنه. بينما كان بقية الحضور من اليونانيين يبدون امتعاضهم ويرشفون من كئوس النبيذ وهم مستاءون استدار ليبتينوس نحو تاليا وأشار إليها كى تتقدم لتقف بجانبه فأخذت تاليا تتقدم نحوه خطوة تلو الأخرى حتى غدت تقف تحت إبطه وهو يتحرك بها هكذا فى كل مكان. وقالت له هامسة لماذا يهاجموننا هكذا مثل الثيران الهائجة ، فقال لها: إنها الغيرة ليس إلا ولك أن تعلمى أنهم جميعا زملاء فى المدرسة التجريبية، أما

ستيفوكاتوس هذا فإنه من أتباع مدرسة هيروقليوس النظريـــة وهـــو غير دارس كما أنه فاشل فى عمله وسيئ السمعة.

أخذت تاليا تتبع خطواته الواسعة حتى وصلوا إلى مجموعة مـــن الأطباء فقال لها ليبتينوس: هؤلاء هم زملاؤنا التجريبيون، إنهم مـــن أفيسوس وهم كثيرًا ما يتحدثون عن ذكرياتهم فى أفيسوس أكثر ممـــا يتحدثون عن روصفاتهم الطبية. رغم رأيه الناقد بهم فإنه اصـــطحب تاليا إليهم يبدوا أكثر أدبا من زملائهم اليونانيين حيث إن أحدهم قـــد جلب لها مقعدا كى تجلس عليه. فجاءت جلستها أمام طبيب مسن ذى عينين بنيتين وهو ودود ومهذب. قال الرجل يسأل ليبتينوس: هل أنت من أنصار تيسالوس؟ ثم استطرد الرجل قبل أن يجيبه ليبتينوس على سؤاله، رغم أن مساعدتك صغيرة السن ولا أعتقد أنها أنهت دراستها للطب، فإنها تعرف كثيرًا ولها شهرة طيبة كطبيبـــة ،إننـــى ســـمعت عنها. قالت تاليا متعجبة وهى تنظر إلى ليبتينوس إلى أعلى: إننى لا أعرف اسم تيسالوس هذا ولم أسمع عنه. بعد برهة قـــصيرة أجـــاب ليبتينوس على سؤال الرجل بصورة عملية وعلمية بقوله إننى أقـــدر آراء تيسالوس ونظرياته الطبية رغم قصر مدة دراسته للطـــب. ثـــم أكمل ليبتينوس إجابته عن سؤال الرجل قائلا: إننى أعلم تاليا فنيـــات هذه المهنة كلها واستخدم فى سبيل ذلك كل الطرق كما أنها تقـــضى الساعات الطويلة تقرأ كتب مركز الأبحاث كما أنها تقرأ فـــى كتبـــى

أيضًا وهى مجتهدة جدا يسعد بها كل معلم. فقـال الرجـل واسـمه كريسنس إن ذلك يسعدنى فإنه حظ سعيد وأنت تستحقه يا ليبتينـوس، ثم جذب كريسنس مقعدا وابتسم ابتسامة عريضة وهو يوجه حديثـه إلى تاليا قائلا: إذا فاشرحى لى يا تاليا رأيك فى موضـوع الكـوليرا والقنوات الملوثة، فعلى ما يبدو أن هناك كثيرًا من الذين لم يـدركوا العلاقة بين الكوليرا والمياه الملوثة. عندئذ تنهد ليببتينوس متـضجرا وهو يقول عزيزى كريسنس إن هذا الموضوع لا أحب أن أسـمعه، كما أن تاليا لها رأيها الذى تصر عليه كعادة الشباب الصغير كما أنها تحب أن تحكى الروايات أيضًا . سأنسحب أنا الآن وأعـود عنـدما تكون تاليا قد انتهت من سرد هذه الرواية ثـم ربـت علـى كتـف كريسنس وانصرف.

ثم أبدى كريسنس اهتمامًا وهو ينصت إلى رأى تاليا عندما بدأت تتحدث. قالت تاليا إن الكوليرا تأتى من المياه الملوثـة الراكـدة ولا يجب على المرء أن يستعمل المياه الملوثة فى أى غرض. وقد حدث هذا فى العام الماضى عندما استخدم الناس المياه الملوثة فى الـشرب أصيبوا بالكوليرا. ثم سألها كريسنس ولكن ما علاقة هذا بالرومـان؟ فقالت تاليا إنهم نسوا أن يطهروا القنال ومن هنا تلوث وسـبب هـذا المرض للناس. ثم سأل كريسنس قائلا: هل تعتقدين أن النـاس قـد عرفوا سبب مرضهم؟ لقد انبهرت تاليا بكريسنس لأنه هو الطبيـب

الوحيد والأول الذى صدقها دون أن يشك فى رأيها. ثــم اســتطردت تاليا تقول: لك أن تتخيل أن الناس كانوا يغسلون ملابسهم ومــلاءات أسرتهم وكل ما علق بهذه الأشياء من قاذورات فى هذه الميــاه ثــم يأتون بعد ذلك بقدورهم ويأخذون من هذه المياه كى يــشربوها إنهــم لابد وأن يمرضوا وأما الشخص الوحيد الذى لم يكن يشرب من هــذه المياه وكان يذهب بعيدا كى يحضر المياه النقية فهو كليــون تــاجر الصوف وزوجته هيبارشيا. حيث إنه هو الوحــيد وزوجتــه اللــذان لم يمرضا رغم أنهما يعيشان فى الحى نفسه مع بقية الــسكان الــذين مرضوا جميعا وذلك لأنه الوحيد الذى لم يكن يشرب مثلهم من ميــاه القنال. فقال كريسنس ربما يحذران هذا العام بقية السكان من الشرب من مياه القنال فقالت تاليا: أتمنى هذا. فقال كريسنس متــسائلا هــل تعتقدين أن الناس سوف يصابون مرة أخرى بالإسهال فأجابت تاليــا قائلة: طالما لم تطهر القنال التى يشرب منها الناس فسوف يحــدث لهم الإسهال مرة أخرى. ثم نهض كريسنس واقفا وهو معجب بــآراء تاليا ولكنه قال لها: أرجو ألا تقولى رأيك هــذا بــصوت عــال لأن الرومان لن يعجبهم رأيك هذا ياتاليا وودعها متجها إلى مكان آخر.

بينما ابتسمت تاليا سعيدة حيث إنها أخيرا وجدت شخصا يعتــرف بها باعتبارها طبيبة وامرأة وفى ذات الوقت يحترم آراءها. فى أثنــاء ذهــاب كريسنس وجد ليبتينوس وقد اندمج فى الحديث مع ستيفوكاتوس فحياه

بإشارة من يده وأكمل سيره . وفى أثناء ذلك سمعت تاليا صـوت ليبتينوس محتدا وهو يقول ياستيفوكاتوس: إنه ليس من المعقـول أن تقوم بعمل حجامة لشخص يعانى من الكوليرا وهو يفقد السوائل كلها من جسمه عن طريق فتحة الشرج إنه فى حاجة إلـى سـوائل لا أن تفقد دمه أيضًا. فرد الآخر عليه بقوله يـا ليبتينـوس إن الميكـروب المسبب للمرض لابد وأن يخرج من الجسم مع السوائل بدلا مـن أن نعطى المريض مزيدًا من السوائل والميكروب موجـود داخـل الجـسم صدقنى يا ليبتينوس، إننى عالجـت كثيـرين مـن مرضـى الكـوليرا بالحجامة. هز ليبتينوس رأسه مغتاظا ومعترضا على كلام ستيفوكاتوس وهو يقول: إنك ورفاقك قد قتلتم كثيرين من مرضى الكوليرا بطـريقتكم الخاطئة هذه وأنكم لابد وأن تكفوا عن نزف دماء المرضى.

جـربوا طريقتنا فى العلاج حيث إن طريقتكم قد أثبتت فـشلها. فقال ستيفوكاتوس مغتاظا: إننى لست من التجريبيين حتى أتبـع طريقتـك فى العلاج إننى أسير على نهج حربوقراط ثم نهض وترك ليبتينـوس جالسا مع نفسه. ابتسم ليبتينوس وهو ينظر إلى تاليا قائلا إنه لا يتبـع طريقة حربوقراط فحسب بل أنه أكثر حزما من حربـوقراط ذاتـه. فضحكت تاليا من أعماقها بل أن سعادتها الداخلية لا توصف وذلـك لأنها سمعت كثيرًا مـن الآراء الطبيـة ورأت مختلـف المـدارس والمذاهب الطبية كما أنها لاقت القبول والاعتراف بها كطبيبة.

إنه لأول مرة فى حياتها تستطعم هذه اللذة وهذا الشعور بالسعادة، سعادة تحقيق الهدف والذات. ثم عادت تاليا إلى العيادة متعبة ومرهقة من النبيذ ولكن رغم كل شيء يغمرها شعور كبير بالحب والعرفان لليبتينوس ثم جاء إليها تيل بتاح ونظراته كلها عتاب وهو يقول لهـا إن شخصا ما جاء هنا لكى يبلغهم أن يذهبا هى وليبتينوس غدا إلـى مدرسة العبيد وعندما أبلغت تاليا ليبتينوس بذلك قال لهـا غـدا فـى الصباح الباكر سوف نذهب إلى هناك ثم دخل إلـى غرفتـه وهـو يتثاءب من الإرهاق والرغبة فى النوم. لقد ظل تيل بتاح واقفا حتـى عادت تاليا فنظرت تاليا إليه كى ترى ما يعتمل فى نفسه ولكنه قـال لها بحدة وكره: إنه لم يطلبك أحد كى تذهبى معه إنه سـوف يـذهب وحده بدونك . لقد شعرت تاليا بالغيرة والحقد اللذين يعتملان فى نفس تيل بتاح تجاهها. فكرت تاليا إنها الآن وصلت إلى القمة التى وصلت إليها بمجهودها بمفردها دون أى مساعدة وهو الحقير تيـل بتـاح لا يجب أن يوضع فى كفة موازية لها إنه لابد وأن يلزم حـدوده. فـى الصباح الباكر استيقظت تاليا على صوت طرق مرتفع علـى بـاب غرفة نومها ولما فتحت تاليا الباب وجدت جاب الله الذى قال لها: إن سيدى فى حاجة إليك كى تذهبى معه إلى مدرسة العبيد. فى أثناء ذلك تذكرت تاليا أن ليبتينوس كان قليل الدراية بأمراض الأطفال والنساء بينما كانت هى بارعة فى هاتين الجزئيتين، كان يحب معالجة الشباب

كما كان يود دائما أن يختلط بهم فى صالة الألعاب. علـــى أى حـــال ذهبت تاليا إلى حمام النساء كى تستمتع بحمام قبل الذهاب إلى العمل، وعندما ولجت إلى الحمام لاحظت وجود فتاة سوداء لم ترها من قبل وهمت تاليا أن تعترض على وجود هذه الغريبة فى المكـــان ولكـــن الفتاة السوداء قالت بسرعة أنا اسمى ألجاسيا عبدة جديـــدة هنـــا لقـــد أمرنى سيدى ليبتينوس أن أكون خادمة لك وأساعدك فى كل شـــىء عندما تحتاجين إلىّ. عندئذ قالت تاليا شىء جميل يا ألجاسيا إذا فهيـــا ابدئى عملك ثم دخلت تاليا الحوض الكبير وراحت الخادمة الجاســـيا تُحمّيها بينما تستمتع تاليا بانسياب المياه على جسمها وتدليك الخادمـــة لها. كما قد وجدت ذلك طبيعيا حيث إنها قديما فى بيت أبيها كانـــت لها هناك خادمات أيضًا. أما مدرسة العبيد فقد كانت قريبة من مينـــاء الغلال لهذا فكرت تاليا أن الرومان ربما أرادوا شحن الأطفال الذكور مع أجولة الغلال إلى روما.

ولما اتجهت تاليا مع ليبتينوس إلى المدرسة قابلهم رجـــل يـــشبه سيوليوس ، فهو رجل مادى جشع ولكنه يختلف عن سيوليوس فى أنه ذو ملامح مصرية وارتدى فى أصابعه ذهبا أكثر من سيوليوس. ثـــم صفق الرجل بيديه ففتحت الأبواب وخرج منها عديـــد مـــن العبيـــد حاملين مناضد منخفضة وكراسى منخفضة أيضًا. ووضـــعوا هـــذه الأشياء كلها فى فناء المدرسة ثم وضعوا فوقها أوانى النبيذ والبيـــرة

والخضروات والفاكهة ثم اختفوا دون جلبة أو ضوضـــاء. ثـــم قـــال الرجل إننى حاجى مدير هذه المدرسة، وإننى أود أن تتناولوا بعـــض الطعام قبل أن تفحصوا المرضى الذين قد جلبت لهم رجـــلا أثيوبيًـــا يدعى الطب ولكنه كان دجالا قد خدعنى وهرب. وأخشى الآن علـــى المرضى أن يموتوا. بعد مقولة الرجل هذه ترك ضيوفه كى يـــأكلوا دون أن يزعجهم فأخذت تاليا تأكل وتشرب القليل من البيـــرة وذلـــك حتى لا تثقل رأسها عندما تشرب منها كثيرًا ، وبينما هى تأكل كانت دائما كما تراقب مجموعة من الصبية الصغار جلسوا جميعا فى ركن من فناء المدرسة على الأرض وهم يضعون ألواحًا طينية غير حمراء على أفخادهم وهم ينظرون إلى المعلم منتظرين بكل جديـــة أن يبـــدأ درس الإملاء. إن هؤلاء الصبية كانت تتراوح أعمـــارهم مـــا بـــين الخامسة والسادسة تقريبا. بدأ حاجى يتحدث فقال إنه أعطـــانى فـــى البداية الأمل ولكنه فى الحقيقة كان هو فاقدًا لهذا الأمل " ويقصد بذلك الساحر الأثيوبي" وإننى أخشى أن تترك الحتحـــورات الـــسبع ابنـــى يموت إن قلبى حزين ثم جهش الرجل بالبكاء وانهمرت مـــن عينيـــه الدموع الغزيرة مثل الأمواج. فقال له ليبتينوس: إذا دعنا نرى إذا كنا نستطيع أن نعيد السعادة إلى قلبك أم لا يا سيد حاجى. ورغم مشاغل تاليا وتفكيرها فى الصبية فإنها استمعت بشكل ســـريع إلـــى القـــصة المصرية التى كانت تقرأ باللاتينية للأطفـــال ومغـــــزاها أن هنـــاك

قطة مربوطة بالحبال والأربطة القوية وجاء أسد وقبع علـــى أرجلـــه الأربعة وأخذ يقرض هذه الأربطة والحبال كى يطلق سراح القطـــة. تابع حاجى مدير المدرسة سيره وتاليا وليبتينوس خلفه حتى وصـــلوا إلى غرفة يرقد بها طفل علـــى حـــصيرة مفروشـــة فـــوق الأرض ولاحظت تاليا أن الطفل بدين بصورة تفوق العادة ، كما أنـــه يلـــتقط أنفاسه بصعوبة وبطء كما أن عينيه مغلقتان. ثم قال حاجى بـــصوت باك إنه لا يكاد يستيقظ عندما أحاول إيقاظه دائم النـــوم. إن المكـــان تنبعث منه رائحة كانت تاليا قد اشتمتها قبل ذلك ولكنها لا تستطيع أن تتذكر المكان ولم تعد تاليا تركز فى طريقة فحص ليبتينـــوس لطفـــل حيث إنه راح يلمس الطفل ويتحسسه فى أكثر من موضع من جـــسده ثم سأل الرجل قائلا كم يبلغ سيتوم من العمر؟ قال الرجل لا أعـــرف بالضبط ولكن ربما تسعة أو عشرة أعوام حيث أحضرته القابلة إلينـــا عندما كان فى عامه الثالث. أخذ ليبتينوس يسأل الرجـــل المـــصرى كثيرًا من الأسئلة والمصرى يجيب بلغة يونانية فـــصيحة، ثـــم أراد ليبتينوس أن يعرف من الرجل السبب فى بدانة الطفل. عندئذ انطلـــق الرجل المصرى مجددا فى البكاء. انحنت تاليا تـــشم أنفـــاس الطفـــل فلاحظت أنها كريهة وقد ذكرتها تلك الرائحة بأخيها الأصغر عنـــدما كان مريضا حيث كانت رائحة أنفاسه تمامًا مثل هذا الطفـــل. قـــال حاجى إننا كنا نطعمه كثيرًا بكل ما لذ وطاب كما كنا نعطيه كثيـــرًا

من الحلوى. إنه أنهى تعليمه وقد عزمنا علـــى أن نرسـلـه مـــع أول سفينة غلال إلى روما حيث ينتظره سيده الجديد.

أخذت تاليا وكذلك ليبتينوس يفكران فى سبب سمنة الطفـــل هـــذه بينما تحاول تاليا أن تتذكر ما قرأته فى كتب سورانو عن مثل هـــذه الحالة. إن مثل هذه الحالة تحدث كثيرًا لدى الشعوب الآسيوية حيـــث يعيش الناس فقط على اللحوم كغذاء رئيس كذلك تحدث حالة فقـــدان الوعى عند الشعوب التى لا تجد غذاء كاف وتتعرض لحالات الجوع الشديدة. وفى كثير من هذه الحالات يكون الموت حليفها. ثم ســـألت تاليا الرجل قائلة هل تعرض الطفل للتجويع ، فأجاب حـــاجى رافعـــا كفيه المفتوحتين إلى أعلى وهو يقول أقسم بالإله الأرنب وبآمون رب الأرباب ورب مصر العليا والسفلى إننى لم أفعل ذلك ولكن كل مافى الأمر إن السيدة أفرانيا أجرى كولا قد أعجبها ابننا ســـيتوم ووجدتـــه جميلا وحلوا وكان بالنسبة لها أشهى من قطعة الحلوى، فـــأرادت أن نرسله لها فى روما وكان سيتوم رشيقا وأردت أنا أن أحـــافظ علـــى رشاقته حتى يذهب إليها كما رأته فقللت من طعامه وعند ذلك صـــام سيتوم عن الطعام ورقد فى الفراش وأخذت حالته تسوء كل يوم حتى غدا كما ترينه الآن. فقال ليبتينوس بصوت مسموع أحمـــد وأشـــكر آلهتك وآلهتى التى علمت تاليا قراءة الخطوط القديمة وألهمتها معرفة كل أمراض الأطفال. ثم قال الرجل إن الإله إيـــيس يحبنـــى حيـــث

أرسل إلى تاليا الحكيمة العارفة، يا إلهى أيبس إذا استطاعت الطبيبة تاليا معالجة سيتوم فسوف أقوم بتقديم قربان إليك. ثم أمرته تاليا قائلة أحضر لى الآن خبزا طازجا وإناء مملوءًا بالبيرة. عندئذ صفق حاجى بيديه فجاء إليه فتى مصرى تحدث معه حاجى بلغته ولم يطل انتظارهم حتى عاد الفتى بالخبز الطازج والبيرة.

أخذ الطفل المريض يتحرك ويحاول أن يفتح عينيه بينما تحاول تاليا مساعدته وهى تناديه بقولها سيتوم استيقظ وما كاد أن يستيقظ حتى غمست الخبز الطازج بالبيرة ووضعته أمام فمه. فأخذ قضمة من الخبز ولم يستسيغه وراح يلوكه فى فمه محاولا أن يبصقه مرة أخرى ولكن ضم شفتيه على الخبز وابتلعه بجهد واضح. وما كاد يبتلع هذه اللقمة حتى كانت تاليا قد أعدت له لقمة أخرى ووضعتها له فى فمه فمضغها وابتلعها وعلى ما يبدو قد استساغ طعمها فأعطته لقمة ثالثة ورابعة والطفل يأكل ويبتلع. أما ليبتينوس فقد جلس وهو ينظر إلى المشهد ويراقب صنيع تاليا مع الطفل.

خلف تاليا وليبتينوس كان صوت المصرى حاجى يعلو بالصلاة والحمد والتسبيح للآلهة آتوم رع إله هليوبوليس والإله توت، وكذلك صلاة وشكر لإله الشمس الذى يغمر مصر العليا ومصر السفلى بأشعته وحمد وشكر لإله النيل الكريم، وصلاة وشكر للإله رع حور أختى، وصلاة وشكر للآلهة نيت العظيمة أم الآلهة المضيئة، وصلاة

وشكر للإله العجل صاحب المقام الرفيع فى هليوبوليس والـذى هـو مصدر الملك فى مصر.

رقد الطفل ممتلئ البطن فى حجر تاليا وبعد برهة قـصيرة فـتح الطفل عينيه فنظر فى عينى تاليا الزرقاوين فارتجف وأغلق عينيـه مرة أخرى. ثم فتح الطفل عينيه مرة أخرى فابتسمت له تاليا فبادلهـا الطفل الابتسام ولم يغلق عينيه بل راح يتفحص وجه تاليا وهو سعيد.

انحنى حاجى أمام تاليا وهو يقول لها أقسم أنك ابنة الآلهة إيزيس الساحرة والتى تستطيع أن تشفى بسحرها كل مـريض. ثـم طـرق حاجى على باب الغرفة ففتح العبيد الباب. وقبل أن تغادر تاليا غرفة الغلام نظرت إليه مرة أخرى فوضع الصبى إصبعيه علـى شـفتيه وألقى إليها بقبلة من إصبعيه، فأدركت تاليا أن الصغار يتعلمون هـذا فى مدرسة العبيد وقالت فى نفسها إذا فإننى أتمنى لك حظا سعيدا مع أفرانيا فى روما وابتسمت له وغادرت الغرفة.

فى طرقة المدرسة كان الأطفال يتصايحون ويلعبون حتـى أنهـا تذكرت مجددا أخيها هرماس ووقف كثير من صبية المدرسة يتأملون شعرها الذهبى وعينيها الزرقاوين. وأخذ المراهقون مـنهم يعلقـون بعبارات الثناء على تاليا واستطاعت أن تعرف، فى أصواتهم أنهم فى طور المراهقة حيث راحت الأصوات تتبدل من أصوات الطفولة إلى أصوات الشباب. ثم قال حاجى لتاليا معتذرا إن الصبية يتعلمون فـى

المدرسة أن يتحدثوا وأن يقوموا بعمل المجـاملات اللطيفـة للنـساء وذلك بسرعة كبيرة كما أنهم يقومون بالتدريب على ذلك فيمـا بـين أنفسهم ولا بد وأن يكون ذلك بسرعة ونقوم بعمل مسابقات بينهم ومن يفوز نطلق عليه لقب " ملك اللسان". فقالت تاليا لحـاجى هـل فـاز سيتوم بهذا اللقب من قبل؟ قال حاجى لا لم يفز ولكـن سـيتوم لـه مميزات أخرى. فقالت تاليا مقاطعة أعرف إن أفرانيا الرومانية تحب عضلات الرجال والتماسيح فقال حاجى: إن سيتوم ليس بشخص ذى عضلات كما أنه خسارة كبيرة لأن تأكله التماسيح. ثـم قالـت تاليـا ممازحة: إنه ربما يفتن أفرانيا بنظراته فهى تحب ذلك أيـضًا. فبـدا ليبتينوس قلقا وغير صبور لكثرة سماعه سخرية تاليا مـن أفرانيـا وأعطاها الإحساس بذلك فهزت تاليا رأسها بما أفهمته أنها تدرك مـا يريد ثم أعطى مدير المدرسة أجر العلاج لليبتينوس وهما بـالخروج من المدرسة وفى باب الخروج شعرت تاليا بأن شىء ما قد أزيح فى يدها فقبضت عليه بيدها بصورة تلقائية. فى نفـس كـل مـن تاليـا وليبتينوس سؤال يريد كل منهم أن يطرحه على الآخر فبادرت تاليـا قائلة كيف استطعت أن تجعل الطفل يهم بالأكل؟ فنظر إليها ليبتينوس من أعلى إلى أسفل وهو يقول: إننى أشعر بروح المريض وأحاسيسه الداخلية وأستطيع أن ألعب على هذا الوتر كمـا أن ليبتينـوس كـان متضجرا من تاليا رغم أنه امتدحها فى حضور حاجى.

إن تاليا شعرت على كل حال بأن ليبتينـــوس غـــدا غيـــورا مـــن نجاحها ونشاطها ثم راحت تتحسس ما دسه أحدهم فى يدها إنه يـــشبه قطعة من ورق البردى فقالت تاليا ربما تكون هذه الورقة من معجب ولكنها لا تريده لأنها الآن لا تريد ســـوى ليبتينـــوس. فقالـــت تاليـــا لليبتينوس بدلال: ليبتينوس أرجوك دعنا نغلق العيادة لبـــضعة أيـــام ونسافر معًا إلى مصر لكى نرى الأهرامات وتمثال أمنحتب ونقضى هناك بعض الوقت السعيد ثم نعود فأجابها ليبتينـــوس بحـــدة: إننـــى سكندرى ولا أحب أن أسافر إلى مصر. ولاحظت أنه مغتـــاظ حتـــى كاد أن يتطاير الشرر من عينيه ورغم هذا اقتربت منه واحتضنت يده بين يديها وأخذت تلاطفه وتداعبه، فأزاحها عنه وهو يقول ليس هكذا فى الشارع ماذا يظن الناس بنا كما لا تنسى أنك أمام الناس عبدتى.

فى واقع الأمر فإن كليهما يليق بصورة جيدة للآخـــر حيـــث إن ليبتينوس طويل وجميل مثل الآلهة وهى شقراء وحميـــراء وجميلـــة أيضًا بغض النظر عن شفتها العليا المشرومة. فجـــأة ســـمعت تاليـــا صوت يتحدث باللغة المصرية يقول: إنه هنا، إنه هناا ونظرت تاليـــا فإذا بفارس يمتطى صهوة جواد أبيض ، وعلى ما يبدو أنه من سكان الصحراء، جاء مع رفاقه كى يبيعوا بعضًا من ماشيتهم فى المدينـــة. ولكن هذا الرجل ومن معه لم يقتادوا أمامهم ماشية ولكـــن للأســـف الشديد اقتادوا بشرا، صفا طويلا من الرجال السود مربوطين جميعـــا

بسلسلة طويلة واحدة فى أرجلهم، وفى نهاية الصف الطويـل كانـت هناك النساء السوداوات، بعضهن يحملـن أطفـالا يرضـعن مـن صدورهن المتدلية إلى أسفل وجميعهن ناحلات ضامرات مـن شـدة الجوع وطول المسير. فقال ليبتينوس وهو ينتزع تاليا من أفكارها: إن هذا هو موسم جلب العبيد والكنوز من إفريقيا. ولكن تاليا شعرت فى نبرة صوته بشىء من الفرح، ثم قالت تاليا وهى تنظر إلى مـؤخرة الطابور الطويل من العبيد إننى أعرف كل شىء. فى المؤخرة كـان هناك ركب من الفرسان المدججين بالسلاح حتى أسنانهم. وبمجرد أن اختفى آخر جندى ومعه العبيد من مدخل القمر أمسكت تاليا بـذراع ليبتينوس وهى تقول له " ليبتينوس أرجوك أن تسمعنى جيدا إننـى لا أريد أن أظل عبدة. إننى لم أخلق لهذا إننى سوف أدفع لك مـا تريـد من نقود على أن تعطينى حريتى إن كنت تحبنى. أريد منك إجابة ما رأيك فى هذا؟".

نظر إليها بشدة وتحركت فى نفسه كل دوافع الكبريـاء والخـسة والنذالة وعدم الإحساس بمشاعر الآخرين، والحقد ورفع ذراعه بكـل ما أوتى من قوة وهوى به على وجهها. وانفجرت الدماء تسيل مـن أنفها غزيرة تغطى بقعة كبيرة من أرض الشارع بينما هـرول هـو مبتعدا عنها معتقدا أنها ستلحق به كعادة العبيد.

الفصل الثالث عشر

النوبى

جلست تاليا فى غرفتها تؤلمها وجنتها، ولكن روحهـا الجريحـة تؤلمها أكثر إنها لم تنس ما فعله بها ليبتينوس. خـيم الظـلام علـى المكان فنهضت تاليا وأوقدت لمبة زيت وتذكرت الورقة التى دسـها أحد الأشخاص فى يدها فى أثناء زيارتها لمدرسة العبيد. لقد اعتقدت أن هناك معجبًا يريد أن يغازلها. عندما فتحت الورقة وجـدت أنهـا مكتوبة باليونانية الفصحى وتقول كلماتها "فليحمك الإله حورس مـن جواسيس الحمر المنتشرين فى الشمال والجنـوب" إن الورقـة بهـا تحذير لتاليا. قالت تاليا: يا آلهتى ديمتر النجدة ممن التحذير: وممـن أخاف؟ ثم قالت تاليا وهى تفكر: من هم الحمر. إن هناك كثيرين ذوى البشرة الحمراء ثم وضعت تاليا الورقة جانبا وأطفأت اللمبة واستلقت فى سريرها وهى تقول: إننى لست فى حاجة إلى حل الألغـاز الآن إننى متعبة. ولم تنم جيدا حيث لازمتها الكوابيس التى ظهـرت بهـا الصقور ذات الشعر الأصفر والأسنان الحادة والتماسيح. ثم استيقظت فى الصباح مبكرا عن العادة غارقة فى عرقها، ولكنها لم تنهض من فراشها، بل بقيت فى مكانها حتى شروق الشمس، وذلك كى تعطـى

لألجاسيا وقتا كافيا كى تسخن لها مياه الحمام. وعندما نهـضت مـن نومها ودخلت الحمام وجدته باردا ومظلما وغير نظيف مثلمـا كـان قبل ذلك أى قبل مجيء العبدة السوداء الجاسيا. ولم يبق أمـام تاليـا سوى أن تستحم بمفردها فى الماء الراكد البارد علها تـستيقظ، لقـد تذكرت أن من ضمن الكوابيس التى انتابتها بالليل بجـوار التماسـيح والصقور لوجود عبيد قد اختفـوا. فجأة سمعت طرقات قوية علـى باب الحمام تكاد توقظ ميتا من شدتها وجاء صوت تيل بتـاح الـوقح وهو يقول لها استعجلى أيتها الحمراء!! نهضت تاليا من الحمام وهى تفكر قائلة لقد تغير كل شيء فى لحظة فقط لأننى طلبت منه طلبا ألا وهو أن يحمينى من عبيد البيت الذين حاولوا قتلى بسم الثعبـان، إن الموت بسم الثعبان لهو شبيه بالموت عندما تهرب العبدة مـن بيـت سيدها فكلاهما موت. ولكننى أعتقد أن تيل بتـاح وأمـه فيرونيـرو سوف يبتكران طريقة أفضل لقتلى فى المرة القادمة.

فى هذا الصباح ركب ليبتينوس المحفة بمفـرده دون تاليـا وراح العبيد يسحبونه بالمحفة وحده دون تاليا، بينما صارت هى على قدميها بجوار تيل بتاح مثلما كانت البداية عندما جاءت المنزل. كـان تيـل بتاح يحمل صندوقا به ماء وكان هو يمشى بخطوات غيـر منتظمـة متعمدا حتى يدلق عليها المياه فى كل خطوة يخطوهـا وهـو سـعيد يصفر بفمه ويغنى وينظر إليها شامتا، ولكنها تجاهلته وكأنـه غيـر

موجود مما أثاره أكثر. فى طريقهم قابلتهم فرقة رومانية تتكون من مائة رجل كانوا فى طريقهم إلى القنال لتنظيفها، وراحوا يمشون حتى تركوا الأكواخ المصنوعة من الطوب اللبن، وكذلك أبراج الحمام ثم تخطوا برج الشمس، بل إنهم تخطوا ظلال أشجار النخيل. والجاموس الذى يستحم فى مياه النيل ، كذلك فإن روما كانت بعيدة عن هنا إنها مصر الفلاحين التى لا يعرفها سوى من عاش بها. هنا تبدو حقول الزعفران بكامل زهورها الصفراء فى أجمل منظر وأبهى حلة، كما راح الفلاحون يحصدون محاصيلهم، وآخرون يعزقون هنا أو هناك بفئوسهم بينما الصبية والبنات منهم من يحمل شيئًا على رأسه ومنهم من يضع حملا على ظهر حمار ويجلس عليه بينما بقى محصول الكتان فى الحقل دون حصاد لأنه لم يأتِ وقت حصاده بعد. أما أبو قردان فكان يقفز من مكان إلى مكان يلتقط الحشرات من الأرض وهناك من بعيد يستطيع المرء أن يرى حقول البردى وأشجار السنط مشكلة حزام أخضر جميل يسر الناظرين.

بدأت الشمس تحمو وتشتد حرارتها والعبيد الذين يسحبون محفة ليبتينوس يلهثون منهكين ولكنهم لا يستطيعون الحديث. فجأة ألقى تيل بتاح الجوال الذى كان يحمله على كتفه على الأرض عندما رأى قطيعًا صغيرًا من الخنازير يتكون من أم وصغارها الذين راحوا يرضعون منها وفتح تيل بتاح ذراعيه وكأنه يريد أن يحتضن

الخنازير جملة واحدة. فضحكت تاليا وهى تقول له: لا تزعج الصغار إنك كنت فى يوم من الأيام مثلها تبحث عن صدر أمك، فقال لها تيل بتاح: لا تقارنينى بهذه الحيوانات النجسة، إن هذا تحذير لك! فأجابت تاليا بقولها: إن الخنزير ليس بحيوان نجس إنه حيوان مقدس لدى الآلهة ديمتر. ثم أخذت تاليا تفكر فى الوقت القادم إن هناك احتفال إليوسيس فى الخريف، حيث اكتست الأرض بالورود والنباتات الخضراء وراحت تفوح من الزروع الروائح العطرية الجميلة. لقد منحها ليبتينوس فى هذا اليوم إجازة كى تحتفل مع المحتفلين، ولكن فى مصر جاء الاحتفال فى شهر مارس وهو شهر غير مناسب لهذا الاحتفال. انتابها شعور بالمرارة حيث شعرت بأن ليبتينوس والرومان وحتى الطبيعة متآمرون ضدها. عضت تاليا على نواجزها وانتابها شعور مفاجئ مباغت بأنها تكره هذه البلاد مصر، ثم حمل تيل بتاح جواله مرة أخرى على كتفه بينما رأت أسنانه ناصعة البياض عندما ابتسم ربما لفكرة طرأت على خاطره، بينما تأخرت تاليا بعدة خطوات فى مشيها. بعد فترة من السير رأت كثيرًا من الخيام إنها هى هدفهم كثيرًا من الجمال القادمة من إفريقيا والمحملة بخشب الأبنوس والعاج وخلافه من البضاعة الثمينة، قد نصبت خيامها فى هذا المكان بينما وقف رجال مسلحون يحرسون هذه البضاعة القيمة. بينما كان العبيد السود يحملون الأوانى المليئة بالأبخرة الطيبة

ويتحركون بها هنا وهناك. لقد هبط ليبتينوس من المحفة وأخذ ينظـــر ويتفحص الخيام المنصوبة حتى جاء فتى يرتدى جلبابا أزرق اقتادهم جميعا إلى خيمة فخمة موشاة بخيوط الذهب. فى وسط الخيمة كـــان يجلس هناك رجل على عرش يرتدى رداء من الحرير يغطيه حتـــى رقبته بينما استطالت ذقن الرجل حتى تدلت على صدره، ووقف خلفه عبد يحمل فى يده طبلة كبيرة. وما إن دخل ليبتينوس علـــى الرجـــل حتى انكفأ على وجهه يقبل الأرض بين يديه وفعل تيل بتاح الـــشىء نفسه، بينما وقفت تاليا تنظر وهى لا تفهم شيئًا حتـــى شـــعرت بيـــد قبضت على رقبتها من الخلف وضغطت عليها حتى وضعت وجهها على الأرض. إنها لم تر فى حياتها قط شخصا بدينا مثل هذا الرجـــل كبير التجار. ثم تقدم بعد ذلك ليبتينوس نحو الرجل الذى كان يـــسمى تومبل من النوبة وقال له باحترام ظاهر إنك يا سيدى كل عام تـــأتى فيه إلى الإسكندرية تمرض. فقال النوبى بصوت عميـــق إن الأرواح الشريرة تعاقبنى. ثم قال إننى إذا لم أدافع عن تجارتى ضـــد أنـــدال أثيوبيا ومصر يمكننى أن أبقى فى قـــصرى مـــع نـــسائى وأدعهـــم يخدموننى . فقال له ليبتينوس: دعنى يا سيدى أفحصك حتى أعـــرف مصدر آلامك ثم قال الرجل مجددا: إن أحدهم قد دعك جسمى كلـــه بكبد النعامة، ولكننى لم أشعر بأى تحسن. فقال له ليبتينوس: أرجو يا سيدى أن ترقد على هذا السرير. فلم يتحرك تومبل من مكانه، بينمـــا

أعطى رجل واقف فى جلباب أزرق إشارة للعبيد فقـاموا بإحـضار سرير خاص لتومبل ثم قام ستة من العبيد الآخرين بحمل هذا الفيـل الضخم ووضعه على السرير المصنوع من الجلد المـضفور بينمـا جلس ليبتينوس على ركبتيه بجواره كى يفحـصه. إن تاليـا كانـت متعجبة وفاغرة فمها حيث إنها ترى جبلاً من اللحم راقدًا أمامها.

اقتربت تاليا من ليبتينوس كى تلبى أوامره وهى تنظر إلـى هـذه البطن الضخمة التى يقع أسفلها كبد الرجل أم أن مثل هذا الفيـل بـه كبدان حيث إن الكبد الواحدة لا تكفى لتصنيع الدماء لكل هذا الجسد؟. ثم قال النوبى الضخم لليبتينوس إن هذه العبدة كثيرة الأسئلة وهـى لا تعجبنى إننى سآمر بفقأ عينيها وسأعطيك عبدة أفـضل منهـا وهـو يقصد بذلك تاليا. عندما سمعت تاليا كلمته هذه ارتجفـت ورجعـت للوراء مبتعدة عنه ، فى اللحظة نفسها تحرك نحوها أحـد حراسـه الواقفين بسلاحهم على أهبة الاستعداد وقد أخرج خنجره من حزامه. عندئذ قال ليبتينوس للنوبى: أيها السيد العظيم، إنها لم تأتِ معى لجمالهـا ولكنها جاءت معى كى تساعدنى فى شفائك حيث إنها حكيمة بارعـة وتشير علىّ بأدوية ناجعة فهل تستطيع عبدتك أن تفعل ذلك؟ فأجـاب النوبى: كيف تفعل هذه المرأة ذلك إذا ما دورك أنت؟ قال ليبتينـوس إننا يكمل كل منا الآخر حيث إنها تخبرنى بالدواء المفيد للرجال بينما أخبرها أنا بالدواء المفيد للنساء وهذه هى طبيعتنا. فاسـتدار تومبـل

برأسه نحو تاليا وقال: إننى لا أحب النساء المعالجات، وبالـذات إن كن ذات شفة تشبه شفة الجمل. فضحك ليبتينوس فى سره بينما رفـع تومبل أصبع يده الصغرى، والذى كان مغطى بالذهب وهو يشير إلى الحارس فعاد الحارس إلى مكانه وهو يضع خنجره فى حزامه. ثـم انتهى ليبتينوس من فحص الرجل بينما كانت تاليا تتصبب عرقا مـن الخوف وراح الحراس يرفعون الرجل مرة أخرى كى يجلسوه مجددا على عرشه. ثم التقط تومبل أنفاسه للحظة قصيرة وهـو يقـول: إن الساحر قد حاول أن يجد سبب مرضى، ولكن الشياطين التى سـببت مرضى كانت أقوى من الساحر ولم يستطع تومبل إكمال حديثه مـن شدة إرهاقه، عندئذ أشار بأصبعه كى يكمل أحد حراسه بقية الحديث، حيث استطرد الحارس بقوله كما أمر الساحر بأن تكسر بيضة فـوق جبهة سيدى وأن نحشو أنفه بالنشوق حتى أن سيدى عطـس ثـلاث مرات وعندما ماعت معزة أمر الساحر بذبحها ودلق دمائهـا فـوق رأس سيدى حتى يتغطى جسمه بدماء المعزة، ولكن شيطان المرض ظل رابضا بجسد سيدى. ثم أمر الساحر بأن يستلقى أحدنا أمام سيدى على بطنه ويرجع للخلف زاحفا حتى يخرج شيطان المـرض مـن جسمه ولكنه بقى فى جسم سيدى. ثم قال تومبل: لهذا فإننى عازم على أن أعطى دمائى لهذا الشيطان، ثم أردف متسائلا: هل عرفت أين يقبع هذا الشيطان فى جسمى ياليبتينوس؟ قال ليبتينوس: نعم أعـرف أنـه

يقبع فى كبدك ولا بد أن أعمل لك عملية حجامة وآخذ بعضًا من دمك وذلك عن طريق رجلك، ثم أشار ليبتينوس إلى تيل بتاح الذى تقدم إليه مسرعا ثم أحضر إناءً كبيرًا ووضعه بالقرب من عرش الرجل النوبى الضخم، بينما كانت يديه ترتعشان لأنه يخاف من رؤية الدماء. فى قرارة نفسها فرحت تاليا فى تيل بتاح لأنها رأت فى ذلك عقوبة له هو يستحقها، الآن لابد له أن يحمل الدماء أما هى فواجبها كما قال ليبتينوس أن تسدى النصيحة فقط. ثم قام ليبتينوس بعمل جرح قطعى فى عرق من عروق ساق الرجل ورفع أحدهم الإناء الكبير كى يستقبل به الدماء فصرخ تومبل مثل الثور وانبطح عبيده وحراسه على الأرض واضعين جباههم عليها يتألمون مع سيدهم ويصلون من أجله وقد ساد فى المكان طنين مرتفع بسبب صلواتهم لسيدهم. ولم ينزعج ليبتينوس لحركاتهم هذه، بل أخذ يكمل علاجه للرجل بأعصاب باردة حتى أن تاليا قاومت فى نفسها إعجابها المتصاعد به ثم حمل العبيد سيدهم مرة أخرى فوق العرش وحمل تيل بتاح الإناء المليء بالدماء من تحت العرش ثم أخذ العبيد ينظفون رجل سيدهم من الدماء وينشفونها. ثم جاء عبد عجوز لليبتينوس وقال له: إن على خادمك تيل بتاح أن يعطى الإناء الذى به دماء سيدنا إلى الشيطان الذى تسبب فى مرض سيدنا والمتمثل فى الساحر الجالس خارج الخيمة. فى أثناء ذلك كان تيل بتاح ينظف السكين الذى

قام بها ليبتينوس بجراحة الرجل بقماش من الكتان ثم يــضعها فــى حقيبة من الكتان أيضًا، فأشار إليه ليبتينوس أن يحمل إناء الدم كــى يحضره إلى الساحر الجالس خارج الخيمة. وحمل تيل بتــاح الإنــاء بينما يضع لسانه بين أسنانه يحاول ألا يترجرج الإناء بما فيــه مــن دماء والعبيد ينظرون إلى تيل بتاح وإناء الدماء الثمين وكأنه يحمــل دماء ذهبية من سيدهم وإلههم وولى نعمتهم. فإن كل قطرة من هــذه الدماء أثمن لديهم من الكنوز كلها، بينما يسير تيل بتاح بحذر وبــين يديه إناء الدماء، إذ اصطدمت قدمه فى سجادة بالخيمة وسقط من يده الإناء بما فيه من دم ثمين سال فوق السجاجيد الجميلة، اعتــذر تيــل بتاح لأسياده وساد الصمت للحظة. بينما فتح تومبــل عينيــه وســأل ليبتينوس بقوله: ماذا حدث؟ فشحب لون ليبتينوس واصــفر وجهــه. عندئذ قال الخادم العجوز لسيده: سيدى إن خادم الطبيب قد أضاع كل آلامك وجهدك وسكب دماءك فوق الرمال ثم ألقى بنفسه على الأرض أمامه. قال تومبل وهو يضرب بأصابعه على بطنه برفق: يا للأسف إنه كان شاباً جميلاً. عندئذ هجم اثنان من العبيد علــى تيــل بتــاح وأمسكا بذراعيه واقتاداه خارج الخيمة، ثم مد تومبل شــفته الــسفلى للأمام وهز رأسه الضخمة يمينا ويسارا مثل رأس الفيل، بينما أخــذ عبيده السود طبولهم وراحوا يضربون عليها بعنف. لقد شعرت تاليــا بأن شعر رأسها الآن واقف من شدة الخوف.

فى لحظة دخل ثلاثة من العبيد وهم يحملون صينية من النحـــاس قاموا بتقديمها إلى سيدهم ولما نظرت تاليا إليها فوجدت فوقهـــا رأس تيل بتاح.خرجت تاليا مسرعة من داخل الخيمـــة وألقـــت بجـــسدها المنهك على الأرض، بينما كان هناك صوت يقول إن روح الشيطان الشريرة التى ترقد فى جسم سيدنا الآن سعيدة وسوف يشفى ســـيدنا. لحظات ثم خرج بعدها ليبتينوس من الخيمة وهو ممتقع اللون مشتت الفكر. خلف ليبتينوس كان هناك عبد يحمل على كتفه الجوال نفـــسه الذى كان يحمله تيل بتاح وهم فى طريقهم إلى تومبـــل. أمـــا الأيـــام التالية لحادثة مقتل تيل بتاح فقد أمر ليبتينوس بحبس فيرونيرو أم تيل بتاح فى غرفة حتى لا تطالب رجال تومبل بجثـــة ابنهـــا، وراحـــت فيرونيرو تصيح وتولول وتعوى مثل الذئب طوال الوقـــت وقامـــت بتمزيق ملابسها. لقد كان وقتا عصيبا لا يطاق. أما ليبتينـــوس فقـــد تقوقع فى غرفته عدة أيام لا يبرحها وأهمل العيادة وكانت تاليا تقـــوم بمعالجة المرضى واستقبالهم طوال تلك الفترة .

ففى الصالة كان هناك مريض يونانى غنى يجلس على الأرجوحة وينادى على تاليا يسألها عما إذا كانت سرعة الأرجوحة هكذا معقولة أم لا؟ وفى الحمام كانت تجلس نبيلة رومانية راحت تـــشكو مـــن أن مياه الحمام ليست دافئة بما فيه الكفاية، بينما فى غرفة العـــلاج قـــد دهنت طفلاً بالزيت ولا بد لها أن تعود إليه. ثم إنها تركت الأغنيـــاء

ينتظرون فى غرفة العلاج واتجهت إلى طفل قد أحضرته أمه وعلى ما يبدو أن ساقه بها شيء ما، حيث أنها لا تبدو سليمة، اتجهت تاليا إلى الطفل الذى كان يبكى فأخذت تداعب وجنتيه حتى كف عن البكاء ثم هذبت شعرها الذى لم تكن تغطيه فى أثناء عملها فى العيادة.

نظرت تاليا إلى الطفل ذى الشعر الأسود المجعد وقالت: إنه يشبه إله الأطفال سى أوزيريس وهو جميل مثله وأتمنى له شهرة مثله أيضًا قالت تاليا ذلك بلغة مصرية ركيكة. ثم قالت تاليا للأم الصغيرة إن الإله سيرابيس قد أهدانا كثيرًا من الأدوية الجيدة وأولها المياه الحلوة فى حوض الميناء أرجو أن تضعى له كمادات على ساقه طوال الوقت حتى المساء. وعند حلول المساء ادهنى له ساقه بهذا المرهم الذى أعطيه لك، وفى الصباح أود أن أرى ابنك مرة أخرى.

وافقت المرأة المصرية وهزت رأسها بالإيجاب وقالت لنفسها: إنها سوف تحكى لزوجها عن كل ما رأته من حكمة ومعرفة وجمال هذه المرأة الحمراء ذات الشعر الأصفر. وفكرت المرأة المصرية أن تسأل تاليا عن علاج كى تعطيه لحماتها ضد الغيرة وحب السيطرة والتملك، ولكنها لم تفعل. ثم اصطحبتها تاليا حتى باب العيادة، وذلك كى تلقى نظرة على الصالة وما فيها من منتظرين. ثم تركت تاليا الجملة التى كان ليبتينوس دوما يقولها، إن علاج روح المريض ونفسيته لهو مهم تمامًا مثل علاج أمراضه العضوية. فى الحديقة كان

هناك جاب الله يأرجح رجلا يونانيا. فى الخارج كان هنـــاك رجـــل ينتظر المرأة المصرية وقد اصطحبته وذهبا يتمشيان معًـــا، إن تاليـــا تعرف هذا الرجل، إنه كليون الذى تعرفه تاليا كما أنه هو من أرشـــد المرأة إلى طريق العيادة. ثم استند الرجل على ذراع المرأة قبـــل أن يقع، بينما كان واضحا أن حول عينيه هالات سوداء. وعنـــدما رأى الرجل تاليا قال لها: إننى مرهق جدا ولا أســـتطيع النـــوم أرجـــوك أعطينى وسيلة قوية حتى أستطيع النوم لأن الشياطين تطـــاردنى ولا تدعنى أنام. قالت تاليا للرجل بود ولطف: تَعالَ واحكِ لى مـــا بـــك، اجلس! فرفض الرجل أن يجلس وظل واقفا وهو مستند على عمـــود فقالت له تاليا: أخبرنى كيف حال هيبارشيا؟ فقال لها ألم تسمعى بذلك؟ قالت تاليا: لا! فقال الرجل إنها بالأمس فى أثناء ما كانت تغسل الملابـــس بالقنال سقطت بالقنال وغرقت بها. نظرت إليه تاليا متعجبة وقالـــت هيبارشيا ونتيل بتاح فى يوم واحد!! إن فى داخلهـــا شـــعور بعـــدم الارتياح لا تدرى تاليا مصدره. ثم أكمل الرجل حديثه وهو يقول: إن هيبارشيا كانت عنيدة وصلبة حيث إننى لم أفلح فى أن أثنيهـــا عـــن عقيدتها كى تؤمن بالرب يسوع الذى هو ربها أيـــضًا. لقـــد عانـــت وتألمت، إننى لا أفهم كيف حدث هذا رغم أنها تستطيع العوم جيـــدا مثل السمكة، أحيانا يصعب علينا نحن البشر فهم مشيئة الرب. فقالت تاليا متعجبة ولكن القنال الآن لا توجد بها مياه! فقال كليون: إن بهـــا

قليلاً من المياه وهى نزلت بضعة سلالم إلى المياه حتى تزحلقت قدماها وسقطت فى المياه. إن الرب يريد فقط أن يرينا مشيئته وقدرته. أسندت تاليا الرجل حتى لا يقع، ولما رأى جاب الله ذلك أحضر له مقعدا وفرده له كى يجلس عليه وتستريح تاليا من حمله الثقيل. ثم ولجت تاليا داخلة إلى العيادة فى أثناء ذلك لاحظت أن الرجل اليونانى الذى كان يجلس فوق الأرجوحة كان فضوليًا لدرجة أنه سمع الحوار الذى دار بينها وبين الرجل ولم تترك عيناه أية حركة من حركات تاليا وضيفها، ومن شدة فضوله نسى أن الأرجوحة لم تعد تتأرجح وودت تاليا لو قالت له: إنه من الأفضل أن يشغل نفسه بقلبه المريض على أن ينشغل بالتصنت على الآخرين، ولكنها كطبيبة فضلت أن تصمت وتنصرف إلى مشاغلها. فجأة علا صوت فيرنيرو مجددا بالنواح والصراخ فقالت تاليا لجاب الله: إننا لابد وأن نسكت فيرنيرو قبل أن يتحرك هذا الفضولى، ويفتح لها الباب ويدير معها حوارًا. فقال جاب الله: لا لا أرجوكِ دعيها وشأنها وأنا من ناحيتى سوف أذهب إلى اليونانى وأخبره لماذا تبكى فيرنيرو حتى لا ينزعج ولم يكد يكمل حديثه حتى جرى جاب الله إلى الرجل اليونانى كى يخبره. ولكن الرجل كان مستلقيا فوق الأرجوحة مستمتعا بالأرجحة فلم يلتفت إلى جاب الله ولم يعره أى اهتمام. مما أثار ذلك ضحك تاليا فضحكت فى سرها دون أن تحرج جاب الله الذى عاد دون أن يخبر

الرجل بشيء وهو يقول لتاليا: إنه لن يذهب إليها إنه سيبقى في الأرجوحة.

قال جاب الله: إن فيرنيرو تنظر إلى نظرات معاتبة متهمة، إن نظراتها إلى مثل الحبل الذى يحز فى عنقى. ثم صمت جاب الله برهة وقال فجأة لتاليا: إن فيرنيرو تخاف منك بشدة. فلما سمعت تاليا مقولته هذه سقطت زجاجة الرائحة النفاذة من يدها على الأرض، حيث كانت تريد بهذه الرائحة النفاذة أن تفيق كليون الذى راح فى غيبوبة. وقالت تاليا لجاب الله ولكن يا جاب الله لماذا تخاف فيرنيرو منى إننى لم أفعل لها شيئًا فى حياتى قط، فى نظير ذلك فإنها وتيل بتاح قاما بأفعال كثيرة ضدى. فلاحظت تاليا أن جاب الله أخذ يرتعش ثم قرب فمه من أذنها وهو يقول: "إنهم جربوا معك كل الطرق كى يقتلوك فلم يفلحوا حتى سم الثعبان لم يفلح معك، إن فيرنيرو تعتقد أنك شيطان آكل لحوم البشر". فنظرت تاليا إلى جاب الله وقالت له هل تعتقد فيرنيرو بإننى قتلت تيل بتاح؟ عندئذ هز جاب الله رأسه بالموافقة. ثم اتبع إنها الآن خائفة منك إنه، لن يحدث لك الآن شيئا. عندئذ فتح كليون عينيه واستيقظ فأعطته تاليا علبة بها المهدئ كى يستطيع أن ينام بالليل، لقد بدا الرجل متعبا وما تزال دموعه تسيل على وجنتيه وراح يرشف من كأس النبيذ دون أن يتذوقه إنه هو

الآخر فى حاجة إلى من يساعده تمامًا مثله مثل تاليا هى الأخرى فى حاجة إلى مساعدة.

وراح كليون يهزى بكلمات بعد أن انتهى من شرب النبيذ وهو يقول: " إن الماء الذى أحضرته هو السبب فى غرقها، إنها أرسلتنى مرة أخرى إلى المحكمة" قالت تاليا لجاب الله: إنه إذا استطاع أن ينام ساعة سوف تتحسن حالته وسوف يتحمل موت زوجته بصورة أفضل يا جاب الله أحضره إلى السرير وراقبه من وقت لآخر. قام الأسود جاب الله يحمل كليون على ذراعيه القويتين وأحضره إلى السرير، نظرت تاليا خلف جاب الله وقالت: أشكركم أيها الآلهة وأيتها الإلاهات على أنكم أرسلتم جاب الله لى. إن جاب الله يطيع أوامر تاليا وينفذها على الفور على العكس من تيل بتاح كما أنه دوما ما يبتعد عن ليبتينوس والغريب فى الأمر أن ليبتينوس يتحمل عناد جاب الله وأحيانا عدم تنفيذه لأوامره.

من وقت لآخر كان يعلو صوت فيرنيرو بالصراخ ثم تخفت، أما تاليا فقد عادت بذاكرتها إلى الوراء إلى هيبارشيا التى أخذت تتحدث مع تاليا عن طريقة يستطيعان بها إقناع أهل الحى ألا يشربوا من مياه القنال الملوثة، والتى سببت لهم الكوليرا.

في المساء كانت تاليا تخرج من العيادة كي تتمشى فـــي المدينـــة حرة طليقة ويمشي خلفها جاب الله الذي كان يحمل مشعلا للإضـــاءة في يده، وكان الناس يظنون أنها سيدة رومانية ذاهبة إلـــى عـــشيقها وخلفها عبدها، فلم يجرؤ أحد على التعرض لها. كما لم يعد هناك من يشي بها عند ليبتينوس بعد رحيل تيل بتاح.

منذ فترة طويلة لم تذهب تاليا إلـــى القنـــال العرضـــي فارتـــدت ملابسها وذهبت يصطحبها جاب الله، فهالها ما رأت من القـــاذورات والبيوت المبنية بالطوب اللبن قد اتسخت وسكنتها الفئران، حتـــى أن جاب الله كان يهشها كي تبتعد عن تاليا. ثم قال جـــاب الله: إن هـــذا المكان لهو سيئ جدا بالنسبة لطبيبة يونانية، إن به كثيرًا من الروائح الكريهة وقليلاً جدا من اليونانيين. فقالت تاليا وهي سعيدة: إن الشيء المهم يا جاب الله إن هذا المكان ليس به رومانيون، لـــم تكـــن تاليـــا تخشى الأنطاع والمنحطين، لأن جاب الله القوي الفارع الطول فـــي رفقتها. وراحت تاليا تتمشى على امتداد القنـــال حتـــى رأت شـــجرة السنط بأوراقها الكثيفة وأسفلها كانت هناك عدة سلالم تقود إلى أسفل ، فقالت تاليا: إنني أريد أن أنزل إلى القنال عبر السلالم يا جـــاب الله. ولم تكد تحاول النزول حتى صاح رجل يختبئ خلف الـــشجرة وهـــو يقول أطفئي الشعلة وانصرفي من هنا بسرعة!! فزعت تاليـــا لهـــذا الصوت ذي الأمر الصريح وراح قلبها يدق بعنف، أما جاب الله فقـــد

أطفأ الشعلة وشعرت تاليا بأنه خائف، ولكنه بقى واقفا بجوارها مما أعطاها بعض الشجاعة لكى ترد قائلة: لا، لن نمشى من هنا، ولماذا نمشى من هنا ، ماذا فعلنا خطأ كى نمشى من هنا؟ عند ذلك خرج من خلف الشجرة رجل يرتدى زى الجنود وفى يده سكين وفى قدميه صندل، وقال لهم إننا الليلة سوف نطهر المدينة من كل القاذورات ومن سيبقى هنا سوف يقتل، وإذا لم تذهبا الآن فستقتلان . فقال جاب الله: هيا ياسيدتى نمشى من هنا إنه رومانى وله الحق أن يفعل ما يريد وما يشاء. وأرادوا العودة من الطريق الذى جاءا منها، ولكن الرجل أشار بذراعه إلى الجهة الأخرى الخطأ وهى التى يجب عليهما السير فيها. إن الطريق كان حالك الظلمة وكانت تاليا لا تستطيع الرؤية، ولكن جاب الله كان حاد البصر وكان يرى بحسه مثل البوم فأمسك بيدها، وهى تسير خلفه حتى قفز جاب الله إلى أسفل وساعد تاليا كى تنزل إليه فيما يشبه الحفرة، ولكنها ليست بالعميقة وجلست تاليا على حجر وهى تحاول أن تسيطر على مخاوفها ومشاعرها. فى تلك الحفرة جلس الاثنان وقال جاب الله: إننا لابد وأن نبقى جالسين هنا حتى ينتهى الرومان من أعمالهم ثم نعود إلى المنزل. شعرت تاليا ببرودة الجو وأخذت تحك بيدها فى ذراعيها علها تحصل على بعض الدفء وفجأة استيقظ فى صدرها مرة أخرى المارد الثائر فقالت تاليا لجاب الله: فى الواقع إن هذا الرجل قد خدعنا وأخافنا وإننا لنا الحق

فى أن نقف على القنال كما نشاء، إنه ليس من حقه أن يطردنا مــن هذا المكان. إننا لن ننتظر هنا فى هذا الجحر، بل سنعود هيا ياجــاب الله ولم تعــط لجاب الله فرصة للاعتراض، حيث نهضت واقفة فلــم يجد جاب الله بدا سوى أن نهض معها أيضًا وتحركت أمام جــاب الله تقوده وكانت تشعر بأن الأرض تحت قدميها كانت طينية حتى أنهــا فى تلك اللحظة سعدت أنها كانت لديها حذاء ترتديه في قدميها وهــذا ما لم يكن جاب الله يملكه كعبد ولم يكن مــسموحًا للعبيــد بارتــداء الأحذية أيضًا. وراحا يتحركان بهدوء وحذر صوب شــجرة الــسنط التى يقف خلفها الحارس الرومانى، بينما كانت الــشجرة بفروعهــا الكثيفة تحجب عنهم كل نجوم السماء. وكمش الاثنان خلف بقايا حائط من الطوب اللبن لا يسمعان سوى صــرير الميــاه وحفيــف أوراق الشجر يراقبان الموقف وماذا يحدث. فجأة ربت جــاب الله بأصــبعه الغليظة على كتف تاليا وأشار لها على القنال فنظرت تاليا إلى القنال فرأت رجلين يمشيان فى القنال، وقد وصــلت الميــاه حتــى أعلــى أفخادهما. ارتعد الاثنان خوفا عندما رأيا أن الرجلين يمــشيان فــى المياه صوبهما حيث مصب المياه بالقنال. أرادت تاليا أن تسير بحذر خلف الرجلين كى ترى إلى أين سيذهبان وماذا سيفعلان؟ حاول جاب الله أن يمنعها عن ذلك، ولكنها جذبت يدها من يده بعنــف وراحــت تتسلل بحذر خلفهما فلم يجد جاب الله بدًا من أن يتبعها. راح الرجلان

يمشيان فى المياه وتاليا تسير بمحاذتهما، ولكن خلف بقايا حائط من الطوب اللبن على امتداد القنال. وعندما توقف الرجلان برهة كى يعصرا ملابسهما من المياه ، رفعت تاليا أنفها أعلى الحائط كى تراهما، كانا يرتديان التونك اليونانى الرومانى ، ولكن ملامحهما ليست بملامح رومانية. فى أثر هؤلاء الاثنان كان الجندى الرومانى أيضًا الذى نسى تاليا وجاب الله من فرط الإثارة حتى إذا تحرك من مكان ظاهر به ضوء القمر وانعكس الضوء على ملامحه فتبينته تاليا إنه سكندرى وبدين ثم وضع سكينته مرة أخرى فى حزامه وأخذ يتمشى خلف الاثنين وهو مطمئن، حتى اطمأنت تاليا إلى أنهم انصرفوا، نادت تاليا على جاب الله وكروا راجعين إلى البيت، ولكن عن طريق الشارع الذى كان الآن خاليا من المارة ما عدا بعض الجنود الرومان.

نظرت تاليا إلى رجليها فوجدت أن قدميها مسودة من شدة التصاق الطين بها فقالت تاليا: يا إلهى إن قدمى أكثر سوادا من رجلىّ جاب الله وابتسمت شيئًا ما عندما نظرت إلى رجلىّ جاب الله الذى بادرها الآخر متسائلا: لماذا تضحكين ياسيدتي؟ فلم تجبه تاليا واحتفظت بسر ضحكتها لنفسها ثم قالت تاليا: آه لو أعرف من أين هؤلاء الناس الذين كانوا فى القنال؟ فقال جاب الله: إنهم فينيقيون فوقفت تاليا وأمسكت بذراعى جاب قائلة هل أنت متأكد مما تقول

فقال لها نعم أنا متأكد. واستطرد جاب الله وهو يقول: إننى سـمعت أحدهم للآخر إننا أحطنا بالرومان حتى رجال القصر. فقالـت تاليـا: إننى لم أكن أعرف من قبل أنك تعرف الفينيقية يا جـاب الله، ولكـن لماذا يتواطأ معهم الجندى الرومانى؟ إن جنـود الرومـان يقومـون بتمشيط المدينة بحثا عن المجرمين وبالليل يتركون الفينقيين يمرحون فى القنال. ثم أرادت تاليا أن تجد عذرا كى تقوله لليبتينوس عن سبب رحلتها الليلية هذه؟ ثم قالت تاليا لنفسها: بالتأكيد فإن هيبارشـيا قـد غرقت فى هذه المنطقة بفعل فاعل ولم تغرق هكذا بدون سبب.

الفصل الرابع عشر

ليلة نائب الملك

إن هذه الضوضاء التى كانت تنبعث من قصر نائب الملك لم تكن فريدة أو مرة واحدة بل كانت كثيرًا ما تحدث فى هذا القصر الذى أخذه الرومان من الملكة كليوباترا. هذا القصر مجهز بكل ما هو حديث وجميل كذلك به أنفاق سرية للخروج من القصر وأخرى للدخول إلى القصر وذلك كى لا يقابل عشاقها بعضهم بعضًا فى الدخول أو الخروج. واحتفظ الرومان بتصميم القصر كما كان فى عصر كليوباترا فلم يغيروا به شيئا. نظرا لإعجابهم بتصميمه البديع. كثيرًا ما كان الرومان يقومون بالاحتفالات به حيث توقد آلاف المشاعل التى ينعكس ضوؤها فى مياه الميناء بشكل بديع ولكن تلك الليلة لن يستمر احتفالهم طويلا حيث يتسلل الضيوف واحدا خلف الآخر ذاهبين إلى منازلهم. كما أن حفل مثل هذا لا تدعه أفرانيا يفوتها حيث كانت من أول الحاضرين أما مناسبة اليوم التى يحتفلون بها هى يوم وفاة الإسكندر ودفنه بمدينة الإسكندرية.

ولم يكن عدد الحاضرين كبيرا ولكنهم كانوا مختارين بعناية. أما الشيء البغيض فى هذا الحفل هو وجود كرايتس العجوز بشعره

الأبيض المنكوش فى وسط هذه التسريحات الرومانية البديعة. لقد بدا كرايتس وكأنه أرنب قبيح فى وسط هؤلاء السيدات الجميلات. لقد كانت أفرانيا تكرهه وتشبهه بالعرسة وتقول إنه لا قيمة له هو وبقية الفلاسفة. إن أفرانيا قد مطت شفتيها إلى الأمام بقرف عندما رأته، أما كرايتس فقد أغاظها وأصابها فى مقتل بحركاته تلك التى كان يقوم بها حيث إنه عندما رآها أغمض عينيه ثم أمعن فى أن يعطيها الإحساس بأنه يكره أن يراها عندما وضع يديه أمام عينيه كى لا يراها. اغتاظت أفرانيا من هذه الحركة حتى أنها شربت كأس النبيذ فى رشفة واحدة بصورة عصبية.

ومن ضمن فقرات الحفل الراقصات من كل صنف ونوع، حتى أن أفرانيا جلبت معها بعض الراقصات من روما كى يقمن بالرقص بالإسكندرية فى هذه المناسبة بالإضافة إلى الرقص الشرقى المعهود بالإسكندرية والذى تتميز النساء الراقصات بكبر أردافهن، وقد كن يثرن الرجال حتى النهاية عندما يبدأن فى رقصاتهن. فى أثناء ذلك كانت أفرانيا تشاكس الرجال وتداعبهم بمداعباتها اللاذعة. فى لحظة انصراف كرايتس من هذا الحفل سقطت عيناها فى عينيه فلاحظت أن كرايتس له لون عينى تاليا نفس العبدة تلك التى تكرهها أفرانيا من أعمق أعماقها. قال كرايتس وهو يهم بالانصراف: أشكرك على هذه الليلة والحفلة السعيدة يا أفرانيا سليلة أجريكولا وسيدة عائلة

بوبليكولا، لو كان الإسكندر ما زال حيًا لقام بتقديرها بصورة لائقة لأنه كان حاكما من الطراز العاقل الذى يدرك مغزى الحياة. فقالت أفرانيا وهى ما تزال واقفة على عتبات السلم: ماذا تقصد ياكرايتس؟ فقال كرايتس: إننى أقصد أن الإسكندر قد اختار كل ما هو عاقل وجميل ولكن الرجل لم يغلق الباب الآخر الذى يدخل منه ما هو غير عاقل وقبيح. وإننى أرى إن الذين لهم عمل مفيد هم العاقلون الكمّل، أما الذين لا يعملون فهم غير العاقلين وهم القبيحون.

لم تفهم أفرانيا ما يقصده كرايتس لأنها كانت مخمورة وقد رأى ذلك، ولكنها عرفت على أى حال أنه يريد فقط إثارتها وسبها . وقال كرايتس بعد أن نظر إلى أفرانيا: أرجو أن تحرسك الآلهة ثم انصرف. لقد انصرف الكاهن السكندرى ماشيا على قدميه لكى لا يتشابه مع الرومان الذين ذهبوا إلى منازلهم فى محفات تجرها العبيد وبالطبع حذا بنتانوس حذوه، فى طريقه إلى المنزل كانت تقف العاهرات ينتظرن خروج هؤلاء الرجال الجالسون فى محفات وكانت العاهرات يلقين بأنفسهن على هذه المحفات علهن يحظين بأحد الرومان الأغنياء. وفى أثناء سيره على قدميه بدأ يشعر بندى الصباح رطبا طريا على قدميه. أما فى القصر فقد أخذ اثنان من الرجال يطفئان الأنوار بالقصر واحدًا تلو الأخرى وذلك لاقتراب بزوغ نور الصباح. بداخل القصر كان بوبليكولا يغط فى نوم عميق وبجواره

خادمه الذى يرافقه مثل ظله فيقوم بعمل كل ما يحتاج إليه بوبليكــولا دون مراعاة لأى قواعد أو أعراف. ثم قام أحد هذين الرجلين بخنــق كاى خادم بوبليكولا أثناء نومه بطريقة عبقرية حتى أنه لم يسمع أحد أى صوت. ثم قال الرجل القاتل " إن خادم الرومان لهو حقير مــثلهم ويستحق مثلهم الموت أيضًا". ولما تحرك نائب الملك فى سريره قال الرجل القاتل لزميله: " تحرك بسرعة" عندئذ قام الآخر بوضع كــرة من اللفائف المبللة فى فم بوبليوكولا نائب الملك ، بينما الآخر بسرعة كبيرة بربط رجليه ويديه بقوة ثم قذفوا بوبليكولا على بطنه مثل طفل صغير ثم قذفوه مرة أخرى على ظهره.

وقال له الرجل بصوت بارد وهادئ إنك سوف ترى كثيرًا مما لم تره فى حياتك من قبل. هز بوبليكولا رأسه بعنف حيــث أدرك مــا يدور الآن حوله صاح مناديا على الحراس ولكن صوته لم يخرج من حلقه لأن كرة القماش كانت تسد فمه. إنه لا يصدق ما يحــدث، ثــم نظر مذعورا فى عينى الرجل الخضراوين والذى اقترب منه بوجهه البارد الخالى من أى مشاعر الرحمة وحاول بوبليكولا أن يفهــم مــا يريده منه هذا الرجل الغريب. ثم تحدث الرجل قــائلا " يــالوكيوس فاليريوس بوبليكولا: إننا سوف نقدمك للمحاكمة الآن إنك متهم بقتــل الآلاف من البشر، وبتشويه صورة الشخصية الرومانية ومتهم بتلطيخ سمعة روما، ومتهم بخيانة الإمبراطــورية الرومانيــة. أمــا أنــا

فالمحامى الذى يدافع عنك والقاضى الأعلى الذى سوف يحكم عليك كما أننى أمثل الشعب أيضًا. فماذا تقول؟. انتاب بوبليكولا الرعب وأخذ يحاول أن يصيح مناديا على أى من العبيد ولكن صوته لا يخرج من فمه. وهو يفكر بسرعة كبيرة لماذا لا يدخل أحد من عبيده فينقذه مما هو فيه من عذاب؟ ثم جلس الرجل بجوار بوبليكولا وقال له الآن سوف تحاكم محاكمة عادلة لا ظلم فيها ولكن لابد من الحاضرين أن يشاركوا فى هذه المحاكمة ثم ضرب ركبتيه ونهض واقفا وتحاور مع رفيقه للحظة ثم عاد وهو يقول " يابوبليكولا يا عزيزى إن الحاضرين أقروا بأنك مذنب فى التهم كلها التى وجهت إليك، وأننى أنا قاضى القضاة قد حكمت عليك بالإعدام وذلك بوضعك على خازوق حتى الموت" . ولما سمع بوبليكولا ذلك ارتعد كل جرام من اللحم فى جسمه وراح يرتعش حتى فقد الوعى، بينما جاء الرجل الآخر ذى الصوت الناعم وفى يده عصا طويلة متقدما نحو السرير الذى يرقد عليه بوبليكولا مقيدا. أما الآن وفى عيادة ليبتينوس فإن الرجل بعد وفاة تيل بتاح قد تغير تمامًا وأصبح قاسيا لدرجة أن تاليا اعتقدت أن كل شىء بينهما قد انتهى، فلم تكن تتصور قط أنه كان يحب هذا العبد المصرى هذا الحب كله. دخل ليبتينوس على تاليا وقال لها بنظرات باردة خالية من كل المشاعر: لقد كنت تريدين منذ زمن أن تزورى برنابة تاجر الأطفال ، الآن بإمكانك أن

تصطحبى جاب الله وتذهبى إلى هناك. لم تكد تاليا أن تخـــرج إلـــى الشارع مع جاب الله حتى سمعت ضوضاء وجلبة وقعقعـــة ســـلاح فسألت تاليا أحد حاملى المحفات عن سبب هذه الجلبة فقـــال الرجـــل الجنود الرومان كالعادة، فقالت تاليا ولماذا؟ فهز الرجل رأسه بأنه لا يعرف السبب ولكنه قال لا خطر عليك لأنك تعملين فى عيادة الطبيب المشهور ليبتينوس فلن يأتوا نحوك. ولم يمش حملة المحفـــة كثيـــرًا بتاليا حتى استوقفهم جندى رومانى بوقاحة وسأل باستخفاف من أنتم وإلى أين أنتم ذاهبون؟ أجابه ليبتينوس الذى قرر فى اللحظة الأخيرة أن يذهب معها إلى برنابه وهو ضجر متبرم إننى الطبيب ليبتينـــوس وفى طريقى إلى برنابه تاجر العبيد وعيادتى تقع عند مدخل القمـــر. فقال الجندى وماذا تفعلون هنا؟ فأجابه ليبتينوس بصوت مرتفع محتد " إنه حتى الآن لم يجرؤ أحد من أصدقائى الرومان أن يتحدث معـــى بوقاحة هكذا". فتعجبت تاليا أن يتحدث ليبتينوس مع جندى رومـــانى بتلك الجرأة. فترك الجندى المحفة ورجع خطوة للوراء وقال إن نائب الملك قد قتل ليلة أمس. فنظر إليه ليبتينوس مرتبكا ولم يجد ما يقوله فأكمل الجندى قائلا لهذا فإننا نفحص كل شخص نراه. عندئـــذ همـــز ليبتينوس الحمال الأمامى على كتفه يحثه بالسير قـــدما إلـــى الأمـــام وتحركت المحفة متقدمة فى طريقها. أما جاب الله فقد همس فـــى أذن تاليا وهو شديد الخوف هل سأذهب حقيقة معكم إلى برنابـــه؟ ولمـــا

نظرت تاليا إلى جاب الله لاحظت أنه متأهب للهرب لأنه يخاف مـــن برنابه فأمسكت تاليا بذراعه وقالت له تهدئ من روعـــه: لا تخـــف وإنك لست فى حاجة إلى الهروب وخصوصًا فى يومنا هذا فـــسوف يقبض عليك فى الحال.

انظر حولك ياجاب الله إن المدينة مليئة بالجنود، إن المحال أغلقت حتى المخابز والمطاعم، إن السكندرين قد اختبأوا فى منازلهم اليـــوم. إن برنابه هذا أكبر تاجر عبيد بالإسكندرية وأشـــهرهم كمـــا كانـــت واجهة منزله مبنية بالخشب القوى المتين، وعندما طـــرق ليبتينـــوس باب البيت وفتح أحد العبيد الباب كانت هناك حديقة بها أشجار عنـــب ونافورة مياه وكان شكل البيت يوحى بأن صاحبه غنى موسر. حيـــا برنابه ليبتينوس بأحسن تحية وقابله هاشا باشًا، بينما تنهد جـــاب الله متأزما وكارها لهذا الرجل الضامر النحيل الذى يثير فى نفس جـــاب ذكريات أليمة. لقد كان يرتدى جلبابا أسود أعطاه شبها بالغربان بينما كانت سوالفه سوداء طويلة تتحرك بصورة هـــستيرية كلمـــا تحـــرك برأسه يمينا أو يسارا. ثم قال برنابه مخاطبا ليبتينوس إن بوبليكولا قد مات مقتولا ونحن السكندريين لا بد وأن نختبئ فى هذا الوقـــت لأن ذلك هو قدرنا مع الرومان ولا بد لك أن تتحمل هذا معنـــا. فأجابـــه ليبتينوس "هات من الآخر وأخبرنى كيف قتل ومن قتلـــه؟" فـــاقترب برنابه من أذنى ليبتينوس وقاله له: " يقال إن شخصا ما قد قتله فـــى

سريره عن طريق وضعه على الخازوق ولكن الرومان يخبئون ذلك ويقولون إنه مات فى سريره فقط." لقد ارتجف ليبتينوس عندما سمع ذلك وراح يفكر فى تسلسل الأحداث. ثم قال برنابه لليبتينوس: إذا استعجلت فى عملك فسوف تحصل على خمسمائة أس قابلة للزيادة إذا أسرعت أكثر لأنك تعرف أننى لا أبيع بضاعة فاسدة، فقال ليبتينوس: إن هذا لشيء حسن. ثم أخرج ليبتينوس صندوق الأدوات الجراحية من المحفة، ثم نظر برنابه إلى جاب الله وهو يتفحصه قائلا وهو يبتسم بخبث وقذارة وهذا هل يصلح لشيء هل ما زال فى حوزتك ولم يهرب؟ فأجاب ليبتينوس بقوله: إننى لا أنصحه بذلك، ثم أمر ليبتينوس جاب الله بقوله ضع الصندوق هذا فى الظل! ثم ألقى برنابه ببعض الأوامر على عبيده واتجه يمشى خلف ليبتينوس بينما سألت تاليا ليبتينوس قائلة: ماذا يبدو وماذا نفعل هنا بحق الآلهة ياليبتينوس؟ بينما كان أمام تاليا صبية صغار سود البشرة يحملون قدورًا فخارية مملوءة بالمياه ثم جاءت فتاة سوداء وقد أحضرت مجموعة كبيرة من المناديل ثم انصرفت مسرعة. إن الصالة التى يقفون بها الآن مليئة عن آخرها بالفتيان السود وذوى البشرة البنية.

وعندما مر برنابه بجوار تاليا استطاعت أن تشم منه رائحة كريهة. أما الصبية فقد كانت بأجسادهم بقايا من ملابس ممزقة من

طول رحلتهم التى قطعوها، كما كان يبدو على ملامحهم المرهقة كثير من الإجهاد والتعب ثم قال التاجر لليبتينوس متسائلا: لماذا أحضرتها معك؟ إنها لم تكن فكرة جيدة منك؟ فقال ليبتينوس له: إن هذا ليس من شأنك إن ذلك بينى وبينها. ثم أرسل برنابا فتيانا وأطفالاً فى فناء المنزل. وفى الفناء كان ينتظرهم العبيد الذين كانوا يمسكون بأيديهم كرابيج مصنوعة من جلد فرس النهر. ثم أخذ الرجال ذوو الجلاليب الزرقاء والأكمام الخضراء يضحكون ويسخرون من تاليا بلغة لم تفهمها. ثم أحضر فتية آخرون قدورًا مملوءة بالمياه ثم تلقى الصبيان الواقفون الأوامر بأن يغسلوا أعضاءهم التناسلية بالمياه. عند ذلك فهمت تاليا بأنها هنا مع ليبتينوس كى تساعده فى خصى هؤلاء الصبيان. إن جاب الله اعتراه الخوف وتذكر ما حدث معه قديما فى هذا المكان أيضًا لذلك استند على جدار المنزل مقشعرة بشرته يجتر تلك الذكرى الأليمة. قالت له تاليا هل كنت تعرف أن اليوم سوف نقوم بخصى الصبية؟ هل حدث معك هذا أيضًا؟ فهز جاب الله رأسه بالإيجاب. وحانت منها التفاتة إلى ليبتينوس فرأت إنه أمسك فى يده بسكين وإبرة غليظة ولضم بداخلها فتلة من الكتان مستعدا لبدء عمله، فلم تكد تاليا تصدق ما ترى وقالت فى سرها:" أيتها الآلهة ديمتر أعينيني" فجأة وبسرعة شديدة تقدم اثنان من عبيد برنابه واللذان يشبهان المصارعين وقد أمسكا بصبى وألقياه على الأرض وأوثقا رجليه وذراعيه، ثم جاء ليبتينوس وقام بعمل قطعين صغيرين

بالسكين فى خصية الصبى ثم ضغط عليهما حتى خرجا من الفتحتين مثل البيضتين الصغيرتين ثم قام بتخييط الجرح بسرعة كبيرة، بينما قالت تاليا راجية منه أن يعطى الفتيان بعض من البودرة المخدرة فلم يجبها ليبتينوس وكأنه لم يسمعها وواصل عمله. والصبى الأسود يصرخ بشكل غير إنسانى حتى فقد الوعى. ثم صاح ليبتينوس بقوله "إللى بعده" بسرعة. بينما يحاول الصبية أن يندس كل منهم خلف الآخر ويحاول بعضهم الآخر عبثا الهروب من الصالة، بينما كان الشباب البالغون فى حالة من البكاء الهستيرى لأنهم يعرفون ويدركون نتيجة ما يحدث لهم. وكلما بكوا أنهال عليهم العبيد ضربا بالسياط وبينما كان جسد تاليا يرتعش ورجعت خطوة إلى الوراء وهى تحاول أن تسيطر على مشاعرها. ثم نظر ليبتينوس إلى تاليا متحديا وهو يقول لها ألا تريدين أن تجربي؟ ولكنها استجمعت قواها وقالت نعم سأفعل وقد لاحظت إنه لم يسعد بذلك لأنه كان يتمنى أن ترفض تاليا وتقول: لا لن أفعل ولكنها الآن برهنت على أنها لا تقل عنه جرأة وشجاعة. بينما صاح برنابا قائلا: يا إلهى يا ليبتينوس إنه لا يجب عليك أن تتركها تتعلم فى فتياتى إنهم مالى وكلفونى كثيرًا من النقود. عند ذلك قال ليبتينوس نعم معك حق يابرنابه والتفت إلى تاليا قائلا المرة القادمة ياتاليا إننا اليوم فى عجلة من أمرنا وراح يعمل بمفرده بسرعة دون أن يعطيها الفرصة.

ثم انتهى ليبتينوس من عمله حيث قام بخصى ثمانية من الصبية الشباب وقام العبيد برصهم على الأرض فاقدى الوعى مثل الذبائح وبينما ألقى برنابه نظرة مستريحة عليهم وكأنه قد اطمأن إلى نهاية العمل وهو يقول إنهم الآن مثل أسماك التونة لا يستطيعون الهرب . ثم ضرب برنابة عبدًا صغيرًا على كتفه وقال له أجمع هذه المخاصى من الأرض وألقها لكلاب الحراسة فإنهم سوف يستطعمونها بدلا لهم من أن يشمونها فقط. ففعل العبد الصغير ذلك مطيعا لأوامر برنابه. فى أثناء ذلك قام أحد العبيد بفتح باب كانت قد احتجزت خلفه أمهات الصبية والشباب فخرجن النسوة صائحات نائحات كل واحدة منهن تبحث عن ابنها أو زوجها فى وسط هؤلاء الملقين على الأرض والذين تم استئصال مخاصيهم على يد ليبتينوس، تنزف دماؤهم وتدور أعينهم فى كل مكان علهم يجدون تفسيرا لما يحدث بهم. فى اليوم التالى كان على تاليا أن تذهب إلى بيت قاضى القضاة تريمالخيو، عادة ما كان تريمالخيو يستقبل الموظفين للتأكد من سير العمل، ثم يذهب بعد ذلك إلى حمامات المياه . على أية حال وصلت تاليا إلى منزل تريمالخيو وهى مرهقة ، فقال لها فرد الأمن على البوابة إنك لا تستطيعين مقابلة السيد الآن لأنه يستقبل المعزين فى وفاة نائب الملك، ألم تسمعى بذلك؟ قالت تاليا وهى عازمة: إننى لا بد وأن أقابله، إننى من عيادة الطبيب وإننى هنا كى أفحص سيدتك

المريضة. فوافق رجل الأمن وفتح لها الباب ووصف لهـا الطريـق الذى يجب أن تتجـه إليه. وعنـدما دخلت تاليا المنزل لـم تـسمع زعيقا ولا ضوضاء، إن المنزل يسوده الهدوء والسلام نظرا لمرض السيدة المسببة لكل هذا الزعيق والتوتر به، كمـا لاحظـت تاليـا أن المنزل ليس به أى زيارات عمل صـباحية مـن تلـك التـى كـان تريمالخيو يستقبلها كل صباح. حتى إذا وصلت تاليـا إلـى غرفـة تريمالخيو وجدته جالسا فى غرفة مكتبه وأمامه كومـة كبيـرة مـن لفائف البردى يبحث فيها بينما شمر عن ساعديه حتى كوعه. ولـم يرفع رأسه عن أوراقه بل قال لتاليا ماذا تريدين؟ فقالت تاليا " أريـد أن أرد لك جميلا لم تسده إلىّ " عندئذ ترك الرجل أوراقه ونظر إليها مهتما فقـالت تاليا إن رومانى قد ذُبح والثانى قد قُتل بالخاذوق وأنـا أود أن أحذرك فربما تكون أنت الثالث. قطـب تريمـالخيو حاجبـه وعبث بوجهه وقال لها ربما يسلخون جلدى فى الفترة القادمة! فقالت تاليا ربما من يدري! ثم سألها تريمالخيو محتدا: من أين عرفـت أن نائب الملك قد قتل بهذه الطريقة الهمجية؟ فقالت تاليا إننى سمعت من الناس فى المدينة ، إن الناس جميعهم يتحـدثون عـن ذلـك. قـال تريمالخيو على أية حال: إن طرق القتل مثل الخوذقة وسلخ الجلد لهى طرق بابلية وفينيقية، وليست طرق رومانية ولكن أخبرينى بحق مـن يروج تلك الإشاعات فى المدينة ممن سمعت هذه الإشاعات؟ فأجابت

تاليا إنها إشاعات سمعتها من الطبقات السفلى مثل العبيد والمصريين. فكما تعلم أن العيادة عندنا مليئة بكل أصناف البشر. فقال تريمالخيو وهؤلاء الحقراء يعرفون بأننى الرقم الثالث فى تعداد من سيقتلون، لماذا لا أكون الرقم الرابع أو حتى العشرين. فأجابت تاليا إننى لا أعرف، ثم قالت له محتدة وما الذى يضيرك عندما تأخذ تحذيرى لك مأخذ الجد وتتخذ احتياطاتك؟ فأجاب تريمالخيو: حسنا سوف أفعل ذلك. كما أنها لاحظت أن تريمالخيو متغير ومزاجه مختلف كما أن شكل الغرفة مختلف ، حيث إن الغرفة ينقصها بعض قطع الأثاث التى كانت موجودة بها مثل كنبة منضدة كانت عليها حلية على شكل مخالب طائر وكذلك ، بينما رأت رماد على المنضدة النحاسية، ربما هو ناتج عن حرق ورقة من البردى. بعد لحظة من الصمت قال تريمالخيو: إن العدالة الرومانية تعمل بدقة واجتهاد. فقالت تاليا ساخرة حقيقي؟ ثم أردفت ربما أكون أنا فى قائمة القتلى أيضًا من يدرى. ولكن تريمالخيو قال لها: إن سيدة مسيحية تدعى بربتوا قد قدمت لى شكوى ضدك، ولكننى لم أقبلها منها ونهرتها وأمرتها ألا تأتى هنا ثانية. ولكن تاليا قالت فجأة لتريمالخيو بعد تردد وحيرة: إننى لدى استفسار مهم جدا فقال لها ماذا لديك؟ فقالت تاليا: إننى أريد النصيحة! فقال تريمالخيو منتبها فى أى شأن تريدين؟ فقالت تاليا ما رأى القانون الرومانى عندما يريد عبد شراء حريته من سيده ولكن

السيد يرفض. فقال تريمالخيو أنت؟ فهزت تاليا رأسها بالموافقة! فقال تريمالخيو: إن القانون الروماني هو دوما في صف السيد وإذا لم يُرد السيد بيع العبد فلا يستطيع العبد فعل أي شيء. ثم وضع تريمالخيو رأسه بين يديه وأخذ يفكر. لقد كانت تاليا تعتقد ذلك أن القانون الروماني لهو دوما في صف الرومان المستبدين وصالحهم، كما أن إجابة تريمالخيو أحزنتها أكثر فلم يبق أمامها سوى أن تشكر تريمالخيو وتودعه وهي منكسرة حزينة. ثم سمعت صوته وهو يرتفع قائلا: شكرا يا تاليا. وفكرت تاليا في نفسها قائلة: إذا كان لديه أي شعور بالعرفان حتى على الأقل مساعدتي له في أن يتخلص من كوابيسه التي كانت تزوره كل ليلة فلابد وأن يفعل شيئا. وفي طريقها خارجة من المنزل لم تر عبيدا كما لاحظت أن الحديقة تبدو غير نظيفة وغير معتنٍ بها حتى أن الحشائش قد كبرت بها دون أي عناية وفروع اللافندل قد ماتت لأنه لم يعتنِ بها أحد ولم تعد تشم الروائح الجميلة من الحديقة التي كانت تشمها في زياراتها السابقة على ما يبدو أن تريمالخيو ليس لديه أحد كي يعتني بهذه الحديقة.

وأمام باب الخروج سألت تاليا الرجل الذي يقف حارسا على الباب قائلة: " هل لا يعتني أحد بالحديقة هنا؟ فقال لها الحارس: إن السيد تريمالخيو سيبيع المنزل وربما سوف يعتني المشتري الجديد بالحديقة. وأخذت تاليا تفكر فيما سمعته من الرجل، أما العيادة فقد

ساد بها جو من الهرج والمرج ورأت تاليا ليبتينوس وهو يأمر العبيد بأن ينقلوا قطع الأثاث والسجاجيد هنا أو هناك ووقف بجواره رجل يرتدى زيًا يونانيًا أقصر قليلا من ليبتينوس ولكنه ضخم الجسم وراح يرمق تاليا بنظرات فضولية قبل أن يراها ليبتينوس. لقد بدا هذا الرجل صغير السن لا يوجد فى جسمه أى ترهل وبدت ذراعاه وكأنهما ذراعا ثور هائج من الدلتا تتحرك عضلاتهما رغم أنه كان واقفا لا يفعل شيئا. ثم راح ليبتينوس والرجل بعد ذلك ينظران فى كتاب ويقلبان صفحاته ويتساءل ليبتينوس قائلا: والآن ماذا ترى؟ فقال الرجل: إن هذا ليبدو شيئًا جميلا للمصارعة الرومانية كما أن ذلك يشجعنى على ممارسة نشاطى. قال ليبتينوس ضاحكا: إننى قد اختطفت هذا الكتاب من أمام أحد الزبائن الذى كان مهتما به ولكننى اشتريته بسرعة قبل أن يشتريه هو. ووقفت تاليا تنتظر وترقب ما يدور بين الرجلين، ولكنها تريد أن توجه انتباه ليبتينوس بوجودها . بعد لحظة أشار ليبتينوس إليها بيده تجاه المطبخ وهو يقول لها بحدة من الآن فصاعدا إنك سوف تنامين فى غرفة تيل بتاح، وفيلون مدرب المصارعة سوف ينام فى غرفتك، إن حاجاتك كلها هناك. ثم قال ليبتينوس بلهجة آمرة والآن أذهبى . ثم تلعثمت تاليا وهى تقول ولكن يوجد غرفتان كبيرتان فى الجهة الأخرى فقال فيلون بصورة ودية مظهرا أسنانه المتساوية القوية البيضاء والتى تشبه أسنان

الحصان " إننى سوف استعملهما فى التدريب" ثم قال ليبتينوس تعـــال معى يافيلون إننا لابد وأن نتحدث مع فيرنيرو بشأن غدائك. ثم قـــال له أما الجاسيا فسوف تهتم بحاجاتك الشخصية فإنها خادمتك. سارعت الجاسيا بحمل كتاب المصارعة كى تدخله فى غرفة تاليا التـــى هـــى الآن ملك لفيلون وهى فخورة وسعيدة أن تكـــون تحـــت أمـــر هـــذا العملاق اليونانى وراحت تتبختر وتبرز صدرها إلى الأمـــام جيئـــة وذهابا حتى توجه إليه الأنظار. فقالت تاليا فى ســـرها هـــذه العبـــدة الحقيرة وهؤلاء الرجال الأوغاد، إن ليبتينوس قد اشترى هذا الـــشاب الرياضى كى يدخل باسمه المصارعات الرومانية ويحصل له علـــى تاج المصارعة الذى لن يستطيع هو الحصول عليه، وبـــذلك يـــدخر ليبتينوس عناء التدريب وزيارة الطبيب وطـــرق التغذيـــة الـــصحية السليمة لبناء العضلات.

دخلت تاليا إلى غرفتها الجديدة والتى لم يكن لها باب فوجدت بها الكنبة التى كانت تنام عليها، حيث إن تلك الكنبـــة كانـــت صـــغيرة وصلبة على جسم الرياضى الشاب فلا تصلح أن ينـــام عليهـــا. فـــى المطبخ وقف ليبتينوس يقول لفيرنيرو ما يجـــب عليهـــا أن تطبخـــه للرياضى، لحم ضأن، لحم ماعز، لحم ثيران، طيور، لحوم، أســـماك، وكذلك ما تجود به الصحراء من حيوانات برية. ثم قـــال ليبتينـــوس: ولكن لا تقدمى لحم الخنزير لفيلون لأن إلهه لا يحب لحم الخنزير، ثم

أتبع قائلا كما لا تضعى لفيلون توابل كثيرة فى الطعام ، ولا تضعى له سكرًا فى طعامه كما لا تقدمى له أى نوع من الحلويات، أما أنـــا فاطبخى لى كالمعتاد. فأجابت فيرنيرو قائلة: كما تحب ياسيدى. ثــم فكرت فيرنيرو برهة وقالت له: ولكن هذا الطعام سوف يكون ثمنـــه غاليا ياسيدى. فأجابها ليبتينوس محتدا: إن طعامه ليس بـــأغلى مـــن الأطعمة التى كنت تعديها لابنك تيل بتاح من الطيور الغالية وجـــاتوه العسل. فهزت تاليا رأسها أسفا لجملة ليبتينوس هذه لأنها لم تكن فـــى محلها وبصفة خاصة أن المرأة ما زالت حزينة علـــى فقـــد ابنهـــا. فانطلقت المرأة مجددا فى الصراخ والعويل وخرج ليبتينوس هاربـــا من المطبخ.

وفى وقت متأخر من النهار أخذ ليبتينوس يخبر فيلـــون بطـــرق التغذية السليمة واللحوم التى يجب عليه أن يتناولها كما لا يجب عليه أن يشرب الكحول بينما هو كان يشرب النبيذ. وأخبـــر فيلـــون بـــألا يشرب سوى الماء كما أعطاه درسا فى كيفيـــة تكـــوين العـــضلات بالجسم والحفاظ عليها. إن ما كانت تاليا تخشاه أن يتضاعف عملهـــا ومجهودها بسبب وجود فيلون بالمنزل وقد حدث ما كانـــت تخـــشاه حيث أنه لم يعد لليبتينوس أى مشاغل أخرى ســـوى الاعتنـــاء بهـــذا الشاب وبطعامه. أما هذا الشاب فإنه فى الأصل يرجع إلـــى أســـرة فقيرة كانت تعيش من تجارة الخضار بجوار برج الشمس وقد كـــسب

بطولة المصارعة الرومانية وعند ذلك راح برنابه يسوق له كى يشتريه أحد لكى يدخل مسابقات المصارعة باسمه، وهكذا وصل فيلون إلى أيدى ليبتينوس. كما أن برنابه يأخذ نسبة من البائع ومن المشترى .

تلك المعلومات كلها قد سمعتها تاليا من جاب الله فى أثناء أن كانا فى طريقهما إلى بنتانوس الذى يعانى الآن من النقرس، وعلى تاليا أن تعالجه وتسدى له النصائح كى يتخلص من آلامه. وفجأة سمعت تاليا صوتا يدوى فى أذنها قائلا أما ماهو أخطر من كل ذلك فهو ما يفعله ليبتينوس، فلما نظرت تاليا إلى صاحب الصوت عرفته بسرعة صاحب اللحية الكبيرة إنه الطبيب كريسنس من أفيسوس، الذى أكمل قائلا بصوت جاد ومحذر أخبرى ليبتينوس أن اثنين من السود قد ماتوا. وقولى له: إننى أنا كريسنس أحذره. ثم اختفى كريسنس ماشيا وسط الحشود الغفيرة من البشر. بينما نظرت تاليا إلى جاب الله وهى تقول له ماذا يبدو هذا؟ فقال جاب الله: لا أدرى. وصلت تاليا إلى بنتانوس قال لها إنك اليوم قليلة الحديث يا تاليا هل لديك هموم ما؟ نظرت إليه تاليا وهى تفكر فى شأنه، حيث تضاعفت أمراضه فى الفترة الأخيرة وهو يدفع بسخاء. ولكن الرجل لا يملك سوى منزل صغير وعبد واحد يقوم على خدمته فمن أين له أن يدفع لها نفقات علاجه؟ ثم أجابت تاليا على سؤال بنتانوس قائلة: إن قلب مدينة

الإسكندرية أصبح مريضا ولا يضخ الدم بصورة منتظمة يابنتـانوس وأنا أعانى مثل تلك المدينة من اعتلال قلبها. فقال بنتانوس ومن منـا لا يعانى ياتاليا إن جوع الرومان وصراعاتهم لا ينتهيان، ونحن الذين نقاسى من تلك الممارسات الرومانية كلها. ثم نظرت تاليا إلى جـانب الله الذى غدا مع الوقت الشخص الوحيد الـذى تثـق بـه وتخبـره بأسرارها. أما الآن فلابد لها من أن تلف قدم بنتانوس بلفائفها الطبية. بعد ذلك جاءت خادمته الأثيوبية وقدمت له كأسا من النبيذ وأخذ يفكر بنتانوس فى زوجته التى ماتت متأثرة بالحمى وهو يقول لنفسه: ربما لو كانت تاليا قد عالجتها ربما كانت الآن على قيد الحياة ولكن ذلـك الآن متأخر فهو لا يستطيع أن يعيد الزمن. ثم شعر بأن آلامه تخـف رويدا رويدا تحت تأثير اللفائف التى ربطتها له تاليا على قدمه. ولكن تاليا صاحت ببنتانوس قائلة: إذا كان لك ولا بد وأن تشرب النبيذ فلا بد وأن تخلطه بالمياه لأن النبيذ مضر إذا كان المـرء يعـانى مـن النقرس . فقال بنتانوس ياعزيزتى تاليا وكذلك الماء فإنه مضر لهـذا النبيذ القيم الثمين. إن الآلهة سوف تغضب إذا مزجت النبيـذ بالمـاء وإننى أخشى غضب الآلهة منى أكثر من خشيتى من المـوت. وراح الرجل يشرب النبيذ الداكن باستمتاع وهو يكاد يهـزو حتـى فـرغ الكأس.

فى أثناء ذلك كانت أفكار معينة تدور برأس تاليا وهـى حـالات الاغتيال التى تحدث للرومـان وكـذلك حـادث مقتـل هيبارشـيا

والجواسيس فى القنال. بعد ذلك راح بنتانوس فـــى نـــوم عميـــق ، فوضعت تاليا وجاب الله بحذر مخدة من الجلد تحت رأســـه وتـــسللا خارجين من غرفته وهى تفكر فى أنه بأيدٍ أمينة نظرا لرعاية خادمته الأثيوبية .

الفصل الخامس عشر

الحرية

وقف ليبتينوس أمام تاليا وهو يقول: ماذا بها؟ فقالت تاليا: إنها تشكو الصداع فقال ليبتينوس: اذهبى إليها وأعطيها سمكة مملحة ونبيذا وسوف يزول صداعها. فقالت تاليا: لا أعتقد أن أفرانيا فى حاجة إلىّ بقدر حاجتها إلى يديك فوق يديها وشفتيك فوق شفتيها وأشياء أخرى. فأجاب ليبتينوس مغتاظا إن هناك مائة جندى يقفون لحراستها ولكل جندى يدان وشفتان ألا يكفيها هذا؟ اذهبى إليها وانظرى ما بها يا تاليا، فرفضت تاليا وقالت: لن أذهب إليها إن لدى مشاكل أخرى.

وما إن انصرف ليبتينوس حتى قالت تاليا لنفسها: إنه لشخص عجيب نسى فى لحظة علاقته بأفرانيا واتجه بكل اهتمامه إلى صديقه الجديد المصارع يعطيه وقته كله وينظر بنفسه إلى طعامه وشرابه. إن أفرانيا لم تكن بالنسبة له حبيبة بقدر ما كانت له وسيلة كى يصل بها إلى روما. إنه لمن السيئ أن يغضبها أو يثيرها فهى امرأة لا تعرف الرحمة. ثم خرجت تاليا متجهة إلى مخزن الأدوية كى تحضر منه مشروبا مهدئا فوجدت جاب الله واقفا فى المكان يعيرها اهتمامه كله وينتظر أى أمر منها، فسعدت تاليا فى قرارة نفسها بذلك ، حيث

إن هذا يعطيها إحساسا بالأمان. ونظرت تاليا خارج المنزل تجاه الحديقة فرأت ليبتينوس يقف مشرفا على اثنين من العبيد الذين راحوا منذ الصباح الباكر يحفرون فى الأرض كى يقوموا بعمل مكان رملى كبير مستدير الشكل. قال جاب الله : إن أخصائى المساج وأخصائى الزيوت قد جاءا ولكن فيلون مازال نائما. لم يستمر الجدال بين تاليا وليبتينوس طويلا فلابد وأن تذهب هى لفحص المريضة وعلاجها وبالطبع لم يرسل ليبتينوس محفة لكى تحملها، حيث إنه يفعل ذلك عامدا متعمدا حتى يرهقها ولا تستطيع الكلام أو التفكير فى أى شىء. ثم إنها بالأمس أخبرته بالرسالة التى أرسلها معها كريسنس فما كان منه إلا أنه ثار فى وجهها ورفض أن يخبرها بأى شىء. خرجت تاليا إلى الشارع فاستقبلتها نسمة هواء رطبة استمتعت بها تاليا على بشرتها. ثم تذكرت أنها نسيت غطاء رأسها بها فقالت لنفسها لن أعود إلى المنزل مرة أخرى كى أحضره وواصلت سيرها، متقدمه لزيارة المرأة الرومانية. لقد كانت الشوارع ممتلئة بالمارة وبأصحاب الحرف وأصحاب المطاعم الذين فرشوا أوانيهم وأخذوا يسخنوا مأكولاتهم فى أوانٍ كبيرة من النحاس. أما الحى الرومانى فقد كان هادئا وكان الناس به نائمين. ولكن أفرانيبا ما زالت مستيقظة فلماذا لا تنام ربما تواتيها هى الأخرى كوابيس ولا تستطيع النوم، ولربما لأن جثة زوج أختها – نائب الملك بالقرب منها فى

القصر تنتظر أن تحرق كعادة الرومان فى حرق جثث الموتى. فجأة ارتجفت تاليا عندما شعرت بأن يد جاب الله قد جذبتها مـن ذراعهـا وهو يقول لها انظرى ياسيدتى انظري!! ولما نظـرت تاليـا رأت أربعة من الأشخاص موضوعين فوق أربعة خوازيق وهـم ميتـون وتنقر أجسامهم الصقور والنسور ، بينما جلس تحت هذه الخوازيـق اثنان من الجنود الرومان للحراسة وهم يلعبون لعبة الـسيجة فـوق التراب. فقالت له تاليا محذرة تمالك نفسك ياجاب الله ولا تشاور بيدك حتى لا يتهمك أحد بشىء. عند ذلك طأطأ الأسود رأسه إلـى أسـفل واستمر فى سيره للأمام. راحت تاليا تتأمل السيقان العارية لهـؤلاء المعلقين على الخوازيق. نعم إنها تذكر تلك السيقان جيـدا، إن هـذه السيقان كانت لهؤلاء الرجال الذين رأتهم منذ بضعة أيام يمشون فـى القتال وبينهم رجل رومانى موضوع على الخازوق أيضًا. أما الرابع فلم تعرفه.

كان أحد الجنود ضخمًا مثل الدب وقد استدار كى يتأمل تاليا وجـاب الله ثم قال الجندى لزميله بصوت مرتفع انظر وتأمل هـذه التـشكيلة الجميلة، رومانى خائن والذى أصابنا جميعا بالعـار، واثنـان مـن الليبيين الخصيان، وبرغوث تراكى. ثم صاح الجندى بتاليا قائلا أنت ياهذه لو كان هؤلاء الأربعة ما زالوا على قيد الحياة فمن منهم كنـت ستختارين؟ ثم أردف الجندى قائلا: أتمنى لو اخترتِ الرومانى الخائن

أيتها الغجرية. لقد اعتقد هذا العسكرى البليد أن تاليا من التراك. ولما نظرت تاليا إلى الرجلين عرفت الثانى منهم وهو إربشن الذى قبض عليها ذات مرة فى البيت المرتفع الأدوار والذى كانت تسكنه بربتوا وتنهدت تاليا بضيق وقرف وأكملت سيرها فى الشارع الخالى من المارة ما عدا هى وجاب الله وهذين الجنديين الوقحين، فأجابه إربشن بقوله إنها ليست تراكية، فقال الأول الضخم إننى أراهنك على حياة إلهك أنها تراكية. فأجابه إربشن بقوله: لا تغضب طاقيتى، إننى قلت لك إنها ليست تراكية. ثم قال بسولم وهو الجندى الضخم عبارة وقحة خادشة للحياء وراح يضحك بصوت مرتفع ثم أجابه إربشن بقوله: أعتقد أنها مسيحية وهى تعترف بذلك. فقال إربشن لزميله الجندى الضخم إنها فى حماية تريمالخيو الذى أكرهه أنا أكثر من أى شىء . هذا الرجل الذى يقول دوما أنه يكره المسيحيين ورغم ذلك يقوم بحماية تلك المعزة. أجابه العسكرى الضخم بقوله ومن يحب هذا التريمالخيو على الإطلاق إننا جميعا نكرهه. ثم قال إربشن: إنه يخادع وهى أيضًا، فقال الضخم إننا لو تيقنا من أن تريمالخيو مخادع فإن رئيس الشرطة سوف يمنحنا إجازة ، كما أن هنا ما زال خازوقان ينتظران، هل تراهننى على أنه مخادع؟ فجأة ارتعدت تاليا من الخوف إذ قفز الجندى الضخم بسولم أمامها وأغلق الطريق فى وجهها ونظر إلى زميله إربشن الذى انتابته نوبة من الضحك. ثم

ضرب الجندى الأرض بقبضة يده وهو يقول ثلاثة خوازيق يابسولم إنها مجرد عبدة قال ذلك وهو يقهقه ضاحكا. ثم أن بسولم الضخم راح يضع يديه على أجزاء حساسة من جسمه وهو يقول لتاليا عبارات خادشة للحياء. ثم قبض على ذراعى تاليا وحملها بين ذراعيه واختفى بها خلف جدار حائط، فألقى جاب الله صندوق الأدوية وهم بالدفاع عنها ولكن الجندى الآخر إربشن أشهر سيفه فى وجهه وقال له أنت أيها الأسود انتظر فى دورك حتى ينتهى هو، ثم أنا، وأنت بعدى. اختفى الجندى بتاليا لفترة من الوقت خلف الحائط ثم عاد الجندى الضخم دون تاليا وهو يربت على كتف زميله الذى منع جاب الله من التحرك وقال له" إن المرء يستطيع أن يثق بك ثم جرى جاب الله إلى تاليا وأنهضها وهو يبتعد بها عن الجنديين الآثمين. فى قصر نائب الملك وفى تلك الساعة المبكرة من الصباح كان القصر يعج بحركة العبيد جيئة وذهابا. لم تعد حديقة القصر كما كانت ذات يوم جميلة ومليئة بالأزهار، بل أن هناك كانت رائحة كريهة فى أرجاء القصر. ثم أن هناك عبدة ذهبت أمام تاليا إلى أعلى كى تريها مرقد أفرانيا وهى تقول لتاليا استعجلى أيتها الطبيبة إن سيدتى أفرانيا تتألم، ومن على السلم سمعت تاليا: أفرانيا وهى تشتم وتسب قائلة كيف يتأخر عنى هؤلاء البرابرة فى تلك البلاد القذرة البربرية، ليتنى ما أتيت إلى الإسكندرية، ليتنى بقيت فى روما. فوق السلم سألت تاليا

العبدة ذات الشعر الأصفر والعيون الزرقاء قائلة هل أنــت رومانيــة فقالت العبدة: لا بل أنا من بلاد الغال . فقالت لها تاليا: بالمناســبة إن الرومان يطلقون عليكم أنتم أيضًا كلمة برابرة. فنظرت إليها العبــدة بضيق فأجابتها تاليا بقولها: إننى قد اغتصبت، وأنا فى الطريق إلــى هنا من جندى رومانى ألا يكون هذا عملا بربريا وهمجيا؟. فلم تجبها العبدة الغالية وأشارت لها على باب ترقد خلفه أفرانيا. خلف البــاب فتح عبد أفرانيا وخادمها الشخصى الباب مستقبلا تاليا بوجه بشوش.

أما أفرانيا فقد كانت مستلقية على السرير وهى تبكــى وتــصيح وتضرب بقبضة يدها فوق مرتبة السرير، وعندما ســمعت أفرانيــا صوت تاليا وهى تقول لها هل تريدين منومًا كى تستطيعى النــوم أم تريدين وسيلة أخرى منشطة تساعدك على الذهاب خلــف الجنــازة؟ قفزت أفرانيا من سريرها مرتجفة وبحلقت فى تاليا بعينين محمــرتين وصرخت بأعلى ما تملك من قوة قائلة كيف يجرؤ هــذا الحقيــر أن يرسل إلىّ العبدة(تقصد بذلك تاليا)؟ ثم صاحت قائلة: اغربــى عــن وجهى إننى سوف أحضر أطباء العالم جميعهم قبل أن تأتى أنت إلىّ، هيا انصرفى من هنا ولم تكد تكمل أفرانيا شتائمها حتى كانت الخادمة قد جذبت تاليا من ورائها كى تخرجها من الغرفة. فقالت تاليا للــسيدة الرومانية وهى شامتة بها: هل أترك لك العلاج مع الخادمة؟ فلم تلق

منها إجابة بينما سحبتها العبدة خارج غرفة أفرانيا وراحت أفرانيا تقول إن جرمانيكوس سوف يبحث لى عن طبيب آخر.

عادت تاليا إلى المنزل وهى تتألم جسديا ونفسيا. إن ما حدث معها لن يستطيع معالجته الشعب الرومانى كله. أما ليبتينوس فكان يعاملها بصورة سيئة لأتفه الأسباب . فجأة جاء تريمالخيو لزيارة ليبتينوس لقد كان الرجل مشحونًا غضبا وغيظا ووقف بين العيادة والمطبخ. وجاء ليبتينوس كى يستقبل الرجل بابتسامة فاترة غير مرحبة، لقد كان تريمالخيو هذه الليلة مرتديا الزى الرومانى الرسمى وبدا كما لو كان تمثالا رومانيا. وأدركت تاليا بأن اللقاء بين الرجلين لن يكون لقاء وديا فتسللت مقتربة من المكان كى تسمع ما يدور بينهما من حديث. فقال تريمالخيو: أعتقد أنك قد غيرت مخططاتك تمامًا مثلما فعلت أنا أيضًا، فأجابه ليبتينوس موافقا. فقال تريمالخيو دعنا نتحدث فى مكان لا يسمعنا أحد من عبيدك. فأجابه ليبتينوس بقوله كما قلت أنت إن كلاً منا قد غير مخططاته لهذا فإنه لا يوجد بيننا ما نناقشه. فقال تريمالخيو إننى القاضى الأعلى والمعين من قبل القيصر بمدينة الإسكندرية. عندما أريد أن أتحدث إليك فلا بد وأن أتحدث إليك وإذا أردت أن أجعل ذلك بصفة رسمية فإننى سأرسل لك اثنين من الجنود فى الصباح كى يقبضا عليك ويقوداك إلىّ فى قصرى وأحقق معك فيما أريد وكيفما أريد ثم هم تريمالخيو

بالانصراف. لقد حبست تاليا أنفاسها وفى داخلهـا اعتراهـا شـعور بالسعادة والشماتة فى ليبتينوس الذى قال بصوت متلجلج: ولمّ كل هذا إنك لست فى أى شيء من كل هذا هيا تفضل بالدخول. فجـأة بـدا فيلون خارجا من غرفة تاليا التى هى الآن غرفته وقديما كانت تلـك الغرفة ملجأ تريمالخيو ومخدعه معها. فنظر تريمالخيو إلـى فيلـون بفضول. لقد كان عاريا وأخذت الجاسيا تضع له لباسه على جسمه ، حيث أنه لم يكن قد استيقظ تماما. ثم قال ليبتينوس: تفـضل ياتريمـالخيو لندخل معًا إلى صالة الطعام، فتقدم تريمـالخيو بعـد أن حـك أنفـه الغليظة بإصبعيه ثم توقف قائلا " كما إننى آمر العبدة تاليا أن تحضر حديثنا هذا" فوافق ليبتينوس وهو ينظر إلى تاليا بريبة وشك فرفعـت هى كتفيها إلى أعلى لتعلمه بإنها لا تعلم أكثر مما هو يعلـم. ودخـل الثلاثة إلى صالة الطعام ولم يستطع ليبتينوس أن يخفى قلقه وعصبيته حيث عقد ليبتينوس أصابعه ببعضهم وأخذ يأتى بحركات تدل علـى عصبيته. وأخذت ثلاث من الخادمات يحضرن الأطعمة فى الـصالة وبدأ تريمالخيو يتحدث بصوت مهذب لا ينم عن الانفعال. وكأن مـا حدث بينهما قبل ذلك ما كان. ثم أخذ ليبتينوس يشرب النبيـذ داكـن اللون دون أن يمزجه بالمياه وبسرعة تنبئ عن عـصبيته الداخليـة، بينما تريمالخيو قد مزج نبيذه بنفسه بالماء فكان النبيذ مخففا حتـى لا يكاد المرء أن يطلق عليه كلمة نبيذ. لقد شعرت تاليا كما لو كانت فى

استاد الإسكندرية فى يوم الألعاب ويوم الموت الرهيب عندما راحت الرءوس تتدحرج والأجسام تصلب وغيرها يوضع فوق الخــازوق. وبدا ليبتينوس فى هذه اللحظة وكأنـــه تلــك الــسمكة التـــى ســوف يصطادها تريمالخيو. قال تريمالخيو بعد برهـــة مـــن الــصمت:" إن الإمبراطور قد استدعانى إلى روما" ثم أخذ يأكل مما جاء أمامه على منضدة الطعام. ثم قال ليبتينوس أتمنى لك الــسعادة كلهـــا والتوفيـــق ولكنه قال ذلك بلسانه وليس من قلبه، حيث إن قلبه كان يتمنى له أن يهاجمه قراصنة البحر كلهم الذين يملأون منطقة برنيكى. ثم استطرد تريمالخيو قائلا وإننى أنصحك إذا لم تكن تحب البقاء هنا أن تـــذهب أنت إلى روما أيضًا ، إن تراجان يبحث عن أطباء نساء مثل سورانو وتاليا ونظر تريمالخيو إلى تاليا . إنها تدرك أن تريمالخيو الآن فـــى كامل وعيه ولياقته ويقظته. فقال ليبتينوس بغلظة: إننى لم أفكر فـــى الذهاب إلى روما ولا أحب. عند ذلك قال تريمالخيو إن هذه مـــشيئتك ولكننى أود أن أخبرك بأن تراجان الآن يريـــد أن يحيـــى العـــادات الرومانية الأصيلة حيث كانت النساء الرومانيـــات تلـــدن أطفـــالهن بأنفسهن بدلا من أن يشترين الأطفال من أمهاتهن. الآن رومـــا فـــى حاجة إلى فلاسفة ذوى ألسنة بليغة كى يقنعوا نساء روما بأن يلـــدن أطفالهن بأنفسهن. روما فى حاجة إلى أيدى مدربة كى يولدن هـــؤلاء النسوة.

إن روما الآن تريد شعبا رومانيا ولا تريد مهاجرين. إن اليونانيين سوف ينبهرون فى المستقبل القريب من التقدم العلمى الذى ستشهده روما. لم يطق ليبتينوس أن يسمع هذا من تريمالخيو وقال وهو يضرب المنضدة بكأس النبيذ الفارغ: لماذا تخبرنى بهذا كله؟ فقال تريمالخيو: إننى سأخبرك بالبقية عندما ينصرف عبيدك من هنا. فانصرف العبيد دون انتظار أوامر من أحد. عندئذ قال تريمالخيو: إن روما لا تقبل أن يقوم شخص ما بخصى العبيد. إن أحدهم قد وجد اثنان من العبيد السود ملقين فى بحيرة المريوطية وهم ميتون وعندما تم فحصهم تبين لنا أنهم نزفوا حتى الموت. تصبب ليبتينوس عرقا وتلعثم وهو يقول: هل هناك دليل ضدى يقول بإننى قمت بخصيهم؟ فقال تريمالخيو: إن فى رقابهم كانت سلسلة مكتوب عليها اسم تاجر العبيد برنابا. فأجاب ليبتينوس فى سره كيف يكون برنابا بهذا الغباء ويفعل هذا؟ لقد بدا ليبتينوس مثارا وغاضبا وكان المرء يسمع طرق أصابعه على خشب منضدة الطعام من شدة التوتر. ثم قال تريمالخيو أشكرك إن هذا يكفينى الآن. إن غيظ ليبتينوس غدا ظاهرا لا يمكن إخفاؤه حتى أن عضلة عينه اليسرى أخذت تنبض بلا توقف ثم قال ليبتينوس: إننى أرفض اتهاماتك كلها ياتريمالخيو إنك لا تملك أى دليل ضدى. ثم أردف ليبتينوس قائلا : كما أن تاليا لن تستطيع أن تدلى بأى أقوال ضدى. فلما سمع تريمالخيو ذلك ضحك من أعماقه

بصوت مرتفع قائلا هل تعتقد أنك تعلمنى قواعد القانون الرومانى التى هى لعبتى يا ليبتينوس؟ إننى إلى الآن لم أوجه لك اتهاما رسميا ولكن ذلك يقع فى يدك أنت حيث إنك تجعلنى أوجه لك هذا الاتهام أو لا تجعلنى ولكننى إذا اضطررت لذلك فلن أتوانى. فقال ليبتينوس بانفعال: ماذا تريد مني؟ أخبرنى بما تريد! عندئذ جذب تريمالخيو تاليا من يدها إلى جانبه وقال له: أعطِ هذه الفتاة حريتها ودعها وشأنها!! فلم تتحمل تاليا هول هذه المفاجأة فجلست على كرسى بجوارها ثم أخرج تريمالخيو ورقة بردى مكتوبة من طيات ملابسه بينما حملقت بها تاليا، وقال أعطنى خاتمك يا ليبتينوس، فقال ليبتينوس وهو يضع يده على الخاتم حتى لا يأخذه منه أحد، لا لن أعطيك إياه إننى علمتها تعليما عظيمًا إنها لا تقدر بمال، ولماذا تسعى إلى تحريرها يمكنك شراؤها لك أو للقيصر. فقال تريمالخيو: إننى لا أريدها لنفسى وإننى أعرف قيمتها فى كل شيء، ولكننى أريد فقط أن تنال حريتها. فقال ليبتينوس: إننى إن أعطيتها حريتها فسوف تأخذ كل زبائنى، فأجابه تريمالخيو: إنها إن أخذت منك الزبائن فسيبقى لك عاهرات روما وشبابها الشواذ الذين تحبهم. فقال ليبتينوس من الشباب الشواذ والنساء لا أستطيع أن أعيش. قال تريمالخيو: إذا أعطها حريتها، ثم تزوجها. عندئذ حدق ليبتينوس فى وجه تريمالخيو وقال له: هل هذا شرطك الوحيد؟ قال تريمالخيو: نعم. فخلع ليبتينوس خاتمه وأعطاه

لتريمالخيو، عند ذلك راحت تاليا تحلم وهى مفتوحة العينين، بكل من الحرية والطبيبة المشهورة، ومحبتها لدراستها الفلسفية السابقة، ثم حلمت بزيارتها لصيدا مسقط رأسها، لا عبودية بعد اليوم. ثم راح تريمالخيو يعد الخيارات التى رآها لليبتينوس عندما قال له: إما أن تعطيها حريتها، أو المنفى إلى داخيا أو بتنين. فصاح ليبتينوس بقوله يكفى هذا!! ثم أعطاه ختمه وأخذه منه تريمالخيو وضغط به على البردية المكتوب عليها " باسم الإمبراطور تراجان قيصر روما والذى فى عامه الثامن من حكمه ،أعطى جليوس كونيليوس تريمالخيو الموظف القيصرى لروما الحرية للعبدة تاليا ابنة اتينا جروس من منطقة صيدا". ثم وضع تريمالخيو عصا الحرية التى كان تريمالخيو قد لف حولها البردية فوق كتفى تاليا لبرهة من الوقت. ارتعشت تاليا فرحا وذلك لأن الذى عرف طعم العبودية يعرف ما تعنيه الحرية. وعندما أراد تريمالخيو أن يعطى تاليا ورقة البردى التى تشتمل على حريتها، اختطفها منها ليبتينوس وهو يقول بعد الزواج سوف تأخذيها. إن ذلك لا يعنى لتاليا شيئًا سواء أخذت ورقة حريتها الآن أم بعد ذلك وقفزت خارجة من المنزل ووقفت فى صالة الأعمدة وراحت تنظر فى نجوم السماء كى تراها بعين الحرية وتستنشق الهواء أيضًا بأنف الحرية فهى الآن حرة. ثم سمعت أقدام تريمالخيو خلفها فنظرت إليه بالحب كله والعرفان ولم تنطق بكلمة بل أمسكت

بذراعه وقبضت عليه وهز هو رأسه ثم اتجهت إلى المطبخ وخـــرج تريمالخيو ذاهبا إلى بيته. إنها تشتم رائحة شمع خاتم ليبيتينوس فـــى أنفها إنها تشعر بهذا الشمع على بشرتها تمامًا مثل الضجيج الرومانى الذى عايشته فى يوم ثورة الكبش. إن الضجيج يتعالى ويقترب فـــى وسط هذا الضجيج تسمع أصوات قعقعة السلاح إنها تقول لنفـــسها إن ذلك حلم، رائحة عفنة تسود فى الجو. فقالت لنفسها: كُفّى عـــن هـــذا الهراء وجلست فوق سريرها متعبة مرهقة حتى راحت فـــى النـــوم. استيقظت تاليا فى الصباح وما زالت الابتسامة لا تفارقهـــا وراحـــت تبحث عن ليبتينوس فعرفت أنه استيقظ مبكرا كى يـــزور مريـــضا. ولما اتجهت إلى الجزء الخلفى من المنزل رأت الجاسيا تجلس أمـــام غرفة فيلون وهى يقظة العينين، فقالت تاليا لها: هل تجلسين هنا كى تحرسيه؟ هل تعتقدين أنه سوف يسرقه منك أحـــد؟ فقالـــت الجاســـيا بسخرية هل تعتقدين أنك الآن يمكنك أن تأمرين؟ حتى وإن كان ذلك كذلك، فلن أسمح لك بالاقتراب من غرفة فيلون. فقالت لهـــا تاليـــا: وماذا أفعل فى غرفته، إنها لا تهمنى لأننى الآن سيدة المنزل ولـــست فى حاجة إلى تلك الغرفة بمن فيها. فصاحت الجاسيا ساخرة سيدة!!! لاحظت تاليا مدى الغيظ والحقد فى صوت الجاسيا التـــى قالـــت: إن ليس لى إلا سيدان فقط وهما فيلون وليبتينوس. فأجابتها تاليا بقولهـــا اخدمى الرجال كيفما شئت فلن أنازعك فى ذلك حيث إن هناك مكانا

كافيًا لحصيرتك بجوار سرير فيلون إذا السماء أمطرت، أما إذا لم تمطر فيمكنك النوم فى الحديقة حيث بها مكان كافٍ. بعد ذلك فتحت تاليا المكان الذى كان مخصصا للنساء فى العيادة فوجدت به فيلون وقد أعد هذا المكان للعناية بجسمه حيث وضع به كنبة خشبية عريضة كى يرقد عليها عند تدليكه ثم وضع أرففًا على الحائط ووضع فوقها قدورًا تحتوى على زيوت التدليك وما يلزمهما من أدوات أخرى. ثم أخذت تاليا تشم فى قدور الزيت وقالت لنفسها: إن الرجل ذو ذوق سيئ فى روائح هذه الزيوت، فجأة سمعت صوته الأجش خلفها وهو يقول متسائلا: ماذا تفعلين هنا؟ وعندما نظرت تاليا خلفها وجدت فيلون عار تماما. فاغتاظت تاليا من تصرفه هذا وقالت له: إن هنا عيادة للمرضى ولا يسمح لغير المرضى أن يخلعوا ملابسهم، إنه على مايبدو أن ليبتينوس قد نسى أن يخبرك بهذا إن العيادة هنا ليست بحلبة للمصارعة. فأجابها الرجل بوقاحة أى مكان أوجد أنا فيه فهو حلبة للمصارعة ولى الحق أن أفعل به ما أشاء. فقالت تاليا: إذا لن يضيرك ذلك فى شيء عندما نعطيك مكانا خلف المطبخ كى تتدرب به. بعد فترة من الوقت جاء جاب الله وسحب كنبته من هذه الغرفة ووضعها خلف المطبخ فلم ينبث فيلون ببنت شفة ولم يعترض.

بعد ذلك ذهبت تاليا إلى مركز الأبحاث وتقابلت مع صديقها العجوز كرايتس الذى استقبلها مهللا وهو يقول لها: إنك مثار العجب

والإعجاب ياتاليا حيث إن أى مسألة فلسفية لديك لابد وأن تنتهى بكارثة فضحكت تاليا ومدت إليه يديها اللتين سارع العجوز واقتنصهما بسعادة وفرح وهو ينظر إليها بحنان ثم قال : إنك قد تغيرت كثيرًا يا تاليا هذا التغير كله حدث معك فى عام. لقد قمت بعمل خطوات كثيرة، إننى اسميها خطوات ذكية ثم تنهد وهو يقول لها: لو كان لى ابنة لتمنيت أن تكون مثلك. إن على أبيك أثيناجروس أن يكون سعيدا بتربيته لك وفخورًا بك. ثم قالت تاليا لكرايتس: هل تعرف أننى أصبحت حرة؟ فقال الرجل: هكذا دون ثورة دماء!! فقالت له: نعم ربما ثورة المشاعر. ثم قال الرجل: متى ستتركينا؟ فلم تجب تاليا لأنها لا تعرف إجابة لذلك ثم استطردت قائلة: إننى سأتزوج! فقال كرايتس : إنك ستتزوجين ليبتينوس أليس كذلك؟ ففتحت تاليا عينيها وهى متعجبة وقالت له: من أين عرفت ذلك؟ فقال الرجل العجوز : إننى أعتقد أنك ما زالت لا تعرفيننى جيدا ولكننى أعتقد أن شهرة العيادة يرجع الفضل فيها لك أنت ياتاليا وإذا لم يستطع ليبتينوس أن يحتفظ بك عن طريق طوق العبودية فبالطبع عن طريق قيد الزواج وذلك لأنه كطبيب قد يكون طبيبا قويا ولكنه ليس ناجحا كما أن اسمه قد حامت حوله الشبهات فى الفترة الأخيرة. فلا يبقى لإنقاذ اسمه والعيادة سواك. ثم قالت تاليا: هل كنت تعلم ياكرايتس بما حدث بالأمس؟ فقال كرايتس : إننى كنت أعلم به منذ نصف عام وكان يعلم به آخرون غيرى أيضًا. فقط أنت التى كنت آخر من يعلم.

ثم قطب عن حاجبيه وأزاح لها مقعدا كي تجلس عليه وبعد أن جلست تاليا ، قال كرايتس أعتقد أنه لم تكن لديك أى مشاكل فلسفية بقدر ما كنت تودين أن تصطادينى، أليس كذلك؟ ثم قال: الآن لقد بدا المساء يتحرك بسرعة وراحت صورة الفنار والأسوار تنعكس به وهى تتحرك مع تحرك المياه.ثم قالت تاليا متسائلة: ما الذى يحرك قاضى القضاة الرومانى كى يصر على تحريرى وتزويجى من ليبتينوس؟ فقال كرايتس العجوز مجيبا على سؤال تاليا: إن السبب هو أفرانيا أجريكولا! إن تريمالخيو كان يكره هذه المرأة بشدة وكان يفعل كل شىء من أجل أن يجرح مشاعرها. ولقد أراد بزواجك من ليبتينوس أن يصيبها فى مقتل. إن كثيرين يعتقدون بأنها السبب وراء خسارته المادية، علما بأن الذى دبر هذا كان هو نائب الملك. تنهدت تاليا بعمق وقالت: إن المصريين يقولون" إن من يقتل فسوف يرسل الرب إليه من يقتله" ومن يأمر بإنهاء حياة إنسان فإنه يأمر فى الوقت نفسه بإنهاء حياته هو. وإذا كنت تعتقد بأن زواج ليبتينوس هو انتقام قاضى القضاة من أفرانيا إذا فإن مقتل نائب الملك هو انتقام الرب منه لما فعله بقاضى القضاة" ثم قالت تاليا تخبر كرايتس عن تجربتها الليلية بالقنال وما حدث معها هى وجاب الله ثم قالت لكرايتس : إنها تعتقد بأن الجندى الرومانى الذى حذرها هى وجاب الله بالابتعاد عن القنال ربما يكون مرسل من قبل تريمالخيو لكى يعطى الفرصة للفينيقيين لكى يقوموا بفعلتهم أى قتل نائب الملك. فتحولت عينى كرايتس حتى

أصبحت زرقتها مثل زرقة البحر عند هبوب العاصفة. ثم قال لتاليـــا إن الإسكندر الأكبر لا يحب أن نتحدث عن الموت والقتل فى مكانـــه المقدس هذا فلنغير هذا الموضوع. فقالت تاليا وهى تكمل حديثها أمام كرايتس قائلة: ثم أن هناك شيئًا آخر لابد وأن أخبرك به وهو أنه فى ليلة الاحتفال بالأطباء لم يكن أحد يهتم برأيى عن موضوع الكـــوليرا غيرك أنت والطبيب كريسنس وهذا قد أخبرته بـــأننى تحـــدثت مـــع السيدة هيبارشيا وطلبت منها أن تحذر جيرانها كى لا يـــشربوا مـــن المياه الملوثة هذه حيث كانت هذه السيدة عاقلة وتستطيع أن تؤثر فى سكان الشارع الذى تسكن به أكثر منى. ولكن المرأة بعد ذلـــك قـــد أغرقها شخص ما فى القنال التى لا يصل عمقها إلى ركبة المرء. ثم قال كرايتس ومن الذى أغرقها؟ فأجابت تاليا لا أدري! فى الواقع فإن قاضى القضاة عادة ما يرسل جواسيسه فى كل مكان ولكن لا أعرف إذا كان ولابد له من أن يتلقى الأوامر من رومـــا أم لا كـــى يرســـل هؤلاء الجواسيس هنا أو هناك؟ على أية حـــال أرجـــو أن تـــساعدنا الآلهة فى الفترة القادمة. ثم قالت تاليا: ربما لا تكون الفترة القادمـــة سيئة كما يعتقد الناس، كما أن تريمالخيو سوف يعود إلى روما فـــى الفترة القادمة. فقال كرايتس مغتاظا: إننى فى الواقع لا أدرى لمـــاذا أجبر ليبتينوس على الزواج منك؟ هل لكى يكون بجوار أفرانيا فـــى روما ويحضر بنفسه كل ما سوف تعانيه أم ماذا؟ فقالت تاليا: إننـــى كلما اتجهت إلى مكان وجدت به إما عفريتا أو ميدوزا(شكل خرافـــى

مخيف) إننى أتساءل لماذا أتيت إليك هنا، إننى أتيت فى الواقع لكـــى أقول لك فقط إننى سعيدة سعادة لا توصف. فقــال كــرايتس وهــو حزين: نعم ياتاليا ولكننى دائما ما أستطيع أن أحزنك وأضايقك ربمــا يرجع هذا إلى الطقس السيئ. فأمسكت تاليا بيديه المليئـــة بــالعروق الزرقاء وقالت له: لا يا كرايتس إنه ليس بالطقس. ثم ربتت على يديه وانصرفت بينما وقف هو فى النافذة وودعها بإشارة من يــده. فــى طريقها إلى العيادة كانت سعيدة وأخذت تغنى أغنية العــودة الــسالمة إلى الوطن ثم عادت وصححت نفسها قائلة لا ليس الــوطن وعــادت مرة أخرى قائلة: بلى الوطن لأن العيادة هى منزلى ومكان أســتريح به. وقبل أن تصل البيت رأت فيرنيرو وألجاسيا واقفتين أمام المنزل تتهامسان فأطلقت صافرة قوية من شفتيها ودخلت المنزل وهى سعيدة ورأت ليبتينوس واقفا على أعلى درجات السلم منتظرا إياهــا وهــو سعيد أيضًا. قال تريمالخيو وهو فرح لتاليا: إن قاضى القضاة سوف يفرح كثيرًا عندما يعلم أننى سوف أفعل ما لم يرد أن أفعله. فحملقت تاليا بالطبيب تمامًا مثلما يحملق الأرنب الضعيف فى الثعبان الشرس القوى قبل أن يلتهمه، ثم قالت وماذا سوف تفعــل؟ فقــال ليبتينــوس سعيدا إلى روما! فقالت تاليا: إنك سوف تذهب إلى رومــا وســقطت على الدرجة العليا من درجات السلم.

الفصل السادس عشر

سفينة الغلال

فقالت تاليا: والعيادة والمرضى وكل ما تملك هنا، هل ستلقى بكل شيء وتذهب إلى روما؟ فنظر ليبتينوس، نظرة غير مبالية وقال لها : إننى فى حاجة إلى مرضى جدد وأماكن ليس بها أطباء كثيرون. كما أننى فى حاجة إلى تجارب جديدة. فقالت له تاليا إنك تريد مغادرة الإسكندرية ربما لأن الأطباء الآخرين قد عرفوا بخبر عمليات الخصى غير الشرعية التى كنت تقوم بها. فنظر إلى تاليا من أسفل وهو يقول لها بلهجة عدائية سخيفة لا تعتادى على أن تسألينى أى أسئلة لأننى لن أعطيك أية إجابة وهذا ليس من حقك. فقالت له تاليا إننى أسألك شيئًا ولكننى وددت فقط أن أعرف الأسباب التى دفعتك أن تتخذ هذه الخطوة؟ فقال ليبتينوس : إن هناك كثيرًا من الأسباب التى تدعونى لترك الإسكندرية ، انظرى إلى كم الجنود حولك وفجأة نظر ليبتينوس حوله وكأنه تذكر شيئًا ما واتجه مسرعا إلى المطبخ. فقالت تاليا: أما من جهة الجنود الواقفين فى كل مكان فمعه حق لأنهم بالفعل عبء ثقيل سواء كانوا أعداء أم أفراد أمن فكلاهما يسيء استغلال دوره إن المدينة الوحيدة التى لا يخشى فيها المرء الجنود هى روما.

عاد ليبتينوس من المطبخ وهو يقول: هل رأيتِ فيلون؟ فهزت تاليا رأسها بالنفى ، فقال ليبتينوس: لا يهم إننى سوف أجـده. ثـم قـال ليبتينوس لتاليا جهزى حاجاتنا سوف نرحل من هنا خلال ثلاثة أيـام وسوف أتحدث مع فيلون بخصوص مصالحه. فأمسكت تاليا بذراعـه وهى ترتعش، وقالت له فى الحقيقة إنك لا تريدنى زوجة وأنت تعلـم ذلك جيدا. فلماذا لا تذهب أنت وحدك إلـى رومـا وتتركنـى هنـا بالإسكندرية وسأتولى شئون العيادة فإن ذلك أفضل لك مـن الناحيـة المادية، فانتابته موجة من الضحك الهستيرى الساخر وقال لها هـل تودين أن تخدعينى أنا؟ هل تريدين أن تصبحى حرة وصاحبة عيادة؟ أما أنا فأقبع فى عيادة فى قرية على حدود روما ولا يزور عيـادتى أحد!! لا وألف لا، إننا سوف نسافر إلى روما معـا ونفـتح عيـادة مشتركة ونطلق عليها اسم " عيادة ليبتينوس وتاليا السكندريين للطـب التجريبي" تأملته تاليا وهى لا تفهمه فهو يخطط كل هـذه الخطـط المستقبلية المشتركة بينهما وفى ذات الوقت يكرهها كرهـا عظيمًـا، ولماذا يكرهها وماذا فعلت هى له فهى لا تدرى إجابـة علـى هـذه الأسئلة؟

دخلت تاليا غرفة انتظار المرضى بينما اتجه هو خلـف مطـبخ المنزل يبحث عن فيلون. فى غرفة الانتظار كانت تجلس ثلاث نساء مصريات بجوار بعضهن بعضًا وهن يتهامسن، إحدى هؤلاء النـسوة

تذكرتها تاليا فهى أم الطفل الذى كان يعانى بعض الحروق فى جسمه. فقالت لهن تاليا وهى تبدى وجها متأسفا " إننا نعتذر لأننا لا نستطيع علاجكم لأننا سنسافر ونترك مصر لأن الإمبراطور فى روما قد استدعانا". امتعضت السيدة الأكبر سنا ونهضت واقفة تهم بالانصراف أما إحداهن فقد أخذت تتفحص تاليا وتتأملها، بينما أخذت تاليا تنظر إليها أيضًا. لقد كانت المرأة ذات أهداب طويلة وكثيفة، ووجناها عريضتان وعظامها بارزتان ، كما كانت المرأة ذات وشم ضد آلام الأسنان. لقد كانت المرأة صغيرة ونحيلة كبقية النساء المصريات، إنها كانت أكثر نحافة من تاليا. لقد بدأت هذه المرأة تهز رأسها أكثر من مرة وهى تردد قائلة " إن فيرنيرو مخطئة، إنها ليست محقة: إن نظراتك جميلة وليست سيئة. إنك لست السبب فى وفاة تيل بتاح، إن نيوتخته محقة فى أنك طبيبة عظيمة. أرجو أن تحميكِ الإلهة الثعبان والإلهه بوتو".

ثم نظرت تاليا إلى قنينة الألبستر والتى وضعت بها زيت اللافندل كى تنطلق منه رائحته الجميلة وأخذتها كى تضعها فى حاجياتها التى ستسافر بها إلى روما. ثم أخذت ورقة البردى التى دسها فى يدها أحدهم فى مدرسة العبيد فى أثناء زيارتها لها. أخذت هذه البردية واتجهت إلى مركز الأبحاث وهى تقول: إن ما فى ورقة البردى لغز صعب، لربما استطاع الفلاسفة حله. وبمجرد أن أمسك كرايتس

بالورقة قال إنها ليست صعبة إنك تحتاجين فقط أن تهتمــي أكثــر بالعلوم المصرية. ثم أعطى كرايتس الورقــة لبنتــانوس الــذى راح يقرأها بعناية، ثم قال: إنها تتحدث عن محكمة المــوتى أمــام الإلــه أوزوريس، حيث يوزن فى هذه المحكمة قلب المتوفى حتى يتحقــق للآلهة إن كان هذا الرجل مذنب أم لا ؟ ثم قالت تاليا: إن هذه البردية لهى تتحدث فقط عن تريمالخيو قاضى القضاة. عندئذ قال كرايتس إن المصرى يحذرك فقط من جواسيس تريمالخيو الرومانى ليس أكثــر. فقالت تاليا: إن كل شيء متأخر الآن ياكرايتس لأن ليبتينوس ســوف يسافر إلى روما وأنا معه حيث أغراه تريمالخيو بذلك. فقال كرايتس أخشى أن تكونى أنت الطعم ياتاليا ، أما تريمالخيو فيجب على المرء أن يرسله للعمل فى مناجم الفضة بأثينا فهذا ما أتمناه له. إن الأمــن والسلام فى روما سوف يغوصان فى الأرض فى شق عميق ويبقيان هناك بضعة آلاف من السنين تمامًا مثل رؤية مدينة دلفى التى غدت مثل التمثال الحى. ولسوف يأتى عندئذ كهنة وقياصرة يحاولون إعادة الأمن والسلام فى روما من جديد . إن الغريب فى الأمر أن هنــاك كثيرًا من الناس ممن يؤمنون بهذه النبوءة ويذهبون إلى العرافين كى يسألوهم عنها، وكلما كثر البشر الذين يسألون عن النبــوءة ارتفعــت أسعار الكهنة والعرافين.

ثم قالت تاليا محذرة: كيف تتحدثون عن هذه الأشياء فى مركـــز الأبحاث ماذا ستفعلون إذا سمعكم الرومان؟ فقال كرايتس ممازحا: هل أحضرت جواسيس روما معك؟ فقالت تاليا ممازحة أيضًا: لا تخيفهم. عندئذ انحنى بنتانوس وأمسك بها وقال لها يـــاعزيزتى: إن هــؤلاء الجواسيس ليسوا بأقل خطرا من الحياة مع ليبتينوس. فقال كـــرايتس يخاطب بنتانوس: لا تخف تاليا، إن ليبتينوس قد اعتاد وتدرب علـــى العوم والتسلق بانتظام ، فهو يعوم دائما مع التيار والتسلق على ظهر الآخرين ثم أردف كرايتس قائلا: أرجو أن تحافظى على نفسك ياتاليا. فقالت تاليا: إننى لم أكن أعرف أنك تستطيع التحكيم فى كثيـــر مـــن رياضات المصارعة. بينما أخذ بنتانوس يتأمل كرايتس وكأنه اكتشف به شيئًا جديدا. فتنهدت تاليا بحسرة وهى تقول: إن حيـــاتى الـــسابقة بالإسكندرية كعبدة تبدو أمامى مثل شاهد قبر قد وضع فـــى مقبـــرة وظل فى مكانه يراقب السكون. فقال كرايتس: إنك خلقت لمـــا هـــو أفضل من ذلك، إنك خلقت كى تجلسى فوق ظهر دولفـــين أو لكـــى تكونى أميرة اللصوص فى الـــدلتا أو لأن تكـــونى المكتـــشفة لقـــادة أطلانطا مثلا. ضحكت تاليا من قلبها وبصوت مرتفع ثم قالت لهمـــا: إننى لست بهذه العظمة كما تـــرون إن زواجـــى مـــا هـــو إلا زواج صورى وتمثيلية قذرة. ثم ضحك كرايتس وهو يقول لتاليـــا: إننـــا لا ندرى إلى أين تحملك آلهة القدر ياتاليا؟ ثم قال بنتانوس: إننا قد عملنا

مكتبة صغيرة متنقلة لك يا تاليا ثم مد كرايتس يــده فــى درج مــن أدراجه وأخرج منه كيسا من الجلد مليئًا بــأوراق ولفــائف البــردى وأفرغه أمام تاليا وقال لها: إن هذا كله ملك لك ياتاليا.

لمعت عينا تاليا فــرحة وهى ترى اسم ســورانو علـــى لفــائف البردى ثم اسم هيرفيلوس وكذلك اسم أرسراتس واسم أنتيلــوس ثــم قالت: إننى لا أدرى كيف أشكركم. فقال كرايتس إنك أسعدتنا طــوال العام ياتاليا وقدمت لنا كثيرًا من السعادة التى هى كثيرة على أمثالنــا من كبار السن. ثم ودعتهم تاليا وهى تعانقهم للمرة الأخيرة ، وقــال كرايتس لها: إننى سأرسل معك عبدين من المركز كــى لا يقــبض عليك جنود الرومان بتهمة سرقة كنوز المركز فــى حــين أنهــم لا يعرفون قيمة هذه الكنوز.

لقد أخذ قلب تاليا يدق بعنف عندما صعدت تاليا السفينة المحملــة بالغلال والمتجهة إلى روما، بينما راح عبيد ليبتينوس يحملون قطــع الأثاث وهم صامتون حزانى وذلــك لأنهــم لايعرفــون مــستقبلهم ومصيرهم لأن ليبتينوس قد أعادهم جميعا إلى برنابا تــاجر العبيــد الذى سوف يبيعهم مرة أخرى لمشتر جديد. إن العبد الوحيــد الــذى صعب على تاليا هو جاب الله وقد تحدثت تاليا مع ليبتينــوس بــشأنه كى يأخذاه معهما إلى روما ولكن ليبتينوس رفض ذلك. نظرت تاليــا بحزن إلى جاب الله بينما راحت الباخرة تبتعد فى البحــر وأمــسكت تاليا بأحبال الباخرة كى تسند نفسها عليها حيث إنها لم تسافر قبل ذلك بمثل هذه الباخرة .

إن تجربتها الوحيدة مع البواخر كانت كابوسًا رهيبًا، إنهـا تـشبه رحلتها إلى روما بالهروب من الإسكندرية. ولكنها قالت تعزى نفسها إنها الآن فوق سطح الباخرة كامرأة حرة وطبيبـة وامـرأة طبيـب مشهور بالإسكندرية فلا يجب أن تكون حزينة. إن الذين كانوا فـوق الباخرة معظمهم من التجار والرومـان واليونـانيين والقليـل مـن المصريين كما كان فوق الباخرة عدد كبير من العبيد الـسود. وراح أحد المسئولين فوق الباخرة يرى الركاب كبائنهم كى يـدخلوا إليهـا. فجأة سمعت تاليا أحد الأشخاص وهو يقول: إن الطبيـب ليبتينـوس معنا على الباخرة إن ذلك لشيء جميل ولم يعطِ ليبتينوس انطباعا بأنه فرح لمقابلة الرجل بل قال باقتضاب مرحبا يـا لكتوكيـوس. ولـم يتحدث ثانية فقال الرجل وهو يسخر من ليبتينوس: لا تكن سيئًا هكذا ياصديقى إننا فى مدينة عائمة ويجب علينا أن يساعد كل منا الآخـر حتى تستطيع أن تجد كابينتك. ثم نظر الرجل الرومانى إلى تاليا وقال آه ومن هنا يا ليبتينوس أليست تلك هى العبدة التى أثـارت جميلتنـا أفرانيا وأغضبتها، وابتسم الرجل بفم واسع مظهرا أسنانا قبيحة. ثـم قال: فى الواقع إن المرء عندما ينظر إليها من الجانـب يـرى أنهـا جميلة. ثم مد الرجل الرومانى يده إلى صدر تاليا فأزاحت تاليا يـده بضيق وقال ليبتينوس له: إنها الآن زوجتى . عندئذ سحب الرجل يده وهو يقول لليبتينوس: ولكن كيف تفعل هذا يا ليبتينوس؟ أتتخـذ مـن

عبدتك زوجة؟ إنك لست فى حاجة إلى ذلك، كما أنك فى روما تستطيع كل يوم أن تحصل على كثير من النساء فكما تعرف أن روما لا تعرف الأخلاق، وراح يضحك بقذارة ثم ارتفع الضجيج والصياح فوق الباخرة وقال الرجل إنه ليس بالوقت المناسب كى نقف ونتسامر ثم انصرف، فقالت تاليا إن هذا الشخص غير مريح إنه من الأفضل أن يربط فوق سطح الباخرة ويترك هناك حتى لا يضايقنا مرة أخرى ، أما ليبتينوس فقد أخذ يراقب العبيد وهم يضعون أمتعته هو وتاليا فى أماكنها بالباخرة. ثم قال ليبتينوس إن هذا الرجل يعيش من صنع وتجارة الخيام كما أنه يتاجر فى المنازل أيضًا، فجأة انطلق طرق الطبول مرة أخرى يعلن ابتعاد الباخرة عن الميناء، ثم صاحت تاليا تسأل جاب الله هل ستعتنى بفيرنيرو فقال لها إنها حزينة جدا لرحيل سيدنا ليبتينوس ولكننى سأحاول ذلك ثم قال جاب الله هل ستعودين قريبا يا سيدتي؟ فأجابت تاليا لا أعرف ولكننى فى الإسكندرية لم أكن سوى عبدة مثلك تمامًا فقال جاب الله لا لم تكونى قط عبدة ياسيدتى تاليا.. ابتعد جاب الله عن الباخرة والباخرة عن جاب الله أيضًا وجلست تاليا على ما يشبه المصطبة الخشبية فوق الباخرة، كما كان كثير من يجلسون على الأرض حولها.

وكلما أصغت تاليا ما حولها من خليط بشرى كانت تسمع مختلف اللغات يتحدث بها عديد من الأجناس وكلهم يقصدون روما. لحظات

قصيرة بعد ذلك سمعت تاليا صوت احتكاك وارتطام فقالت للفتاة التى كانت بجوارها أن تنظر إلى حاجياتها حتى تعود وصعدت تاليا السلم إلى أعلى كى تنظر ما يحدث.

لم تر تاليا ما يثير مخاوفها ولكنها قلقة حيث إنها لم تعد ترى ليبتينوس إنه قال لها يجب أن تبقى فى الطابق السفلى ولكنه منذ ذلك لم يعد فهى قلقة بشأنه وأخذت تنظر إليه علها تراه. ولكنها من فوق سطح السفينة رأت جزيرة فاروس بالفنار وفوقهم تمثال بوسيدون العظيم الذى يبدو أعظم وأجمل من معبده. إن تاليا تتذكر هذا التمثال مع أسوأ ذكريات حياتها عندما جاءت مدينة الإسكندرية كعبدة فى حالة مزرية إنها فى قرارة نفسها تكره بوسيدون. وفى لحظة مباغتة وهى تضم قبضتها وتصيح بأعلى صوتها أنت يابسيدون فلتسقط إلى الأبد حتى لا تقوم لك قائمة بسبب ما تفعله أنت والرومان البرابرة بالبشر غير المذنبين. عندئذ شعرت بيد صلبة قد قبضت على معصمها وصوت مدوى يقول لها أيتها المرأة إنك لن تسبى الآلهة فوق باخرتى هذه فلما نظرت تاليا وجدت رجلا ضخما خلفها. كما تجمع كثيرون من المسافرين الرومان وهم يستنكرون ما فعلته تاليا قائلين لا يجب سب الآلهة وبصفة خاصة فى مكان مثل هذا فى عرض البحر، حيث إننا فى حاجة إلى حمايته. فقال أحد الرجال لتاليا هل تريدين أن تغرق السفينة ومن عليها؟ فقالت تاليا بالطبع لا

ولكننى لى حساب قديم مع الإله بوسيدون. ثم صاح نبيل رومانى بقوله: "يا هيرون ألقِ بهذه المجنونة فى البحر!! فقال هيرون مجيبا تحت أمرك يا سيدى ولكن أكتب لى هذا الأمر على ورقة بردى وأختمها بخاتمك وسوف أقوم بتنفيذ ذلك.

حبست تاليا أنفاسها من الخوف حيث اعتقدت أنها فى تلك اللحظة لابد لها وأن تبحث بالعقل عن دولفين كى تعتلى ظهره. فى لحظة ظهر ليبتينوس وهو يقول: أيها السيناتور المبجل سيد هذه الباخرة إنها لم تقصد أن تسب الإله بوسيدون بالفعل ولكنها طبيبة أمراض نساء وكلما كانت فى رحلاتها فوق الباخرة وأرادت أن تولد امرأة أرسل الإله بوسيدون العواصف والأمواج العاتية وهذا ليس جميلا وبالذات فى لحظات الولادة فأرجو أن تقبل عذرها، كما أن جميع الصبية التى ولدتهم قد سموا جميعا بوسيدون. فابتسم الرجل الرومانى النبيل وكذلك بقية الرومان الذين كانوا على الباخرة بعد أن اقتنعوا بكلام ليبتينوس وأزيلت عاصفة التوتر. ثم أن هيرون قد ترك رقبة تاليا ولم يلقها فى البحر ثم قال ليبتينوس لتاليا: " كفى عن الهراء وكفى عن أن تخلقى لنا المشاكل فى كل مكان" وراح الركاب الجدد يتسامر كل منهم مع الآخر. ثم قالت تاليا لليبتينوس: إن ذلك كان حسنا منه أن جاء فى تلك اللحظة الحاسمة وأنقذ حياتها. فقال ليبتينوس إننى كنت بالصدفة أتحدث مع لاكتوكيوس كى أعرف منه الأشخاص

المهمين فوق الباخرة وقد عرفت منه أن هذا الرجل وزوجته مهمان جدا لأنه عضو فى السناتور كما أن تريمالخيو فوق الباخرة أيضًا. فقالت له تاليا: لك أن تعلم أن زوجة السناتور هذه لهى زوجته الخامسة وهى حبلى على وشك الولادة. ثم أردفت تاليا قائلة: يا آلهتى ديمتر ساعدينى كى نصل بسرعة إلى روما إننى أكره هذا البوسيدون إن اسمه لحقير مثله. بينما فكر ليبتينوس فى سره وهو يقول يا إلهى ميتراس: لا تدع أحدًا يلد فوق الباخرة فإننى لست مستعدا للمساعدة. ثم أن تاليا سمعت بنصيحة ليبتينوس أن تبقى فى الجزء السفلى من المركب ولا تصعد على السطح اتقاءً للمشاكل كما أخبرها حيث إن نظراتها كفيلة أن تسبب المشاكل فى كل مكان. وأخذت تاليا تسلى وقتها بأن راحت تقرأ فى لفائف البردى التى كانت فى حوزتها. أما عندما راحت الشمس توشك على الغروب فإن تاليا تسلقت إلى أعلى الباخرة فوق السطح وراحت تسمع ما يقوله ربان السفينة مع بقية البحارة وكم من الأيام متبقية أمامهم حتى يصلوا إلى روما. عندئذ جاء السناتور وأمر هيرون بأن يبحر ضد الرياح تجاه روما فرفض الربان ذلك وحدث نقاش حاد بين الاثنين. قال الربان: أيها السناتور إن التجديف ضد هذه الرياح العاتية لا يحركنا سنتيمترا واحدا للأمام إنها طاقة مهدرة، وصاح السناتور ولكننى أريد الذهاب إلى روما كما إننى لا أحب أن تتوقف السفينة فى عرض البحر هكذا أو الرياح

تلعب بالسفينة وبينما جلست تاليا أسفل عمود إضاءة ولم تجرؤ على أن تتحرك خوفا أن يراها أحد. ثم صاح السناتور إنك لابد وأن تتخذ قرارا ياهيرون بينما قال بريميوس ريجيليوس لاكتوكيوس إن كثيرين من ركاب السفينة يريدون أن نقدم قربانا للإله بوسيدون، فبالت تاليا على نفسها من الفزع والخوف. فقال السناتور: إن معهم حقًا أفعلوا ما ترونه صائبا. ثم تحدث السناتور بصوت منخفض وحاولت تاليا أن تسمع ما يقوله، ثم سمعت صوت يقول: إننى ضد أن تقدموا هذه المرأة كأضحية للإله بوسيدون أرجو أن تقرروا شيئًا آخر، ثم قال هيرون: نعم ياسيدى السناتور إننا سوف نتجه قليلا إلى الشرق تقريبا تجاه جزيرة كريت إن ذلك ناحية مصر مرة أخرى ، لما سمعت تاليا ذلك شعرت بأن شعر رأسها يقف من شدة الإثارة والخوف، وفكرت تاليا فى نفسها لربما أن الإله بوسيدون قد أراد أن يضع القابلة والأم فى موقف حرج. ثم إن تاليا أخذت بعضًا من رمال البحر وذرتها فوق بولها حتى لا يراه أحد بينما أغلقت أنفها بإصبعيها حتى لا تشتم ما فعلته بنفسها وابتعدت عن المكان. فإذا بصوت معروف لديها يقول:" مرحبا بك أيها المنقذ" نعم إنه صوت تريمالخيو الذى كان يخاطب لاكتوكيوس الذى قال له معذرة يا سيدى القاضى، إننى كنت أفكر فى شىء آخر حيث إننى كنت أفكر فى كيفية تسيير أعمالى فى حالة لو أن الرياح حالت بينى وبين روما لفترات أطول. ثم قال

لاكتوكيوس متسائلا: إننى سمعت أن أعمالك قد ساءت وخسرت يـــا سيدى القاضى، فضحك تريمالخيو بصوت مرتفع. ثم سأله تريمالخيو وأعمالك أنت؟ فأجاب الرجل إننى دائما ما أجدد أعمـــالى وأطورهـــا حسب احتياجات روما ولكننى لا أفكر أن بيتا لى بالإســـكندرية قـــد انهار وسبب لى خسارة كبيرة. فقال تريمالخيو: نعم إن صناعة الخيام لهى أكثر بساطة من بناء المنازل فأجابه لاكتوكيوس: نعم ولكن تلك المنازل أبنيها للإيجار بعيدا عن روما. فقال لـــه تريمـــالخيو: إنـــك محظوظ لو كنت موجودا بالإسكندرية لقمت بـــالتحقيق معـــك بهـــذا الشأن، لأن الرومان لا يذهبون إلـــى الإســـكندرية كـــى يـــضيروا الآخرين. فقال الرجل لتريمالخيو: وأنت ياسيدى القاضى هل تبتعـــد عن الإسكندرية كى تتجنب الشكاوى والتحقيقات؟ لقد أخذت تاليا تتابع تصنتها على حوار الرجلين ، حتى أنه يخيل لتاليا أن تريمالخيو قـــد ضرب الرجل ذا الرقبة الطويلة بالقلم وبينما ســـمعت تاليـــا صـــوت لوكتوكيوس وهو يحـــاول أن يهدئ من تريمالخيو قائلا : إهـــدأ يـــا سيدى لا تنفعل ثم قال الرجل: إننى يا سيدى أعتقد لو أن الفتاة تاليـــا كانت محقة فكان يجب عليك أن تحقق مع الضباط المسئولين، لأنهـــم لم يقوموا بتنظيف القنوات كما يجب إننى سمعت كثيرًا من الإشاعات فى البيوت الرومانية. فأجابه تريمالخيو: فى الحقيقة فإننى ســـوف أكـــافئ الضباط لعدم تنظيفهم القنوات لأن الشعب المصرى لا يدفع الضرائب

كما أنهم لا يصنعون شيئا، وفوق كل هذا يريدون أن يكون لهم الحق فى الغلال مثلهم مثل المواطن الرومانى. ثم قال الرجل: إننى أرى أن مقتل نائب الملك لهو شىء غريب، إن تلك الطريقة من الموت كان يقوم بها السود فى إفريقيا فقط مع القرود ثم يقومون بتحميرها وأكلها. إن هذا الموت بالطبع سوف يعطى لأفرانيا كثيرًا من الموضوعات التى سوف تتحدث عنها، وبالطبع سوف تخبر الرومان بهذا الموت وبالإضافة إلى ذلك سوف تخترع كثيرًا من الحكايات عليها، ثم قال لاكتوكيوس: ولكننى أتعجب من الشعب المصرى هذا إنه لا يفعل شيئًا سوى أن يعيش ويموت وفى كلتا الحالتين فإننى أكسب، ومن هنا فإننى سوف أرفع إيجارات منازلى. ورغم ذلك فإن الشعب المصرى يتكاثر ويزيد ولا يقل رغم الكوليرا وغيرها من الأمراض الأخرى. فقال تريمالخيو: وما العجيب فى ذلك فإنهم منذ أن شق لهم الرومان الترع والقنوات وهم يجنون أضعاف ماكانوا يجنونه قبل ذلك من محصول البصل وعندما يصبحون كسالى ولا يريدون أن يعملوا فى الحقول فإنهم يأتون إلى المدينة كى يستمتعوا برفاهية المدينة. ثم فكر الرجل برهة وقال لتريمالخيو: لماذا لا تحقق مع هذه الفتاة السكندرية التى تتهم الرومان بأنهم السبب فى الكوليرا؟ فقال له قاضى القضاة: هل تعلم أنها معنا هنا على هذه الباخرة؟ فقال الرجل نعم ولكنها حرة ومتزوجة من طبيب يونانى يسمى ليبتينوس. وهو ذو

علاقة مميزة بالسيدة الرومانية أفرانيا، ثم قال: إنها مسافرة إلى روما وليبتينوس مسافر إلى روما وأنت مسافر إلى روما وأنا مسافر إلى روما حتى الفتاة تاليا مروجة الإشاعات مسافرة إلى روما أيضا. ولكننى سوف أراقبها فى روما ولن أتركها تغيب عن عينى. لقد شعرت تاليا فى مخبئها بالرعشة والخوف . لقد كانت تعتقد أن هذه المنغصات كلها قد تركتها خلفها فى الإسكندرية ولكنها فى الواقع قد أخذت هذه المنغصات كلها معها إلى روما.

فى منتصف الليل بدأت زوجة السناتور تعانى مخاض الولادة وآلامها، وبالطبع وقفت العبدة السوداء خادمة السناتور وزوجته أمام تاليا تحثها وتستعجلها كى تذهب إلى زوجة السناتور فى ذلك الوقت كان ليبتينوس نائما ولم يكن يحب أن يستيقظ لمثل تلك الحالات فهو غير مختص بحالات الولادة. إن كل أدواتها التى تحتاجها قد أعدتها وهى الآن فى يدها سواء الزيوت أم إبرة الخياطة والخيط اللازم لذلك، كذلك الآلة التى تفتح بها فرج السيدة التى تلد. ثم اتجهت تاليا والخادمة إلى أسفل وهم يمرون وسط الأسرة التى يرقد عليها النائمون.

وعندما وصلت تاليا إلى السناتور الرومانى حيته تاليا بتحية طيبة فرد عليها التحية وهو مختبئ خائف من تحركات الباخرة العنيفة. ونظرت إلى زوجته التى تلد فتوقعت تاليا أنها تقريبا فى الثالثة عشرة

من عمرها وهو على أقل تقدير فى سن جدها. ثم قالـــت لـــه تاليـــا: أرجو أن تطلب لك بعض النبيذ كى تـــستطيع أن تقـــضى اليـــومين القادمين فى هدوء وسكينة. فقال الرجل: هل تعتقدين بـــأن توليـــدها سوف يستغرق كل هذا الوقت؟ فقالت تاليا لا أدرى فسوف نرى.

وضع الرجل العجوز عباءته المطرزة بخيوط الذهب على كتفـــه وخرج من الكابينة دون أن يقول أى كلمة طيبة لزوجتـــه الـــصغيرة وتركها وحدها مع تاليا؟. لم يكد الرجل يخرج من الباب حتى سقطت الزوجة الصغيرة على الأرض أمام سريرها وراحت تبكـــى وهـــى تقول:" إن الموت بالنسبة لى ليس عقابا ولا أخافه بل إننى أتمنـــاه لا أحب الحياة بهذه الطريقة." احتضنتها تاليا وراحت تهدئ من روعها وهى تقول لها: " أرجو أن تعيشى طويلا قبل أن تموتى فأنت مازلت صغيرة" فقالت المرأة الرومانية الصغيرة: " إن الكاهن قـــد وعـــدنى السعادة فى القرب من الآلهة وليس الحياة". ثم سألت المـــرأة تاليـــا قائلة: هل أنت فعلا قابلة؟ فأجابتهـــا تاليـــا نعم: أنا كذلك. ثم قالـــت تاليا: والآن آخبرينى باسمك وهل تشعرين الآن بآلام؟ فقالت المـــرأة: اسمى كورينا سيكوندا نعم أشعر بآلام لهذا أرسل ماكسيمو فى طلبـــك إنه زوجى. ثم قالت تاليا: هل تستطيع أن تحصل على ميـــاه ســـاخنة هنا؟ قالت المرأة نعم! ثم جاءت آلام المخاض مباغتة وبسرعة غيـــر متوقعة. فأرسلت تاليا العبدة السوداء بـــسرعة كـــى تحـــضر المـــاء

الساخن. وبمجرد أن جاءت العبدة السوداء بالماء الساخن كانت تاليـا قد سحبت طفلة صغيرة من رحم أمها وقبل أن تعطيها لأمهـا كـي تحملها صرخت الأم معلنة عن وجود طفل آخر فى أحشائها. فسحبت تاليا الطفل الثانى من رحم المرأة وهى تقول إنه طفل ذكر وربطـت للطفلين حبلهما السرى ونشفت لهم أجسامهما الـصغيرة ووضـعتهما بجوار الأم وهى تقول للأم: إنهما سيصبحان أشخاصا متميزين إننـي أرى ذلك فى ملامحهما. فابتسمت كورينا الأم وهى تقول لتاليا هـل تعتقدين ذلك حقيقة؟ ثم ابتسمت كورينا وهى تقول لتاليا: هل تعتقدين أن الحبل السرى لعبة مناسبة لطفل أبيه سناتور؟ فقالت تاليا: إن أبناء النبلاء مسموح لهم كل شىء. ثم أرسلت تاليا العبـدة الـسوداء إلـى السناتور كى تخبره أن زوجته قد وضعت توأمين وأنها بخير. وعلى ما يبدو فإنه كان بالقرب من المكان حيث دخل مسرعا وقال متسائلا هما بصحة جيدة؟ فقالت تاليا: نعم وبصفة خاصة الولد. وسمعت تاليا فى صوته لأول مرة الفرحة أن يكون له ابن ولد إننى سـعيد ولكنـه تدارك نفسه قائلا ولكن لا تظنى أننى أكره الفتيات. ثم قالـت تاليـا: بالطبع لا ولكن ربما النساء بصفة عامة. فى الحقيقة فإن الفتيات فـى روما كن وسيلة لجذب الأسر الرومانية النبيلة. ثم قال الرجل: إنـك أنت المرأة الأولى التى وهبت لى أطفالا ياكورينـا سـيكوندا إننـي أشكرك لذلك. فقالت المرأة: نعم تشكرنى أما بأن ترسل لى أسـدا أو

امرأة تربى لك أولادك. فقال السناتور: نعم نعم فسوف تحصلين على ما تريدين كله. وبالطبع فإن الرجل قد أخذ حكاية ليبتينوس الهزلية مأخذ الجد، إذ إنه قال لزوجته: إن الولد سوف نسميه بوسيدون أما البنت فسوف نسميها أوروبا على اسم الأميرة الفينيقية. وبهذا يكون الاسم لإله وأميرة، ثم نام الأطفال وبعد ذلك وضعت تاليا أدواتها الطبية فى حقيبتها الجلد وهمت بالانصراف ولكنها قبل أن تنصرف قالت للرجل: إن خادمتك تعرف مكانى يا سيدى السناتور فإذا احتجتم مساعدة فأنا فى مكانى. فقال الرجل بازدراء: إننى لن احتاج مساعدة من العبيد وعندما احتاج مساعدة من أحد فإننى أعرف كيف أجده. فكرت تاليا فى نفسها إن الرد على مثله لا يجدى ولن ينفع فى شىء فأمثاله دائما ما يكونون مزعجين لكل من حولهم سواء كان من حولهم زوج أم عبد أم حتى عابر سبيل. ثم خرجت تاليا مبتعدة عنه بينما قال لها: إن زوجك كان محقا حيث إن الرياح بدأت بالفعل تهدأ، فقالت تاليا مجددا لنفسها: نعم إن جميع الرجال لديهم دائما حق فى كل ما يقولون. ثم قال الرجل : إن على المرء أن يرى المرأة كل شىء وبصفة خاصة إذا كانت صغيرة السن مثل كورينا، ولكن على ما يبدو فإن تربيتك كانت تربية جيدة ممتازة ولهذا أطلق المرء سراحك وأعطاك حريتك. فقالت تاليا: لا سيدى فى البداية هذا المرء قد جعل منى عبدة ثم أعطانى بعد ذلك حريتى. لإننى لم أولد عبدة،

بل ولدت حرة فى بيت حر عظيم. ووالدى فى صيدا لم يكونـــا أقـــل بأى حال من الأحوال شأنا من الأسر النبيلة فى رومـــا. ثـــم ســـأل السناتور هل غدا والداكِ كبيرين فى السن؟ فأجابته بقولها إن الرومان لا يسمحون لأحد بأن يعمر طويلا فى مكان آخر غير روما. فـــرأت كيف أن الرجل راح يحاول أن يأخذ أنفاسه بعمق وهـــو لا يـــستطيع ذلك حيث أن سقف الكابينة منخفض وكلما ارتفع برأسه ارتطم فـــى هذا السقف، لهذا ظل مطأطئ الرأس بينما يتدلى جلد بـــشرته حـــول رقبته مما جعله ذلك يشبه فرس النهر. وخرجـــت تاليـــا متعمـــدة أن تمشى مرفوعة الرأس وحتى إذا دخلت الكابينة فتح ليبتينوس عينيـــه متسائلا هل حدث هناك شيء، فقالت له: ليس بالشيء المهم إن عـــدد الركاب قد ازداد اثنين هم أوروبا وبسيدون. لقد مـــرت علـــى ولادة التوأمين أربعة أيام كانت الباخرة أثناءها قد وصلت إلى بورتوس ولم يرسل السناتور فى طلب تاليا ، وهذا كان بالنسبة لتاليا دليل بأن الأم وطفليها بخير.

الفصل السابع عشر

عيادة روما

إن قمة الباخرة العليا بدأت تتوقف وبدأنا نرى بوسيدون الرومانى وهو يسمى هنا فى روما نبتون، بينما راحت تتهادى بقية السفن وتبطئ من سرعتها وهى داخلة إلى المياه بين تمثال نبتون ومنطقة مصدات الأمواج. وأخذ البحارة يجدفون تجاه إيزيس وهيرون يحثونهم على ذلك حتى تستطيع الباخرة دخول الميناء. فى أثناء ذلك وقفت تاليا خلف ليبتينوس بالجزء الخلفى من الباخرة والذى كان الناس به أقل من الجزء الأمامى .

كانت تاليا تراقب تلك البواخر العملاقة متعددة الطوابق والتى تزخر بالبشر من الأجناس جميعًا والبضاعة من جميع الأنواع أيضًا. خلف كل نافذة من نوافذ الباخرة كان يجلس كاتب يسجل أنواع البضاعة جميعًا التى جلبتها هذه البواخر من البلاد الأجنبية، حيث رأت تاليا مجموعة كبيرة من الكتّاب الذين راحوا يسجلون كم الغلال، واستطاعت أن تحصى عشرة من الكتبة الذين أخذوا يكتبون أعداد الضباع والنمور المجلوبة، وخمسة من الكتبة كانوا يسجلون أعداد الطواويس، ومائتين من الكتبة كى يسجلوا أعداد العبيد، وعشرة

آخرين لتسجيل كم العاج وريش النعام وقرون وحيد القرن والفطر وشمع العسل، وشعر المعيز وأشياء أخرى. أما ما أرسله الإنجليز والإسبان والفرنجة والألمان فلم تدرِ تاليا عنه شيئًا ولكن على أى حال كان الرومان مهتمين اهتمامًا كبيرا بهذه البلاد.

وبدأ الناس يتهيأون للنزول من الباخرة ، عند ذلك قال ليبتينوس لتاليا أنت ستبقين فى بورتوس حتى أجد لنا سكنا نقيم فيه. بعد ظهر هذا اليوم وضع ليبتينوس نقوده كلها حول وسطه وتحزم بها واتجه إلى روما كى يبحث عن مسكن للإقامة. لقد كانت تاليا شديدة الفضول تجاه إيطاليا حتى أن شدة فضولها أنستها حذرها وخوفها على حاجياتها التى أحضرتها معها من الإسكندرية. ثم أخذ أحد العمال فى أثناء فترة الراحة يحكى لتاليا أن هذا الميناء لا توجد به منازل للإعاشة وإنما يوجد به فقط مخازن للبضاعة، وإن الحمامات والمسارح ما زالت هنا فى طور البناء، أما المساكن وبقية الحياة الطبيعية فهى فى منطقة أوسيتا. هناك توجد المساكن والمعابد والكهنة والمسارح والبنوك والتجار وكذلك يوجد هناك كثير من السائحين. بل إن سكان روما أنفسهم يأتون للمعيشة فى أوسيتا، فقالت تاليا له: وأنت أيضًا: فقال الرجل: نعم وأنا أيضًا. ثم قالت له تاليا: هل يوجد هناك أطباء؟ فقال العامل: نعم ولكن عددهم قليل، ثم أردف العامل قائلا: إذا كنت مريضة فمن الأفضل أن تذهبى إلى روما. إننا لا نريد الأجانب

الذين يجلبون لنا الأمراض الغريبة معهم. فأخبرته تاليا بأنها ليست مريضة.

مرت أربعة أيام حتى عاد ليبتينوس وهو فرح سعيد وقال لتاليا: لقد عثرت على سكن لنا كبير ومريح ويقع بجوار ميدان كبير بوسط المدينة، أما الذى ساعده كى يجد هذا المسكن فهو لاكتوكيوس، أما هذا السكن بالنسبة لتاليا فقد رأت أنه ذو رائحة كريهة وحوله كثير من الضوضاء. ثم حمل أمتعتهم رجل يقود سفينة صغيرة يجرها ثور مقابل قليل من المال وفى الطريق كان يشير الرجل إلى المزروعات والحقول الخضراء على أنها شىء جميل يستحق الرؤية. كما راح الرجل يحكى لهم أن روما بأكملها تحتفل الآن منذ ثلاثة أشهر بمناسبة نصر تراجان فى حربه ضد رومانيا، تلك الحرب اشترك بها عشرة آلاف مقاتل واستمرت فترة طويلة والآن حدث النصر وكل يوم به حفل جديد حيث فى البداية كان هناك موكب النصر ثم مسرحية المذبحة الكبرى وهكذا فإن روما الآن فى حفل مستمر. ثم قالت تاليا لليبتينوس: أليس من الأفضل لنا أن نذهب إلى أوسيتا لأن هذه المدينة لا يوجد بها أطباء كثيرون. فأجاب ليبتينوس مغتاظا: إننا سنذهب فقط إلى روما حيثما وجدت حروب وصراعات يوجد جرحى ومن هم فى حاجة إلى علاج عليك بالصمت. فقال الرجل سائق السفينة: إن هؤلاء المصارعين لهم من التراك والعبيد ولا يعالجون

لأنهم سوف يموتون سواء عولجوا أم لم يعالجوا ومنهم عدد كبير من العبيد مثل جاريتك هذه وهم لا يذهبون إلى الأطبـــاء. فقالـــت تاليـــا للرجل: إننى لا عبدة ولا تراكية ولا بد أن تحترم نفسك فى حـــديثك. فقال الرجل موجها حديثه لليبتينوس: إنها خطرة وذات لسان حـــاد ولكـــن مثل هؤلاء النساء يصرن خطرات عندما يتقدم بهن السن إنـــك لابـــد وأن تتخلص منها. ولم تتحدث تاليا هذه المرة وانتظـــرت أن يقـــول زوجها ليبتينوس شيئًا ما لسائق السفينة: ولكنه بدلا من أن يقول شيئًا للرجل أخذ يضحك بصوت منخفض فنظـــرت هـــى إلـــى الحقـــول الخضراء الممتدة على جانبى الطريق، ولم تتحدث حيـــث إنهـــا رأت نظرات الرجلين كل منهما إلى الآخر وقالت تاليـــا فـــى نفـــسها: إن الرجال جميعهم كلا منهم يشبه الآخر لا فرق بين رجل وآخر. أخيرا وصلت السفينة إلى الميناء عند حلول الظلام فى وسط ميدان كبيـــر بجـــواره سوق للماشية. هناك كان السكن الذى عثر عليه ليبتينوس وجاء عـــدد من الجنود وأخذوا ينظرون فى أمتعة الركاب، كذلك يتفحصون وجوه القادمين ولكنهم لم يتدخلوا فى شئون أحد. أما خارج منطقة الميـــاء فقد كان المكان مظلما وخالى من المارة حتى أن تاليا قـــد التـــصقت بليبتينوس من شدة الخوف. أخيرا وجد ليبتينوس السكن الذى استأجره

كانت مداخل المكان مغلقة ، وبجوار المكان كان يرتفع هناك شيء عال غير واضح. على أى حال دخلت تاليا المكان خلـــف ليبتينـــوس

فرأت أن الأماكن المخصصة لتعليق مصابيح مكسرة ، كذلك الحوائط متآكلة والزينات والمناظر التى كانت مرسومة على الحوائط متساقطة جميعها على الأرض، وتتدلى العناكب من الأسقف. فقال ليبتينـــوس لتاليا " إن هذا المكان لهو عيادتنا الجديدة، إنك سوف تقومين بتنظيف المكان بالمشاركة مع العبيد. وأخذت تاليا تحدق بليبتينوس وكأنهـــا لا تصدق عينيها وأذنيها. عندئذ قال لها ليبتينوس لماذا تحملقين فـــى هكـــذا؟ فأجابته تاليا بقولها: أو من أجل هذا المكان تترك عيادتـــك الـــشهيرة بالمدينة العريقة بالإسكندرية؟ فقال لها ليبتينوس إننى لست مجبرا أن أجيب على أى من أسئلتك السخيفة هذه وقـــد أخبرتـــك بهـــذا فـــى الإسكندرية أيضًا. فقالت له تاليا: إننى فى الإسكندرية لم أكـــن زوجتـــك. فقال لها: إن موقفنا لم يتغير من خلال الزواج فإنك فى الإســـكندرية كنت عبدتى وستبقين هنا عبدتى أيضًا، إن الزواج لم يغير فى علاقتنا شيئا. تجاهلت تاليا هذه العبارة لأنها كانت مرهقة وتريد أن تنام، ثـــم أنها فى الصباح استيقظت مبكرا واشترت مـــن البـــائعين الجـــائلين حمصًا وفولاً وزيتونًا وأوانى فخارية وبصلاً ولحومًا مدخنة وخبـــزًا ساخنًا. ونبيذًا، ودفعت أربعة أس فى كل هذه الأشياء كلهـــا. وقالـــت لنفسها إننى لابد وأن أبدأ اليوم الأول بالعيادة بشكل متفائل بدلا مـــن أن أنظر إلى الفئران التى تلهو فى الغرفة الخلفية من العيـــادة. أمـــا

اليوم فيوجد فى الميدان مسرحية كبيرة لهذا فإنهم قاموا ببناء مسرح مفتوح فى هذا الميدان.

لقد علمت بذلك تاليا فى أثناء تناولها الطعام خارج المنزل. بعد ذلك قال ليبتينوس لتاليا: إننى سوف أشترى عبدا وطباخة كى يعاوناك على العمل فى العيادة والمنزل. ثم أخذ ليبتينوس يمتدح فى هذا الحى وذلك ما لم تفهمه تاليا فقالت له: إن ذلك الحى الجميل لا يوجد به مياه وهذا أبسط ما يحتاجه المرء، إنها الآن زوجة وطبيبة ولكنها للأسف تعيش مثل الذى دائما على سفر. فقال لها ليبتينوس: إنك سيئة التربية، ثم بصق بذرة الزيتون التى كانت فى فمه خارجا من المنزل وهو يقول: إننى سأبقى طويلا خارج المنزل حتى أعود. ثم تذكرت تاليا الأموال الكثيرة التى يربطها دوما حول وسطه وأرادت أن يتركها فى المنزل حتى لا يتعرض للسرقة فنظر إليها ساخرا ومحقرا وخرج.

أخذت تاليا تفكر فى أسواق الإسكندرية الصغيرة التى كانت تجد بها كل شيء، كما أنها قد أصبحت معروفة هناك حتى أن لصوص الأسواق قد عرفوها وتقبلوها ولم يتعرضوا لها بسوء رغم أنها ذات شعر أصفر وبشرة حمراء. وأخذت تاليا تنظف البيت مما تركه خلفه المستأجر السابق، ولكنها لم تستطع اصطياد الفئران وطردها من المكان. كما أن المناظر التى كانت على الحوائط لابد من إعادة

دهانها بالألوان، كما أن الحوائط كان بها كثير من الخرابيش والحفر. وفجأة بدأت تاليا تسمع ضوضاء وجلبة، وصوت ضحكات يقترب ويتعالى. وسمعت صوت أحدهم يسأل من الخارج هل توجد هنا عيادة الطبيب السكندرى ليبتينوس والذى كان يعمل كطبيب شخصى لتريمالخيو قاضى قضاة مدينة الإسكندرية سابقا؟ فقالت تاليا وهى سعيدة: نعم هل يحتاج أحد مساعدة؟ فقال الرجل العجوز: إننى فى حاجة فقط إلى مكان أضع به إصيص الورد هذا. ثم نظر الرجل حوله وقال: إنكم فى حاجة إلى مناضد وبعض الأسرة وإلى بعض الأشياء الأخرى.

فى ذات الوقت ارتفعت الضوضاء بالخارج وعلا الضجيج حتى اعترى تاليا الخوف ، فصاح الرجل بقوله: إنه المسرح وقفز خارجا إلى الشارع. فلما نظرت تاليا إلى الخارج رأت منظرا مروعا حيث إن خشبة المسرح العظيمة التى بنيت، وبها مدرجات كبيرة قد انهارت بمن عليها من مشاهدين وراحت تاليا تشاهد مدرجات الخشب معجونة بها أجسام البشر وأذرع وأرجل وكذلك رءوس قد انفجرت من ضغط ألواح الخشب عليها. فقبضت تاليا على ذراعى الرجل وهى تقول له: إنك سوف تساعدنى هل تفهم، فلم يجد الرجل من أمره بدًا سوى أنه هز رأسه بالموافقة.

وجرت تاليا إلى مكان الكارثة، تحاول أن تساعد أو تنقذ ما يمكن إنقاذه، فوجدت أمامها ليبتينوس أيضًا. عندئذ قال ليبتينوس: ارفعي من هم مجروجون جرحا قويا كبيرا، من ماتوا جانبا كذلك. المكان مليء بالأشلاء البشرية المخيفة والدماء، وفى كل مكان ماغدا المرء يسمع سوى الصياح والعويل وتأوهات المتألمين. وراح ليبتينوس وتاليا يعملان طوال الوقت ويساعدهما اثنان من العبيد دون أن ينطق أحدهم بأى كلمة. مع الوقت جاء أطباء آخرون وانضموا إلى ليبتينوس وتاليا وأخذوا يساعدون بل أنهم قبلوا أن يأمرهم ليبتينوس بأن يفعلوا هذا أو ذاك دون أن يعترضوا. ومع حلول المساء كان الناس قد جمعوا كل ما هو متراكم من حطام وأشلاء ووضعوه على جانب الطريق .

وعلى جانب الطريق كان هناك أربع عشرة جثة تنتظر من يحملها إلى المقابر. كما جاء عمدة المدينة واثنان من رؤساء الشرطة وأخذوا يتأملون مكان الحادث وازدادت النقاشات حول أسباب الحادث، بينما أخذ الناس يذرون الرمل فوق بقع الدماء. وأخذ عمدة المدينة ورؤساء الشرطة يحققون مع الناس، مع كل من رأى الحادث أو كان قريبا منه، وأجمعت الآراء على أن طبيبا جديدا من الإسكندرية وزوجته كانوا أول من مد يده إلى هذا المكان إنهم يسكنون هنا فى صالة المذبح القديم. إن ذلك لهو فأل سيئ

للإمبراطور تراجان أن ينهدم المسرح على من فيه أثناء عـرض مسرحية تخص حربا مهمة لأحد من حروبه. ثم قرر العمدة أن يرى الطبيب وزوجته بنفسه. بعد يومين جـاء لاكتوكيـوس إلـى عيـادة ليبتينوس فلم يجد أحدًا من المرضى فى غرفة الانتظار فنادى بصوت مرتفع هل أنت هنا ياليبتينوس أم أنك فـى الطريـق تعـالج بعـض مرضاك؟ فقال ليبتينوس مجيبا: إننى هنا، من يسأل؟ فقال الرجـل: إننـى هنا منذ فترة طويلة . فأدرك ليبتينوس صاحب الصوت وقال له هـل أنت مريض؟ فأجاب الرجل: إننى صحيح مثل السمك فى المياه بينما جلست امرأة تنتظر أن تدخل للطبيب، وعندما نادى لاكتوكيوس على ليبتينوس قالت المرأة مستنكرة: إننى أنتظر هنا قبلك أيها البدين مثـل الجوال. فنظر إليها ليبتينوس وقال لها: أيتها السيدة الزمى الأدب فإن السيد لاكتوكيوس رومانى أب عن جد وهو حاصل على لقب منقـذ. فقالت السيدة لليبتينوس: أيها الطبيب إننى لا أعرف منذ متى وأنـت تقيم بالإسكندرية ولكننى أعرف جيدا منذ متى وهو يحمل لقب منقـذ، بينما بصق لاكتوكيوس على الأرض كى يغيظهـا ويريهـا أنهـا لا شىء. فجأة خرجت تاليا من خلف ستار وهى مبتسمة وقالت للمـرأة يمكنك أن تدخلى إلى يا سيدتى إننى أستطيع معالجتك. فنظرت المرأة إلى تاليا وقالت لها إننى جئت هنا كى يرانى طبيب وليس من أجل أن ترانى مشعوذة لا لن تفحصينى أنت. فقال ليبتينوس للمرأة: إنهـا ليـست

مشعوذة إنها طبيبة مثلى تمامًا وهى جاءت معى من الإسكندرية وهى تستطيع فحصك مثلى تمامًا فأرجو أن تذهبى إليها. تحركـت المـرأة العجوز وهى تدخل إلى تاليا ولكنها قالت: إن ذلك لـشىء جديـد أن يكون هنا طبيب وطبيبة، إن ذلك لم تره من قبـل فـى عهـد حكـم دوميتيان. ثم تعمدت المرأة أن تطأ قدم لاكتوكيوس الذى صاح متألما وهو يقول لها: انزلى عن قدمى أيتها الشقية! فقالت له: "إننى أذكرك فقط بالحى الفقير الوضيع الذى جئت منه ياموضع البول والبـراز". عند ذلك وقف الرجل وهو مغتاظ وقال لليبتينوس: إننى سأنـصرف الآن وآتى فى وقت آخر ياليبتينوس. خرج ليبتينوس يجرى خلـف الرجل وهو يقول له: إننى فرغت الآن انتظر. بينما اغتاظت المـرأة العجوز من تصرف ليبتينوس وقالت لتاليا: يا إلهى كيف لا يعـرف زوجك أن هذا الرجل لص وشرير؟ إن هذا الرجل يريد منكم شيئًا ما أيتها الحمامة البريئة ثم نظرت إلى تاليا، فقالت لها تاليا: إنه تعـرف عليه عندما كان فى قصر تريمالخيو قاضى قضاة الإسكندرية، فقالت المرأة: إن هذا التريمالخيو ما هو إلا عبد قد تم تحريره وإرساله إلى الإسكندرية، إنه ما هو إلا نقطة مياه وسط الأمواج العاتية، إننـى لا أعرفه، ثم قالت المرأة العجوز: أيتها الفتاة إننى أعانى مـن ضـيق التنفس وأنهج بسرعة لأقل مجهود. ولما فحصتها تاليا بدقة قالت لها: إنك فى حاجة إلى علاج ليس لدينا الآن فى العيادة وسوف نرسل فى

طلبه فأرجو أن تحضرى اليوم مساء وستحصلين على العلاج. فقالت المرأة: ولكنك لن تحصلى على نقود زيادة، فأجابتها تاليا: لا لن أحـصل على شيء زيادة. بينما تنهدت تاليا وهى تقول لنفسها أرجو ألا يكون المرضى جميعهم فى روما مثل تلك المرأة. أثناء ذلك كان ليبتينـوس يقف أمام مدخل العيادة مع الرجل الرومانى يتسامران، بينما يقـص عليه ليبتينوس الحادثة كما شاهدها، وقام العمال بتنظيف المكان مـن الأشلاء والحطام والدماء وغدا نظيفا كما لو أنه لم تحدث به حادثـة. ثم سمعت تاليا الرجل وهو يقول لليبتينوس: إن الناس يتحدثون عنـك فى كل مكان حتى أن مكتب البابوية قد عرف بما قمت بـه، بـل أن العمدة تحدث عنك بكل خير. وراح الرحلان يضحكان معا ثـم قـال لاكتوكيوس لليبتينوس: تعال معى إلى الخمارة التى أجلس بها دومـا إنها قريبة من هنا. فلنحتفل ببدايتك المشرقة فى رومـا، كمـا إننـى سوف أقدم لك بعض المشاهير وأقدمك لهم هيا هيا.

راحت تاليا تنظر إلى الرجلين وهى تموت كمدا من الغيظ عنـدما عبرا الميدان وانحرفا داخلين فى حارة ضيقة كانت تاليا قـد دخلتهـا قبل ذلك وسوف تذهب إليها الآن حيث أن بها حمامات عمومية. كما أن تاليا أرادت أن تذهب كى تشترى بعض الحاجيـات وهـى الآن تستطيع ذلك لأنها الآن تملك عبدا يمكنه أن يحـرس العيـادة حتـى عودتها. ورغم أن الوقت كان متأخرا بعد الظهر فإن الشوارع كانت

مكتظة بالمارة والبائعين والتجـار وأصـحاب المطـاعم والمحـال المفتوحة. وكذلك كان هناك كم كبير من اللصوص الذين يبحثون فى جيوب المتسوقين مـما خـف حمله وغلا ثمنه. فـى تلـك الحـارة وجدت الخمارة التى ذهب إليها ليبتينوس وهى مليئـة عـن آخرهـا بالزائرين، حيث رأت كيف أن الزائرين كانوا يدخلونها باسـتمرار. بالقطع كان يجلس الآن ليبتينوس بالداخل يسمع كثيرًا مـن المـديح وكذلك يستمع إلى ما يطرب أذنيه عن مستقبله الطبى فى روما. أمـا ما لاحظته تاليا على هذه المدينة أن جدران شوارعها مليئة بكل مـا يخطر على بال بشر من الدعاية والإعلان ، الجيد منهـا والسـيئ، حيث أنها تحتوى على إعلانات لمن لديه سكن يريد أن يؤجره أو من يبحث عن سكن، وخلافه من خلال جولة تاليا لاحظت أنه لا يوجـد فى تلك الأماكن كلها عيادة طبية واحدة، لقد تيقنت أن عيادتهم هـى الوحيدة فى هذا المكان. حتى إذا وصلت تاليا إلى برج قديم وبجواره مبنى قديم ومسطح فقالت تاليا لرجل كان واقفا بجوار المبنى، هل هذا المبنى هو عيادة؟ فأجابها الرجل بقوله: نعم إنها عيادة، وتعجـب أن تاليا تتحدث اليونانية والرومانية وقال ممازحا: إن السـيدات اللاتـى يتحدثن لغتين لهن يدارين بذلك شعرهم الأسـود بـاللون الأصـفر. فشكرته تاليا على مزاحه هذا وقالت له: أريد أن أتحدث مع الطبيـب هنا. فضحك الرجل وهو يقول لها: إذا فتحدثى فأنا الطبيب. فنظـرت

تاليا إليه وهى تقول له: هل أنت بالفعل طبيب؟ فلما أجـــاب الرجـــل: بنعم للمرة الثانية، قالت تاليا له : إنك لا تبدو كطبيب حيث أنك تبـــدو وكأنك متصابٍ لأن لون شعرك لا يتفق مع سنك الحقيقـــى. فاغتـــاظ الرجل وكشر قائلا إن هذه الوقحة لتبدو لى رومانية، ماذا تريـــدين؟ فأحبرته تاليا بأنها فى حاجة إلى دواء معين وذكرت له اسم الـــدواء فتفحصها وهو مكفهر الوجه لحظة وقال لها: نعم عندى هذا الـــدواء. ثـــم قال الرجل: إننى أعتقد أنكما الطبيبان اللذان يجلسان بجـــوار ســـوق الماشية أليس كذلك؟ فهزت تاليا رأسها بالموافقة، عند ذلك قـــال الرجـــل: من الأفضل أن نكون أصدقاء على أن نكون أعداء أليس كذلك؟ ثـــم قام بخلط عديد من الأعشاب بعضها ببعض ووضع هذا الخليط فـــى علبة خشبية وقال لتاليا: إن سعر هذا الدواء أس واحد، كما إننى أريد العلبة الخشبية مرة أخرى. ثم قالت تاليا للرجل: إن فى يدك جـــرح هـــل يمكننى أن أسألك كيف تعالج هذا الجرح؟ فقال لها الرجل: عن طريق حمامات الكاموميل والشمس، فقالت له تاليا، إن هـــذا لـــيس بكـــافٍ وبالطبع فإن جرحك هذا يشفى من ناحية وينفتح فى الناحية الأخرى؟ فقال الرجل دَهِشاً وكأنك تريننى كل يوم. فقالت له تاليا: لمثـــل هـــذا الجروح فإننا نقوم بعمل عجينة من الثوم ونربطها على الجرح لمـــدة ثلاثة أسابيع حتى يشفى. فقال الرجل هل تعتقدين أنت أيتهـــا الفتـــاة الصغيرة بأنك تعرفين أكثر مما يعرفه شخص مثلى يمتهن الطب منذ

عشرين عاما؟ فقالت له تاليا: إننى تعلمت الطب مــن آلهــة الطــب المصرية وذلك معترف به من قبل الأطباء الرومان وهو مثبوت فى الكتب الطبية جميعها بروما. فقال الرجل وهو يغمغم بصوته: إننـــى سوف أضحى بنفسى وأقوم بتجربة هذه الطريقة العلاجيـــة الجديـــدة وسوف نرى. تنهدت تاليا وقالت له: نعم إنه مـــن الأفــضل لــك أن تجرب هذه الطريقة على أن تترك جرحك هكذا. ثم انـــصرفت تاليـــا بعد أن أشارت له بيدها مودعة فلم يتحرك ولم يبادلها تحية الوداع.

فى المساء جاءت المرأة الرومانية العجوز كى تأخذ الأدوية مـــن تاليا فأعطتها تاليا الأدوية وشرحت لها كيف تستخدمها بينما راحـــت المرأة تشم فى علبة الدواء وتقول فى الحقيقة إننى أردت أن أذهـــب إلى طبيب رومانى ولكنه سوف يطلب منى على الأقل ثلاثـــين أس، بينما طلبت تاليا فى كل هذا فقط أس ونصف. ثم قالت تاليا للمـــرأة: من الأفضل أن تقللى المرور على بيت الدعارة فى ذهابك وفى إيابك حتى لا تعلو ضربات قلبك لأنك عجوز على هذا الشيء. فـــصاحت المرأة مغتاظة من تاليا إننى لست عجوزًا ثم إننى لن أدخل هذا البيت أيضًا. فأجابتها تاليا بقولها: إن هذا شأنك أنت ثم قالت المرأة قبـــل أن تمشى: وبالمناسبة فإن القصر بأكمله لا يوجد به موظـــف قيـــصرى اسمه تريمالخيو، وهذا الاسم قد اخترعته أنت وكذبتِ علىّ ثم طـــوت المرأة ثوبها وخرجت تمشى أيضًا أمـــام بيـــوت الـــدعارة. بعـــد أن انصرفت المرأة أخذت تاليا تفكر فى تلك الليلة التى أجبر تريمـــالخيو

فيها ليبتينوس كى يعطيها حريتها. فى تلك الليلة قـال ليبتينـوس أن تريمالخيو قد استدعى إلى روما كى يحاكم لأنه ارتكب كثيـرًا مـن الأخطاء. بعد ذلك بفترة جاء ليبتينوس إلى المنـزل وكـان سـعيدا ويسمع بعض الأغانى الرومانية، ولم تشأ تاليا أن تعكر عليه صـفوه وساد الصمت ثم مرت فترة من الوقت قـرر بعـدها ليبتينـوس أن يخرج، فقالت له تاليا: إن الشارع الآن ملـيء باللـصوص وقطـاع الطرق أليس من الأفضل لك أن تبقى فى بيتك؟ فرفض وقال لهـا : إننى خصيصا هنا من أجل ليالى روما الصاخبة ولـيس مـن أجـل الجلوس فى المنزل. كانت تاليا خائفة فى البيت حيث سمعت كثيـرًا عن اللصوص الذين يهاجمون المنازل ويسرقون مابها، وكان علـى المرء دوما أن يكون له عبد يحرسه فى المنزل. لهذا كان فى بيـت تاليا العبد فلور للحراسة وكذلك إذا استدعى أحد تاليا بالليل للكـشف عليه فإنها تصطحب فـلور معهـا. فى الواقع فـإن فلـور هـذا لا يقارن بأى حال من الأحوال بجاب الله لا فى الجسم ولا فى الـذكاء فهو شخص غبى ضئيل الجسم ويحاول أن يـتعلم بعـض الكلمـات اللاتينية بصعوبة بل أن لغة بلده الأصلية التراكية لا يجيدها أيـضًا. وقد اشتراه ليبتينوس بثمن ضئيل. وراح يجلس فى ركن أمام مـدخل البيت وهو يكاد ينام أثناء جلوسه. أشعلت تاليا لمبة الزيت وجلـست بجوارها بينما يتساقط الناموس حولها وفلور العبد يغط فى النوم وهو

جالس. ولم تجرؤ هى أن تنام خوفا من أن يهاجم أحد اللصوص المنزل وفلور نائم هكذا.

مع تقدم الليل تعبت تاليا واستلقت على مرتبتها فوق الأرض بالغرفة الخلفية من المنزل بينما وضعت كرسيا خلف باب غرفة النوم. وبعد سويعات قليلات لاحظت أن ليبتينوس قد سقط بجوارها وهو مخمور ، عند ذلك استغرقت هى فى النوم حيث أنها تشعر بالأمان عندما يكون نائمًا بجوارها شخص حتى وإن كان هذا الشخص ليبتينوس خير من الوحدة. استيقظت تاليا فى الصباح مبكرا كالعادة ، بعدها بفترة استيقظ ليبتينوس ورأت أنه يبحث عن حزام نقوده الذى ربطه حول خصره فأدركت تاليا أن شخصا ما قد سرق منه أمواله أثناء جلوسه فى الخمارة.

لقد ودت فى تلك اللحظة أن تحمل أصيص الورد الكبير وتهوى به بكل طاقتها فوق رأسه. فوضعت تاليا يديها حول خصرها وقالت له: والآن هل تستطيع أن تخبرنى ماذا سنفعل وممّ سنعيش؟ لقد كان ليبتينوس مازال متعبا ولم ينم جيدا وتفوح من فمه رائحة النبيذ، فاستلقى مرة أخرى على بطنه. ووضع رأسه بين يديه وقال سوف أبحث عن رجل من رجال البنوك كى أستدين منه، لأننى لا بد وأن أدفع إيجار العيادة فى الأيام القليلة القادمة. فى الأيام القادمة راح ليبتينوس يبحث عن أحد رجال البنوك كى يستدين منه بدلا من أن

يهتم بعمله فى العيادة. وأخذت تاليا تدبر أمور البيت والعيادة فى وقت واحد، حيث لم يكن من الصعب عليها أن تفحص بعض المرضى الذين كانوا يأتون العيادة وهم يعانون من أعراض صغيرة. فجأة وقف شخص يرتدى التونكا الرومانية وهو مدجج بالسلاح وخلفه رجال مسلحون أيضًا أمام باب العيادة وقال الرجل: إننى سكرتير السناتور ماكسيموس وقد أرسلنى فى طلبك إلى زوجته يا سيدتى الطبيبة تاليا، فهل تسمحين لى بمرافقتك إليها؟ فقالت تاليا موافقة: نعم، ولكنها تذكرت التوأم فقالت تاليا للرجل: هل الأطفال بخير؟ فأجاب الرجل مبتسما: نعم بخير وأردف قائلا: إن سيدتى تود فقط أن تراكِ . قبل أن تخرج تاليا من الباب لاحظت علامات الضيق بادية على وجه ليبتينوس فلا عجب فى ذلك حيث رأى أن تاليا هى أول من نودى لمثل تلك المناسبات الكبرى بعد أن كان هو أول من ينادى وهى مجرد عبدة ترافقه كى تتعلم منه شيئا. ذهبت تاليا مع الرجال من طريق طويل، حيث أنهم عبروا برج المدينة واستمروا فى السير وهم أحيانا يقومون بحماية تاليا من الزحام والضوضاء بالمدينة. وفى الطريق كان هناك رجل يرتدى العباءة الرومانية يقوم بتوزيع تذاكر لعروض السيرك فى الميدان القريب من منزلها. فقال الرجال لتاليا : إنك سوف ترين ألعاب السيرك هذه. فقالت تاليا لنفسها إنها لم تأتِ إلى روما من أجل أن ترى السيرك، ومن يدرى ربما

ينتظرها هناك شخص ما بمفاجأة غير سعيدة ولربما ينتظرها أحـــدهم وفى يده تمساح كى يلتهمها. وراحت تمشى مع الرجلين حتى وصلا إلى مكان رأت رجال يقومون بعمل بناية عظيمة فقال أحد الـــرجلين وهو يشرح لتاليا إن هذا المبنى سوف يكون ميدانًا جديد للإمبراطور تراجان ، وسوف تكون به أعمدة وتماثيل. وليس ببعيـــد عـــن هـــذا المكان كان يوجد بيت السناتور الذى كان مبنيا فوق هضبة مرتفعة.

وراحت تاليا تصعد السلالم الدائرية التى تحفها أشجار الـــصنوبر على الجانبين حتى وصلت إلى أعلى الهضبة التى كانت تحتوى على حى سكنى يحرسه العبيد، كذلك أشجار الصنوبر والتماثيـــل كانـــت تحيط بالمكان. بيت الرجل كان قصرا كبيرا تحيط به جنود الحراسة من كل مكان، كما أن قطع الموزايك كانت تحيط بالمكان مـــن كـــل جهة أيضًا. وبين الحراس كان هناك عبد مربوط من رقبته بسلـــسلة معدنية ، هذا العبد ربما كان مارقا أو ارتكب ذنبا أو لربما هو مزاح على الطريقة الرومانية؟ ولم يلتفت السكرتير إلى العبد المربوط فـــى رقبته ومر عليه دون أن ينظر إليه ودخل يقود تاليا إلى الداخل حتى قادها إلى باب يفتح على حديقة ريفية. ثم سألت تاليا السكرتير قائلة: ما اسم السناتور؟ فوقف الرجل أمامها وقال لها: ألا تعرفين حقيقـــة اســـم السناتور؟ إن اسمه بوبليوس دولابيلا فلافوس ماكسيموس من عائلـــة فلافير. فلم تعرف تاليا هذا الاسم من قبل ولم تتذكر إنها سمعته مـــن

قبل. إن السكرتير قام بقيادة تاليا إلى نهاية الحديقة وهى تسعل سعالا خفيفا. لكن الرجل كان ينفذ الأوامر التى ألقيت عليه فقط. ثم دخلت تاليا على السيدة كورينا والتى كانت فى مجلسها الصيفى فى القصر وعند ذلك مدت السيدة كورينا يديها الاثنتين محيية ومرحبة بتاليا وهى تقول لها: أهلا بك إننى سعيدة أننى وجدتك ، كما إننى فخورة بأننى السيدة الأولى بروما التى تعرفك وتراكِ فى روما، أليس هذا جميلا أن أراك ثانية ياتاليا؟ إن الجميع هنا مهتم برؤية الطبيب الذى جاء من الإسكندرية. ولكننى قلت لهم إن أفضل من الطبيب هى الطبيبة التى جاءت معه من الإسكندرية. إن هذه الشهرة السريعة كلها كانت سببها تلك الحادثة التى حدثت بالميدان وهمت هى وليبتينوس بالمساعدة فيها. ثم قالت كورينا لتاليا إن فى يوم الحادثة كانت لدينا كثيرات من زوجات السيناتورات وقد أخبرتهن جميعا عنك وعن مهارتك وسوف تناديكِ إحداهن أو الأخرى لأنهن كثيرات الشكوى ودائمات المرض. ثم نظرت السيدة الرومانية إلى تاليا وقالت لها: ولكن تاليا أرجو أن ترتدى ملابس أخرى حتى تستطيعى إقناع النساء الرومانيات بأنك طبيبة ناجحة ولست بامرأة فقيرة وكأنك كاهنة فى معبد الفقراء. فلم يعجب تاليا حديث المرأة عن ملابسها وقاطعتها قائلة: أخبرينى كيف حال أطفالك التوأم، هل هما بخير؟ فقالت المرأة وهى مبتسمة: إنهما بخير هل تودى رؤية أسدى الصغير؟ فوافقت

تاليا ، عند ذلك دخل أسد صغير يحمل فى فمه دمية صغيرة وخلفه فتى بنى البشرة. فقفزت المرأة الرومانية كى تمسك بالأسد الصغير وقالت لتاليا: إنك لا تدرين كم هو جميل أن يكون لديك مثل هذا الأسد، حاولى ياتاليا أن تقتنى مثل هذا الأسد إن هناك أسدين للبيع. فقالت تاليا بأسلوب مهذب: لا أعتقد أننى أستطيع أن أقدم لمثل هذا الحيوان البيئة التى يحتاجها. ثم سألت تاليا المرأة قائلة: لماذا أرسلت فى طلبي؟ فقالت المرأة الرومانية كى أتسلى بالحديث معك، أليس ذلك جميلا؟ ألا تفرحى أنك تتحدثين معى ثم أمسكت المرأة الرومانية بمخدة صغيرة وألقت بها لتاليا فوق حجرها كى تضعها تاليا خلف رأسها. أمسكت تاليا المخدة كى تحمى بها نفسها من الأسد الصغير الذى أبدى اهتمامًا كبيرا بالمخدة الطائرة. ثم قالت المرأة الرومانية إننى سوف أدفع لك زيارتك هذه بسخاء فأجابتها تاليا إننى لا أقبل أجرًا سوى نظير كشوفاتى الطبية. فقالت المرأة إذا فسوف أوجه لك بعض الاستفسارات الطبية ثم ندخر بعض الوقت لأمورنا الخاصة هل ذلك جميل؟ فوافقت تاليا وهى مكرهة. فقالت المرأة لتاليا: إننى لا أريد أطفالا آخرين إننى لا أرغب فى الإنجاب مرة أخرى فهل لديك وسيلة لى كى لا أحبل؟ فقالت لها تاليا: هل تحدثت فى هذا الشأن مع زوجك؟ فقالت المرأة: لا لم أتحدث معه ولم أفعل ذلك؟ ثم أجابت تاليا: إنه لا بد وأن يتقبل ذلك. ثم أردفت المرأة تقول لتاليا: أرجو ألا تشغلى

بالك بزوجى فهو رجل عجوز مثل السلحفاة وطراز قديم أيضا مثـــل الجمهوريين، كما أن النساء الرومانيات لا ينجبن ولماذا ينجبن ولدينا نساء عبيد يقمن بهذه المهمة؟ فقالت لها تاليا: معك حق ولكن الرجال يرين هذا الأمر بعين أخرى وبصفة خاصة إذا كـــان الأمـــر يتعلـــق بأبنائهم هم. ففى هذا الأمر لا يختلف الرومان عن اليونـــانيين. ثـــم قالت المرأة: إذن سوف أتحدث معه من أجل أن تهدئى، خـــذى هـــذا المبلغ إنه خمسين آس، هل هذا يكفى لاستشارتك؟ فأخذت تاليا النقود وهى تشكر السيدة قائلة نعم يكفى وزيادة. بينما كان الأسد الـــصغير يتمسح بتاليا، ثم أن الخادمات دخلن بأطايب الطعام فأكلت تاليا منـــه حتى شبعت. عند الوداع أمسكت كورينا يدى تاليا ورجتها أن تـــأتى إليها مرة أخرى وظلت ممسكة بيدى تاليا حتى سمعت صوت البـــاب وهو يفتح من قبل العبيد. وأخذت تاليا تفكر قائلة: إنها ما تـــزال صـــغيرة مثل طفلة صغيرة، ثم احتضنت كورينا تاليا، وقالت لها تاليا تذكرى دائما أن الإلهة ديميتر تحرسك، فوضعت المرأة أصابعها على شفتى تاليا حتى لا يسمع العبد الواقف ما تقوله تاليا، حيث أن هذا العبد ينقل الأخبار كلها إلى سيده وبصفة خاصة تلك الأخبار الدينية، ثـــم قالـــت كورينا أمام تاليا وحتى يسمع العبد الواقف أمام الباب: إننى منـــذ أن تزوجت وأنا أعبد آلهة زوجى. عند ذلك تذكرت تاليا إنها نادت لهـــا الإلهة ديميتر أثناء ما كانت بها آلام الولادة على الباخرة فلم تعترض

المرأة، لربما لأن النساء فى تلك اللحظات يكن فى أشد الحاجة إلى أى مساعدة دون أى شروط من أى الآلهة تأتى تلك المساعدة؟ ثم قبلت كورينا تاليا وهمت بالانصراف.

فى حديقة المنزل رأت تاليا النافورات تنطلق منها المياه وراحت تاليا تضع يديها أسفل المياه بغية أن تستمتع ببرودة المياه على يديها. فقال العبد الواقف بجوار تاليا: إن سيدى السناتور لديه عادات قديمة صارمة، حيث أن على زوجاته كلهن أن يعتنقن ديانة أسرته وآبائه قبل أن يتزوجهن وهو لن يقبل أن تتحدثى أمام زوجته عن ديانة أخرى. فقالت له تاليا: إننى لم أقصد ذلك. ولكننا نحن معشر الأطباء ننادى آلهة الولادة والإخصاب بشكل تقليدى للنساء الحوامل والنساء اللاتى هن فى حالات ولادة دون أن نقصد بذلك تغيير عقيدتهن. فقال لها العبد: فى تلك الحالات فإن الرومان ينادون الإله اسكالوب الذى له معبد على نهر الطيبر، ثم مشى العبد كى يرى تاليا الطريق فما كان منها سوى أن تتبعه ، وفى أثناء سيرها رأت تاليا شخصا ذا ثلاثة أرجل وأربعة أذرع راقدًا فى الحديقة. من الوهلة الأولى اعتقدت تاليا أن هذا الشخص هو تمثال ولكنها عندما حدقت فيه لاحظت أنه إنسان حى بالفعل حيث كان يحرك أذرعته وأرجله حتى أن تاليا فزعت منه وأسرعت فى مشيها.

في تلك الساعة من النهار كان هناك عدد كبير من الزائرين الذين ودوا أن يقدموا شكواهم إلى السناتور أو يستمعوا منه إلـــى نـــصيحة فتجمع حوله عدد غفير من الجمهور وقد وقف هو في الوسط يحادث هذا ويستمع لذاك، حتى إذا مرت تاليا عليهم رأتـــه ورآهـــا فحياهـــا بنظرة منه وفعلت تاليا الشيء نفسه. كما لاحظت ناليا أن ماكسيموس قد أمعن النظر إليها، حتى أن محدثـــه الـــذى كـــان يقـــف بالعبـــاءة الرومانية أمامه قد التفت صوب تاليا أيضًا فلما نظرت تاليا إليه فلـــم تر سوى تريمالخيو..!

الفصل الثامن عشر

نصر تراجان

إن الشعب الرومانى فى روما كان شديد التطلع والفضول كلما اقترب موعد يوم الاحتفال بنصر تراجان. بينما وقفت تاليا أمام العيادة، عندما راح أحد الموظفين يوزع بعض الأشياء على الشعب، وبالطبع فإن ميدان سوق الماشية كان ميدانا محبوبا لهم فى تلك الاحتفالات والاجتماعات الدعائية للإمبراطور. وقد كانت تعمل الدعايات له بلون أحمر، وتكتب على ألواح خشبية وتعلق على الحوائط. وعندما كان الموظفون يقومون بتوزيع تلك الأشياء مجانا على الشعب كان غالبا ما يحدث أن يتدافع الشعب ويتكالب على تلك الأشياء ونتيجة لذلك كانت غالبا ما تحدث حالات مشاجرة ، يقوم المتشاجرون فيها بطعن بعضهم بعضا بالسكاكين أو ضرب بعضهم بعضا بالهراوات الغليظة. ومع مرور الوقت اعتاد ليبتينوس وتاليا على هذه المهرجانات بالمدينة. كما أن الحى العاشر والحى الحادى عشر قد عرفا أن المدينة بها طبيبان وعيادتهما تقع فى ميدان الماشية.

إن هذه المدينة كانت غريبة وعجيبة وكان المرء يرى بها جميع الأنماط العجيبة من البشر مثل هذا الذى ارتدى تونكا رومانية طويلة الأكمام ذات لون كبريتى وراح يتجول فى الشوارع. كما أن التونكا التى كان يرتديها كانت خفيفة جدا حتى أن المرء كان يرى من خلالها تفاصيل جسم الرجل، بل إن تاليا رأت من خلالها إنه غير مختون. كما أنه ذات مرة جلس بائع الأسماك على شمال العيادة وقد جرح يده فى أثناء تقطيع السمك، وراح أصبعه ينزف دما فجرى الرجل إلى تاليا وأراها أصبعه وهو يقول: إننى أبيع السمك منذ عشرة أعوام ولم يحدث لى أى شيء واليوم أجرح نفسى. إن ذلك لشيىء عجيب، فقالت تاليا: لا بأس إنه جرح بسيط بينما صاح ليبتينوس من الداخل وهو يقول له: ادخل كى أقطع لك يدك، فنظر الرجل إلى تاليا خائفا وهو يقول هل يقصد ذلك بصدق؟ فقالت تاليا: لا إنه يمزح فقط.

ثم أرسلت الرجل بابتسامة لطيفة منها إلى ليبتينوس داخل العيادة ووقفت تراقب الرجل ذا التونكا الخضراء الذى كان يتحرك بالسوق فى كل اتجاه لتوجيه الأنظار إليه. ثم أنه كان يصيح مناديا على الوجبات التى يقدمها أحد المطاعم فى السوق وكدعاية لهذا المطعم راح يوزع كوبونات لكل من يمد يده إليه فيستطيع تناول الطعام لديه بأجر رمزى حتى أن الرجل ذا الأصبع الجريح قال لليبتينوس: إننى

أريد أن أتناول كوبونا من مارك سكاوروس وهو الرجل الذى كـــان ينادى على وجبات الطعام.

ثم قالت تاليا للرجل الذى ينادى: إن المريض الذى يعالح لـــديهم سيختار مارك سكاوروس، ولكنه انتظر حتى يتم علاج أصبعه. ابتسم الرجل ذو التونكا الصفراء وقال لتاليا ممازحا: من ســيعالج مـــارك سكاوروس أم ليبتينوس أم الجريح؟ فضحكت تاليا وقالت له: إن ذلك سأدعه للآلهة تقرره. ثم أردفت تاليا قائلة: ولكنك إذا اشتريت الطعام للجريح فإنه سوف يبذل مجهودا كبيرا كى يتعافى بسرعة. إن مارك سكاوروس هذا لهو رجل يرشح نفسه فى الانتخابات لهذا كان يوزع كوبونات الطعام هذه مجانا، وهذا الرجل مـــا هـــو إلا رجـــل يقـــوم بالدعاية له ولمطعمه، ثم ألقى الرجل بنظرة حالمة متلهفة على تاليـــا فهمتها بسرعة وراح يكمل نداءه وسط جمهور البشر المتزاحمين فى السوق.

مرت لحظات وعاد الشاب مرة أخرى وفى يده أوراقه وكوبوناته التى يوزعها مجانا على الناس، ثم قال لتاليا: ألا يحب زوجـــك أن يـــدلى بصوته لسيدى سكاوروس؟ فقالت تاليا وهى تهـــز رأســـها بـــالنفى: للأسف لا فهو ليس بروماني. ثم قال الفتى: هل أكلم ســـيدى ســـكاوروس كى يحاول أن يعطى المواطنة الرومانيـــة لزوجـــك؟ عندئـــذ ظهـــر ليبتينوس فى مدخل الباب، وقال للفتى إذا أعطانى المواطنة الرومانية

قبل الانتخابات فإننى أعدك أن أنتخبه وأعطيه صوتى. ثم أردف ليبتينوس، وإننى أقسم على ذلك بربى إسكالوب. ثم نظر الفتى الرومانى إلى ليبتينوس وقال له: إننى سوف أتحدث معه أعدك بذلك وسوف تسمع منى. ثم قال ليبتينوس إننى أثق به إنه يستطيع أن يفعل ذلك.

بينما خرج المريض الذى كان يعالجه ليبتينوس وقد حصل على كوبون من الفتى وهو قرير العين سعيد. بعد ذلك نظر ليبتينوس إلى تاليا وهو مكشر عن أنيابه مغتاظًا قائلا كيف لك أن تتحدثى عنى بسوء أمام الناس هكذا؟ فقالت له: ومنذ متى تتخذ من الإله إسكولاب إلها لك؟

وفى اليوم التالى كانت هناك إثارة جديدة للجمهور الرومانى، وذلك عندما أرسل الرومان قطعان الثيران البيضاء فى الشوارع، وهى مزينة بالألوان البراقة لاستعراضها أمام الجمهور الذى راح يتأملها بإعجاب فهى تمثل بالطبع عظمة الإمبراطور.

ونظرت تاليا إلى الثيران والبشر الذين يسوقونها أمامهم تجاه الميدان الجديد، وقالت لنفسها: ياإلهتى ديميتر ما أعظم تواضعك إن فى أعيادك لا تطلبين أكثر من بعض سنابل القمح وخنزير صغير. بينما آلهة الرومان تطلب كثيرًا من الأضحية الحيوانية والبشرية. إن لحوم هذه الثيران فهى للشعب الرومانى أما دماؤها فهى للآلهة، كما لابد وأن يُضحى بعشرة آلاف من التراك من أجل هذه الآلهة.

وتذكرت تاليا المصريين الذين قاموا بعمل ثورة كبيرة من أجل كبش واحد، فماذا عساهم الآن قد فعلوا لو رأوا تلك الثيران الكثيرة، وهى تذبح فى مدينة متعطشة للدماء مثل تلك المدينة البشعة روما.

بينما ليبتينوس يعبر الشارع إلى الجهة الأخرى، فقالت له تاليا: إلى أين أنت ذاهب؟ فقال لها متجاهلا: إن هناك كثيرًا من البشر لا يتعلمون أبدا وأنت واحدة من هؤلاء البشر الذين لا يتعلمون. واتجه يمشى عبر الشارع يتبعه العبد فلور.

مع مرور الأيام أدركت تاليا حقيقة مهمة ألا وهى إن مكان فى سوق الماشية كأطباء هو مكان خطأ. وذلك لأن هذا المكان لا يقيم به أحد. إن الناس كانوا يتجمعون هنا بالنهار فقط، ولكنهم ليلا يذهبون إلى بيوتهم التى كانت فى أحياء أخرى

إن الناس كانوا يأتون إما للتجارة أو لزيارة المعابد . إنها تيقنت بأنهم لا يستطيعون العيش من بعض حالات الحوادث التى تحدث من وقت لآخر مع أصحاب المطاعم والتجار. إن هذا اليوم قد مضى ولم يزر العيادة مريض واحد، أما ليبتينوس فقد عاد مع نهاية اليوم وحلول الظلام. ولم تستطع تاليا أن تتحمل هذا كل يوم فقالت لليبتينوس: إننا لا نستطيع أن نستمر هنا لا بد لنا من مغادرة هذا المكان ونفتح عيادة فى مكان تسكن به الأسر بأطفالها ونسائها وليس هنا حيث لا يعيش

أحد . فقال ليبتينوس: إننا لن نغادر هذا المكان إنه هو المكان الذى يتعرف المرء به على علية القوم وإلا كنت ظللت فى مكانى بالإسكندرية.

إن فى هذا المكان تعرفنا على السناتور، كما أن هذا المكان لا توجد به عيادة أطباء أخرى كى تنافسنا ماذا تريدين أكثر من هذا إننا سوف نبقى هنا. وقال بعد ذلك: إن الرومان سوف يعرفون أن هنا توجد أفضل عيادة للأطباء التجريبين وسوف تصبح موضة لديهم أن يزوروا عيادتنا ثم دخل غرفة النوم وأغلقها خلفه بصوت مرتفع. بينما راحت تاليا تهز رأسها أسفا على تصرفاته الغريبة وكبريائه الذى يزداد كل يوم. وقالت لنفسها: هذا المغرور الذى يريد أن يُعلّم الرومان أنهم سوف يسخرون منه ويتجاهلونه. ثم سألت تاليا العبد فلور: أين كان سيدك يافلور؟ فقال لها: إنه كان فى صحبة عدد كبير من الأطباء. ولقد كان هناك عدد كبير منهم وكان هناك طعام كثير ونبيذ وحديث كل يتحدث مع الآخر. ثم ألقى فلور بنفسه على حصيرته وراح يغط فى نوم عميق.

فى الأيام التالية أهمل ليبتينوس العيادة والأدوية التى كان يقوم بنفسه بتصنيعها عندئذ راحت تاليا تصنعها بنفسها بأصابع مرتعشة خيفة الخطأ. وقالت له: لماذا لم تعد تهتم بالعيادة وبالدواء، إن العيادة تحمل اسمك وأنت الطبيب المشهور، ولست أنا؟ فلم تلق منه جوابا.

وأخذ ليبتينوس يلقى أوامره على فلور العبد، ويكلف العبد بأعمال طبية لا يفهمها. بينما يتجاهلها تماما. وقد سألته سؤالا طبيا وهو لماذا يستعمل بول الأفراد الذين يأكلون الكرنب باستمرار فى العلاج؟ فلم يجبها على ذلك. إنها كانت تعرف أن روما كان بها إله الكرنب.

وراحت تاليا تسأل عن سوق الخضار حتى وصفه لها أحدهم ومشت بمحاذاة حائط المدينة القديم حتى استطاعت أن ترى الطبيب الرومانى وهو يجلس على كرسيه أمام عيادته. إنه كان يدعى أوليوس كالبورتيوس فروجى. وقد كانت عيادته الوحيدة أيضًا مثل عيادتهم وهو يعانى مثلهم أيضًا من قلة الزبائن.

لقد كان الرجل جالسا يقرأ ولم ير تاليا ، فحيته تاليا تحية طيبة فرد قائلا: أهلا بك ياسيدة ليبتينوس السكندرى. فقالت تاليا له: إننى اسمى تاليا حيث إن زوجى ليبتينوس قد نسى أن يذكرنى فى اجتماعكم السابق. بينما كانت تاليا تنظر إلى يده كى ترى عما إذا كان جرحه قد شفى أم لا؟

فى الحقيقة إن السيد فروجى ليس بطبيب المدرسة التجريبية التى تنتمى إليها هى وليبتينوس فقال لها الرجل: إننا عندما نتقابل لا نتحدث عن نسائنا: بل نتحدث فقط عن الوسائل الطبية والأدوية الحديثة. فقالت له تاليا: إننى طبيبة أيضًا فقال الرجل لها: إنه أخبرنا فقط بأنك قابلة وفى بعض الأحيان تنظرين فى كتبه الخاصة به. وإننى أنصحك

أن تبقى قابلة فقط لأن النساء هنا فى روما لا تشغل نفسها سوى بالأدب والبلاغة. ولكنهن نساء قد تعلمن فى المدارس وهذا ما لم تحصلى عليه أنت. ثم إنك أمة سابقة يكفى عليك أن تكونى بائعة فول أو حتى بائعة مسامير ولا يجب عليك أن تطمحى فيما هو أكثر من ذلك. ثم راح ينظر إليها باحتقار.

أما تاليا فقد قالت لنفسها: إن فروجى ليس له الحق أن يعاملنى بهذه الطريقة، حيث إن تاليا قد عملت بنصيحة المرأة الرومانية كورينا، فارتدت ملابس جميلة وتزينت بالحلى التى كانت لديها وهى الخاتم الوحيد الذى أهداه لها موتومبال. وسرحت شعرها على طريقة السيدات الرومانيات النبيلات. إنها لا ينقصها شىء. عندئذ رفع الطبيب العجوز يده وهو يريها لتاليا قائلا: إن يدى شفيت، إن الكتاب لديه حق، أرجو أن تعيرينى كتابك هذا.

لقد كانت تاليا تغلى من الغيظ بداخلها ثم استطرد الرجل قائلا: إنك سوف تحصلين عليه مرة أخرى وبسرعة. فقالت تاليا: يمكنك أن تستعير هذا الكتاب من مكتبة روما ، فلا بد وأن تحتوى روما على مكتبة مثل مكتبة الإسكندرية.

فنهض الرجل مغتاظا وقال: إننا نحن الرومان نهتم بالكتب وبأدراجها ولكن فى حالة أن ينقصنا أى كتاب فإننا نحصل عليه من الإسكندرية. فقالت له تاليا نعم الإسكندرية؟

إن الطريق إليها لكى تستعير منها كتابا لهو طويل. أما مكتبـــاتكم فى روما فإنها تحتوى على أعمدة أكثر مما تحتوى على كتب. ولـــم يرد فروجى أن يستطرد فى نقاشه مع تاليا فجلس ووضع رأسه بـــين يديه . فقالت له تاليا: إن سوق الخضار يقع خلف الحائط أليس كذلك؟ فلم يجبها بل قال لها : إنك تودين أن تشترى كرنبًــا ألـــيس كـــذلك؟ فقالت له تاليا متعجبة: هل مكتوب ذلك على جبهتى مـــا الـــذى أود شراءه؟ فضحك الرجل وهو يضرب بكفيه على فخذيـــه نعـــم لأننـــا بالأمس قد أخبرنا ذلك لزوجك اليونانى وعلمناه كيف يستخدم الكرنب فى العلاج. فراحت تاليا تفكر كيف تشترى بول من يأكلون الكرنـــب وكيف تسأل عنه ومن تسأله؟ عند ذلك هز الطبيب الرومانى رأســـه وقال لها: الآن لن تحصلى على بول آكلى الكرنب لأن الوقـــت الآن صيف، والكرنب يؤكل فى الشتاء. فما عليك سوى أن تعطى الأوانى للناس شتاء فى الأحياء الفقيرة، وفى الصباح يأتونك بهـــا مملـــوءة ، لأن الناس فى الشتاء تأكل كثيرًا من الكرنب بصفة خاصة فى تلـــك الأحياء الفقيرة.

أما تاليا فقالت له بخصوص الكتاب الذى تـــود اســـتعارته فإنـــه مكتوب باللغة الديموطيقية ولا أعتقد أنك تستطيع قراءتها وإن لم تكن هناك ترجمة لهذا الكتاب باللغة الرومانية فإننى أستطيع قراءة الكتاب لك.

ثم ابتعدت تاليا عن الرجل مسرعة فى خطواتها، وتغنى أغنية مشهورة فى الإسكندرية. اتجهت تاليا إلى سوق الخضار وهى مغمورة بالذكريات القديمة من صيدا والإسكندرية. إن أنواع الخضروات كانت تاليا تجدها فى الإسكندرية سواء كانت ثوم أم بصل أم فول أم حمص أم بسلة أم بروكلى، ولكن الشيء الوحيد الذى كان شحيحا بالإسكندرية هو الكرنب الرخيص الذى كان لبيتينوس يستخدمه فى الأغراض الطبية.

عندئذ قالت تاليا: إن فروجى محق فيما قال، ولكنها فى الواقع لم تتذكر أنها قرأت شيئًا عن العلاج بالكرنب طوال حياتها بالإسكندرية. فجأة وقف أمامها فلاح عجوز ذو بشرة بنية وعينان ذكيتان وقد مد يده مملوئتين بالخوخ الطازج فمدت تاليا يدها وذاقت واحدة فوجدتها ذات طعم لذيذ. فقررت أن تشترى نصف كيلو وذلك لأن هذا الفلاح لابد له وأن يعيش أيضًا، وأعطاها الرجل طبق من الفخار كى تضع به الخوخ.

ثم راحت تاليا بعد ذلك تتجول بين عربات الفاكهة والخضار متمتعة بمناظر العربات والخضروات وشوادر الفاكهة وراحت تشم روائح الخضروات والفاكهة باستمتاع بالقرب من عربات الخضار والفاكهة كان هناك أحد الخطباء يخطب ويتحدث، بينما راحت تاليا تسمع حديثه دون أن تود الذهاب إليه.

وعلى ما يبدو كان الخطيب مسيحيا حيث سمعت الكلمات تقـول" إنك ساعدت المحتاجين، وأخرجت الواقعين فى حفر مـن كبـواتهم، وأنت الذى هزمت الجبارين المغرورين، هكذا يقول لكم يسوع مـن الناصرة ابن الرب". عند ذلك قالت تاليا لنفسها: إننى سـمعت هـذا الصوت قبل ذلك. وقررت أن تقف على أى شىء مرتفع كى تـرى صاحب هذا الصوت، فصاحت تاليا قائلة: يـاإلهتى ديميتـر أرجـو مساعدتك، إنه المسيحى الذى رأيته بالإسكندرية خطيبا إنه سيماخوس وهو يدعو هنا فى قلب روما إلى المسيحية. ثم قالت تاليا فى نفـسها إنه من الأفضل له أن يهتم بابنه الأعمى عن أن يخطب فـى النـاس ويدعوهم إلى المسيحية. وقالت امرأة مسيحية كانت تقف وسط النساء لتاليا: ضعى شال على رأسك واقتربى يا أختى فإن سيماخوس لديـه أخبار جميلة وجديدة لنا. فقالت لها تاليا: إننى لا أنتمى إلـى ديـانتكم ولا أريد الإزعاج. فقالت المرأة لتاليا: إننا لسنا فى حاجـة إلـى أن نختبئ، ففى وقت تراجان كل شىء جائز وممكن. ثم راحت المـرأة تركز فيما يقوله سيماخوس من خلال مظهر هؤلاء الناس المجتمعين حول سيماخوس كانوا إما عمال باليومية أو إنهم عبيد، حتى إذا انتهى سيماخوس من خطابه انتشروا بسرعة مبتعدين عن المكان كل إلـى وجهة أخرى.

إن طقوس المسيحيين هنا فى روما تختلف عما كانت عليه فى اليوسيس بالإسكندرية، حيث إنهم بالإسكندرية كانوا بعد كل اجتماع يغنون ويرقصون ويشربون مشروبا مخلوطًا بالنعناع. بينما أرادت تاليا الانصراف إذ رأت لاكتوكيوس يخرج من أحد المنازل التى كانت توجد بالسوق وهو هنا معروف بالعين الكبيرة وذلك لأن الرجل كثيرًا ما يذهب يتجسس لصالح السناتور.

أخذ لاكتوكيوس يمشى خلف سيماخوس ويراقبه دون أن يشعر الآخر به. رجعت تاليا إلى سوق الماشية دون استعجال وهى تفكر فى تريمالخيو الذى كان يكره المسيحيين من أعماقه كلها وهو صديق للكستاكيوس الذى كان هدفه فى الحياة المال فحسب. وكلا الرجلين من مجموعة أصدقاء السناتور ماكسيموس الذى كان من الطراز الرومانى القديم المحافظ. ثم راحت تاليا تفكر فى المرأة المسيحية التى اعتقدت فى التو واللحظة أن تاليا مسيحية ربما لأنها تشبه كثيرًا من العبدات اللاتى كن ذوات شعر أصفر وعيون زرقاء مثلها. وكانت كثيرات منهن مسيحيات.

عندما وصلت تاليا السوق وجدت به روائح أبخرة تنبعث من روائح الأضحية التى كانت تقدم فى المعبد. فجأة سمعت تاليا صوت يشبه صوت الأطفال ينادى عليها بقوله: ياتاليا العزيزة كيف أخبارك، ماذا عن السعال الذى كنت تعانيه؟ هل تستطيعين أن تتذكرينى؟

فقالت تاليا: نعم ياسوتن إننى بخير. وأنت كيف أخبارك ياسـيوتم، إن سيوتم كان هو الطفل المريض فى مدرسة العبيد. ثم ضـمته إليهـا وهى تقول إننى أعتقد أننى اليوم سأقابل كل من كـان بالإسـكندرية، حيث إنك الشخص الثالث الذى أقابله اليوم من أصل سـكندرى. ثـم سمعت صوتا آخر تكرهه تاليا طالما حييت ، ولما نظرت إلى مصدر الصوت رأت أفرانيا أجريكولا وهى بذلك تعتبر الرابعـة فـى هـذا اليوم. وأخذت كل منهن تحملق فى الأخرى. ثم تحركت أفرانيا وهى تمشى خلف كلبها، بينما كانت النساء الأخريات من هن على شاكلتها يمشين خلفها وهن يرتدين الفاخر من الثياب ويتزين بريش النعام. ثم رحن هؤلاء النسوة العجائز يحدقن فى تاليا وتاليا تحدق فيهن، خلفهن كان عبيدهن يحملن لهن الشماسى والشيلان.

أما أفرانيا فقد عادت مرة أخرى وأخذت تحملق مجددا فى تاليـا، فقالت لها تاليا " هل تودين أن تأكلينى؟ إننى لست دجاجـة مقدسـة! بينما تحلقت النساء حول تاليا وأفرانيا يراقبن الموقف بينهن، وقالـت لها أفرانيا: لا تتجرئى على مقدساتنا وإلا عاقبتك عقابا شديدا. فقالت لها تاليا : إنك لا تستطيعين معاقبة أحد سوى عبيدك. فقالت أفرانيـا بلى أستطيع معاقبتك عن طريق ليبتينوس حيث إنك العبـدة الوحيـدة من عبيده التى لم يبعها بعد وهذا ممكن أن يحدث فـى أى لحظـة. فقالت لها تاليا: إنه ليس لك الحق فى أن تتحدثى معى أو مـع ليبتينـوس

لأنه الآن زوجي وأنا حرة ، فوقعت الكلمة على رأس أفرانيا موقع الصاعقة، ولم تعد تفهم العالم حولها ثم انصرفت تاليا تجاه العيادة والمرأة الرومانية خلفها. ولم تكد تاليا تقف على السلمة الأخيرة أمام عيادتها حتى قابلتها أفرانيا بصفعة على وجهها فابتسمت تاليا وضربتها أيضًا على وجهها، فصاحت أفرانيا وهى تقول: أين ليبتينوس؟ ولم تنتظر طويلا حيث ظهر ليبتينوس أمام فتحة الباب، فلما رأته لم تتمالك نفسها من شدة شوقها إليه حيث كان مرتديا التونكا الرومانية وحليق الذقن حتى أنه بدا أجمل مما كان من قبل. فمدت يدها واحتضنها حتى لا تقع فلما احتضنته وشعرت بأعضاء جسمه همست فى أذنه قائلة : إننى أغفر لك كل أخطائك إنها نسيت كل غيظها من تاليا ، الآن ليبتينوس موجود فى روما إلى الأبد، بينما زوجها فى الخارج لمدة طويلة. ثم قالت له بصوت متهدج متقطع أرجو أن تزورنى غدا فى بيتى إننى أعانى بعض المتاعب، سأنتظرك فى مثل هذا الوقت غدا. فلم يستطع ليبتينوس أن يجيبها بالموافقة بسرعة، حيث إن مشاعره مازالت متعلقة بفيلون بالإسكندرية، فقال لها: إننى مشغول جدا وسوف أحاول أن أجد الوقت لذلك. ثم رفعت يدها بالتحية وهمت بالانصراف، بينما تقول لإحدى صديقاتها إن هذه الحية المصرية قد سممت بدنه تجاهى فى البدايه تدعه يحررها ثم تتزوجه، رغم أنه طبيب ذكى ونابه إنى أعرفه جيدا منذ كنت بالإسكندرية.

أخذت تاليا تسمع حديث أفرانيا مع صديقاتها حتى اتجهوا جميعا إلى شارع جانبى ثم سمعت تاليا صوت أحد الرجال وهو يسأل من تكون تلك المرأة؟ فقال له الآخر: إنها عبدة من قليقيا وقد تم تحريرها وهى تنتمى إلى فرقة المسيحيين. ثم أخذت تاليا تتابعهن بنظراتها وهى متقززة منهن جميعا.

بينما راح سيتنوم يمشى خلفهن وفى كل يد من يديه اثنتان من ثمار الخوخ. أما ليبتينوس فقد كان مغتاظا من تاليا وقال لها: إنك متعلقة برقبتى مثل حجر الطاحونة، يا إلهى إن هذا الأذى قد جلبه لى تريمالخيو. فقالت له تاليا: إن ذلك كان اختيارك، أما الخيار الثانى فكان الإسكندرية أو بتنين وأنت الذى اخترت روما بمحض إرادتك، ثم أجبرتنى أن آتى معك إلى هنا. ولمعلوماتك فإن أفرانيا تلفك مثلما تفعل العناكب بالذباب، وسوف تبصقك قريبا بعد أن تكون قد امتصت دماءك وأكلت لحمك. فضحك ليبتينوس من تعليق تاليا هذا.

أما الترتيبات النهائية للألعاب فقد بدأت حيث تم نصب المسارح الخشبية وراح المرء يرى فى كل مكان أعمدة الخشب فى منطقة سوق الماشية حتى أن تاجر الأسماك أخذ يسب ويلعن بنى جلدته الرومان لأنه لم يجد مكانًا يقف فيه بأسماكه وهو يقول: إننى أدفع إيجارًا طوال العام لهذا المكان والآن تأتون وتغتصبونه منى.

فى اليوم التالى ومنذ الصباح الباكر سمعت تاليا ضوضاء وجلبة الذين جاءوا من كل مكان إلى سوق الماشية كى يروا ما يحدث ويشاهدوا هذه الألعاب. فلم تستطع تاليا النوم وخرجت كى تنظر ما يحدث فرأت أعدادا غفيرة من الرومان والعبيد والخدم وهم يرتدون ملابس الاحتفالات ويجلسون فى المدرجات. كما كانت جميعها معابد المدينة فى هذا اليوم مفتوحة للزوار. ثم انطلقت السرينة تعلن تحرك هذا القطار البشرى الرومانى من ميدان مارس نحو ميدان سوق الماشية. وبعد فترة أخرى سمعت تاليا نفسها السرينة وجاء العبد ينادى عليها قائلا: إن الموكب قد وصل الميدان. فى تلك الأثناء كان على تاليا أن تعالج طفلة فى الخامسة من عمرها قد دخلت فى يدها قطعة من الخشب وأخذت تصرخ بينما تاليا وأمها يقومان بتطبيبها.

فى تلك الأثناء تحدثت تاليا مع الأم عن تربية الأطفال وإنجابهم فسحرت بحديثها المرأة الرومانية، حتى إذا وصل موكب الاحتفال كانت تاليا قد انتهت من معالجة الفتاة وخرجوا جميعا يتفرجون على الاحتفال. وقفت تاليا تنظر من خلال الفتحات الخشبية للمسرح، أما ليبتينوس فقد حصل على مكان فى المقدمة كالعادة، ولكنها لا تستطيع أن تراه. وتقدمت العربات محملة بكل ما اغتصبه الجنود الرومان من البلاد الأجنبية، بصفة خاصة تراكيا، بجوار تلك العربات كان هناك جنود يمشون وهم يحملون على أيديهم لوحات فوقها ذهب ولوحات

أخرى فوقها فضة ونحاس وإلكترون، وعنبـــر وقـــصدير وحديـــد وصمغ وملح. كذلك بينما حمل أحد الجنود لوحة كبيرة عليها معلومات تقول إن الإمبراطور تراجان سيمنح كـــل دافـــع ضـــرائب ســـتمائة وخمسين دينارًا، وكذلك تحريرهم من دفع الضرائب ثم جاءت عربة يحرسها ثمانية من الجنود المسلحين وهم يصيحون بصيحات النـــصر ويحييون الجمهور بتحيات عسكرية. ففكرت تاليا بقولهـــا: إن هـــذه الأشياء مسروقة ومغتصبة كلها، كيف لهذا الشعب الرومانى الصغير أن يغتصب هذه الكنوز من تلك البلاد الأجنبية كلها. ثم جاء عـــرض الأسرى وهم مربوطو الأيدى من الخلف، عندئذ تعالـــت التـــصفيقات وارتفع الهتاف واضطرت تاليا أن تقف على أطراف أصـــابعها كـــى ترى ما يحدث خلف خشبة المسرح. فرأت تاليا جندى وهـــو يحمـــل رأس فوق حربة، بينما العينان مفقوءتان ويدا هذه الرأس مقطوعتـــان ويحملهما جندى آخر على حربة أخرى. ثم عبد ثالث يحمـــل لوحًـــا مكتوبًا عليه" هذا الذى جلب العار على بلاده". إن هذه الرأس لملـــك التراك الذى أخذ يقاوم الرومان عشرة أعوام، بينما تنظر تاليا عبـــر فتحات الخشب إذ بصبى صغير ينظر عبر الفتحات أيضًا ولكن مـــن الجهة الأخرى وقد اعتقد بأن تاليا مريضة ، فقال لها: إن خلفك عيادة بها طبيبان، فقالت له تاليا: نعم أعرف لأننى واحدة مـــن الطبيبـــين بتلك العيادة. ثم أتبع الفتى قائلا: إن الرومان قساة القلـــوب وبـــصفة

خاصة فى حالات الشرف. إنك لا يبدو عليك وكأنك رومانيـة. هـل أنت تراكية؟ فقالت تاليا: بغيظ لا. عندئذ راح الفتى يبـدى إعجابـه بتاليا قائلا على ما يبدو فإنك ساحرة وجميلة والإله جوبيتر يشهد على قولى هذا.

ثم راح الفتى يسب التراك فقالت لـه تاليـا: والآن فلتفـرح لأن كنوزهم وأملاكهم حصل عليها قيصركم. فأغلق الفتى فمه وهو متبرم من إجابتها ثم انصرف. بعد ذلك جاء فى العرض عشرة مـن قـواد جيش التراك الذين كانوا مقيدين بالـسلاسل فـى أيـديهم والجنـود يعرضونهم على الجهات الأربع، حتى يستطيع الناس رؤيتهم من كل ناحية. بعد ذلك يساقون إلى حيث يقتلون.

لقد بدا عليهم الإرهاق والتعب وملابسهم كانت ممزقة، كمـا لـم يخفَ على المرء أنهم كانوا ذا عزيمة وفخر بقوميتهم. فى لحظة مر موكب الأسرى التراك قريبا من تاليا فتبادلت النظرات مـع أحـدهم الذى كان ذا شعر بنى، وحيته بلغة الترك فرد عليها التحيـة باللغـة نفسها. بل إنه توقف أمام تاليا رغم أن هناك جنـدى كـان يـسحب السلسلة. فرح الرجل فرحا شديدا أن حياه أحدهم ومشى وهو يرفـع يديه على رأسه صانعا بذلك هيئة الثعبان الذى كان مقدسًا عند التراك. بـل إن بقية التراك الآخرين أخذوا يرددون التحية أيضًا بلغة بلادهم. وراحـوا يرقصون وهم مقيدون فى أغلالهم ويرددون اسم إلههم زاباتسيوس. بينمـا الشعب الرومانى متعجب ومستغرب من هذا التصرف.

ثم أراد رئيس الشرطة أن ينهى هذه المهزلة فأعطى أمرا أن ينزل جندى بسيفه، فنزل الجندى وضرب رأس قائدهم بسيفه، وتدحرجت رأسه بين أرجلهم. ثم أمسك الجندى بهذه الرأس فى يده ورفعها كى يريها للجمهور وهو يقول هذه الرأس سوف تقدم فى المعبد كأضحية. إن هذا الجندى كان ذا حظ كبير حيث إنه فى تلك اللحظة لم يثر أحد ولم يهاجمه أحد من الجمهور بسبب فعلته هذه. ولكن الجمهور بادله الصياح والضجيج لفعلته هذه وراح ينادى بقوله أضحية للمعبد وهكذا كان الرومان. ثم فكرت تاليا لو أن الجمهور هاجم الجندى وقتله لكانت تاليا السبب فى قتل اثنين من البشر أما الآن فقد تسببت فقط فى مقتل هذا التراكى. وتوقعت تاليا أن يأتى الجنود ويقبضون عليها. وفى لحظة شعرت تاليا أن يدًا تلمس كتفها فلما نظرت إلى مصدر هذه اليد وهى تصيح من الفزع، وجدت الفتى الرومانى يحمل فى يده الورود وهو يقدمها لها قائلا: إنك بالفعل ساحرة. أخبرينى ما اسمك ، فقالت تاليا: أنا من الإسكندرية واسمى تاليا. ثم أعطاها الورود وانصرف مبتعدا.

ذهبت تاليا إلى العيادة فوجدت ليبتينوس هناك، فهى لم تره عندما دخل المسرح ولم تره عندما خرج ربما كان عند أفرانيا ولم يأت إطلاقا إلى المسرح. نظر ليبتينوس إلى الورود فى يدها وهو دهِش

وقال من معجب؟ إن الحظ صادفك مرة أخرى وهو ما لا تستحقينه! فقالت له تاليا مستغربة حديثه هذا: ماذا تقصد؟ فقال لها: إننى ســوف أطلقك ويمكنك أن تذهبى إلى عشيقك هذا..

الفصل التاسع عشر

العاهرة

لم تدرك تاليا ما قال ونظرت إليه وهى مرتبكة: ولماذا تطلقني؟ أعتقد أن أفرانيا قد لعبت برأسك ، بينما راح يضحك وهـو سـعيد. فقالت تاليا: إننى سوف أتحدث معها، فما كان منه سوى أن هز كتفيه دون اكتراث ثم ألقى بنفسه على سريره وهو يقول: إننى لم يكن لدى اهتمام بموكب النصر هذا. فخرجت تاليا مسرعة من مكانها فإذا بهـا تصطدم فى تلك اللحظة بلاكتوكيوس فنهرته تاليا قائلة: ابتعد عـن طريقـى أيها الخليط من السلاطة. عند ذلك قرر لاكتوكيوس أن يتبعها حيث رأى أنها فى حالة خطيرة من الهياج. أما قصر أجريكولا فقـد كـان فـوق هضبة مرتفعة تطل على روما، تمامًا مثل قصر ماكسيموس الـسناتور. نعم لقد كان هناك تنافس وغيرة بين العائلات الرومانية وهكذا فإن عائلة أجريكولا قد اكتسبت عدوة جديدة ألا وهى تاليا.

طوال الوقت كانت تاليا تعتقد أن أفرانيا هى السبب فى سوء الحظ الملازم لليبتينوس، وهى السبب فى إنه يعاملها بسوء منذ أن وطـأت أقدامهما روما. إن الطريق إلى قصر أفرانيا مازال طـويلا فتنهـدت

بعمق وأخذت تقطع الطريق متجهة نحو الأعمدة التى تراهـــا. حتـــى صعدت تاليا أخيرا هذه الهضبة التى يعلوها القـــصر وهـــى تـــشعر بالآلام فى رجليها من صعوبة الطريق. فرأت أشخاصًا يقومون بنقل النباتات من هنا أو هناك يقومون برى الزروع وكذلك وهم بـــالطبع ليسوا برومان. ثم وجدت تاليا شجرة صنوبر ينام تحتها كلـــب وهـــو للزينة وليس للحراسة فتخطته تاليا وأكملت سيرها بينما جحظ الكلب بعين واحدة وراح يهز ذيله ولم يبد حراكا. بل أن حارس البيت لـــم يكن موجودا فدخلت تاليا صالة القصر. عند ذلك سمعت تاليا صوت امرأة وصوت رجل ، وعرفت تاليا فى التو أن هذا الصوت النـــسائى ليس صوت أفرانيا كما أن وجه هذه المرأة كان طويلا وأسنانها العليا بارزتان للأمام. وعندما نظرت المرأة والرجل إلى تاليا رفع الرجـــل حاجبيه البنيين إلى أعلى وكأنه يريد أن يطرح سؤالا ولكن المرأة لم تعطه الفرصة فصاحت بصوت مرتفع كيف تدخلين هنـــا بـــدون أذن وأنت تتسحبين هكذا، من أنت؟ فرفع الرجل يده وهو يقول لهـــا(ش-ش) إن الصوت المرتفع ليس بجيد على صحتك يايوليا. إنها لا تبـــدو خطرة أو سيئة. فقالت يوليا: انظر كيف أنها قد ضمت يديها وكأنهـــا تود أن تضرب أحدًا. فأجابها الرجل وهو يحاول أن يهدئها بالتأكيـــد أنها كانت تريد شيئًا ما من قصر عائلة أجريكولا. ثم قالت يوليا: إنه يوم غريب، إنه لا يوجد عبيد اليوم بالمنزل إننى كنت أشعر أن هناك شيئًا ما سوف يحدث. ثم قالت تاليا: إننى لست بهذا القدر من التخلف

حتى أهاجم رومانية بقبضة يدى، إنك لست بحاجة إلى أن تنادى عبيدك، ثم قالت تاليا: إننى أريد أن أتحدث فقط مع أفرانيا أجريكولا. فأجابتها يوليا وأنت أيتها الشردوحة تجرئين للحديث مع أفرانيا؟ فأجابتها تاليا: إن الشردوحة هى التى تجبر الشراديح أمثالى أن يأتوا إلى هنا كى يتحدثوا معها. بينما كانت تاليا تتبادل الأحاديث مع المرأة، رأت أن الرجل الواقف بجوارها ينظر إليها بتفحص وإمعان فلم يرق ذلك لتاليا. فسألته محتدة: لماذا تحدق فى هكذا؟ فأجابها الرجل مبتسما ومهذبا أرجو أن تذهبى إلى طبيب جيد كى يخيط لك الشفة العليا. فلم تستطع تاليا أن تتقبل كلماته هذه وامتلأت عيناها بالدموع وهمت بالانصراف ولم تنظر خلفها، ومن شدة ارتباكها فإنها نزلت من القصر خلال السلم الحلزونى الطويل بدلا من الطريق المختصر. خلفها كان صوت يوليا يبلغها أن أفرانيا ليست مقيدة فى القصر إنها اليوم بصحبة الإمبراطور فى المسرح. ثم أخذت تاليا تفكر بقولها لماذا يترك زوج أفرانيا زوجته مسافرة بين الإسكندرية وروما وهى تسبب المشاكل فى كل مكان تذهب إليه. أو إنه يختبئ منها عنية؟ إن روما اليوم بأكملها كانت فى المسرح يشاهدون موكب النصر. ولم يبق أحد فى المنزل سواى لأسباب قوية، فى قصر أجريكولا أيضًا. ثم أخذت تفكر تاليا فيما قاله لها الرجل، ربما لم يقصد أن يغضبها فإنها قالت لفروجى يجب أن تستخدم الثوم لديك أيضًا. إنها فقط كانت غاضبة وثائرة فى تلك اللحظة. على أى حال

إنها لابد وأن تجد اليوم أفرانيا، إن الاحتفال اليوم سوف ينتهى بـــذبح الثيران عند معبد الإله جوبتر حيث يكون هناك الإمبراطور وأتباعه. إنها ترى المعبد من مكانها فإنه يقع فوق هضبة مرتفعة أيــضًا ، إن العادات عند الرومان كانت متمثلة فى صنعهم معابد الآلهـــة كبيـــرة وجميلة ويصنعون بها تماثيل ضخمة لهذه الآلهة. أما معابد الإلاهات فقد كانت صغيرة وتماثيلها أصغر، بل كانوا يخبئون تلك التماثيل بين المنازل. وكأنهم قرروا أن يصنعوا آلهتهم بأنفسهم.

لقد كانوا يفضلون الآلهة على الإلاهات. ومثال على ذلــك معبــد الإله جوبتر الضخم الكبير ومعبد الإلاهة يونو الضئيل الصغير. ثــم راحت تاليا تسير حتى وصلت إلى منطقة منخفضة كـــان الرومـــان يطلقون عليها لقب المخبأ. وراحت تنظر إلى أعلـــى حيـــث المعبــد بأعمدته الضخمة ، هناك رأت من مكانها أصحاب العباءات البيضاء وأصحاب العباءات الحمراء وهم يتحركون فى صمت بـــين جنبـــات المعبد. حيث قام القيصر بتقديم عجل ثمين للإله الأكبر جوبتر. إنهـــا تتذكر الآن مقولة بنتانوس ، حيث إنه قال لها: إن الآلهة قد اختفـــت الآن ولم يبق منها أحد. إن هذه الثيران كلها التى يضحى بها القيصر لهى أملاك الشعوب الأخرى التى نهبها منهم الرومان ومنها هى بدءا ببريطانيا ونهاية بسوريا وبلاد أخرى فى العالم أيضًا.

لقد كانت تاليا فى أثناء سيرها غارقة فى أفكارهـــا، حتـــى أنهـــا اصطدمت بتمثال أحد الآلهة وكادت أن تصيح من الألم لولا نظـــرات

أحد الرومان الغاضبة، إنها لابد وأن تبدى تدينا وروحانية فى هذا المكان حتى لا يهاجمها أحد. حتى إذا انتهت الصلوات بالمعبد بدأ الناس يتزاحمون وهم خارجون ، جزء منهم ذهب إلى القصور وهم الأغنياء، والجزء الآخر اتجه إلى الشوارع وهم الفقراء الذين كانوا يأكلون فى الشارع.

وراحت تاليا تصعد درجات سلم عريض والرومان ينظرون إليها مستغربين، بينما لم يرها عدد كبير منهم لأنهم كانوا فى أحاديث جانبية مع بعضهم بعضًا. وفى النهاية رأت تاليا أفرانيا أجريكولا تقف وسط مجموعة من الرومانيات. اتجهت إليها تاليا مسرعة وهى تزيح صديقاتها من أمامها حتى إذا وصلت إلى أفرانيا التى ارتجفت عندما رأت تاليا أمامها، ثم قالت: كيف تجرؤين على أن تقنعى زوجى بأن يطلقنى؟ واجتمعت النساء بين تاليا وأفرانيا كى يرون ماذا يحدث بين السيدتين.

وفى الصالة الأمامية بدأ السناتورات والشخصيات المهمة تتقدم للأمام كى يروا ماذا يحدث. لقد سألت تاليا مرة أخرى وهى ثائرة ولكنها نسيت أنها نفسها فى الواقع ما هى إلا لعبة فى يد تلك المرأة التى قالت لها: أتريدين حقيقة أن تعرفى كيف أقنعه بأن يطلقك؟ هل تودين معرفة ذلك أمام عبدة جوبتر حارس العهود والمواثيق؟ وكذلك أمام الإلاهة يونو حامية الأسرة؟ إننى لم أكن أعتقد بأنك بهذا

الغباء ولكنك فى الواقع غبية، أتودين أن تعرفى الإجابة فى حضرة هؤلاء السناتورات والمنقذين كلهم؟ ثم التقطت أفرانيا أنفاسها قائلة:" إن ليبتينوس السكندرى لا يستطيع أن يعمل هنا كطبيب لأن مهنة الطب فى روما تمنع أن يكون الطبيب متزوجا بعاهرة وأنت عاهرة، إذا فلن يسمح له بمزاولة المهنة إلا إذا طلقك".

وراحت أفرانيا بعد كلامها هذا تنظر حولها كى ترى تأثيره على الحضور. ثم سمعت تاليا صوتًا ضخمًا وهو يقول: هل هذا الطبيب الذى ختمنا له قريبا شهادة المواطنة الرومانية؟ فأجابته أفرانيا بقولها نعم هو يا سيد بولخر، إن هذا السناتور ذو صوت مسموع فى البرلمان الإيطالى ، كما إنه ذو تأثير كبير أيضًا. ثم قالت أفرانيا: إن هذا الطبيب هو تلميذ سورانو وهو ممتاز مثل سورانو أيضًا وأنها لخسارة كبيرة لروما ألا يحصل هذا الطبيب على حق المواطنة الرومانية. فقال بولخر:" إذا كنت أنت تتحدثين هكذا فى صالحه فلا بد وأن نمنحه حق المواطنة يا أفرانيا، ثم أردف قائلا، إنك تبدين اليوم ساحرة يا أفرانيا". الآن فاقت تاليا من هول المفاجأة وقالت وهى مغتاظة فى الحقيقة إن الرومان قد عملوا منى عبدة ولكننى لم أكن قط عاهرة. وأما ما يتعلق بالعهر والعاهرات فإن روما هى المدينة الوحيدة فى العالم التى بها العهر والعاهرات، فهى المدينة الوحيدة التى يلجأ فيها نساء الطبقة العليا إلى العهر طواعية ، حيث إن

السناتورات لا يحتاجون لأن يدفعوا شيئًا عندما يزورون الحمامـــات وأماكن الساونا. فضحكت أفرانيا باستمتاع عندما سمعت كلام تاليـــا لأن هذا السناتور الواقف الآن ينطبق عليه قول تاليا حرفيا، حيث إنه ضبط قبل ذلك مع فتيات صغيرات فى حمامـــات الـــسباحة وكانـــت فضيحة كبرى فى روما.

لقد فعلت تاليا غلطة كبيرة أهدتها الآلهة إلى أفرانيا. ثم قالت أفرانيـــا مستطردة: إن تريمالخيو كان يدفع لك من أجل أن يقضى وقتـــا ممتعـــا معك فى سريرك أليس كذلك؟ واســـتطردت بقولهـــا وبـــصفة خاصـــة تريمالخيو الذى يعمل قاضيا، يعرف جيدا أن العاهرة غير مسموح لهـــا بالزواج. فقالت تاليا وهى تغالب دموعها: إننى سوف استدعى تريمالخيو كى يشهد بأن ذلك غير حقيقى، وأن ذلك كله كذبا.

لقد كان السناتور بولخر عجوزا وسمينا ولكنه كان ذا تـــأثير كبيـــر حتى أن تلك المرأة اللعوب كانت تعمل له كثيرًا من الحسابات أيضًا. ثـــم تحدث الرجل قائلا إننى هذا العام رئيس محكمة روما والذى لا تعرفينـــه ، أننا قد وجهنا اتهام إلى السيد تريمالخيو بالخيانة العظمى، والقتل وســـوف يحاكم قريبا والأشخاص المتهمين لا تعتد المحكمة بشهادتهم.

عندئذ قالت أفرانيا بصوتها المقزز لتاليا: والآن أيتها الـــسكندرية اذهبى من هنا ولك أن تعلمى، أننا نستطيع فى أى لحظة أن نوجه لك

تهمة خيانة البلاد، أو أن نطردك من روما أليس كـذلك يـا رئـيس القضاة؟ ثم أخذ الرجل يتأمل تاليا التى أدركت من نظراته بأنها لـن تصلح لأن تكون واحدة من فتياته اللاتى كان يلهو معهن فى الحمام. ثم قال الرجل موجهًا حديثه لأفرانيا: بالمناسبة يا أفرانيا إننى أعطيك الأذن فى أن تتصرفى كما تشائين بخصوص المنحة التى كنت تودين أن تسأليني عنها. فقالت له أفرانيا: إننى اقترح بأن تحـصل الفتيـات على مثل الحقوق التى يحصل عليها الفتيان. فقال الرجل: أليس هـذا بكثير؟ فقالت أفرانيا: لا ليس بكثير وذلك كى أمنع فتيات روما بـأى وسيلة من البغاء. فقال السناتور بولخر: أوافقك الرأى يا أفرانيا لـك ما تشائين. فقالت تاليا فى سرها: إن كثيرات من الرومانيات واللاتى يرتدين تلك العباءة الرومانية بل إن لم يكن جميعهن فإنهن باغيـات عاهرات. ثم فكرت قائلة: إن قاذورات العالم كله تجتمـع فـى تلـك المدينة روما، يا إلهى لماذا لا يقوم أحد بفعل شـىء ضـد هـؤلاء الظالمين. إن ما يحدث لتاليا الآن هو بداية سلسلة انتقامات أفرانيا من تاليا إنها نادمة على معرفة هذه الشخصية.

أما فى الشارع الذى كانت تسكن به تاليا فكانت تفوح به رائحـة اللحم البقرى فى كل مكان، وفى طريقها إلى المنزل اشترت لها طبقا من شوربة البسلة والذى لم يعجبها طعمه، حيث كان الخضار بـاردًا ومليئًا بالدهن الأبيض، ولكنه أفضل من الجوع الذى عانتـه طـوال

اليوم. لقد حل بها الظلام ، عند وصولها إلى منطقة العيادة التى قررت أن تبيت بها ليلتها الأخيرة.

دخلت تاليا المنزل ولم تنطق بكلمة واحدة مع ليبتينوس حيث إنها أخذت مرتبتها من على السرير وخرجت بها إلى صالة استقبال المرضى وفرشتها هناك ونامت عليها . بعد لحظات خرج ليبتينوس واصطحب العبد فلور معه إلى غرفة نومه. ولم تستطع تاليا النوم بل ظلت مستيقظة تتأمل نجوم السماء، وهى تفكر فى كيفية الحصول من ليبتينوس على وثيقة حريتها.

فى الصباح التالى خرج ليبتينوس من غرفته وبيده وثيقة زواجهما وقام بتقطيعها أمام عينيها وترك قصاصاتها تتساقط على الأرض بينما تنظر إليه بتقزز واشمئزاز. ثم نظرت حولها فرأت الفازة الثمينة القيمة التى كان ليبتينوس يحبها فرفعتها تاليا إلى أعلى وهوت بها على الأرض فتناثرت الفازة فى أرجاء المكان كله عشرات من القطع الصغيرة.

وجمعت حاجياتها الصغيرة فى شال وحملتها وخرجت من العيادة تجوب شوارع روما ولكنها كامرأة حرة لا تربطها أى قيود. اتجهت تاليا إلى قصر السناتور بوبليوس وهناك بعد عناء وافق العبد الواقف على الباب على إدخالها إلى السناتور، بعد أن أشار إلى عبد صغير

آخر كى يرافقها ولا يتركها وحدها حتى تصل إلى السناتور فوافـق العبد الصغير وهو ينظر إلى تاليا وإلى شالها الـذى وضـعت بـه حاجياتها وهو على مضض، وينظر من وقـت لآخـر إلـى تاليـا بازدراء.

بعد لحظات وصلت تاليا إلى السناتور ماكسيموس وهـو واقـف بين ضيوفه فدهش الرجل، وأربكته المفاجأة ولم يـدر مـاذا يقـول، ولكنه فكر فى نفسه قائلا: إن هذه القابلة لهى مرسلة من قبل الملعون تريمالخيو، إنها لا بد وأن تحمل معها أخبارا سيئة، فقال الرجل للعبيد دعوها تنتظر فى غرفة مجاورة حتى انتهى من ضـيوفى. ولكـن لا تتركوها وحدها. فأدخلها العبد إلى غرفة جانبية كبيرة كانت تحتـوى على مكتبة، ثم رأت من خلال باب المكتبة المنفتح على الحديقة مرة أخرى مخلوق عجيب وهو شخص له ثلاثة أرجـل وأربعـة أذرع، فقالت تاليا فزعة: ماهذا؟ فقال لها العبد الصغير الذى كـان يجلـس ليراقبها: إنه إنسان بثلاثة أرجل وأربعة أذرع. ثم أخذت تاليا تفكـر قائلة: إننى كنت بالنسبة لزوجته طبيبة وقابلة فلماذا يعاملنى هكذا؟

لم تمض لحظات طويلة حتى فتح السناتور الباب ودخـل إليهـا مستعجلا وهو يقول لها: ماذا تريدين هنا؟ فقالت له ياسيدى السناتور أننى أريد أن أعرف منكم فقط أين يقيم السيد تريمالخيو؟ عندئذ جلس مالكسيموس على منضدته وأخذ يحرك لفة ورق البردى أمامه وهـو

يفكر في سؤالها هل هو خدعة من تاليا أم أن أفكاره كانت خاطئة. ثم نظر إليها وقال لها: إنني لا أعرفه. فقالت له بتحد: إنني أعتقد أنـك تعرفه ياسيدي السناتور أم أنه الآن أصبح لا قيمة له؟ ثم أردفت تاليا قائلة: إنني رأيتك تتحدث معه منذ أسبوعين في قصرك هذا. كما أنك رأيتني أيضًا وهو رآني أيضًا. إنه روماني يحمل نيشان منقذ وكـان منذ فترة قصيرة قاضي قضاة الإسكندرية فكيف لا تعرفه؟

ثم نظر السناتور إلى تاليا قائلا: أعذريني إنني لدي مشاغل كثيرة وليس لدي الوقت الوفير ،إنني لا أعرف هذا الرجل. فقالت تاليا لـه إن لي رجاء آخر، فتوقف الرجل قبل أن يخرج من البـاب فقالـت تاليا: إنني أرجو أن أرى بوسيدون وأوروبا كي أطمئن عليهما وأحيي السيدة كورينا. فقال لها الرجل: أن الطبيب سورانو يرعى الطفلـين التوأم وإنهما بخير ، أما زوجتي كورينا فهي مـشغولة اليـوم ولـن تستطيع استقبال الضيوف، ثم أغلق الباب خلفه وخرج. ثم قام العبـد بعمل حركة سيئة وطرقع بفمه وهم هو الآخر بطردها قـائلا: هيـا انصرفي فأنت غير مرحب بك. التقطت تاليا نفسا عميقا واتجهت إلى باب الخروج، الذي احتشد أمامه أصحاب الحاجات، حتى أنهـا لـم تستطع المرور من كثرتهم فكانت تضربهم بكوعها حتـى تـستطيع السير وكي يفسحوا لها طريقا. خلفها صاح العبد الصغير قائلا: " أقسم برأس أبي الذي لا أعرفه ولم أره إنني لمعجب بشجاعتك وجرأتـك ورفع يده يحييها ولكنها تجاهلته وأكملت سيرها.

ثم وصلت تاليا حى الفقراء الذى كانت حوائطه مليئة بالإعلانات وأهمها بالطبع إعلانات المساكنّ الخالية، التى راحت تاليا تتفحصها وتقرأها، ثم أعجبتها غرفة معلن عنها وهى تقع بالقرب من حمامات تراجان العمومية، فهى جميلة ولكن بها عيبا كبيرا ألا وهو أنها تقع فى الطابق الخامس، وذلك سوف يكلفها كثيرًا من الوقت كى تحضر الماء إلى الدور الخامس، أو لكى تنزل هذه المخلفات إلى الدور الأرضى ثم أنها لا يمكن أن تنتظر من امرأة حامل أن تصعد لها إلى الدور الخامس ، لهذا فإنها لا تستطيع أن تستأجر هذه الغرفة.

ثم كان هناك إعلان آخر عن غرفة كان بجوارها مكان يلقى به السكان مخلفاتهم، وكانت رائحة المكان كريهة، وبينما هى تنظر إلى هذه الغرفة مع صاحبها كان أطفال الشوارع يطلون برءوسهم ويصيحون (بوربو) ثم يجرون مبتعدين، وصاحب الغرفة يقول لها إنهم بالليل غير موجودين. فرفضت تاليا أن تأخذ هذه الغرفة أيضًا، أما المحاولة الثالثة فكانت عبارة عن سكن يتكون من غرفتين وهذا السكن تملكه شابة صغيرة مع صديقها الشاب وأرادا أن يؤجرا غرفة من الغرفتين، كما أن المرأة الشابة كانت حاملا مما أسعد تاليا واعتبرته فألا حسنا.

ولما عرفت الفتاة الشابة أن تاليا قابلة وافقت على الفور أن تسكن تاليا معها. لقد كانت المرأة الشابة ظريفة ولطيفة وقد أحبتها تاليا

بسرعة والفتاة التى تسمى كلاوديا قد أحبت تاليا أيضًا. وقد كانت أصغر من تاليا فى السن، كما كان حملها هذا هو الأول. كما أن المرأة الشابة قد قررت ألا تعود إلى أهلها مرة أخرى فى بلدة كامبانيه. ثم قامت كلوديا بوضع خبز وزيتون وجبن أمام تاليا التى كانت جائعة بصورة كبيرة فراحت تأكل من الطعام حتى شبعت.

فى اليوم التالى من إقامة تاليا مع المرأة ، بدأت آلام المخاض تباغت تلك المرأة، فراحت تاليا تساعدها كى تضع مولودها. حتى تمت الولادة بسلام على يدى تاليا، وأنجبت المرأة طفلة جميلة وسليمة ولكنها كانت كثيرة البكاء. ثم قالت كلاوديا إنها تود أن تعفى تاليا من دفع الإيجار فرفضت تاليا وأصرت على أن تدفع الإيجار، ثم اقترحت كلاوديا اقتراحا آخر وهو أن تعتنى هى بنظافة المنزل وكل ما يتعلق به من طبخ وغسيل وخلافه، بينما قررت تاليا أن تتولى الإنفاق على المنزل من كل شىء.

إن مولد الطفلة على يدى تاليا كان بالنسبة لها فألاً حسنًا سعدت به تاليا، ولم يمض وقت طويل حتى كانت تاليا معروفة فى الشارع على أنها قابلة ممتازة. وبعد فترة وجيزة كان الحى بأكمله يتحدث عنها كقابلة بارعة لا نظير لها. ثم عُرفت بعد ذلك على أنها طبيبة بارعة أيضًا. ففى الحقيقة إنها كانت تستطيع الاثنين باقتدار ولكن الرجال عندما كانوا يمرضون كانوا يفضلون الطبيب الرجل على المرأة، أما المرأة فكانت قلما يسمح لها أن تذهب إلى طبيب أو طبيبة.

ثم أنه بعد أسبوع قالت السيدة كلاوديا لتاليا إننى غدا أود أن أودع إلهة البكارة وأذهب لتقديم القربان لآلهة الأمومة فهل تـأتى معـى؟ فأجابت تاليا بالموافقة قائلة إن المهم فى ذلك أن تقوم آلهة الأمومـة بالاعتناء بابنتك فليبا. فقالت كلاوديا لتاليا: إن هذا ليس لـه علاقـة بلفليبا وإنما له علاقة بى أنا ، حيث إن إلهة البكارة لم تعتن بى جيدا رغم أننى كنت أقدم لها القرابين دوما. لهذا فإننى الآن كـأم سـوف اتجه إلى إلهة الأمومة بدلا منها وأتمنى أن أجدها دومـا بجـوارى. وراحت تاليا وكلاوديا تضحكان من قلبيهما ثم فكرت تاليا فى سـرها ماذا سوف تفعل لو أنها تقابلت صدفة مع ليبتينوس، ولكنها قالت إننى لا أرجو أن يحدث ذلك.

فى هذا اليوم كان معبد البكارة والعذرية يكاد يكون خاليـا مـن الزائرين، حيث إن غالبية الفتيات قد اتجهن إلى زيارة المسرح لرؤية المصارعين عندما يقومون بتقطيع الأسـرى التـراك. ورأت هـذا مكتوب على إعلان كبير فى مدخل المعبد، بينما تم عمل دعاية كبيرة للمصارع السكندرى هيجسبسيوس، إنها منـذ كانـت فـى مـسرح الإسكندرية ورأت ما يحدث بالسيرك من مآسٍ وقد قررت ألا تـزور السيرك مرة أخرى. ولكنها ذهبت إلى سوق الماشية الذى كان بجوار العيادة التى كان يعمل بها ليبتينوس، من العجيب فى الأمـر وجـدت العيادة مغلقة وبجوارها كالعادة يجلس بائع السمك الذى أخذ ينظر إلى

تاليا وكأنه يعرفها ويحاول أن يتذكرها. فلما اقتربت تاليا من الرجل قال لها: لقد كنت أفكر أنك أنت المرأة السكندرية ولكننى لم أكن واثقا من ذلك. أهلا بك ومرحبا ثم مد يده مصافحا تاليا: بحرارة وهو يقول: كيف حالك أيتها السكندرية؟ فقالت تاليا فى الواقع ليست جميلة ولكن هناك من الأحداث ما هو أسوأ، على أى الأحوال فإننى أستطيع أن أدبر قوت يومى. ولكن أخبرنى كيف حال يدك؟ فقال الرجل لقد شفيت بعد أن خاطها ليبتينوس انظري! فنظرت تاليا ورأت مكان الخياطة المتقنة المحكمة إنها تعرف إن ليبتينوس كان متفوقا فى تلك الجزئية ولم ينتابها أى شيء من الحقد عليه.

ثم أردف الرجل قائلا ولكن للأسف فإن ليبتينوس قد مشى من هنا، حيث إن عبيد المرأة التى تشاجرت معك قد جاءوا وأخذوا كل حاجياته وانصرف هو معهم. فسألته تاليا قائلة: هل تعرف هذه المرأة؟ فقال الرجل نعم أعرفها إنها من عائلة أجريكولا، إنها عائلة نبيلة ثرية. فقالت تاليا: هل تأتى هذه المرأة هنا كثيرا؟ فقال الرجل: إنها تأتى دوما كل يوم خميس. عند ذلك أشارت تاليا إلى المعبد وقالت لتاجر الأسماك إن صديقتى قد فرغت من زيارة المعبد لا بد وأن أذهب إليها. ثم قالت وهى تودعه سوف أزورك مرة أخرى إننى الآن أسكن فى حى السبورا. فقال الرجل: أعرف ذلك، ثم قبّل تاليا من الناحيتين وتركها تنصرف.

فى الطريق إلى المنزل كانت كلاوديا تقص الحكايات الكثيرة على تاليا التى كانت أفكارها منشغلة بما يحدث. إنها الآن أدركت ما حدث، إن تريمالخيو قد كلف لاكتوكيوس عنوة بأن يجد مكان العيـادة هـذا لليبتينوس، هذا المكان يقع فى سوق الماشية وهو غير مناسب لفـتح عيادة طبيب، ولكن هذا المكان كانت أفرانيا تزوره باستمرار، وهنـا دبر تريمالخيو ذلك كى يستمتع بتعذيبها لأنها سوف تمر فى ذهابهـا وإيابها على ليبتينوس وكان لابد وأن تراه. ولكن بـرغم كـل هـذا التخطيط فإنه ارتكب خطأ كبيرا استغلته ضد تاليا وهو الآن مختبـئ كى لا يقبض عليه أحد. هكذا هى الأمور قد دبرت التدبير الصحيح. ثم أفاقت تاليا على صوت كلاوديا الذى ارتفع قائلا لتاليا: هل تحبـى أن أخبرك عما يقوله أخي؟ فقالت تاليا: بلى، فإنه على ما يبدو إننـا كنا نفكر فى اللحظة نفسها ولكنك كنت تفكرين فى أخويك أمـا أنـا فكنت أفكر فى اثنين من الرومان أحدهم يحمل لقب منقذ والأخـرى نبيلة. ثم قالت لها كلاوديا: لماذا لا تضربيهم بقبضة يدك فى أنوفهم، فأجابت تاليا: إن هذا ليس بالشيء اليسير، إن المرأة النبيلة تـصطاد أعداءها واحدا تلو الآخر مثل الإلهة ديانا.

أما كلاوديا فقد غدت مع الوقت صديقة وفية لتاليا حيـث إنهـا كانت ترافقها فى كل مشاويرها. كما أنها كانت ترى تاليا الطرقـات والشوارع التى لا تعرفها، كما أنها كانت تعرف كثيرًا من الناس فى

الحى. ثم أن كلاوديا كانت مثل المذياع حيث إنها كانت دائمة المديح فى تاليا وكانت فى كل مجلس تمتدحها حتى أن كان لها الفضل فـــى بعض شهرة تاليا كطبيبة وقابلة.

وفى إحدى ليالى سبتمبر الحارة دخلت كلاوديا المنزل بـسرعة، بينما كانت تاليا تداعب الطفلة فليبا وقالت لهـا: تعـالى بـسرعة إن شخصا ما ينزف فى السكن، ربما يمكنك فعل شىء له. فقالت تاليا يا إلهتى ديمتر أرجو مساعدتك وأخذت حقيبتها المليئة بالأدوية وذهبـت تاليا معها تتقدمها. حتى إذا وصلا إلى غرفة الرجل المريض سـمح الجار لتاليا بالدخول ومنع كلاوديا من الدخول. كان الرجـل راقـدًا وحوله بقعة من الدماء كما كان الذباب يحوم حوله أيضًا. فسألت تاليا الرجل المقيم معه فى الغرفة، منذ متى وهو يرقد هنا هكـذا؟ فقـال الرجل الرومانى إننى كنت فى السيرك أشاهد المصارع الـسكندرى هيجسيبوس فكيف لى أن أعرف هذا؟ جثت تاليا على ركبتيها تفحص الراقد على الأرض دون حراك، بينما ينزف الدم من مناطق عديـدة من جسمه، وكلما بحثت فى جسم الرجل، وجـدت حبـوب الغـلال تتساقط من طيات عباءته.

إن الغلال كانت فى كل مكان تنظر إليه، سـواء فـى حـوض الغسيل أم فى إناء التبول وحتى على الأرض. إن نبض الرجل كـان ضعيفا، ثم قلبت تاليا الرجل على ظهره كى تفحص عينيه فوجـدت

إنه سيماخوس. فقالت كلاوديا ياتاليا: هل هو الآخر أحد أصدقائك السابقين؟ ثم أردفت أنك لا تعرفين سوى الأغنياء لهذا استطاع أن يكون لديه كثير من الغلال هكذا.

بينما تحاول تاليا معالجة الرجل، إذ فتح عينيه فرأى تاليا فوقه فقال لها بصعوبة: إننى أعرفك فأجابته تاليا: نعم وأنا أعرفك أيضًا، أنت الذى كنت تعمل مع كليون بالإسكندرية ونجوت مع زوجتك من الكوليرا. فجحظ الرجل بعينيه ثم أغلقهما مرة أخرى بينما راحت تاليا تفحص الجرح الذى كان أسفل ضلوعه فى الناحية اليمنى، وهى تعتقد بأن هذا الرجل ربما تنزف كبده فى منطقة البطن من الداخل. حتى إذا انتهت تاليا من فحصها أيقنت أن الرجل لا يمكن إنقاذه وإنه سوف يموت، بل أن ليبتينوس نفسه لو كان هنا ما استطاع فعل أى شيء لإنقاذه. ثم نطق الرجل قائلا لتاليا إننى لا أريد أن تعالجينى لإننى بين يدى سيدى، فأجابت كلاوديا باستهجان أى من السادة لأننا فى روما لدينا كثير منهم. عندئذ قالت تاليا إنه مسيحى ينتمى إلى طائفة المسيحيين اليهود. فى أثناء ما قامت تاليا بتغطيته وستر جسمه كان الرجل يصيح فى تاليا أن تبتعد عنه لأنه لا يريد منها علاجا. وذلك لأنه رأى منظر السمكة المرسومة على خاتم تاليا الذى ترتديه فقال لها: إن هذا السمك ليس بوسيلة جيدة للارتباط بالإله، إنك من أتباع الإله بعل فقامت تاليا بخلع الخاتم من صبعها مما أدى بكلاوديا أن

تقول لها: لا تهتمى بما يقوله تاجر الغلال هذا. ولكنها رغم ذلك شعرت بأنها لن تستطيع أن تقدم أية مساعدة لسيماخوس، حيث إنه بعد لحظات مالت رأسه إلى الناحية الأخرى وانقطعت أنفاسه. فنظرت تاليا إلى المكان حوله فرأت أن المكان ملئ بأجولة الغلال التى بها عديد من الفتحات، تتساقط منها حبات القمح. ثم قالت كلاوديا إن رجلاً مثله يملك هذه الغلال كلها لا يمكن أن يكون جائعا. ثم قالت كلاوديا بالتأكيد إن الشخص الذى جمع هذه الغلال كلها هنا لهو من حى آخر وليس من حى السبورا، إن الذى فعل ذلك أراد أن يقول شيئًا ما ، إن القاتل إما أراد أن يأخذ نقودا أو أنه بذلك حمى نفسه بهذا القتل. ثم وجهت سؤالها إلى الرجل الرومانى الواقف بجوار تاليا والذى يسكن فى الغرفة مع سيماخوس قائلة له: هل تعتقد أن القاتل أراد نقودا أم أنه أراد الأمان؟ فتنهد الرجل وهو يقول لتاليا: أيتها الطبيبة إنه لشىء طيب أن كلاوديا فى رفقتك دائما فعلى ما يبدو أن خبرتك بالحياة هنا قليلة ولكننى سأشرح لك ذلك " إنه فى روما عندما يكون لديك مال سائب فى صورة نقود فإن كثيرًا من الناس كان يشترى بهذا المال قمحا، ويخزنه على أنه مدخرات سوف يزيد سعرها مع الوقت. ولكن كثيرًا من أصحاب هذه المدخرات يقومون بتأجير حارس على أملاكهم كى يقوم بحراستها ضد اللصوص أو ضد الجائعين، وهذا الحارس يطلب فى كثير من الأحيان أن يكون له

نصيب من هذه الأموال أو المدخرات. فى بعض الأحيــان يــرفض المالك لهذه المدخرات ما طلبه الحارس من مال، عند ذلك تحدث تلك الحوادث. ثم قالت تاليا للرجل: هل تعتقد أن حالة ســيماخوس هــذه تندرج تحت هذه الحالات أيضًا؟ فقال الرجل: لا أعتقد ذلك، ولو كانت حالة سيماخوس من هذه الحالات لكان الجانى قد أخذ بعضًا من هــذه الأجولة، ولكنها موجودة كاملة هنا دون نقصان. ثم أردف قائلا: إننى أعتقد أن الفاعل لا يأكل حبوبا، وإنما يأكل لحم نعام محشو بــالبلح، ولربما لحم ظباء صغيرة محشو بالقراصيا الدمشقية. فقالت له تاليــا: هل تقصد بذلك أن القاتل يأتى من أسرة رومانية نبيلة غنيــة؟ فقــال الرجل: إما أن يكون هذا الرأى صحيحا أو أن يكون القاتل مــأجورا وقد قبض أجره بسخاء. فقالت كلاوديا لتاليا: إنه على أى حال شخص من الطبقة العليا يا تاليا، إنك تعرضين حياتنا للخطر هيا نمشى مــن هنا إنك لا تعرفين روما جيدا ، هيا ثم التقطت طفلتها على ذراعيهــا وهمت بالانصراف.

الفصل العشرون

حى الفقراء

جلست تاليا وكلاوديا معًا تتسامران فى المنزل عندما قالت كلاوديا: إننى أراهنك على عشرة أس إذا لم يكن هذا الهيجسيبوس الآن فى سرير إحدى نبيلات روما، فقالت لها تاليا: من الأفضل ألا نتراهن حيث إننى فى أشد الحاجة إلى العشرة أس ، أضف إلى ذلك إننى أصدقك من غير رهان، ثم رفعت كلاوديا الطاقية التى كانت فى يدها إلى أعلى وهى تقول لتاليا انظرى أليست جميلة؟ إنها دافئة أيضًا، إن بإمكان فليبا أن ترتديها الآن. ثم قالت إننى أرى أن هيجسيبوس جميلا وليس بقبيح إننى أحبه أيضًا فقالت لها تاليا: إن نبيلات روما لن يتركوه لك، ولن تستطيعى أن تصلى إليه. ثم أردفت تاليا بقولها إننى أعتقد أن شخصا مثل هيجسيبوس عريض المنكبين حتى إنه يمكن أن يقف بجواره ثلاثة من الرومان بجوار بعضهم كى يصلوا إلى حجمه، كما أن الجرح الذى فى وجهه يعطيه رجولة زائدة ليعجب كثيرات من النساء سواك. فقالت لها تاليا مكملة حديثها: ولكن للأسف فإن صديقك وأب ابنتك قد تركك وابنته ولم يسأل عنكما. وأكملت قائلة كى تواسى كلاوديا: ولكن صدقينى إن هيجسيبوس هذا

ليس بإنسان نظيف بل بشع ومجرم. ولك أن تتصورى أنه لابــد وأن يقتل شخصا آخر فقط لأنه رآنى ذات مرة. عند ذلك أمر لانــسنا أن يقتل أحد المصارعين وقد كان. فجأة شعرت تاليا: بالقشعريرة عندما تذكرت ذلك الموقف، فقالت لها كلاوديا حتى هذا المصارع تعرفينـــه أيضًا،لماذا لم تخبرينى من قبل؟ فقالت لها تاليا إنه يوم من أسوأ أيـــام حياتى، حيث إننى فى هذا اليوم كنت أعالج المــصارعين الجرحـــى بالإسكندرية، بينما كانت كلاوديا تنظر إليها بإعجاب وإكبار ثم قالت يا إلهى وشخصية مثلك فهى صديقتى وطبيبتى وقابلتى إننى ســعيدة بهذا الشرف العظيم. ثم أرادت تاليا أن تشترى الزيت للعلاج، وذلــك لأن الزيت الذى كان لديها قد نفد. فقفزت كلاوديا بكل شقاوة وقالـــت لتاليا: إننى أرى أن نشترى نصف كيلو ورق بردى وحبرًا وكذلك زيتا نقيًــا دون أن ندفع فى ذلك أى شىء. فقالت لها تاليا: كيف يكــون ذلــك؟ فقالت كلاوديا: ما رأيك إننى سوف استغل جمالى وأصحاب العباءات الرومانية دائما ما يحبون ذلك فأجابتها تاليا بقولها إننى لا أحبذ هــذه الفكرة. ثم أن نصف كيلو ورق بردى لهو كثير جدا، فقالت كلاوديا إذا فلنشتر ورقة واحدة ثم تكتبى أنت يا تاليا أجمل ما تتذكريـــــه مــن أشعار ثم أمضى باسمى واكتبى أسفله حبيبتك كلاوديا التى تنتظــرك بشوق شديد. فقالت تاليا لكلاوديا: إننى أحذرك مــن التلاعــب مــع الرجال إن ذلك لشىء سيئ ولا أحبه. إنك تلعبين مع رجــال رومــا بضاعتهم اليومية هى القتل والسرقة فأجابتهــا كلاوديــا ولكــنهم لا

يفعلون ذلك مع النساء. فقالت لها تاليا: سوف تجلسين بعد ذلك هنا بطفلين بدون أن يكون لهما أب. فقالت كلاوديا: لهذا فإننى أسكن معك، كما أننى هذه المرة سأقوم بعمل ذلك بطريقة أذكى. إن تاليا حاولت عبثا أن تثنى كلاوديا عن مصادقة الرجل الرومانى التاجر. لهذا كان عليهن أن يتجهن إلى حيث تجار البردى والأحبار بالناحية الأخرى من حى السبورا. لقد كان الوقت مبكرا وكان التجار قد فتحوا محالهم لتوهم. إن التاجر كان مستغربا أن تأتى إليه سيدتان كى يشتريان ورقة وذلك لأن معظم من يأتى إليه لشراء الورق كانوا فقط رجالاً، ثم سألته تاليا عن أجود أنواع الورق لديه ، فقال الرجل: إن كل ما لديه من ورق لهو جيد. فقالت كلاوديا ملاطفة ومداعبة: إننا نريد ورقا كى نكتب عليه خطابا عاطفيا. فقال الرجل: فهمت تريدان حبرا معينا لهذا الورق، فقالت كلاوديا: لا إننى أفضل حبرا عاديا كى يستطيع رؤيته. عندئذ أعطى الرجل إشارة بإصبعه لتاليا كى تقترب منه، فلما اقتربت منه قال لها: ما رأيك فى الحبر الأحمر، إنه حبر جميل سوف يؤثر فى قلبه ووجدانه ويسحر أفكاره، فوافقت كلاوديا بسرعة على هذه الفكرة. ثم فاصلت معه فى السعر ثم دفعت الحساب. ثم بعد ذلك سألته عن أحد يبيع زيتا جيدا، فقال لها بالطبع أعرف بائع زيت لا يبيع سوى الماركات الجيدة. إننى لا أتعامل سوى مع المخلصين. عند ذلك رأت تاليا أن شكل بشرته مصفر بزرقة فسألته قائلة هل ينتابك شعور دائم بالإرهاق والتعب، مع

صداع؟ فقال الرجل ممازحا بالطبع لا. فقالت له تاليا: هل تسمح لـــى بالنظر فى فمك؟ فقال الرجل ضاحكا هل تعتقدين أننى حصان، على أى حال فإن الخيول حيوانات جميلة ثم فغر فاه أمام تاليا التى راحت تنظر فى فمه. فلاحظت أن اللثة لديه سوداء. ثم قال الرجل إننـــى لا أبدو وكأننى قد قرأت أعمال سورانو كاملة. فقالت تاليا وهل تكتـــب الشعر أيضًا فقال لها نعم ولكن لا أحب أن يعرفنى أحـــد. ألا تـــرين ذلك فى أسناني؟ فقالت تاليا لا تقلق إننى لن أخبر أحدًا بأنـــك تكتـــب الشعر حيث إننى أحب الشعر أيضًا ولكنى أرجو أن تحـــرص علـــى اقتناء سفنجة صغيرة كى تمسح بها ما كتبته خطأ ولا تلعقه بلـــسانك وبصفة خاصة الحبر الأحمر فهو ضار جدا وسام فلا تلعق الأحبـــار مرة أخرى بلسانك.

ولما طال الحديث بين تاليا والتاجر ضاقت كلاوديا ذرعا وقالت: أرجو أن أفهم أنا أيضًا شيئًا عن هذا الشعر، ففى النهايـــة لابـــد وأن يفهمه الشخص المعنى أيضًا. ثم قال التاجر: إن زوجتى تسبنى عندما استعمل كثيرًا من مياه الشرب لأى أغراض أخرى، لهذا فإننى كنـــت أفضل أن ألعق الأحبار بلسانى على أن اســـتعمل الـــسفنجة المبللـــة بالمياه. ثم استطرد الرجل قائلا ولكننى من الآن فصاعدا لـــن ألعـــق الأحبار بلسانى وهذا وعد منى.

فجأة صاحت كلاوديا بعد أن نفد صبرها قائلة، الآن قـــد شـــرحنا قضية الأحبار والماء فماذا عن الزيت، متى سنشتريه؟ فقالـــت تاليـــا

مستدركة: بالطبع لا يمكننا اليوم شراء الزيت، لأن الآن ستبدأ المصارعة والطوابير التى نصفها من النساء مصطفة تنتظر الحجز كى يروا المصارع السكندرى هيجسيبوس. فقالت كلاوديا: فهيا أسرعى فإننى أود أن أضع خطابى تحت قدمى المصارع هيجسيبوس فإن المصارعين اليوم فى راحة. ثم قررت تاليا تأجيل شراء الزيت إلى وقت آخر. ثم أخذت تاليا تكتب الشعر الذى يرضى ذوق كلاوديا كى ترسله إلى هيجسيبوس. ثم أن كلاوديا أعطت ابنتها لإحدى الجارات كى تعتنى بها حتى تعود ثم وصفت لتاليا المحل الذى يبيع الزيوت، ثم جرت كى تحظى بمقابلة هيجسيبوس. إنها كانت تود لو ركعت تحت قدمى هيجسيبوس بدلا من أن تضع له الخطاب تحت قدميه.

راحت تاليا بعد ذلك تبحث عن محل الزيوت الذى وصفته لها كلاوديا خطأ نظرا لاستعجالها على مقابلة الرجل. حتى إذا وصلت إلى شارع به مدرسة يردد بها التلاميذ بعض الجمل التى يجب عليهم أن يتعلموها. فاكتشفت أنها فى حى فقير به بعض البيوت المتواضعة التى كانت ملتصقة بعضها ببعضًا، مثل خلية النحل. كما كانت تنتشر القاذورات والأوساخ مثل الحى الذى يقع على القناة المستعرضة بالإسكندرية وربما يزيد عنه اتساخا.

فجأة خرج طفل من أحد أبواب هذه البيوت السكنية يتدحرج على الأرض فلما راحت تتأمل الطفل رأت أن قدميه ملتصقتان فى بطنــه وليس له أرجل كبقية البشر، فقالت لنفسها: يا إلهى لماذا يكثر هؤلاء الأطفال المعاقون فى الأحياء الفقيرة ولا يوجد أمثال هؤلاء الأطفــال فى الأحياء الأخرى الغنية؟ ولما رأى الطفل تاليا وضع إصبعه فــى فمه وقال لتاليا: أنت صاحبة الشفة المشرومة، يا أرنبيــة الفــم ثــم تدحرج ذاهبا. ثم رأت تاليا رجل يدخل المنزل فتبعته تاليــا علــه أن يخبرها عن الطريق الصحيح، ولكن الرجل دخل بسرعة خلف باب، فدخلت تاليا بهدوء خلفه ، فرأت ما يشبه المخازن القذرة المهملة، بها كثير من الأطفال المربوطين بحبال أو سلاسل حديدية، ومعلقين فــى سقف الغرفة بينما يتأرجح الجسم يمينا ويــسارا. بينمــا الآخــرون يرقدون على الأرض دون رباط ويزحفون هنا أو هناك.

لقد غدت تاليا شديدة الفضول فدخلت المكان وراحت تتفحص مــا به وهى تود أن تعرف ماهيته. فأخذت تتفحص الأطفال الذين كــانوا يعانون كسورا فى الأذرع أو السيقان، فرأت أن الجبائر موضــوعة بطريقة خطأ ربما عمدا. فجأة سمعت صوتا يقول لها: هــل تــودين شراء طفل أم تريدين أن تبيعى طفلا، وكيف لى أن أســاعدك أيتهــا السيدة؟ فلم تجبه تاليا ولكنها قالت له إن الطبيب الذى يعالج هــؤلاء الأطفال لهو طبيب سيئ. فأجابها الرجل العجوز بقوله: كلا إنه طبيب

بارع وممتاز. إنه من أفضل الأطباء على الإطلاق. ثم أخذ الرجل يحملق فى تاليا ويتأملها. فقالت تاليا ما اسم الطبيب إذن؟ فقال لها إن اسمه سورانو من أفيسوس. فقالت تاليا حانقة وآسفة وكأنها لا تصدق ما سمعت ماذا، إننى لا أصدقك. فقال الرجل لتاليا: على ما يبدو أنك تفهمين فى هذا المجال ورغم أننى أفهم جميع صنوف البشر ورأيت كثيرًا منهم فإننى لم أرك من قبل.

استدارت تاليا للخلف فرأت طفلا آخر يبلغ من العمر ثلاثة أعوام تقريبا قد استطالت رأسه إلى الأمام والخلف، حتى بدا فمه مثل منقار الطائر، ورغم ذلك وضع إصبعه فى فمه ثم أمسك الطفل بثياب تاليا وأخذ ينظر إليها. فقال الرجل لتاليا: دعى أطفالى لحال سبيلهم إننى متعاقد مع كثير من القابلات اللاتى يحضرن لى أمثال هؤلاء الأطفال مقابل أنى أدفع لهن فقالت تاليا: إننى لست قابلة من تلك الأنواع اللاتى تستطيع أنت شراءهن فأنا لست كذلك.

فأصبح الرجل وقحا وقال لتاليا: إننى كنت أعتقد أنك إحدى الروميات اللاتى تريد شراء طفل من هؤلاء للزينة والتسلية، أو على الأقل إحداهن اللاتى يردن بيع طفل معوق، ولكن فى الواقع أنك لا تختلفين كثيرًا فى شكلك عنهم. وأردف الرجل حديثه، ثم إنك تدعين أنك لا تعرفين شيئًا عن هذا المنزل وما به من أطفال معاقين يقدمون للأغنياء للترفيه والتسلية، إنك تكذبين. فقالت تاليا للرجل: إننى أرى

هذا المنزل بما فيه لأول مرة. أرجو أن تصدقنى، إننى لست من روما ولا أعيش بها منذ فترة طويلة. ثم قالت تاليا للرجل: أرجو أن تخبرنى كيف تنظم عملك هذا فلربما أصبحنا أصدقاء.

بينما أخذ الرجل يجمع أفكاره كى يخبرها عن طريقة عمله وطريقة تنظيمه، رأت تاليا طفلا آخر يخرَج من سرته بالبطن قدمين وبينهم منطقة الإخراج. بينما كان له ذراع واحد عند رقبته، وصاح الطفل، وهو يسأل الرجل هل تريد المرأة أن تأخذنى معها؟ فلم ينظر الرجل إليه ولم يعره اهتماما. وأخذ الرجل يحكى قائلا: إننى اشترى الأطفال حديثى الولادة أمثاله وأمثال غيره من المعاقين ثم أقوم بتربيتهم حتى يكبروا بعض الشيء. ثم أقوم ببيعهم فى سوق يسمى " سوق معجزات الطبيعة" أو أن شخصا ما يأتى إلىّ ويشتريهم منى من هنا.

إن التاجر قد فتح قلبه لتاليا وأخذ يحكى لها كل شيء بصدق، وذلك لأنه تحقق من أنها ليست منافسة له كما أنها ليست جاسوسة لأحد. ولكن تاليا أرادت أن تعرف منه الآن حقيقة معالجة سورانو لهؤلاء الأطفال؛ حيث إن سورانو بالنسبة لها كان هو الأب الروحى والقدوة الحسنة، ومنذ أن سمعت من هذا التاجر اسم سورانو قد أصابتها خيبة الأمل بسورانو. فأجابها الرجل التاجر، إننى متعاقد مع القابلات كى يخبرونى عندما يولدون طفلا معاقا، ولكن إعاقته ليست مميتة حسب

لوائح سورانو. ولكن سوارنو لم يعالج أطفالى. فتنفست تاليا الصعداء وسعدت بهذه الجملة من الرجل؛ لأنها لم تكن لتتحمل هذه الخسارة فى هذا الرجل الذى كان لها بمثابة الإله والأمل الوحيد فى الحياة.

إن الرومان كانوا دائما يحبون شراء مثل هذه الحالات ويحتفظون بها فى قصورهم مثل أن يولد طفل ونصفه العلوى آدمى أما النصف السفلى لحصان. أو طفل ذو عين واحدة أو أطفال مخلطة بمخلوقات أخرى. وكلما كانت الإعاقة أو الشكل عجيب كلما كان ذلك مثيرا أكثر للرومان ودفعوا فيه ثمنا أكبر.

ثم قالت تاليا للرجل إننى رأيت فى بيت السناتور ماكسيموس طفلا بثلاثة أذرع، فقال التاجر بفخر: نعم نعم بثلاثة أذرع وأربعة أرجل إنه من عندى أيضًا. وأردف التاجر إن هذه العائلة تدفع لى جيدا. ثم اعتذر الرجل لتاليا بقوله: أرجو ألا أكون قد أغضبتك فسامحينى، حيث إننى فى البداية قد أسأت فهمك. ثم قال لتاليا: هل تريدين أن ترى ما قد أدخرته ولم تريه حتى الآن؟ فوافقت تاليا، وذهبت معه فأشار لها على مبنى مرتفع وقال لها أترين هذه البناية الكبرى؟ فقالت: نعم، فقال لها: إنها أيضًا، مخزن كبير مملوء بالأطفال المعاقين وهو ملكى ومرخص من روما أيضًا وإننى أكرر رجائى، إذا صادفتك إحدى تلك الحالات أن ترسليها لى أو تخبرينى بها وسوف أدفع لك جيدا. ونصيحة أخرى منى لك إذا أردت أن تكونى

هنا طبيبة ناجحة فلا تغلقى عينيك عن الأشياء الوضيعة الحقيرة التى تمتلئ بها روما. ثم قال الرجل: للأسف الشديد فإن تراجان قد سمح للمسيحيين بالمعيشة فى روما وكذلك السكندريين، وروما لها عاداتها وتقاليدها التى يجب علينا أن نتمسك بها. ثم تذكرت تاليا المدرسة التى رأتها فى الإسكندرية، والتى كان الأطفال يبدءون بها تعليمهم للغات الأجنبية مبكرا، وذلك قبل أن يتعلموا لغتهم الأم جيدا وقد أثار ذلك تاليا كثيرًا.

ثم تقدم الرجل أمام تاليا قائلا لها هنا الأطفال الجدد الذين جاءوا إلينا حديثا. إننا نقوم بعمل كسور فى عظام الأطفال الصغار مرتين، أما الأطفال الأكبر سنا، فإننا نعمل لهم الكسور بأذرعتهم وأرجلهم ثلاث مرات.

فجأة دخلت معه مكان آخر. كان الأطفال مقيدين به من أرجلهم وكانوا يبولون فى مكانهم. عندئذ ارتفعت رائحة البول بصورة لم تستطع تاليا تحملها. ثم قال الرجل فى بعض الأحيان نطلب معونة بعض الأطباء كى نزيد الطفل المعاق إعاقة وكى تبدو إعاقته أيضًا طبيعية. فهزت تاليا رأسها وقالت له أعتقد أن لدى الآن معلومات كافية عن كل شيء.

بينما صاح طفل آخر وهو يريد مضايقة تاليا قائلا أرنب، أرنوب. فصاح به صاحب المدرسة معنفا: كف عن هذا الهراء أيها الشقى. ثم

نظر الرجل إلى تاليا مبتسما وهو يقول أرجو أن تكون زيارتك للمدرسة سعيدة وتركت أثرا طيبا فى نفسك ياسيدة تاليا. ثم ألقت تاليا نظرة أخيرة على الأطفال وخرجت بينما كان الأطفال ينظرون إلى شفة تاليا العليا باستغراب.

خرجت تاليا وهى لا تريد العودة إلى المنزل، ولم ترد اليوم البحث عن زيت الزيتون. كما أنه فى الأيام القادمة لن تستطيع الذهاب وحدها كى تبحث عن الزيت المطلوب. ثم وصلت تاليا المنزل وجلست به وهى متطلعة إلى وصول كلاوديا ، ثم جاءت كلاوديا وخلفها شابة صغيرة ومعها ابنتها الرضيعة. فتنهدت تاليا الصعداء لعودة كلاوديا سالمة إلى المنزل وراحت تداعب فليبيا الصغيرة. ثم قالت تاليا لنفسها: إننى فى حاجة إلى كأس نبيذ كى أزيل به رائحة البول التى لا تزال عالقة فى حلقى. فأزاحت لها كلاوديا كأسا مليئة بالنبيذ كانت هى قد شربت منها قبل تاليا حتى اكتفت، ثم قالت كلاوديا لو أنك رأيت ما رأيت أنا اليوم لكنت قد استدعيت القيصر شخصيا. نظرت تاليا إلى كلاوديا فرأت أنها منهكة ومتعبة ولم ترها هكذا منذ أن عرفتها. ثم قالت كلاوديا لقد رأيت الموت بعينى اليوم فأخذت تاليا وكلاوديا يضحكان حتى ارتمت كل منهن فى حضن الأخرى وراحتا تبكيان. ثم قالت كلاوديا: نعم لقد كان يوما عصيبا. فقالت لها تاليا: إذن فاحكِ لى ماذا حدث؟ فقالت كلاوديا: إننى

لم أكد أن أصل بيت هيجسيبوس بالقرب من منطقة يوليا، ولـــم أكـــد أصل إلى الحارس الواقف أمام الباب حتى أمسك بى عبد صغير بنى البشرة وراح يهددنى بأشياء تقشعر لها الأبدان، حيث هـــددنى بأنـــه سيضعنى فى المقلاة وسيحمرنى ويأكلنى. كما هددنى بخلع أظـــافرى واحد تلو الآخر، ثم هددني بتكتيفى وضربى وإحضارى أمام الـــسيد بولخر قاضى الإعدامات وهو المسئول عـــن التماســـيح والأســـود. فقطبت تاليا حواجبها وهى تقول: إننى لم أكن أدرى أن فـــى رومـــا تماسيح أيضًا. ثم قالت تاليا: وماذا أراد هذا العبد؟ فأجابت كلاوديا: إنـــه منعنى من مقابلة هيجسيبوس أو الوصول حتى إلى بيته. فقالت تاليـــا وماذا فعلت؟ فقالت: لقد رأيت رجلا حسن الكلام وهو مهاب وقد كان العبد أيضًا يقدره ويحترمه فأعطيتـــه الخطـــاب كـــى يـــسلمه إلـــى هيجسيبوس، فقالت تاليا: إننى أعتقد أنه فى حراسة أشـــخاص مـــن الإسكندرية فأجابت كلاوديا: لا أدرى ربما. ثم قالت: إننى أعتقـــد أن أفرانيا قد استولت عليه لنفسها ووضعت حرسا أمام منزله كى تمنـــع أى امرأة أخرى من الاقتراب منه. فقالت تاليا: متسائلة مرة أخـــرى وما أدراك أن الرجل الرومانى قد أعطاه خطابك هذا؟ فقالت كلاوديا إنه كان فى طريقه إلى باب هيجسيبوس. كمـــا أننـــى واثقـــة بـــأن هيجسيبوس لن يقبل أى لعب من الرومان لهذا، فـــإننى واثقـــة بـــأن الرجل قد سلمه خطابى.

ثم راحت كلاوديا ترضع طفلتها فليبا ، بينما جمعت تاليا أفكارها وسألت كلاوديا قائلة: هل كان هذا الرجل ذا كـرش كبيـر؟ فقالـت كلاوديا نعم إنه كان ذا كرش كبير وأشارت بكلتا يديها.

فى اليوم التالى شعرت تاليا وكلاوديا وحتـى الطفلـة فليبـا بـالبرد وراحت الطفلة تسعل وتشخر فى نومها. وعنـدما همـت كلاوديـا بالخروج تجاه السوق قالت لها تاليا: إنه من الأفضل أن تأخـذى الطفلـة معك لأن الهواء الطلق مفيد للأطفال. بل أن قائد الجـيش الرومـانى فارو قد أكد ذلك أيضًا بأن الهواء الطلق مفيد لصحة البشر شـريطة أن يكون خاليا من البكتيريا الضارة. فقالت كلاوديا: إننى لا أعـرف هذا القائد الرومانى ولكننى أعلم من تجـارب حيـاتى أن البكتيريـا الضارة أو لدغات الناموس يمكن أن تسبب الحمى للبشر، تلك الحمى يمكن أن تستمر لمدة ثلاثة أيام، ثم أن كلاوديا نظرت صدفة خـارج المنزل من خلال شرفة المنزل وفجأة صاحت قائلة: إنه هـو إننـى أراه، فقالت لها تاليا من؟ من تقصدين؟ فقالت كلاوديا: الرجل الذى أعطيته خطابى كى يعطيه إلى هيجسيبوس ، فقفزت تاليـا بجوارهـا تنظـر خارج النافذة أيضًا فعرفته تاليا فـى التـو واللحظـة وقالـت إنـه لاكتوكيوس إننى أعتقد أنه ينتظرك حيث إنه يراقب مـدخل المنـزل باستمرار فقالت كلاوديا: لا أعتقد ذلك حيث إننى أعطيتـه الخطـاب وانصرفت بسرعة فكيف له أن يعرف مكان سكني؟ ثم قالـت وهـى

مترددة: إما أنك تودى أن تقولى إنه مهتم بى شخصيا؟ فقالت تاليا: نعم ولكن اهتمام من نوع آخر ليس الذى فى عقلك. فقالت كلاوديا: إن ذلك يدعو للأسف، حيث إنه يريحنى عندما يكون الرجال خلفى كثيرون مثل الفرملة خلف الحصان. فقالت لها تاليا: هل ذلك ذو أهمية كبيرة لك أن يكون لديك علاقات مع الرجال حتى تصبحى سعيدة؟ ثم فكرت تاليا لنفسها قائلة: ربما كان لاكتوكيوس يراقب أفرانيا، ثم مشى خلف خادمها الشخصى سيتوم حتى أوصله الأخير إلى بيت هيجسيبوس. فجأة قالت تاليا لكلاوديا: انظرى إلى الرجل الذى كان يسكن مع سيماخوس فى الغرفة حيث كان يسير فى الشارع ويحمل تحت ذراعه رغيف خبز طويل وراحتا تنظران إليه حتى اختفى عن أنظارهما.

ثم قالت تاليا أراهنك أنه لم يرد أن يراه لاكتوكيوس ولهذا أخذ الرجل طريقا آخر. فأجابتها كلاوديا وإننى أراهنك بأن هذا الرجل النحيل الذى كان يسكن مع سيماخوس قد حصل على أموال سيماخوس لأننى كنت أراه كل يوم يأكل الخبز الأسود السيئ والآن فإننى أراه يشترى الخبز الأبيض الغالى من دقيق الذرة.

وفجأة قالت تاليا: لا بد وأن نذهب خلف الرجل، فقالت كلاوديا إننى أريد الذهاب إلى السوق ولكن تاليا أصرت على رأيها أن يذهبا إلى الرجل الذى كان يسكن مع سيماخوس حتى نزلت كلاوديا عن

رأيها ووافقت على الذهاب معها. ثم قالت تاليا ممازحة: إننى كسيدة رومانية نبيلة كان من المفروض أننى مازلت أرقد فى سريرى. فضحكت كلاوديا وهى تقول لها: قولى هذا لامرأة أخرى ليست ذات لهجة أجنبية مثلك ثم حملت طفلتها على ذراعها واتجهت خلف تاليا وهى تقول: إننى سعيدة حيث إننى لم أنسَ أننى فلاحة من منطقة كمبانى.

بدون استئذان أو طرق على الباب دخلت كلاوديا غرفة الرجل الرومانى الذى كان يقاسم سيماخوس الغرفة وقالت له: هل شربت فى الصباح الباكر كثيرًا من النبيذ؟ فقال الرجل بوجه غير سعيد وغير مرحب بالزائرين لا إننى هنا بمفردى ثم دخلت تاليا الغرفة فرأيا فوق المنضدة كأسا من النبيذ وطبقا به زيتون وطبقًا مليئًا بالبلح وطبقًا به خبز وطبقًا به جبن. فلما رأت كلاوديا الطعام فوق المنضدة قالت إن لعابى يجرى فى فمى وجلست على المنضدة أمام الرجل ثم قالت له ألا تود أن تعزمنا على طعامك. فلما لم يجب الرجل قالت تاليا: إننى أردت أن أوجه لك بعض الأسئلة وننصرف، إننا لسنا فى حاجة إلى طعام حيث إننا أكلنا لتونا. فقالت كلاوديا: ولكننا لم نأكل فى بيتنا زيتونًا من الدرجة الأولى الذى يساوى نصف كيلو منه ٤٠ أس، إننى لم أكن أعرف قبل ذلك أنك غنى هكذا. ثم مدت كلاوديا يدها وراحت تأكل بينما الرجل ينظر إليها وإلى بقية أركان الغرفة. قالت تاليا: من

أين أتى سيماخوس بكل هذه الغلال؟ فأجابها الرجل: من التبرعات التى كان يتبرع بها المسيحيون، فقالت تاليا: ولكن لماذا كانت هذه الغلال كثيرة رغم أنه لم يكن متزوجا؟ فقال الرجل: المتبرعون لا ينظرون إذا كان المرء متزوجا أم لا حيث إن ذلك ليس له علاقة بالأسرة ثم أنه كان دوما يملك نقودا. فقالت تاليا: ومن أين له هذه النقود؟ فقال الرجل إننا كنا نتقاسم الغرفة للمبيت فقط، ولكننا لم نكن أصدقاء فلا أعرف عن ذلك شيئًا، كما أنه كان يمتلك حق المواطنة الرومانية أيضًا. فقالت تاليا كيف كان يمتلك حق المواطنة الرومانية وهو لا يقيم هنا منذ وقت طويل؟ فقال الرجل: لقد كان رومانيا قبل أن يجيء إلى روما. ثم قالت تاليا: هل الرجل يعطى أحدا من هذه الغلال؟ فأجاب الرومانى ساخرا بالطبع كان يعطى منها شيئًا ما لبعض المحتاجين. ثم سألت تاليا الرجل مجددا: هل تعرفهم فقال: لا أعرفهم فهم دوما جدد. ثم سألت تاليا مرة أخرى: هل كان هؤلاء الناس الذين كان سيماخوس يبيع لهم الغلال مسيحيين؟ فأجاب الرجل: نعم كانوا دوما مسيحيين ولم يكونوا مواطنين رومان بل أجانب مسيحيين يعيشون فى روما.

ثم نظرت تاليا فى الغرفة التى كان يقيم بها سيماخوس وقالت للرجل الرومى: بالطبع فإن سيماخوس كان يملك كثيرًا من الأموال؟ فهز الرجل كتفيه ورفع حاجبيه لأعلى وهو يقول: إنه لا يعرف عن

نقوده شيئًا. ثم قالت تاليا: ربما يكون الرجل المسيحى قد وزع أمواله على الفقراء المسيحيين؟ فقال الرومانى: ربما ثم قال الرجل أو ربما يكون حراس المدينة قد أخذوا أمواله؟ ثم قال الرجـل محتـدا: والآن كفى أسئلة إننى لست مسيحيا حتى تعاملينى هكذا. عند ذلـك لعقـت كلاوديا أصابعها بعد أن انتهت من تناول طعامه وهى تقول:" إننـى سوف آتى مرة أخرى بكل سرور حيث إن الأكل كان طعمه جيـدا" ثم فكرت تاليا قائلة: إنها كانت فكرة صائبة أن جئت إلى بيـت هـذا الرجل، حيث عرفت منه كثيرًا، ولكن بقى سؤال مهم وهو هل ترك سيماخوس أمواله للمدينة أو أين ذهبت أمواله؟ ثم قالت كلاوديا لتاليا وهى سعيدة إننى أكلت من طعامه بما يوازى أربعة أس على الأقـل، ثم أردفت قائلة إننى أراهن أن سيماخوس لم يعط أمواله للمدينـة، إن ذلك شىء لا يصدقه عقل. فقالت لها تاليا: وإننى أصدقك أيضًا. كمـا أننى أعتقد أن تاجر الزيت قد اكتشف بأن لاكتوكيوس يراقب الرجـل الرومانى الذى كان يشارك سـيماخوس الغرفـة، فإمـا أن يكـون لاكتوكيوس هو القاتل أو أن يكـون الـرجل نفـسه سـببًا مـن الأسباب لأن يراقبه لاكتوكيوس. عند ذلك قالت كلاوديا وقد اشتد بها الفضول: والآن أرجوكِ أن تخبرينى من يكون لاكتوكيوس هذا؟ ولم تنته من سؤالها حتى اندفع الباب مفتوحا وأطل منه لاكتوكيوس، فلما رأى تاليا صاح قائلا آه إنك أنت هنا أيضًا لم أكـن أعـرف ذلـك، ولكنك لم تدفعى الإيجار ثم نظرت كلاوديا إليه وقالت له: من أنـت؟ فقال الرجل: إننى مؤجرك الجديد، هيا أعطينى الإيجار ثم مد يده.

لقد فوجئت تاليا للوهلة الأولى ثم قالت له: ولم لا إننى أسمح لــك أن تدخل. وتضايقت تاليا فى نفسها لظهــور لاكتوكيــوس الآن فــى مسرح الأحداث حيث إنه يشوش أفكارها التى كانت رتبتها من قبــل. ولما دخل سكن تاليا وكلاوديا أخذ يتفحص المكان الذى كان نظيفــا ولم تكن به أى روائح كريهة ثم قال: آه، امرأة ليبتينــوس الــسابقة والآن تعالجين هذه الطفلة؟ فقالت تاليا: لا بل أسكن هنا، هل لــديك اعتــراض؟ فقال لاكتوكيوس: لا ولكننى كنت أحب أن أعرف الــذين يــسكنون عندى. فقالت له كلاوديا: لهذا كنت تراقب المنزل؟ ثم أخــذ الرجــل ينظر إلى تاليا تارة وإلى كلاوديا تارة أخرى ثم قــال: هــل أنتمــا مسيحيتان؟ فارتبكت كل من تاليا وكلاوديا ولم تجيبا بــسرعة ، ثــم قالت كلاوديا: ما مشكلتك مع هؤلاء المسيحيين؟ فقال لها الرجل: إن ما أعــرفه عنهــم لا تعــرفانه، ثم أنهم غيــر مرحــب بهــم مــن السلطة، لهذا فإننى لا أريد مشاكل مع الإمبراطور. فقالت له كلاوديا اطمئن لسنا مسيحيات. ثم عدت له النقود فى يده وهى تقــول لــه إن أبى غاضب علىّ فقال الرجل وهو ينظر بجنب عينه إلى الطفلــة إن معه حق إننى أعتقد أنه شخص عاقل ثم قطب عن حاجبيه مستاء ثــم انصرف.

بعد لحظات سمعت تاليا خطواته وهو يصعد سلم المنــزل إلــى أعلى وهو يصفر بشفتيه. فالتفتت تاليا إلى كلاوديا وقالت لها: هل هذا

صحيح ما تقولين؟ فأجابت كلاوديا: نعم ، حيث إننى عندما شـعرت بحملى ذهبت إلى بيتنا حيث كنت أسكن مع عائلتى وأخذت حاجياتى وأتيت إلى روما ولم أرجع ثانية. ثم قرر صديقى الرومانى الموسر أن يستأجر لى سكنا وتعهد بأن يدفع الإيجار. ثم قالت تاليا مواسـية إنك حقيقة مسكينة، ولكن مدينة روما مليئة بمثل هذ الحالات، نـساء قد أنجبن أطفالا دون زواج. ثم عادت تاليا بأفكارها مرة أخرى إلـى لاكتوكيوس وقالت: إن هذا الرجل لا بد وأن يكون على علاقـة مـا بتريمالخيو. ولكن أين تريمالخيو الآن؟ وهل مازال يتجـسس علـى المسيحيين رغم أنه مطلوب من الرومان؟ كما راحت تاليا تتذكر بداية معرفتها بتريمالخيو عندما أعتقـد أن تاليـا مـسيحية وقـال ذلـك لليبتينوس، وهل يقوم تريمالخيو بقتل المسيحيين سرا؟ ثم طرأت على عقل تاليا فكرة جديدة ،ألا وهى أن تنهض الآن وتأكل فولاً أسود ثـم تقوم بنشر حبيباته فى الغرفة كى تطرد بها الأرواح الشريرة. فقالـت كلاوديا: إن معك كل الحق حيث إن أحد هـذه الأرواح خـرج الآن متجها إلى أعلى.

الفصل الحادى والعشرون
أتباع إيزيس

قالت السيدة كورينا سكوندا لتاليا وهى تتأملها سعيدة بلقائها لكم أنا فرحة لرؤيتك ياتاليا لقد كنت أبحث عنك طوال الوقت. وكانت السيدة النبيلة ذات تسريحة جديدة حيث إن شعرها بدا ملفوفًا فوق رأسها مشكلا منظر البرج، وتفوح منها رائحة عطرية جميلة قد أثرت في تاليا. ولكنها بدت وكأنها أكبر من سنها الحقيقى، فلم تعد تلك الفتاة التى كانت تلهو بالأسد الصغير. ثم انتحت جانبا بتاليا كى لا يراها أحد من جواسيس زوجها. إن لقاءهما كان صدفة عندما كانت تاليا فى طريقها إلى سوق الغلال ورأتها كورينا بالصدفة وأمسكت بها.

دلجت كورينا مع تاليا فى حارة ضيقة بين معبدين وأخدت تخبر تاليا قائلة: إنهم يمنعون ويعيقون لقاءك بى هل تعرفين هذا؟ فقالت لها تاليا: إننى حاولت أن أزورك ولكن مكسيموس زوجك منعنى من هذا وقال لى: إنك لا تستطيعين مقابلة أحد الآن وكان على أن أنصرف. ثم وضعت كورينا إحدى يديها أسفل ماء النافورة وقالت لتاليا: إن لدى ملل رهيب كما أن السيدات من طبقة زوجى يخفن من الأسود خوفا شديدا كما إنهن لا يثرن انتباهى ولا أجد بهن ما يوجه النظر. ثم

قالت تاليا ساخرة: إذا كان أصدقاؤك من الطبقة العليـا يخفـن مـن الأسود فحاولى أن تقتنى تماسيح بدلا منها، فلربما كانـت التماسـيح بالنسبة لهن أكثر إثارة.

عند ذلك قامت كورينا بالدوران حول النافورة التى كانتا تجلـسان حولها وسألت تاليا: هل تحتاج التماسيح إلى حوض أكبر من هذا كى تعوم به، وهل أضع به تمسـاحًا واحـدًا من الأفضل أن أضع بـه اثنين من التماسيح؟ فأجابتها تاليا بقـولها يكفى أن تـشترى تمـساحًا كبيرًا ذا أسنان قوية ثم تعزمين إليه السيدة أفرانيا أجريكولا. ثم سألت تاليا مجددا وهى تقول: من السيدات اللاتى يقمن بزيارتـك؟ فقالـت كورينا: إنهن جميعا نساء كبار فى السن، يقوم مكسيموس بعزومتهن. أجابت تاليا: إننى أعتقد أنهن يتغذين جيدا ولا يمرضن؟ ثم نظرت تاليا إلى كورينا وهى قلقة منها فلربما تكون هذه المرأة الشابة جاسـوس لأحد ما. ثم أكملت كورينا حديثها وهى تقول لـيس النـساء اللاتـى يزورونا كلهن كبار فى السن ولكن الغالبية العظمى منهن هكذا حتى النساء الأخريات اللاتى يكن أصغر سنا فإن أحاديثهن سطحية ، فهن يتحدثن عن تزيين مائدة القرابين فى بيوتهن كما يتحدثن عمـا قالتـه لهن الإلاهة السماء الإلاهة يونو فى كل صباح، كمـا يتحـدثن عـن الأرواح الطيبة والأخرى الشريرة. وأنا أبحث عن شىء أكثر ظرفـا مما يتحدثن عنه هؤلاء النسوة . فقالت تاليا: إننى لم أكن أعرف ذلك من قبل، ثم أكملت كورينا قائلة ولكن على ما أتذكر أن أمور التسلية

فى عهد الإمبراطور دومينيان كانت أفضل رغم أن الرومان لا يحبون سماع اسمه، على العكس من ذلك من الآباطرة تيتوس وفاسباسيان اللذين يحبهما الشعب الرومانى حتى الآن. أما الشىء الذى كان غير مقبول فى الأعراف الرومانية أن الإمبراطور لم يكن مسموحًا له بالزواج من سيدة ذكية عاقلة من أفراد الشعب العادى، بل كان عليه أن يتزوج من النبيلات، ثم قالت كورينا: هل تدركين ما أرمى إليه من وراء حديثي؟ فأجابت تاليا بصراحة وهى تقول: لا، لا أفهم شيئا.

فى الواقع كلما سمعت تاليا مزيدًا ازدادت حيرتها كى تعرف من الحاكم الفعلى لروما؟ فضحكت كورينا وهى ترش تاليا بماء النافورة كى تداعبها وهى تقول لها إذا فدعى زوجة السناتور توضح لك كل شىء ياتاليا. وبدأت كورينا تقول: إن الإله الحالى هو الإمبراطور تراجان وأنا شخصيا أقدره رغم أنه ليس من أصل إمبراطورى. وذلك أن الرجل وسيم ونشيط فإما أنه فى حرب أم فى مهمة من أجل بناء أم إصلاح الطرق فى روما أما زوجى وأصدقاؤه فإنهم لا يحبونه ويرون أنه لا بد وأن يقوم تراجان بمحاربة اليهود والمسيحيين والفلاسفة ويطردهم من البلاد. إن هؤلاء جميعا مع الموضات الجديدة ليعتبرون خطرًا على الشعب الرومانى. ثم قالت كورينا: وبالمناسبة فإن عائلة أجريكولا هى من أصل قيصرى وأفرانيا أجريكولا لا تزورنا قط. فسألتها تاليا: هل عائلة أجريكولا معادية

لعائلتكم أقصد لعائلة زوجك؟ فقالت كورينا: نعم إنهم أعداء ألداء لعائلة زوجى، وذلك لأنهم يريدون أن يستأثروا بالسلطة لهم هم وحدهم حيث إن نائب الملك بمصر كان منهم وكذلك المبعوث فى هسيبانيا من عائلتهم. ثم صمتت تاليا لحظة واستدارت تنظر إلى العبدة التى كانت فى رفقة كورينا هل هى تسمع الحديث أو لا؟ ثم قالت تاليا لكورينا: هل تعرفين شخصا يدعى جايوس كورنيلليوس تريمالخيو؟ فقالت كورينا: نعم أعرفه لقد عرفنى به زوجى قبل أن يسافر إلى مصر ولكن منذ أن عاد من مصر لم أره ثانية. فقالت لها تاليا: إنه كان معنا على الباخرة نفسها التى جاءت من الإسكندرية ثم رأيته بعد ذلك فى منزلكم. فقالت كورينا: إن زوجى له بعض الأسرار ولربما يكون هذا الرجل من أحد أسرار زوجى أيضًا. ولكن على ما أعرف إن زوجى قد أرسله إلى الإسكندرية فى مهمة ما . فأجابت تاليا أى مهمة تقصدين؟ فقالت كورينا: أعتقد أن ذلك يخص مقتل أجريكولا وإصابة أفرانيا بالكوليرا فى الإسكندرية، إننى كنت فى ذلك اليوم بالمكتبة وسمعت زوجى وهو يتحدث عن ذلك. وعلى ما أعتقد أن تريمالخيو متهم بقتل الرجل وتسميم أفرانيا.

وأخذت تاليا تتأمل وتحدق فى الرومان الذين كانوا يصعدون الهضبة الموصلة إلى قصر الإمبراطور وخلفهم العبيد الذين يحملون أوراق البردى خلف أسيادهم. ثم أرادت كورينا بعد ذلك الانصراف فقالت لها تاليا: إننى سوف أرافقك بعض الخطوات. وفى أثناء تلك

الخطوات فكرت تاليا أن تخبر كورينا عن حادث الاغتـصاب الـذى تعرضت له من الجنود الرومان وهى فى طريقها فى الصباح الباكر كى تعالج أفرانيا التى لم تكن تعانى شيئًا سوى الهواجس والوساوس. ولكن تاليا عدلت عن هذه الفكرة ولم تخبرها بشىء. وبدلا عن ذلـك سألت تاليا كورينا بقولها: هل زوجك من النـوع الـصعب؟ فقالـت كورينا هامسة: إنه لا يثق بأحد وهو دوما خـائف مـن المـؤامرات ويحاول أن يحمى نفسه بأى شكل. كما أنه كثيـرًا مايزورنـا أحـد جواسيسه فى المنزل كى يبلغه بالأخبار ، لهذا فإنه منعك أنـت مـن زيارتى. ثم تحركت تاليا للأمام تجاه المعبد وخلفها كورينـا وهمـا تحاولان الابتعاد بعض الشىء عن العبدة التـى كانـت تحـاول أن تتنصت على حديثهن الهامس.

بجوار المعبد كان هناك منزل كبير يستخدم لتجارة العبيـد. وقـد كان هذا المنزل قديمًا جدا. واتجهت كورينا وتاليا إلى حيـث وجـدا مكانا قد عرض به كم كبير من العبيد للبيع وهم ذوو أشكال حـسنة، وراح المشترون يفاصلون ويبلغون أسعارهم. فقالت تاليـا لكورينـا أرجوكِ أنا لا أستطيع أن أقف هنا وأشاهد أنا لا بد وأن أمشى مـن هنا. ولكن كورينا قالت لتاليا: أرجوكِ ياتاليا إننـى فـى حاجـة لأن أشترى عبدة مخلصة وجميلة لى أنا. أرجوك ياتاليا سـاعدينى فـى الاختيار، إننى أشعر بأن ماكسيموس قد أرسل شخصًا خلفـى كـى

يحرسنى. وفى النهاية وافقت تاليا على مضض أن تساعدها فى الاختيار. ثم لمست تاليا بعد ذلك يد كورينا وأشارت لها بيدها على عبدة فلما نظرت إليها كورينا لم تعجبها وقالت لا لا أريد هذه. إننى أعرف التاجر وهو لا يحصل إلا على العبيد السيئة بدون تربية وهذا لا يعجب ماكسيموس. فقالت لها تاليا: تعالى لنتحدث مع المرأة وإذا لم تعجبك فلا تشتريها. ثم بعد ذلك لا تخبرى زوجك عن مكان شرائها فلا يجب أن تفعلى دوما مايريده فقط.

ومن خلال حديثهما مع المرأة اكتشفوا أنها زوجة أحد المحاربين التراك والتى وقعت فى الأسر، وعندما أمرتها كورينا بالتحرك للأمام لاحظت إن هذه المرأة تعانى فى إحدى رجليها حيث إنها تجر رجليها بصعوبة حين تهم بالمشى. فقالت تاليا هامسة لكورينا: خذى هذه المرأة اشتريها إنها تستطيع أن تفهمك كما أنها جميلة وعاقلة ويمكن الوثوق بها. فسألت كورينا باللغة اللاتينية وإذا كانت تكذب؟ فلم تجب تاليا. عندئذ قدمت كورينا فيها ثلاثة أس واشترتها بهذا المبلغ لأنه لم يكن هناك من يهتم بها أو يريد شراءها. ثم قالت تاليا: دعينى أرى إذا كنت أستطيع مساعدتها. ثم بعد ذلك لا بد لى وأن أذهب إلى سوق الغلال، حيث إنها تخبز بنفسها وذلك لأنه أرخص لها من شراء الخبز الجاهز ثم بعد أن فحصت تاليا العبدة الجديدة قالت العبدة لتاليا: أشكرك أيتها اليونانية إن ما برجلى ما هو إلا طعنة سيف من جندى

روماني وقد ازدادت سوءا من كثرة المشي. إنني كان بإمكاني معالجة الجرح ولكن ذلك يحتاج مني ثومًا وهذا يكلف نقودا ثم تنهدت حزينة وصمتت. فتعجبت تاليا قائلة: من أين لك بهذه المعرفة؟ وأصبح اهتمام تاليا منصبًا على العبدة الجديدة مما اغضب كورينا التي أشاحت بوجهها وشعرت أن تاليا قد أهملتها من أجل العبدة. ثم أجابت المرأة بقولها: إنني كنت في بلدي طبيبة. فقالت تاليا: وأنا أيضًا ثم ابتسمت تاليا للمرأة وشعرت كل منهن بأن رباطًا ما يربط كل منهن بالأخرى. فكشرت كورينا وقالت للمرأة: لو كنت بالفعل طبيبة لطلبت من التاجر مبلغا أكبر من المال ولما باعك رخيصة هكذا؟ فأجابت المرأة: التراكية إنني ضد أن يباع البشر أو يشترون من حيث المبدأ وأسألي فيلسوفكم سنيكا. لقد تحدثت المرأة التراكية بأدب وهدوء ولم تكن خائفة من أحد.

ثم ودعت كورينا تاليا وانصرفت بينما نظرت تاليا إلى المرأة التركية نظرة توصيها أن تكون مطيعة. ففهمت المرأة التراكية نظرتها وبادلتها الشعور نفسه ثم انصرفت كل منهن إلى طريقها. لم تكد تاليا تدخل المنزل حتى استقبلتها كلاوديا وهي تقول لها: هل لك أن تصدقي بأن حراس الإمبراطور قد جاءوا واقتادوا الرجل؟ فقالت تاليا أتقصدين من كان يسكن مع سيماخوس بالغرفة؟ فأجابت كلاوديا: نعم. فقالت تاليا هل تقصدين أنهم يتهمونه بقتل سيماخوس؟ فقالت

كلاوديا: لا أدرى ولكنهم على أقل تقدير فسوف يحققون معه بطريقتهم الخاصة. وهى تفكر بصوت مرتفع قائلة أتمنى لو أعرف من أيـن حصل سيماخوس على النقود التى اشترى بها الغلال؟ فقالت كلاوديا وهى تجيبها: ربما من نبيل أو سناتور مسيحى. فقالت تاليا: إن هـذا السناتور أو النبيل لا يمكنه أن يعبد إلها آخر سوى الإمبراطور على الأقل لا يستطيع أن يفعل ذلك علانية. فقالت لها كلاوديا: إن هنـاك عديدًا من الطرق التى يصلى بها هـؤلاء الـسناتورات لإلـه غيـر الإمبراطور دون أن يدرى أحد. فقالت لها تاليا إن معك حق.

ثم انخرطت تاليا فى البكاء بينما قفزت كلاوديا وهى تحتـضنها وقالت لها: نعم ابكى إن كل إنسان فى حاجة إلى البكاء مـن وقـت لآخر حتى يستريح. ثم قولى لى بعد ذلك ما يبكيك؟ بعد لحظة جففت تاليا دموعها وقالت بصوت متهدج: أعتقد أننى قد استطعت حل بعض الألغاز التى لم أكن أعرفها من قبل. ثم استطردت تاليا قائلة، بالتأكيد فإن هناك كثيرًا من المحافظين الذين لا يتفقون فى كثير من الأشـياء مع ما يقوم به القيصر، كما يقومون بمراقبة المسيحيين وتتبعهم أيضًا مثل سيماخوس الذى حصل على المواطنة الرومانيـة كـى يخـدم المسيحيين بها. إن أمثال هؤلاء الكارهين للمسيحيين لن يخافوا مـن أن يقتلوا وأننى أعتقد بأن السناتور ماكسيموس هـو زعـيم هـؤلاء المحافظين الذين يمكن لهم قتل المسيحيين بدون أى وازع من ضمير،

فهو الذى يرسل الجواسيس فى كل مكان وهو الذى أعطـــى الأمـــر لقاضى القضاة تريمالخيو بالإسكندرية ولكنه الآن اختفى.

أما فى الأسابيع التالية فلم يحدث ما يوجه نظـــر تاليـــا أو يثيـــر انتباهها سوى أن لاكتوكيوس قام بتأجير الغرفة التى كان يسكن بهـــا سيماخوس ورفيقه آكل الزيتون. فى أثناء ذلك كانـــت ســـمعة تاليـــا باعتبارها طبيبة وقابلة تنمو كل يوم وأصبح معروفا عنها أنها المرأة التى تأتى بالمعجزات فهى التى لا تعرض حياة النساء للخطر حتـــى فى أسوأ الظروف، وأصبحت تاليا هى التى تنفق على المنزل بأكمله حيث كانت كثيرًا ما تعود إلى المنزل وهى تحمل الخبز والخـــضار والفاكهة ولكنها كانت مدينة بكثير من المال لفروَجى الطبيـــب بـــائع الأدوية ، حيث اعتادت أن تشترى منه الأدوية وتسدد ثمنهـــا علـــى أقساط كلما تيسر لها المال .

موازاة لهذا غدت كلاوديا مهووسة أكثر بهيجسيبوس ثم أن تاليـــا طلبت منها أن تظهر فى الميادين العامة وتسمع فلربما استطاعت أن تعرف أى شىء عن ليبتينوس وذلك أنها سمعت أنه فى أثناء معالجته أحد السناتورات قد توفى السناتور وتسبب ذلك فى مشكلة كبيرة لـــه. فقالت لها كلاوديا ولم تسألين عن هذا الجربوع أتمنى أن يقتل مزيـــدًا منهم فهو أفضل لك. ثم قالت كلاوديا بعد لحظة صمت: هل تعـــرفين طريقة جيدة أستطيع بها قتل شخص ما؟ فتعجبت تاليا من هذا السؤال

وقالت لها: إنه من الأفضل لك أن تفكرى فى الحياة بدلا من أن تفكرى فى الموت والقتل.

فجأة مدت كلاوديا قدمها أمام عينى تاليا وأخذت ترتعش قدمها وهى تصيح بصورة تمثيلية قائلة إننى أنا إيزيس إلهة النساء إننى أنا التى وضعت حب النساء فى قلوب الرجال. فقالت تاليا لها: ربما تستطيع الإلاهه إيزيس أن تحول قلب هيجسيبوس من حب الأخريات إلى حبك أنت ياكلادويا. فقالت كلاوديا: إنه لم يجب حتى الآن على خطابى إننى أريد رؤيته حتى وإن كان واقفا فى شرفة منزله ثم أردفت هل ستأتين معى كى ترى موكب الإلاهه إيزيس؟

فى الميدان الذى كان يقام به حفل عيد الإلاهه إيزيس كان الرومان قد انتهوا من حرق عشرة آلاف أسير تراكى، وبدت فى السماء كمية كبيرة من الأدخنة والروائح الغريبة، ثم أن عيد الإلاهة إيزيس كان الرومان يحتفلون به دوما فى الخريف ولمدة ثلاثة أيام. ثم أجابت تاليا فى الحقيقة لا أريد الذهاب إلى هناك حيث إننى دوما ما أتذكر مثل تلك الاحتفالات بالإسكندرية وما كان يحدث بها من صدام، كما أن أفرانيا سوف تحضر هذا الاحتفال أيضًا. فأجابتها كلاوديا قائلة: إن فى هذا المكان لن يحدث لك أى شيء، ففى هذا العيد لن تجدى مسيحيين فممن تخافين؟ ثم قالت كلاوديا: ربما تخشين مقابلة ليبتينوس، فقالت تاليا: نعم هذه حقيقة.

لقد انطلقت فى هذا اليوم نساء روما جميعهن وهن يرتدين الفاخر من الثياب نحو معبد إيزيس، العاهرة تمشى بجوار امرأة السناتور لا فرق بين هذه وتلك، وكل منهن تود أن تحصل على مكـــان مميـــز. ولكن كلاوديا كان فى رأسها هدف آخر وهو أن تكون قريبـــة مـــن منزل هيجسيبوس الذى كان قريبا من معبد إيزيس والتيبر. وذهبـــت تاليا مع كلاوديا ولكنها فى الواقع لا تشعر بأى أحاسيس دينية بينمـــا كان هناك حشد كبير من الكهنة والكاهنات المتدينين وكذلك.

تلك الأحاسيس الدينية قد افتقدتها تاليا بالتحديد حينما تقابلت مـــع أفرانيا فى معبد السيرابيوم بالإسكندرية كما أن ما لا يعجب تاليا هـــو أن الإلاهة إيزيس وكهنتها يقولون بأن الإلاهة إيـــزيس قـــد جمعـــت خصائص بقية الآلهة فى شخصها هى وهى بذلك تلغى بقية الآلهـــة الأخرى، وهذا ما لا يقبله عقلها، كما أن الإلاهة إيزيس كانت كثيـــرًا ما تطلب كثيرًا من أتباعها . وهو أن تصلى النساء لها كل يوم فهـــذا شىء كثير أيضًا.

فجأة وقفت كلاوديا أمام منزل كبير أمامه كثير من التزاحم الـــذى لم يقل عن التزاحم أمام المعبد، ثم قالت كلاوديا: إنه منزل هيجسيبوس أتمنى أن يخرج الآن كى أراه ، بينما كان موكب الإلاهة إيزيس قـــد بدأ التحرك من المعبد . وقد بدا الكهنة هنا وهـــم يحملـــون تماثيـــل الآلهة إيزيس وأزوريس وهما يرتـــديان فـــاخر الثيـــاب ومزينـــان

بالجواهر الثمينة. وفى الخلف كان يمشى كبار الكهنة الذين ارتدوا جلاليب بيضاء وفوقها بلاطى سوداء. بينما كان هناك كاهن يقود هذا الموكب يحمل فى يده إناء يأرجحه فى يده يمينا ويسارا وآخر يحمل تاجا من الورد علامة نصر أوزوريس واستيقاظه مرة أخرى وبعثه من جديد ثم بعد ذلك جاءت الكاهنات وهن يرتدين الجلباب وفوق منه البالطو وفى منطقة الصدر تتدلى منه بعض الحليات وعلامة الحياة عنخ. وضحكت تاليا على هذا الموكب ساخرة وهى تقول إننى رأيت هذا كله بالإسكندرية ولكن العجيب والغريب فى الأمر أن هذا العيد لهو عيد لإلهة وليس إله ورغم ذلك فإن الكهنة الرجال هم الذين يتقدمون الموكب وليست السيدات.

فقالت كلاوديا ولكن السيدات أكثر تدينا من الرجال، وعندما تحضرى أى صلاة فسوف ترين أن النساء أكثر من الرجال وأصواتهن أعلى من أصوات الرجال أيضًا. أما نبيلات روما فقد رحن يمشين مع الكاهنات وبالطبع إن مثل تلك المناسبة لا تدعها أفرانيا تفوتها، حيث أنها كانت فى الوسط وقد فتحت صدرها على شكل علامة الحياة عنخ ، إنها تمثل الآن دور المرأة المتدينة ولكنها تنظر بخلسة إلى بيت المصارع هيجسيبوس.

من خلال إحدى شرفات الدور الثانى رأت أن شخصا ما قد أشار لأفرانيا بيده وقد أشارت له هى برأسها دليل على أنها قبلت إشارته، وهذا دليل على أنها اصطادت هذا المصارع أيضًا.

ومن وسط الموكب صاح أحدهم قائلا انتظروا، انتظـروا فـرأت تاليا إحدى السيدات التى تنحنى إلى أسفل وهى تتـألم، فقالـت تاليـا لكلاوديا أعتقد أن شخصًا ما فى حاجة إلينا، ثم راحت كلاوديا تفسح مكانا لتاليا وهى تقول أفسحوا مكانًا للطبيبة. حتى إذا وصـلت تاليـا للمرأة قالت لها هل تشعرين بآلام الطلق، فأمسكت المرأة بذراع تاليا وهى تتألم وهزت رأسها بالموافقة، فقالت تاليا لكلاوديا: إننا فى حاجة إلى مكان كى نولد به المرأة فقالت كلاوديا بالتأكيد فإن هيجـسيبوس لديه بمنزله مكان فسيح لكى تلد به عشر سيدات. وجـرت كلاوديـا بسرعة إلى باب المصارع وراحت تطرقه بسرعة حتى فـتح أحـد العبيد الباب فدخلت تاليا والمرأة الرومانية وخادمتها البيـت والمـرأة الرومانية فى حالة سيئة من آلام الولادة. ورغـم الـضوضاء التـى حدثت بالطابق الأرضى فى منزل المصارع هيجسيبوس الذى يقـيم بالطابق الثانى لم يره أحد حتى الآن. حتى إذا مرت لحظات تزلـت من السلم امرأة رومانية ترتدى ثياب فاخرة ولكنها تغطـى رأسـها ووجها ولكن من شكل جسمها وطريقة مشيتها عرفتها تاليا بـسرعة إنها أفرانيا. ثم قالت تاليا لكلاوديا: انظرى من ينزل هنا من الـسلم؟ وغطت أفرانيا وجهها بشال خرجت مسرعة من الباب قبل أن يراها أحد ثم أقبل عبد عجوز أدخلهم غرفة بها سرير فارغ ثم أمرت تاليـا كلاوديا بإحضار ماء وأشياء أخرى لزوم الولادة، بينما جاءت نـساء أخريات مع المرأة الرومانية ودخلن الغرفة أيضًا كى يرين ما يحدث.

فى تلك اللحظات كانت كلاوديا مساعدة نشطة وممتازة لتاليا حيث قامت بدورها بإتقان. بينما راحت تاليا تشجع المرأة وتحثها على التحمل وهى تقول لها: إن الجنين فى وضعه السليم للولادة وسوف تسير الأمور على ما يرام، كما كانت المرأة ضخمة وقد أنجبت قبل ذلك مرتين على الأقل حسب تقدير تاليا. ولم تمض لحظات حتى كانت تاليا قد أنزلت الطفل من بطن أمه ولدا ذكرا ذا شعر أسود. بعد ذلك استراحت المرأة وأخذت تاليا تغسل يديها بعناية، ثم ألقت الفوطة المتسخة فى أحد أركان الغرفة ووضعت أدواتها الطبية فى فوطة أخرى نظيفة وراحت تلفها بعناية. ثم بعد ذلك قالت تاليا للمرأة: إننى أود أن أخيط لك الجرح فهل ستتحملين ذلك دون تخدير أم أعطيك وسيلة تخدير؟ فقالت المرأة الرومانية: أعتقد أننى لا أحتاج إلى وسيلة تخدير كما أننى لا أريد أن أغفل عن ابنى الوحيد وراحت تاليا تخيط للمرأة جرحها، ثم استدارت بوجهها فجأة لكى ترى رجلاً يرتدى عباءة رومانية وأخذت تاليا تتأمله حتى رأت وجهه ثم قال الرجل إننى سعيد أن أراك مرة أخرى. فلم تجب تاليا ولم تسعد برؤيته كما إنه من الوقاحة أن يدخل رجل غرفة بها امرأة تلد وقالت تاليا لنفسها إن ذلك لا جدوى منه أن تعلم هذا الرجل عديم التربية والأخلاق. ثم قامت بتطهير الجرح بخلاصة زهرة الكاموميل، ثم غطت المرأة بملاءة من الكتان ومسحت عنها عرقها. وسعدت بذلك رفيقتها المرأة

الأخرى وابتسمت لتاليا عرفانا بالجميل، بينما قال الرجل الذى مازال واقفا خلف الباب لقد قمت بعمل رائع، أخبرينى أين تعلمت هذا كلــه؟ فقالت له بضيق: من ليبتينوس السكندرى وهو تلميــذ ســورانو مــن منطقة أفيسوس ولكنى تعلمت كثيرًا من القابلة الـسكندرية نيونختــه أيضًا كما أننى قرأت كل ما كتبه سورانو أيضًا. ثم قالت تاليا للرجل ولكن من أنت لكى تسأل هكذا؟ فقال الرجل: أنا سورانو من منطقــة أفيسوس. وعلى ما أعتقد فإنك أنت المعروفة هنا باسم السكندرية.

ولما سمعت تاليا اسم سوارنو توقفت أنفاسها للحظة ولم تـصدق عينيها بأن الواقف أمامها الآن هو سوارنو الطبيب العظـيم ومثلهــا الأعلى. ثم تذكرت تاليا بسرعة مقالته لها فى بيت أفرانيا من أنها لابد وأن تخيط شفتها. وكأن الرجل شعر بما يدور فى رأسها من أفكــار فقال لها: إن العرض مازال قائما. وأخذت تاليا تقول لنفسها: إننى منذ وعيت الحياة وأنا أحاول أن أتقبل شكلى هذا بشفتى المفتوحة، فهــل أقبل أن يخيطها لي؟ وهل سينجح فى ذلك؟ فقالت له راجيــة دعنــى أفكر وهى فى قرارة نفسها لا تدرى ما سر مخاوفها من تلك العملية. ثم تقدم الرجل إلى الأمام ووضع يده على كتف المرأة التــى ولــدت وقال لها: هذا هو عقاب الآلهة لك يا أوريليا حيث إنك خرجت إلــى الموكب رغم أننى حذرتك، ثم أردف قائلا: وبالمناسبة فــإننى أعهــد لتاليا أن تعتنى بابنك فى عامه الأول، فإنها ستقوم بهذا الواجب خيــر

قيام أنك مع تاليا السكندرية فى أيدٍ أمينة. وقبل أن ينصرف سورانو، جلس القرفصاء وأخذ يتأمل الأدوات الجراحية التى تستعملها تاليـا، كلها كانت حسب تصنيف سورانو حتى وقعت عينيه على سكين كان قد طلبها هو بذاته من الصانع بالإسكندرية وأخذ يتأملها، فقالـت لـه تاليا إنها هدية من الصانع السكندرى موسى من منطقة راقودة، ولقـد قال لى أيضًا أنك قد طلبتها منه ولم يسعفه الوقت كى ينجزها لك قبل سفرك. فقال الرجل: إن موسى لفنان وساحر وهو يستطيع بيديـه أن يصنع ما لا يستطيع عمله صانع آخر. ثم قال: إن موسى لابـد وأن يكون قد رأى فيك شيئًا مميزا حتى يعطيك هذه السكين هدية، إننى لا أعتقد أنه سوف يهديها لليبتينوس. إن مديح سورانو العظيم لها حرك مشاعرها الدفينة غدت تاليا تقاوم دموعها حتى لا تـضعف وتغمـر دموعها وجهها. إن العادات الرومانية القديمة كانت تعتقد أن المولود الأول إذا ولد فى موكب الإلهة إيزيس فإن ذلك يعتبر فألا حسنا كبيرا لجميع العائلة. كما أن سورانو قد أسدى لها صنيعا إذ كلفها برعايـة الطفل لمدة عام، وهكذا استطاعت تاليا أن تتردد على قصر أوريليـا وتزورها كى تصبح أكثر شهرة وأكثر ذيوعا فى كل مكان.

وفى إحدى زيارتها للقصر رأت تاليا أن الناس من علية المجتمع الرومانى قد صمتوا عندما رأوا تاليا وأفسحوا لها المجال، كما أنهـم غدوا ينادونها باسمها تقديرا وعرفانا لها ولمكانتها بينهم. ثم انتظرتها

أوريليا وهى سعيدة لمقابلتها ومدت يدها لها بالتحية والمصافحة حتى إذ جلست تاليا بجوارها وقالت أوريليسا متسائلة: هل تعرفين عما إذا كان الطبيب ليبتينوس جيد أم لا؟ فقالت تاليا: نعم إنـــه ممتـــاز. فقالـــت: أوريليا متسائلة: هل كنتما متزوجين؟ فأجابت تاليا: نعم كنا زوجـــين. وحانت التفاتة من تاليا إلى كلاوديا التى غدت بالنسبة لهـــا مـــساعدة تحمل حقيبتها الطبية إلى كل مكان وتعتنى بأدواتها الجراحية ، وهى فى قرارة نفسها فخورة بأن تكون مساعدة لها تحمل أدواتها الطبيـــة بعد أن قامت هى بهذا الدور لسنوات طويلة. ثم سألت أوريليا مجددا كما يقال إنه جميل كرجل أيضًا فأجابتها تاليا نعم إنه جميل مثل آلهة اليونان. لهذا فإننى لا أفهم، لقد سمعت أن ليبتينوس قد ترك أفرانيـــا وقطع علاقته بها وتصادق مع شاب وهذا الشاب يقيم معه الآن فـــى بيته، وذلك بعد أن سمع من كثيرين بأن أفرانيا كانـــت فـــى بيـــت هيجسيبوس فى أثناء ولادتى فما رأيك فى هذا؟ فقالت تاليا: فى الحقيقة إننى رأيتها أيضًا لقد كانت متخفية فى شال ولكننى أستطيع معرفتهـــا فى أى مكان. فقالت أوريليا إن هذا لشىء عجيب حيـــث إن أفرانيـــا تتحدث فى كل مكان قائلة إن ليبتينوس تركها فقط من أجل شاب آخر وكأنها لـــم ترتكب أى ذنب فى هذا الاختلاف. فقالت تاليا: إنـــه قـــد خرج من هذا المأزق بسلام، لأن أفرانيا لا تترك ثأرها بسهولة كمـــا أنها خبيثة ومؤذية وخطرة ولا يمكن للمرء أن يأمن جانبها. ثم قالت

أوريليا بالمناسبة ياتاليا فإننى أرجوكِ أن تقومى بزيارة أخى تولــوز فهو يحتاج إلى أن تنظرى إليه ثم تقدمت أمامها كى تريهــا الطفــل. فنظرت تاليا إلى الحبل السرى للطفل ولاحظــت أن حبلــه الــسرى صغير إلى حد ما وقبل أن تودع أوريليا قالت لها: إننا جميعا متأثرون لمرض أخى فلربما تستطيعين أنت مساعدته إنه يسكن على بعد بيتين من هنا. خرجت تاليا من عندها متجهة إلى المنزل الذى وصفته لهــا وهو منزل أخيها الذى رأت تاليا أمامه أناس يــدخلون ويخرجــون، وبعضهــم يحمل تماثيل صغيرة والآخــرون يحملــــون أغــصانًا نباتية، ولم يعتين أحد بتاليا وكلاوديا. عندئذ أرادت تاليــا أن تــسأل الرجل الواقف أمام المنزل عن مريضها الذى تقصده ولكنه لم يمهلها ولم يعطها الفرصة حيث قال لها: إنك أتيت متأخرة إننــى أعتقــد أن السيدة لن تدفع لك أجرك كاملا. فتنهدت تاليا وهى تقــول للعبــد إن سيدك تولوز قد ترك لى خبرًا عند أخته أوريليا كى أقوم بزيارته فهل هو موجود؟ فقال العبد: آه يا آلهتى إنه قد حدث سوء فهــم، أرجــو المعذرة يا سيدتى تاليا ، وقبل أن ينحنى العبد أمامها معتــذرا مــدت إليه يدها ومنعته من الانحناء وقالت له: كل شيء على ما يــرام ولا تقلق. ثم أردفت تاليا قائلة: إننى أعرف كثيرًا عن العادات الرومانيــة ولكن على أى حال فى بلادى الأصلية فإن الناس ترى الخطأ البشرى على أنه من تأثير الآلهة علينا نحن البشر. فقال العبــد: إن بلادكــم

جميلة وطيبة فماذا نفعل هنا مع البشر الذين هـم ليـسوا ببـشر ولا يغفرون الخطأ ولا يـرون به سوى أنه خطأ وليس آثـار الآلهـة؟ فأجابته تاليا إن هذا لا يعطيك العذر كى تعتقد بأن الآلهة والبشر قـد تخليا عنك رغم أننا نشعر فى كثير من الأحيان بأن الآلهـة بعيـدون عنا ولا يستطيعون أن يهتموا مشاكلنا كلها وتفاصيلها الدقيقـة. لهـذا فإننا على أى حال كبشر نهرب من مشاكلنا عـن طريـق الـديانات والأساطير. فقال العبد: وهو يتأوه إن كلامك منطقى وجميل وهذا ما لم أجد لـدى المسيحيـة التى لا تواسى ولا هـى منطقيـة، وهـم يقولون إن على كل فرد أن يقبل قدره كما هو دون جدال أو محاولـة تغيير. فقالت تاليا: إننى لا أعتقد بأن هناك إله يرضى للبشر بالعبودية أو يقر هذا النظام البغيض. وقال الرجل: إنهم هنا يؤكدون بإن الإلـه قد قسم الكون إلى قيصر وأتباعه وعبيد وعلى كل فريق أن يرضـى بقسمة الإله. فهزت تاليا كتفيها مستنكرة وقالت للعبـد ولكننـى الآن أود أن أرى سيدك إنه سوف يأتى المنزل بعد نهاية حفل السيدة، فقال العبد: ربما يمكنك أن تنتظرى أو أن تذهبى وتعودى لاحقا إن شئت. فقالت تاليا: بل سوف أذهب الآن وأزوره غدا فأرجو أن تبلغه بـإننى أتيت اليوم ولم أجده وسوف آتى لزيارته غـدا. ثـم عـادت تاليـا وكلاوديا خلفها، بينما كان يقف أمامهم على هضبة مرتفعة معبد الإله جوبتر، فقالت تاليا لنفسها: وهى تتأمله ربما لا يستمر الوقت طـويلا

حتى يزال معبدك من هنا ياجوبتر ويبنى مكانه كنيسة مسيحية ولكن متى فلا يدرى بذلك أحد. ثم أخذت تدور الأفكار مرة أخرى برأسها عمن وضع قوانين الآلهة هذه؟ أليس القيصر هو الذى وضعها بالطبع لصالحه وصالح أتباعه؟ ثم قالت تاليا لنفسها: إن الفيلسوف كرايتس كان محقا عندما قال: إن المسيحيين لا يحبون الديانات الأخرى، فإنهم عندما ينتصرون فسوف يضعون معبدهم فوق حطام معبد جوبتر وليس بجواره. ثم استدارت تاليا تنظر حولها أينما نظرت كانت ترى المعابد، تلك المعابد فى روما كانت جميعها فقط لحماية المدينة وأهل المدينة. هل هذه المعابد كلها سوف تهدم ويحل محلها إله المسيحية الذى لن يقدم شيئًا للبشر مثل بقية الآلهة الأخرى إنها فى حاجة إلى بنتانوس وكرايتس كى تجد لديهم إجابة لأسئلتها. وبمجرد أن وصلت تاليا وكلاوديا إلى حى السبورا الذى يسكناه سألتها كلاوديا بقولها: فيم تفكرين طوال الوقت؟ فقالت لها تاليا وهى غارقة فى أفكارها: هل تعتقدين أن خياطة الشفة شىء مؤلم جدا؟

الفصل الثانى والعشرون

خصى الذكور

إن السناتور تولوز كان على العكس تمامًا من أخته التـــى كانـــت ضخمة وممتلئة وهادئة، أما هو فقد كان فارع الطول أيـــضًا ولكنـــه مقوس الظهر ويمد كتفيه للأمام عند يسعل، كما أن هذا السناتور لـــم يكن يرتدى العباءة الرومانية مثل بقية السناتورات ولكنه كان يرتدى ما يشبه الجلـــباب ذا الأكمام الطويلة، كما أنه له لحية تشبه اللحيـــة التى كان ليبتينوس يطلقها فى أثناء إقامته بالإسكندرية، وقـــد أعطـــاه هذا كله شكلاً يونانيا أكثر من الشكل الرومانى المعهود. أخذت تاليـــا تتحدث مع الرجل كى تعرف سبب آلامه وســـعاله المـــستمر، وقـــد أدركت أن مشاكل الرجل النفسية هى التى سببت له هـــذه الأزمـــات الصحية. ثم سألته تاليا منذ متى وأنت تعانى من هذا السعال؟ فقـــال السناتور منذ زمن بعيد، حيث لم أكن قد أصبحت سناتورا بعد، عندما داهمنى السعال، ثم ازدادت حالتى سوءا من وقت إلى آخر. ثـــم رأت تاليا حبيبات العرق تنساب على جبهته رغم أن الجو كـــان بـــاردا ، فقالت له: هل تعانى من المنصب الوظيفي؟ فأجاب الرجل بقوله: إننا

نحن الرومان نفتخر إذا حصلنا على عمل فى البرلمان ولكنــه فــى الوقت نفسه ليس بالشىء اليسير أن يقوم المرء بهذا العمل. ولقد أراد أبى أن أتولى منصبا أكبر من منصبه، فقاطعته تاليا قائلة: القنــصلية بالتحديد. فقال: نعم كما أن والد زوجتى كان يعمل قنصلا أيضًا ومع مرور الوقت لم أحب هذا العمل، حيث إن كــل شــىء بــه مكــرر وروتينى، حيث دوما ما نزور المعابد وفى اجتماعاتنا كلها النكــات نفسها، الملاحظات نفسها، إننى لا أرى فى ذلك العمل أى جدوى.

فجأة قالت تاليا للرجل: إن علاجك الوحيد هو أن تترك وظيفتــك هذه وتبحث عن شىء يجلب لك المتعة. فقال الرجل مرتجفا: لا لــن أفعل ذلك ، لا أستطيع أن أفعل هذا بأسرتى، إننى أفضل الموت على ذلك.

لقد كان موقفا صعبا على تاليا أن تقنع شخصا مثلــه برأيهــا وأن تثنيه عن عمله كسناتور يقوم بتوزيع الغلال وزيارة المعابد والتعبــد أمام الجمهور لآلهة لا يعتقد بها ولا يرى بها نفعا أو ضررا.

ثم قالت تاليا للرجل الذى على ما يبدو أنه قد اختــار الطريــق الخطأ: ماذا يفعل القنصل غير تلك الواجبات التــى ذكرتهــا؟ فقــال الرجل: فحص رغبات الآلهة والعمل على تحقيقها. فقالت تاليــا: إن ذلك ليس بالواجب الصعب أليس كذلك؟

فى أثناء جلسة العلاج هذه، كان صوت العبد فى الخارج مسموعًا فى أرجاء القصر وهو ينهر شخصا ما قد دخل القصر بحذائه الـرث مما تسبب فى اتساخ المكان فراح يأمره بخلع حذائه لأنه فى قـصر وليس فى حديقة خضار. ثم أخذت تاليا تفكر فى هذا العبد الذى كـان قد اعتنق المسيحية سرا، وقد أثر على سيده الذى يرى الآن فجأة عدم جدوى الآلهة الرومانية وعدم قيمتها. وقررت تاليا أن تغـوص فـى أعماق هذا السناتور الرومانى حيث إنها إن لم تعرف مـا يـضايقه نفسيا فلن تستطيع معالجته تمامًا مثل الأطباء الرومـان الـذين لـم يستطيعوا معالجته. عندئذ ابتكرت تاليا حيلة بارعة وقالت له: يا سيد تولوز إنه لا يوجد لك علاج فى روما، لا بد لك وأن تتـرك رومـا لفترة حتى تشفى ثم تعود. وعندما ستعود إلى روما سليما معافى فقـد يكون كثير قد تغير، كما أننى أعرف أن الإمبراطور تراجان رجـل متفتح ولديه تقبل للآراء المختلفة عن رأيه. فما رأيك يا سيد تولـوز؟ ثم أردفت تاليا قائلة له: إننى أنصحك أن تذهب إلى الإسكندرية، حيث أن هواءها الجاف وعيون مياه سيرابيس سوف يساعدان فى سـرعة شفائك. كما أن الإسكندرية مدينة جميلة ويوجد بها كثير من اليونانيين المسيحيين وبها مركز أبحاث أجمل. كما أنك لست فـى حاجـة لأن تحيى تمثال الإمبراطور عندما تدخله. إننى واثقة بأن رئتيك سـوف

تشفيان عند ذهابك للإسكندرية. فقال الرجل وهو يسأل تاليا هل ظاهر على وجهى أننى أعانى نفسيا؟ فقالت له تاليا مهدئة: لا ليس بظاهر على وجهك أيها السناتور.

ثم نهض الرجل واتجه إلى حائط فى حجرته وفتح به ضلفة باب ثم نظر إلى تاليا وهو مصمم وعازم قائلا: أعتقد أننى سوف أتبع وصيتك. ثم نهضت تاليا وهى تهم بالانصراف. عند ذلك وضع لها أجرها فى يدها ماركة دائرية كبيرة كانت مخصصة لشراء الغلال. فضحكت تاليا فى سرها على هذا الأجر الزهيد الذى أعطاه لها السناتور، وفكرت فى ديونها التى يجب عليها أن تسددها للطبيب الذى تشترى منه الأدوية. وقفت تاليا لحظة وهى تنظر إلى الرجل الذى وقف أمامها وكأنه يريد أن يقول لها شيئا ، وبالفعل تقدم منها السناتور وقال لها: أود أن أشكرك. وذلك لأنك الوحيدة التى عرفت سبب مرضى الحقيقى، كما أنك أنت الوحيدة التى أسديت لى هذه النصائح الغالية التى ستغير حياتى. ولهذا أرجو أن تقبلى منى هذه العشرة آلاف دينار كهدية تحققى بها أمنية عزيزة لديك لا أستطيع أنا أن أحققها لك. وأتمنى لك الخير كله وأن يرعاك الرب. فأغمضت تاليا عينيها وفتحتهما وهى لا تصدق نفسها من شدة الفرح وأخذت تنظر فى وجه السناتور النحيل، ثم قالت له: أيها السناتور إن هناك

بالإسكندرية فى منطقة راقودة عامل أصواف يـــدعى كليـــون وهـــو مسيحى حاول أن تقابله فإذا قابلته فأبلغه منى السلام وقل له إنه ليس السبب فى موت زوجته. وأبلغه أن الأسباب ترجع إلى روما وليست إليه عله يهدأ ويرتاح قليلا. فقال الرجل وهو يقطب حاجبيه ثم قـــال: أعتقد أن الرومان قاموا بارتكاب كثِـــير من الأخطاء حتى أن البـــشر سيظلون يلعنون الرومان لمئات من السنين القادمة. فكرت تاليا مـــرة أخرى فى نفسها قائلة: إن الإسكندرية سوف تريحـــه مـــن النـــواحى جميعها صحيا ونفسيا.

لم تمض كثير من الأيام حتى قررت تاليا أن تذهب إلى الطبيـــب سورانور الذى بدت عيادته مثل قصر عظيم. وجاء ســـوارنو إليهـــا مهللا ومرحبا فاتحا كلتا يديه لتاليا قائلا: إننى سعيد لرؤيتك، تعـــالى سوف أريك أركان عيادتى. إن أشياء كثيرة منها قد ابتكرتها بنفسى. ورأت تاليا فى عيادته كثيرًا من الأجهزة الذكية التـــى يعـــالج بهـــا مرضاه. كما رأت حمام سباحة ومكتبة أيضًا. وأخذت تفكـــر كيـــف يستطيع هذا الرجل وحده أن يقوم على رعاية هذه العيادة الكبيـــرة . وانتهت جولتها مع سورانو فى جزء من العيادة به أسرة وحوائطـــه ذات رسوم يونانية مثل الدلافين التى تسبح فى مياه البحـــر الزرقـــاء وتحيط بها الأوراق النباتية الخضراء. فقالت تاليا: يا إلهى ما أجمـــل مكان عيادتك هنا، فقال سورانو وهو يتأمل الحوائط إن هذا المكـــان

هو الذى يستريح به المرضى بعد علاجهم. فقالـت تاليـا لـسورانو تقصد إننى سوف أفيق من التخدير بعد العملية فـى هـذا المكـان؟ فأجابها سورانو بقوله نعم. ثم قالت تاليا ومتى سـتبدأ ذلـك؟ فقـال الرجل: الآن حالا.. ثم أردف قائلا: إن مخاوفك من اليوم إلى الغـد سوف تصبح أكبر، لهذا أفضل أن نجرى لك العملية الآن.

وفى لحظات كانت تاليا فى حلم جميل، حيث رأت فتى جميلاً قـد اصطحبها معه إلى البحر وأخذا يلعبان معًا ويلهيان مع الدلافين فـى البحر وحولهما نباتات البحر. ولم تفق تاليا من هـذا الجـو الجميـل سوى عندما شعرت بأن شخصا ما يدلك يديها ويشعرها بدفء يديه، فلما فتحت تاليا عينيها رأت فتاة تحمل أدوات طبية فى يديها ثم رأت سورانو وهو يجلس على حافة سريرها مبتـسما فـشعرت تاليـا أن العملية قد تمت بنجاح وسلام.

أما الأيام التى تلت العملية فقد قضتها تاليا فى قصر سورانو وقـد كانت تحمل ما يشبه طبقة سميكة من معجون نباتى فوق شفتها العليا حتى يتم شفاؤها بسرعة. كما أن سورانو لم يسمح لها أن تأكـل أى طعام يحتاج إلى مضغ، فقد سمح لها فقط أن تشرب أشياء سائلة لعدة أيام، وذلك عن طريق مصاصة. ثم أنها كانت فى تلك الأيام تـشغل نفسها بالقراءة فى مكتبة سورانو، كما كانت تقوم بمساعدته أيضًا فى كل ما يحتاج إليه.

أما فى اليوم الخامس فقد أزال سورانو هذا المعجون من على شفتها وهو سعيد بالنتيجة، ثم قال لها إنك ستصبحين جميلة الجميلات وذلك بعد عدة أسابيع بعد أن يختبئ هذا الاحمرار وهذا الورم من شفتك. ثم قامت إحدى المساعدات برفع مرآة أمام وجه تاليا كى تتأمل نفسها بعد العملية، فتعجبت تاليا وقالت: إن سورانو يستطيع أن يشكل البشر حسبما يريد ، إنه ساحر.

أما الأدوات التى استخدمها فى التخدير، فقد كان يستخدمها ليبتينوس أيضًا، ثم قالت تاليا: إننى حلمت أحلامًا كثيرة ولكننى للأسف نسيتها فهل لديك نصيحة لى يا سورانو كى أستطيع تذكرها مرة أخرى؟ فقال سورانو لها: تأكدى يا تاليا أن كهنة الإله إسكالوب ينعمون على المرضى بالنوم العميق، هذا النوم العميق يحرر أرواحهم من الأمراض التى لا يعرف الإنسان نفسه سببا لها. والآن من الممكن ياتاليا أن تكون هناك قشرة أو قشرتان من بصلة المرض لديك قد سقطتا وقد أصبحت الآن أكثر صحة من ذى قبل. فتذكرت تاليا موت أسرتها دون أن تصرح بذلك أمام سورانو ثم قالت: إننى أثق فى الإله إسكالوب، وأثق فى تفسيره للأشياء. ثم تساءلت قائلة: هل أثق به فعلا كإله؟ فقاطعها سورانو قائلا: إن إسكالوب قبل أن يجعل الكهنة منه إلها كان إنسانا طبيبا ولم يوُلد إله. ثم جال بخاطر

تاليا بعض من اللحظات العصيبة التى قضتها فى مدرسة معجـزات الطبيعة، ثم قالت لسوارنو ألا يكون للأطباء التجريبيين رأى فى ذلك؟ فلم يجب سورانو: ورجاها أن تأتى إليه غدا فى غرفة العمل بعيادته. وجاءت تاليا فى الميعاد الذى أعطاه لها وهى متحرقـة شـوقا كـى تعرف ما يريده منها وما سيقوله لها. ثم أخذت تتأمل لفائف البردى فى مكتبته التى قام بكتابتها كذلك أوراق البردى الأخرى التى كانـت فوق مكتبه فى تلك اللحظة. وأخذت ترتشف من مـشروب النعنـاع الذى أحضره لها أحد عبيده. وأخذت تفكر فيما يريده منهـا وكلهـا خوف من أن يطلب منها أن تغادر روما حيث إنها تعمل فى مجـال تخصصه نفسه ألا وهو أمراض النساء، وربما يكون الرجل قد فكـر فى أن تاليا سوف تُعد منافسة له.

أمامها كان يجلس سورانو على مكتبه وهو يتأملها وقـد رشـف رشفة من كأسه وراح ينظر فى سقف الغرفة بينما يطرق بأصـابعه طرقات خفيفة على المنضدة، ثم تسرح تاليا بخيالهـا فـى المقابلـة الأولى التى جمعتها بسورانو وكم كانت خائفة وغاضبة منـه، أمـا الآن فإنه أحب الناس إليها على الأرض قاطبة.

أخيرا تحدث سورانو قائلا لتاليا إن الرومان يعانون مـن فقـدان الثقة فى الطبيعة رغم أنهم فلاحون مهرة بالفطرة ويعرفـون كيـف

يربون الماشية ولكنهم يخافون أن تحمل نساءهم ويخافون أن حملت نساؤهم أن يمتن فى أثناء الولادة. كما أنهم مع الوقت أصبحوا يميلون أكثر إلى المدنية والرفاهية أكثر من ميلهم إلى فلاحة الأرض وحراثتها. كما أن الرومان يخشون أمراض الأطفال.

أصبحت الآن تاليا قلقة حتى أنها شربت ما تبقى من كأسها على دفعة واحدة دون أن تشعر وهى تهز رأسها موافقة على كل ما يقوله سورانو ولم تشأ أن تقاطعه ولكنها فى الواقع سمعت هذا من قبل بالإسكندرية من تريمالخيو. ثم أردف سورانو قائلا: إن القيصر يشعر بالقلق الشديد على مستقبل روما، كما أن الفئة التى حوله تشعر بالقلق أيضًا ويضغطون عليه كى يجد لذلك حلا. عند ذلك اجتمعت أنا اليونانى المولد والقيصر الإسبانى المولد كى نفكر فى حل لهذه المشكلة ألا وهى إقناع نساء روما بإنجاب الأطفال بأنفسهن وعدم تأجير عبيدات لذلك أو شراء الأطفال من نساء الشعوب الأخرى. وفى هذا الشأن إننا فى حاجة فقط إلى طبيبة مثلك، وإلى قابلة وأنا وبذلك نستطيع أن نبدأ عملنا فهل تتفقين معي؟ فنظرت إليه تاليا وهى لا تصدق أذنيها من شدة فرحتها؟

وافقت تاليا على الفور، ثم قال سورانو: إذا فلينته اللقاء وضرب بكفى يديه وهمَّ واقفا وهو يقول لتاليا: إننى سأبلغ القيصر بذلك وعندما

أعرف ميعاد لقائه سوف أبلغك خبرا بهذا الميعاد. قبل أن تخرج تاليا من غرفته قالت له متسائلة: هل يمكن للأسمنت أن يستخدم فى جبـر الكسور، سواء كانت فى الأذرع أم فى الأرجل؟ فقال لها: نعم ممكن، بل ويستطيع المرء أن يذهب إلى الحمامات العمومية كى يبدو المرء مثيرا للانتباه.

ثم نهض الرجل يودعها حتى باب الخروج وهو يقول لها: إننـى واثق بأنك تستطيعين أن تقنعى نساء روما بإنجاب الأطفال والعنايـة بهم أيضًا. فقالت له تاليا: إنك تريد أن تقول لى بأسلوب آخر بـأننى كثيرة الكلام، لقد قال لى ليبتينوس قبل ذلك أيضًا. ثم إنه لمن حـسن حظى أنك لم تكتب كتبًا عن كيفية خياطة الشفاه ولو كنت كتبت مثل هذا الكتاب لقام ليبتينوس بعمل هذه العملية لى قبلـك. ثـم أطـرق سورانو مفكرا قبل أن يقول نعم إن هذا عيب من عيـوب ليبتينـوس وهو عدم الابتكار، حيث إنه لا يفعل شيئًا لم يره من قبل ولا يستطيع أن يبتكر شيئًا جديدا.

ثم قال لتاليا بالمناسبة قبل أن أنسى: هل لديك الرغبة أن تعملـى فى عيادتى هذه يا تاليا ونصبح فريقا مشتركا؟ فصاحت تاليا وهى لا تصدق هذا الفرح وتلك المفاجئات السعيدة كلها وقالت له: نعم، نعـم موافقة بالطبع موافقة. فقال لها سورانو: إذا فـإننى سـأتخذ بعـض الإجراءات ثم تستطيعى أن تبدئى معى على الفور.

عادت تاليا إلى المنزل فلما رأتها كلاوديا ضربت بيديها على وجهها وقالت أقسم بقدمى أمى الحافيتين، أننى أكاد أن لا أعرفك من كثرة جمالك وفخامة ملابسك . ماذا حدث لك يا تاليا؟ فقالت تاليا لها: ولكننى داخليا لم أتغير فأنا كما أنا ثم سألت تاليا قائلة هل سأل أحد عني؟ فقالت كلاوديا: نعم إننى كتبت لك قائمة بمن هم سألوا عنك ولكننى كنت أقول لهم إنك فى مهمة طبية لعدة أيام حتى لا تفقدى مرضاك.

إن كلاوديا لا تستطيع الكتابة والقراءة ولكنها كانت ذكية حيث إنها وجدت شخصا ما قام بكتابة الأسماء والعناوين لها، وذلك حتى تستطيع تاليا أن تزورهم حسب العناوين المكتوبة فى هذه القائمة.

ثم قامت تاليا وكلاوديا بعمل هذه الزيارات وقد حصلن من هذه الزيارات على أجور مرتفعة، مما أدى بهن إلى أنهن اشترين فى طريق العودة نبيذا وزيتونا بما قيمته أربعون أس وذهبا إلى المنزل وجلسا على الطعام ولم تكفا عن الضحك طوال الوقت حتى إذا سمعا طرقا على الباب فتساءلت تاليا قائلة: هل طرق أحد الباب؟ عندئذ ذهبت كلاوديا إلى الباب وأخذت تتنصت عما إذا كان أحد يطرق الباب، ثم فتحت الباب بحذر كى ترى من الطارق؟ فجأة دخل رجلان من الباب أحدهما تعرفه تاليا كان يعمل فى صناعة البرونز

حيث إنها عالجته ذات مرة من التسمم بمادة كاوية. أما الثانى فقد كان بدينا وحليق الرأس لم تره من قبل. لم يكن الرجلان مسلحين، رغم ذلك أثارا الرعب فى نفس تاليا وكلاوديا. لم يستمر هذا الرعب طويلا حيث نطق الرجل الذى كانت تاليا تعرفه من قبل وقال: إننا نرجو مساعدتك أيتها الطبيبة تاليا. ثم قال زميله إن الأمر مستعجل جدا ، حيث إن حياة إنسان عظيم فى خطر، أنك تعرفى هذا الإنسان أيضًا إنه تريمالخيو، ثم خرجت كلاوديا وأحضرت جارتها كى تعتنى بابنتها النائمة فليبا وخرجتا من المنزل وفى الشارع رأيتا الدواب فى انتظارهن. جلست كل واحدة فوق ظهر حمار. عند ذلك سألت تاليا إلى أين نتجه ، فقال صانع البرونز إلى الجهة الأخرى من نهر الطيبر، إلى الفاتيكان. ثم عبرا ميدان المارس وهم سائرون فى صمت. فى الطريق كانت هناك عربة محملة بالبضائع متجهة نحو روما، بينما تفكر كل منهن فى المكان الذاهبتين إليه، إن الفاتيكان هنا هو مبنى مخصص لطائفة دينية تدعى الكيبليين، جاءت فى الأصل من شمال غرب آسيا الصغرى، بينما أخذ الرجل ذو الرأس الحليق يتحدث اللغة اللاتينية مع رفيقه صانع البرونز. ثم نظرت تاليا إلى الأمام عند ذلك بدا يظهر رويدا رويدا المرتفع الذى يعلوه مبنى الفاتيكان، حتى إذا وصلوا جميعا إلى المعبد نزلوا أمامه من على

دوابهم، ثم دخلوا المعبد الذى كان مضاء مدخله بالأضواء الخفيفة، ويسمع المرء أصوات التراتيل والصلوات التى يقوم بها الكهنة. ثم سمعت تاليا صوت أحدهم وهو يقول استعجلوا إنه يموت. أما فى صالة الأعمدة كانت تمتد منضدة طعام كبرى، يجلس عليها رجال ونساء وراحوا يتناولون الطعام، بعض منهم كان يرتدى الطاقية المعروفة بها منطقة آسيا الصغرى. ثم رأت تاليا عبد تولوز الذى كان موجودا أيضًا بالمعبد. ثم تقدمهم بعد ذلك كاهن عجوز يريهم المكان الذى يرقد به تريمالخيو بعيدا عن مكان الصلاة، ثم قال الكاهن العجوز لتاليا، أيتها الطبيبة تاليا: إنك أنت الأمل الوحيد لنا أرجو أن تبذلى قصارى جهدك كى يشفى.

بالداخل كان تريمالخيو راقدا على سريره قد ابتلت عباءته بالدماء الغزيرة. ثم قال لها أحدهم إنه قرر أن يقضى بقية حياته كخادم فى المعبد، ومن شروط هذه المجموعة الدينية أن يقوم الرجل بعملية الخصى حتى لا تصبح عنده أى رغبة فى المرأة. ولما كشفت تاليا عليه ورأته قد نزف كثيرًا من الدماء، نظرت إليهم وقالت لهم: لماذا تأخرتم فى استدعائي؟ فقال كاهن هذه الطائفة الدينية: إن الرومان يحاربونا ولا يعطوننا الفرصة كى نتحرك بحرية وقد ذهبنا إلى عديد من الأطباء ولكنهم رفضوا أن يأتوا معنا، وأخيرا لجأنا إليك.

لقد كان الكاهن حزينا ووجهه يتصبب عرقا، ثم قالت تاليا للرجل إن عملية الخصى هذه ممنوعة ليس فى عقيدتكم فقط ولكن بصفة عامة. إنها إعاقة مدى الحياة، كما أننى لست متخصصة فى هذه النوعية من الجروح. والطبيب الذى كان بإمكانه مساعدتكم هو الطبيب ليبتينوس ولكنه الآن متأخر ولن يستطيع أحد مساعدته. فقال الكاهن: لقد ذهبنا إليه أيضًا ولكننا لم نجده وذلك لأن الأطباء قد طردوه من نقابتهم ولم يعثر عليه أحد. فتنهدت تاليا وأخذت الإبرة من كلاوديا التى قامت فى أثناء ذلك بلضمها، ثم قال الكاهن أن يقوم الرجل بخصى نفسه فذلك جزء من عقيدتنا فردت عليه تاليا مغتاظة ولكن إذا مات تريمالخيو فسوف تعاقبون جميعا. إننى لا أعتقد أننى أستطيع عمل الكثير. ثم تحركت ذراع تريمالخيو وسقطت منها السكينة التى كانت بيده. ثم انحنت تاليا على تريمالخيو كى تخيط له جرحه، وبمجرد أن شعر بوخذ الإبرة أفاق الرجل من غيبوبته ففتح عينيه وعرفها فى الحال. ثم قال: نعم ياتاليا إن عباءتى هذه كانت خطأ فى حياتى، حيث إننى من طرطوس وولدت فى عصر نيرون ولكن سوء الحظ لازمنى فى عصر كلوديوس. لقد تخيلت تاليا أن حديثه الآن هو تكملة لحديثه الذى بدأه معها بالإسكندرية، فقالت له تاليا: لا ترهق نفسك يا تريمالخيو، إن الحديث صعب عليك الآن. ثم قال لها: لا

بل أريد أن أخبرك ببعض الأشياء ياتاليا. أرجوكِ أن تعطى عبـاءتى هذه لليبتينوس ، حيث إنه كان دوما مشتاقاً إليها، وقد كنـت أشـعر بذلك، أنه كان يلهث دوما وراء المواطنة الرومانية،أما أنت فقد كنت دوما تكرهين الرومان ولم تجر خلفهم ولم تتملقيهم. لقد أعجبنى ذلـك فيك ثم تنهد بصعوبة وهو يقول: إننى قد خططت أن أقضى عليه فى روما ولكننى عجزت من تحقيق ذلك. أخبريه بأنه نجا منى. وكذلك الآخرون الذين راحوا يضعون العراقيل أمام رجل قد ولد عبدا، كمـا أخبرك بأن الفينيقيين قد حـالفهم الحـظ فـى قتـل نائـب الملـك بالإسكندرية. ثم قالت تاليا هامسة وهى تسأله وهيبارشـيا؟ فأجـاب الرجل: لقد فعلت ذلك من أجل روما، مثل أشياء كثيرة أخرى كانـت خطأ أيضًا وقد فعلتها من أجل روما أيضًا.

فجأة حملقت عينيه فى الهواء بلا معنى وفغر فاه فأمـسكت تاليـا بمعصمه وراحت تتحسس نبضه ، فاكتشفت أنه فارق الحياة، ثم قالت بعد ذلك: لا يا تريمالخيو إن ليبتينوس لم ينج ولكن للأسف فإنـك لا تستطيع أن تخبره أنت بذلك. ثم قالت فى نفسها: إننى اتساءل وأبحث عن الرومانى الذى هو رومانى المولد والنشأة هنا ربمـا لا يوجـد. فقال الكاهن الواقف بجوار تاليا: إنه الآن مع أتيس حيث عـاد إلـى حضن أمه. إننى سأبلغ بقية أعضاء الطائفة بوفاته حيـث إنهـم الآن

يفطرون بعد صيام طويل. ثم قال الكاهن: إن جثته سـوف تحـرق وتحول إلى رماد والرماد سيعود إلى أمه الكبرى الأرض، والأرض حية إذا فإنه حى لم يمت.

ثم خرج الاثنان من المكان الذى كان يرقد بـه تريمـالخيو، ثـم سمعت تاليا صوت كلاوديا وهى تقول لها: دعينا نخـرج مـن هنـا ياتاليا إننى متعبة ولدى شعور غريب بعدم الارتياح. ثم لم تنس تاليـا أن تغلق عينيه بأصابعها وهى تقول: إننى حزينة من أجلـه، ولكنـه اختار الحل الأفضل من حلين كليهما مر.

بينما كانت كلاوديا تجمع حاجياتها باستعجال وهى تقـول: إننـى سأكون سعيدة عندما نأخذ الآن حمارين ونذهب بهما إلـى المنـزل، إننى لا أود العودة مشيا. بينما كان المتعبدون بالمعبـد يقفـون فـى صمت وينظرون إلى أسفل، وتسود فى المعبد لحظات صمت رهيبة. ثم جاء كبير الكهنة ووضع التاج فوق رأس المتوفى وأخذ المتعبدون يصفقون، وخرجت تاليا وكلاوديا خارج المعبد تبحثان عن الحمارين فلم تجداهما. وأخذا يتمشيان حتى وصلتا المنزل عند بزوغ الفجر.

فى خلال سيرهم بالمدينة وجدوا كثيرًا من الذين يقومون بأعمالهم فى هذه الساعات المتأخرة من الليل، فمنهم من كان يزيل المخلفـات ويكنس الشوارع، وآخرون كانوا يحملون ويشحنون البـضائع إلـى

المحال التجارية. فى الطريق هاجم اللصوص تاليا وكلاوديا وأخـذت تاليا وكلاوديا تصرخان وتستغيثان حتى تجمع حولهم جامعو القمامة وساعدوهم ضد اللصوص الذين لم يحصلوا منهما على شيء.

ثم إنه بعد أن قامت تاليا بزيارة المرضى التى كانت كلاوديا قـد دونت أسماءهم جميعهم فى قائمتها، جلست تكتب رسالة إلى برنابـه تاجر العبيد بالإسكندرية ثم أعطت هذا الخطاب إلى أحد التجار الذين يتحركون دوما بين روما والإسكندرية ويـدعى لوكونـدوس . هـذا الرجل قد تولى بيع عيادة ليبتينوس بالإسكندرية أيضًا.

عادت تاليا إلى المنزل بعد أن أعطت له رسالتها، فـى طريـق العودة رأت مفاجأة كبيرة ألا وهى ليبتينوس ، لقد رأته وسط زحـام من الناس، مجتمعين ينظرون إلى أسفل فى قنال للمياه. سمعت تاليـا أحدهم وهو يقول أتعتقد أنه قد غرق فى القنال ياتيبريو؟ بينما يحاول بعضهم أن يخرج الرجل الغارق من حفرة بالقنال حتى أنه اسـتطاع أن يجذب ساقيه إلى أعلى ثم يسأل آخر قائلا هل تعتقد يا كـاتينوس أن الرجل قد غرق بالقنال؟ ثم يقول أحدهم: أراهن على ذلك بـأجر يومى الزهيد ويصيح آخر اسحب يا توبيرو. ثم يلف توبيرو الحبـل حول خصر الغارق المتوفى ويجذب حتى إذا جذب تـوبيرو الجثـة سمع المرء طرقعة عظام، وكانت ذراعى القتيل عارية وبها كثير من

الجروح. فصاح ليبتينوس فجأة: إن الرجل قد قتل قبل أن يقذف بــه أحدهم بالقنال. فقال توبيرو وهو يدارى وجهه بجلبابه: على أى حال أنه لا يستطيع أن يراه أحد، حيث إن وجهه مشوه.

بعد ذلك حاول كاتينوس الخروج من القنال، وهو يقول إن الهبوط إلى أسفل بالقنال لهو سهل ولكن الصعود منها مرة أخرى لهو شــىء صعب. ثم صاحت إحدى السيدات اللاتى كن تقفن بجوار تاليا قائلــة أليس هذا هو جارك ياكاتينيوس والذى كان بينك وبينــه كثيــر مــن الشجار والمشاحنات؟ ثم سمع الناس صوت ليبتينوس مــرة أخــرى وهو يصيح قائلا: إن الرجل كان ميتا قبل أن يلقى بــه أحــدهم فــى القنال، لا بد وأن يبلغ أحدكم الشرطة. ثم تقدمت تاليا للأمام وانحنــت على الجثة تتفحصها ثم صاحت بصوت مرتفع وهى تقول إن الطبيب ليبتينوس محق، إن الجروح التى بذراعى الجثة نشأت عندما حــاول أحدهم حشر الجثة بحفرة القنال. فقال كاتينيوس مستاء: إن هذا هراء ثم وضع قبضة يده أسفل أنف تاليا مهددا إياها أن تبتعد عن المكــان. ثم صاح كاتينيوس قائلا: إننى أعمل فى تنظيف قنوات رومــا منــذ خمسة عشر عاما فماذا تفهم تلك المرأة وهذا اليوناني؟ فهل يفهم هذان الغــريبان أكثــر منا نحن الرومان؟ فراح ليبتينوس وتاليا يستنكران ما قاله الرجل. ثم قال كاتينيوس: إننا سنلقى به فى حفرة المخلفــات،

عند ذلك قام توبيرو بلف الجثة فى ما تبقى من جلباب الرجل وغطى وجهه وهم كى يحمل الجثة بعيدا، بينما راح الناس يتفرقون كل إلــى وجهته. ثم قالت المرأة التى كانت تقف بحوار تاليا: إنه كــان دومــا مجرمًا ويقتل من يختلف معه فى شىء ولكننى الآن أفضل السكوت.

وراحت الطريق تفرغ من الزحام وأخذ الناس يتحركــون جيئــة وذهابا، منهم من يمشى على قدميه ومنهم من تحملــه العبيــد فــوق المحفات. بينما انتحى ليبتينوس وتاليا جانبا وقالت تاليا له: إننى أعتقد أن أحدهم قد قتله، ثم نظرت إلى وجه ليبتينوس فاستطاعت أن تــرى به علامات الحزن وأكياس الدموع أسفل الجفون بل أنه عاد يرتــدى ملابسه اليونانية القديمة التى كان يرتديها بالإسكندرية ، فقالت له تاليا أخبرنى كيف حالك؟ فقال لها وهو غير سعيد: إنها تسير ولكننى أرى أنك سعيدة وأمورك على ما يرام. فقالت له تاليا: وأفرانيــا؟ فأجــاب ليبتينوس إننى لم أرها منذ وقت طويل. ثم أردف قائلا: هل تــذكرين هذا المصارع هيجيسبوس؟ فقالت تاليا: بالطبع أذكره. ثم قال ليبتينوس لك أن تتخيلى إنها قد أحضرته معى أيضًا من الإسكندرية وراحــت تستغلنى لإشباع رغباتها التى لا تعرف الشبع تمامًا كما لو كنت عبدا لديها. فقاطعته تاليا بقولها: تمامًا مثلما فعلت أنت معى أيضًا. فقــال ليبتينوس: إن هذا شىء آخر فلا تنس أنك كنت عبدة. فقالت له: كف

عن هذا الهراء، إنك مازلت غبيا ، كما لا يجب عليك أن تثير أفرانيا هكذا لأنها بطبعها ثأرية وتحب الانتقام. فقال لها ليبتينوس: لقد انتقمت منى بالفعل حيث إننى طردت من كل البيوت التى كنت أذهب إليهـا لعلاج المرضى. إن روما قد ضاقت علىّ وإننى أود أن أرحل إلـى أوستيا. فقالت له تاليا: وهل تعتقد أنها لا تعرف أحدًا فـى أوسـتيا؟ فأجابها ليبتينوس: إننى لا أعتقد أننى فعلت لها شيئًا يدعوها أن تتبعنى حتى فى أوستيا. فقالت له تاليا: هل نسيت المقولة التى كنت تقولهـا دوما " على المرء أن يعطى المريض ما هو مهم له" ألم تفكر فى هذه المقولة قط؟ فأجابها ليبتينوس: إنك نسيتِ شيئًا مهما وهو أننى أحـب حريتى بينما أفرانيا تشعر بأن كبرياءها قد جرح، فى حين إننى لـم أجرح كرامتها كما تظن هى. فقالت له تاليا: على أى حـال فـإننى أحذرك من هذه المرأة وأرجو أن تأخـذ حـذرك والآن لا بـد وأن انصرف. ثم فكرت تاليا بأنها الآن بريئة من ذنبه إذا حدث له مكروه ولكنها ربما تكون هى هدف من أهداف أفرانيا التى تود الانتقام منها أيضًا. ولكى تنسى تاليا هذه الهموم كلها فإنها اتجهت إلـى السـوق واشترت تينا منقوعًا بالعسل وأكلته وهى واقفة، ثـم اتجهـت إلـى الميدان الذى كانت تقيم به سابقا مع ليبتينوس واشترت عيش الغراب ومرقة السمك من تاجر الأسماك الذى كان يقيم بجوار منزلهما القديم.

ثم أنه بعد مضى عدة أسابيع من مقابلتها الشهيرة بسورانو والذى وعدها بالعمل فى عيادته كادت أن تسيء الظن بالرجل وتعتقد أنه حى ما وعد به ولكن اليوم جاء إليها جندى وأخبرها بميعاد اللقاء مع القيصر وسورانو. فلم تصدق نفسها من شدة الفرح واضطرت أن تمسك بيدى كلاوديا حتى تعرف أنها فى حقيقة وليست فى حلم. فلما رأت كلاوديا تاليا مثارة هكذا وقلقة لرؤية القيصر راحت تهدئ من روعها وهى تقول لها: إن لك أن تعلمى أن هذا القيصر فى حقيقة أمره ما هو إلا جندى مثل هذا الجندى الذى كان قبل ذلك هنا. ثم ترقى حتى أصبح قيصرا، ثم إننى أجدها فكرة طيبة أن يكون فى البلاد قيصر وليست قيصرية، لأنه لو كانت هناك قيصرية لما أرادت أن تقابلك خوفا على زوجها من جمالك.

فعادت تاليا تفكر فى شفتها العليا وراحت تتحسسها بأصابعها فلم تعد تشعر بالألم بها. ثم قالت تاليا لكلاوديا: إنه لا يوجد أى خطر من قبل القيصر إنه يريد أن يتحدث معى عن زيادة مواليد الروميات وليس عن شيء آخر، فاعتقدت كلاوديا فى الحال أن القيصر يريد أن ينجب طفلا من تاليا. فقالت: هكذا منذ أول لقاء إن صديقى السابق كان أذكى منه حيث إنه قال فى البداية تعالى نرى معًا ما جمعته من نقود لوقت الحاجة ثم قالت كلاوديا: إننى أفضل أن آتى معك كى

أعتنى بك ولا يستطيع أحد الاقتراب منك. فضحكت تاليا لحديث كلاوديا وقالت لها: ماذا تعنين ياكلاوديا بوقت الحاجة؟ فأجابتها كلاوديا بقولها: اثنان كانا يمثلان لى قديما وقت الحاجة وهما أبى والحمل ولكن الآن فإن كل شىء قد تغير ولا تحاولى أن تقتربى أكثر حتى لا تنتابنى حالة البكاء مرة أخرى. ذهبت الاثنتان فى البداية إلى سورانو الذى قالت له كلاوديا: ألا تليق تاليا بهذا الثوب الجميل أن تقابل القيصر يا سيد سورانو؟ فقال سورانو: نعم، نعم إنها فائقة الجمال ثم أرسل نحوها قبلة بأصبعه. وراح بعد ذلك ثلاثتهم يتجهون نحو قصر القيصر. وفى الطريق قدم سورانو ذراعه إلى تاليا كى تضع به ذراعها أيضًا.

لقد كان استقبال القيصر لهم استقبالا خاصا أيضًا لم يحضره أحد غيرهم ثم إنه قبل دخولهم إلى القصر تركا كلاوديا فى حراسة أحد الجنود كى لا تتوه عنهم وكى لا يحدث لها أى مكروه. ثم جاء العبيد وقادوا سورانو وتاليا فى مكان قليل الموبيليا ولم تمض لحظات حتى جاء الإمبراطور داخلا إليهم. لم يشعرا بأن الذى دخل عليهم إمبراطور بل جندى بسيط حيث إن ملامح وجهه كانت حادة كما كان وجهه حليق تماما. لقد بدأت تاليا تساورها المخاوف القديمة، حتى إذا بدأ سورانو الحديث انتابها الهدوء مرة أخرى وبدأت تركز تفكيرها

فى مغزى الحديث. وراح سورانو يتحدث أمام الإمبراطور قائلا: إن تاليا السكندرية قد كسبت حب النساء الروميات وقلوبهن وبصفة خاصة النساء الصغيرات فى السن. كما أنها إلى الآن لم تتسبب فى وفاة أى طفل كما لم تتسبب فى وفاة أى أم. مما أدى بالإمبراطور إلى أنه راح يحدق فى تاليا قائلا: نعم إن النساء الصغيرات لديهن حرص فى كثير من الأحيان أفضل من الحكمة عند كبار السن. ثم أردف الإمبراطور قائلا: إننى عندما أستطيع أن أقنع جنودى بأن نصفهم سوف يعيش فإنهم عادة ما يكونون سعداء ويبلون بلاءً حسنا فى الحروب . فقال سورانو : وكذلك النساء أيضًا ، فاستطردت تاليا قائلة ولكن فرصهن أى النساء أقل. ثم قالت تاليا: إننى لن أستطيع أن أرعى نساء روما جميعهن فهذا غير معقول ولكن بإمكانى أن أعلم وأدرب كثيرًا من القابلات اللاتى يستطعن أن يقمن بهذا الواجب معى. ثم إن عددا كبيرا من النساء اللاتى يمتن أثناء الحمل والولادة لا يمتن بدون سبب، ولكن يمتن بسبب القابلات غير المؤهلات لهذا العمل. كان تراجان يستمع إلى تاليا بكل اهتمام ويتابعها بناظريه، حتى وصلت تاليا فى حديثها إلى قولها " إن النقطة المهمة أن نقوم بعمل مدرسة تتخرج فيها طبيبات أمراض النساء والولادة، يكون مديرها سورانو، وأقوم أنا فيها بالتعليم والشرح العملى للطالبات،

وعندما تعرف نساء الطبقة النبيلة أن هناك طبيبات أمـــراض نـــساء مؤهلات ومدربات فسوف يقبلن على الإنجاب بقلـــب مطمـــئن دون خوف من الموت فى أثناء الحمل والولادة"

استمتع الإمبراطور تراجان بحديث تاليا حتى أنه قال لـــسورانو: إن تاليا تتحدث كما لو كانت قائدًا حربيًا بارعًا فى معركة فاصلة، إن تاليا تستطيع تعليم قوادى أيضًا ياسورانو. ثم قام الإمبراطور بإعطاء إشارة بأصبعه فتقدم أحد العبيد وهو يحمل ورقة بردى وقلم فـــأملاه الإمبراطور قراره الذى خرج به من هذه الجلـــسة ألا وهـــو إنـــشاء مدرسة لتعليم الفتيات ما يتعلق بأمراض النساء والـــولادة كلهـــا وأن يقوم على إدارتها والتعليم بها الطبيب سورانو والطبيبة تاليا.

فرحت تاليا لهذا القرار فرحا عظيمًا وقالـــت فـــى نفـــسها: إنـــه أول عسكرى تراه يستخدم أسلحته فى المجال الصحيح، لـــيس فـــى المجـــال الخطأ. إنه أول رجل عسكرى تراه وتضعه فى الإطار الصحيح فإن مثـــل هذا الطراز من الرجال لا يمكن أن يجده المرء فى غرفة نوم أفرانيا.

وقبل أن ينهى الإمبراطور اللقاء صاح سورانو بقوله: إننـــا فـــى حاجة إلى مكان يخصص لقيام المدرسة، فأجابه الإمبراطـــور أمـــام الباب سوف تحصل عليه أيضًا. ثم سألت تاليا سورانو بقولهـــا: هـــل يستطيع المرء أن يثق بكلامه؟ فهز سورانو رأسه موافقا بينمـــا لـــم

تصدق تاليا نفسها من شدة السعادة، ونزلت الـــدموع غزيـــرة علــــى وجنتيها عندما تذكرت كيف أن يد الإجرام قد جعلت منها قديما أمـــة وسلعة تباع وتشترى، أما الآن فإنها تجلس أمـــام القيــصر وتعطيــه النصائح وتشير إليه بما يفعله. ثم تذكرت مقولة المسيحيين التى تقول إنه لا فرق بين عبد وحر، أما هى فإنها ترى فرقـــا كبيـــرًا بـــين أن يكون المرء عبدا أم حرا، حيث إنها جربت كلا الأمرين. إنه شـــىء بشع مهين أن يكون المرء عبدا . ثم فكرت قائلة: إنه لا يوجد أى إله يحب مخلوقاته من البشر أن يرضى لهم نظام العبودية، إن هذا النظام البغيض لا بد وأن ينتهى من الوجود. فأجابها ســـورانو علـــى كـــل أفكارها هذه قائلا: إن كل إنسان على هذه الأرض لهو عبد لمعتقداته وأفكاره وتربيته. أما الحر فهو الذى يحرر نفسه من هـــذه الأشـــياء كلها. ثم قالت تاليا: تمامًا هذه الأفكار كان يرددها جاب الله النوبى إنه كان فتًا ذكيًا. ثم أردف سورانو قائلا: إننى لن أصبح أبدا فى حيـــاتى مسيحيا، لأن الإله بالنسبة لى هو الذى أشعر أنا دوما بوجوده وقـــت الحاجة والعسرة وليس هذا الإله الذى يكون بعيـــدا عـــن البـــشر ولا يعتنى بآلامهم، وليس هذا الإله الذى يحقق أمنيات القليلين من البشر، ويترك البقية بآلامهم فهذا بالنسبة لى ليس بإله. ثم قال سورانو: وعلى ما أعتقد أن الرومان لن يتركوا آلهتهم الكثيرة من أجل إله واحد ربما يساويهم ببقية البشر، ولكن فى ذات الوقت فإن القيصر يعى تمامًا أن وجود إله واحد سوف يساعده أيضًا على حكم العالم بطريقة أفضل.

ثم نهض سورانو واقفا وهو يقول لها والآن لابد وأن نبدأ العمل. وقفز حتى اتجه إلى الصالة التى تقيم بها كلاوديا، فقالت كلاوديا: إن تلك المدرسة لا بد وأن يكون بها أركان للنساء اللاتى فى مثل حالتى، أى بدون زوج ولكن لديهم طفل. وقالت لولا وجود تاليا فى حياتى لكنت ذهبت أنا وابنتى فليبا الآن إلى الجحيم. ثم سألت كلاوديا تاليا قائلة: هل رأيت سوق منطقة أتروسكا؟ فيه يجد المرء أدوات التسميم وأدوات قتل الأطفال كلها، إنه سوق قذر بشع. أطفال ذوو رأسين، أو الجزء الأسفل منهم عبارة عن جزء سفلى من سمكة. ألا يستطيع سورانو أن يقوم بعمل شىء ضد هذه المدرسة التى تبيع هؤلاء الأطفال أصحاب تلك العاهات؟ فأجاب سورانو بقوله إنها روما التى يباح بها كل غريب وعجيب. إنهم الرومان الذين أباحوا لأنفسهم أن يقتلوا البنات الأطفال لأنهن غير مرغوب فيهن مثل الأولاد. ثم أردف سورانو قائلا: إننى لم أسمح بإنشاء مدرسة معجزات الطبيعة هذه ولكن السناتورات هم المسئولون عن مثل هذه المدارس. ثم قالت كلاوديا: لو كنت أنا ابنة أحد الرومان لكان قتلنى منذ زمن بعيد. ثم قال سورانو: لكم أن تعرفوا أن روما هى مركز العالم، ولكننى أتساءل إلى متى سيبقى هذا الوضع هكذا؟ وأفضل أن أقول: ما الذى يجب على القيصر أن يفعله حتى تبقى روما هكذا؟ فقالت تاليا: أن يقول القيصر أن للعالم إله واحد فقط وليست آلهة متعددة.

بعد ذلك عادت تاليا وكلاوديا إلى المنزل الذى رأوا أنــه هــادئ هدوءا مريبا، حتى أن تاليا نظرت إلى أعلى تتفحص السلم الذى عادة ما يقفز عليه الأطفال وهم يلعبون ويتــصايحون. حتــى إذا دخلتــا غرفتهما وجدتا خمسة جنود بداخله. أحدهم كان يضع يده علــى فــم الجارة التى كانت تحمل فليبا على حجرها، فما إن ترك الجندى فمها حتى قالت: لقد جاءوا بعد أن خرجتم من البيت مباشرة. ثم قال كبير هؤلاء الجنود إننا لا نريد سوى تاليا السكندرية، هيا اذهبــى وأشــار الجندى للجارة أن تخرج. ثم قالت تاليا: نعم أنا هنا، ثم قالت تاليــاً لكلاوديا: أرجو أن تخبرى الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يــساعدنا كى يقوم بعمل شىء. فقال الجندى لا تخافى إنك سوف تقومين بعمل فحص لشىء ما ليس أكثر من ذلك. إن فى روما يسود العــدل فــلا يجب على أحد أن يخاف. ثم ابتسم الجندى لكلاوديا وبادلته كلاوديــا الابتسام، ثم قبض الجندى على ذراع تاليا واتجه بهــا إلــى مكــان مجهول لم تعرفه قريب الشبه بالسجون.

الفصل الثالث والعشرون

مدرسة القابلات وأمراض النساء

طوال فترة سجن تاليا وهى تفكر فيما فعلته حتى يقبض عليها وتسجن هكذا؟ فى السجن كان الحراس ذوى أشكال غليظة وجافة، بل إن بعضًا منهم كان مشوه الوجه نتيجة العراك والضربات. كان أحد الحراس كان يفتح طاقة صغيرة بالباب الذى كانت تحتجز خلفه ويلقى لها بطبق وحيد من الطعام مرة واحدة فى اليوم. وكثيرًا ما كانت تسمع فى الغرف المجاورة أصوات صراخ واستغاثة. لقد كانت تاليا تشعر بالوحدة والخوف فى هذا السجن، إن المشاعر التى انتابتها فى هذا السجن لم تنتبها حتى بسجن الإسكندرية. إن أكثر ما يؤلمها هو أن كلاوديا لم تخبر سورانو بأنها فى السجن كى يأتى لزيارتها ويخرجها منه، هكذا كانت تفكر تاليا. أما الشيء الوحيد الذى كان يشغلها هو مراجعتها لنصوص سورانو وتكرارها لها بالسجن. ثم جاءت اللحظة التى كانت تخشاها عندما جاء أحد الجنود وأخرجها إلى النور، فى اللحظة الأولى لم تستطع أن ترى، بعد ذلك تعودت عيناها على الأضواء التى كانت ما تزال ضعيفة ثم إنها رأت عربات كارو تسير، وتمنت أن تركب إحداها لأنها كانت متعبة،

ولكن الجنود اقتادوها سيرا على الأقدام إلى مكان يقــع فــى ميــدان فسيح، ثم دخلا بها فى مبنى، عند ذلك قام الجنديان بطلب توقيع مــن أحد الموظفين بأنه قد تسلم منهما تاليا وكأنها بضاعة تم تسليمها. ثــم أحضروها فى مكان كى تنتظر به، بينما راحــت الــشمس تــشرق وأخذت الأصوات فى الشوارع تعلو معلنة عن بدء اليوم وكأن الناس قد بدأت تزاول نشاطها اليومى. ثم أخذت تفكر فى نفسها قائلة: ربما يكون السناتور بولخر قد جمع الآن ضدها الكافى مــن الأدلــة كــى يطردها من روما. ثم أدخلت تاليا مكان آخر تدخله الشمس من خلال نوافذه التى كانت مغلقة بأسياخ من الحديد، فتنعكس أشعتها من خلال المرمر الذى كان بالحوائط والأرضيات فى هذا المكــان، وكمــا أن المكان احتوى على مقاعد كانت تشكل حرف U، بعض هذه المقاعد كان مشغولا وكان الجالسون على هــذه المقاعــد يرتــدون التونكــا الرومانية، كما أن بعضًا منهم استدار بظهره عندما رأى تاليا وكأنــه لا يريد أن يراها. ثم راحت تاليا تتخيل بأن هناك شخصًا واقفًا يرتدى العباءة الرومانية وهو يشبه سورانو، ربما يكون هو أيضًا. ولكن ذلك كان وهمًا خاطئًا منها لا يجب عليها أن تتعلق به.

ثم جاء عليها الدور لكى تقف أمام القاضى الذى قال لها: أنت تاليا السكندرية؟ فأجابت تاليا: بنعم ، فقال لها: أنت متهمة بالخيانة العظمى وذلك لمشاركتك الفينيقيين فى ثورتهم ضد القيصر، تلك الثورة التــى

أدت إلى مقتل نائب الملك بالإسكندرية. والدليل على ذلك إننا وجـدنا بممتلكاتك خاتم عليه علامة فينيقية. ثم رفع الرجل الخاتم بين أصبعيه وهو يقول لتاليا: أليس هذا الخاتم خاتمك؟ فقالت تاليا: نعم إنه خاتمى. واتجهت الأنظار إلى الخاتم وإلى تاليا، ثم قالت تاليا: إن هذا الخاتم قد أهداه لى الفينيقى موتومبال مقابل خدمة أسديتها له. ثم قال القاضـى: إن الشهود على ذلك السيدة أفرانيا من عائلـة أجريكـولا، والـسيد كرايتس من الإسكندرية والسيد بنتانوس مـن الإسـكندرية والـسيد كريسنس من أفيسوس والسيد هيجيسبوس من الإسكندرية والطبيـب السكندرى ليبتينوس الذى قد ذهب لفترة إلى أوستيا ثم مـات هنـاك. وكذلك السيد تريمالخيو، والذى قد تم عزله من منصبه لعدم الأمانـة وهو الآن مختبئ ولا يمكن التحقيق معه.

ثم قاطعت تاليا القاضى وهى محتدة وغاضبة قائلة: إن الفينيقيـين لا وجود لهم لأنهم اختفوا وتريمالخيو أيضًا اختفى والوحيـد الـذى استطعتم القبض عليه هو أنا، وبالطبع فإننى أنا القاتلة الوحيدة للـسيد بوبليكولا أليس هذا ما تود أن تقوله؟ ثم تنهدت تاليا بعمـق وقالـت للقاضى أمام الحضور من السناتورات: أريد أن أقول لك شيئا، إننى لم أقتل هذا البوبليكولا ولكنه استحق هذا القتل هو وأتباعه وأمثاله الذين يستنزفون خيرات مصر ويمصون دماء الشعب المصرى، ثم صمتت لحظة وقالت له: إننى قلت ما عندى فهل تتهمنى بشىء آخر؟ فقـال

القاضى: لا ليس عندى أى اتهام آخر. ثـم سـمعت تاليـا حـديث الجمهور وهو يتهامس مع بعضه بعضًا. وفى نهاية هذه التحقيقـات تيقنوا من أن السيد تريمالخيو كان ضالعا فى قتل بوبليكولا ومشاركا للفينيقيين فى هذا القتل. وقد اعترف عليه سيد القلقيلى بهذا، كما أنـه كان مساعدا لثورة اليهود ضد المسيحيين بالإسكندرية أيضًا.

بينما سمعت تاليا أحد الزوار فى الصالة وهو يقول هل تسمعون؟ ثم يقول آخر: إننا من كثرة حديثنا عن المسيحيين أصبح الببغاء عندى أيضًا يتحدث عنهم. كفوا عن سيرة هؤلاء الناس. بينما قـال أحـدهم لصديقه وهو يسخر ويضحك معه: من يحيى الببغاء عنـدما تـدخل منزلك هل يحيى جالبا أم ذا البطن الغليظ أم يحييك أنت يا مكسيموس تولوس لنتو؟ فاستدارت تاليا إلى الخلف وهى تنظر إلى مصدر هـذه التعليقات ، فرأت أن الصالة التى كانت تحدث بهـا المحاكمـة قـد امتلأت والكراسى التى كانت شاغرة يجلس عليها أفراد وسـناتورات مع مساعديهم. ثم قال أحدهم: إن تريمالخيو كان دوما مسبب المشاكل والقلاقل، وإن كان من الأفضل له أن يحارب المـسيحيين فقـط ولا يتدخل فى شئون روما الأخرى، فإن ذلك قد أدى إلى هدم حياته.

ثم صاح صوت مرتفع قائلا: إن جلسة البرلمان سوف تبـدأ الآن. عند ذلك بدأ السناتورات فى التحرك نحو صالة أخرى كى يجتمعـوا اجتماعا آخر خاصًا بالبرلمان، ثم اقترب منها فى وسط هذا الزحـام

السناتور الذى كان يقوم بدور القاضى وقال لها: إن الإمبراطور قـد عفا عنها وإنه رأى فى هذه الهدية التى هى عبارة عن خاتم، إنها فقط أجر للعلاج أو الأدوية التى قمت أنت بعلاجه بها ولا يراها على أنها خيانة للإمبراطورية. كما أن الإمبراطور يرى أن إنشاءك لمدرسـة القابلات وأمراض النساء لهو أكبـر دليـل علـى وفائـك لرومـا والإمبراطورية الرومانية. ثم ابتسم القاضى مهنئا لتاليـا وأعطاهـا الخاتم الذى كان بيده وانصرف.

ولم تكد تاليا تتنفس الصعداء حتى كانت كلاوديا وسـورانو فـى انتظارها وكل منهم يحضنها بالتوالى. عند ذلك أدركت تاليا أن هـذا الكابوس قد انتهى الآن. ثم قالت كلاوديا وهى تتنهـد: تاليـا أرجـو المعذرة إننا حاولنا كل شىء ولكن الأمور لم تكن لتتحرك بسرعة كل شىء كان خلفه أسئلة وأجوبة وتحقيقات. فلم تجد تاليا كلمـة واحـدة تبرر بها سوء ظنها من كلاوديا التى راحت الآن تلعن وتسب هـذه المرأة أفرانيا التى تسببت فى هذه القلاقل كلها. ثـم قـال سـورانو مبتسما: ولكى لا يقبض عليك أحد فى المستقبل فإننى استدعيت لـك حارسك الشخصى انظرى ياتاليا، فإذا بفتى أسمر طويل وقوى وهـو النوبى جاب الله الذى خرج من خلف أحد الأعمدة وراح يلوح لتاليـا بذراعيه، وجرى كل منهم نحو الآخر واحتضنته تاليا وهو يقبل يدها قائلا: يا سيدتى تاليا. فقالت له تاليا: أرجو أن يكون برنابه قد منحـك

شهادة حريتك فقال لها: نعم ياسيدتى قد أعطاها لى. ثم أعطاها أحدهم معطفا كى ترتديه، ولما خرجت من المحكمة تعجبت، وذلك لأنها رأت أن الربيع قد حل بالبلاد. وراحت تشم روائح الطبيعة والأرض ، وأخذ النحل يطير فى كل مكان، بينما كانت الورود تتفتح بمختلف ألوانها وأشكالها الجميلة. فجأة فى أثناء سيرهم جميعا قال سورانو: إنهم مازلوا يبحثون عن تريمالخيو، وإننى أخشى أنهم عندما يجدوه ربما يستجوبونك مرة أخرى ياتاليا. ثم توقف سورانو ونظر إلى أسفل حيث يرى المرء الأشجار الكثيفة وقال: فى الأسفل ما بين هذه الأشجار توجد عيادتى. فقالت تاليا لسورانو: إنه مات ثم تنهدت وقالت لسورانو: إلى أين تقودنا ياسورانو؟ ثم قال سورانو بالمناسبة إننى لا أعتقد أن أفرانيا سوف تسكت إنها سوف تبحث عن مزيد من الأدلة كى تدينك بها. إنها لا تنسى ثأرها أبدًا. وعلى ما أعتقد أنه يوجد كثير من الرومان الذين لا يحبونها، ولا يتمنون أن تكسب صراعها ضدك. وفى نهاية الطريق الذى كان يمشون به توقفوا جميعا، حيث إن هنا يوجد قصر وقد خرج منه عبد، ينظر من القادم.

عند ذلك قالت تاليا وهى متعبة: إننى لا أريد صراعا معها إننى أريد أن تتركنى فقط فى حالى، وسوف أترك لها أى مكان أراها به ولن أدعها ترانى ثانية. ثم أردفت تاليا متسائلة: هل تعرف شيئًا عن موت ليبتينوس يا سورانو؟ فقال نعم: إننى كنت أعرفه جيدا كما

تعلمين، إنه كان تلميذى لمدة أربعة أعوام ، لقد كان طبيبا ذكيا وطموحا، ولم أكن أعتقد أبدا أنه سينتحر. لقد صعد فوق قمة مرتفعة وقفز منها فى البحر ومات. ثم قالت تاليا: إن أفرانيا قد حزنت عليه ألا تعتقد ذلك يا سورانو؟ فقال الرجل: فى الحقيقة إنها ضيقت عليه الخناق حتى لم يجد طريقا آخر سوى الخلاص من حياته؛ لهذا فإننى قلق بشأنك يا تاليا. حيث إنها إذا استطاعت أن تثير الشبهات حولك مرة أخرى فى البرلمان فلربما استطاعت أن تتسبب فى طردك من روما. فقالت تاليا: إننى هنا لا أجد الهدوء حتى أننى دوما ما يزعجنى أحد ولا يدعنى أهتم بعملى الذى أفهمه. لقد تمنيت بعد مقابلة القيصر أن تسير الأمور على خير لكن ذلك على ما يبدو كان حلما. ثم أمر سورانو العبد الواقف أمام القصر أن يفتح باب القصر الذى يقف أمامه ففعل العبد، عندئذ قال سورانو وهو يبتسم لتاليا: ما رأيك فى هذا المبنى الجميل، ألا يصلح أن يكون مدرسة للمولدات وأمراض النساء يا تاليا؟ فهزت تاليا رأسها وهى لا تصدق أن هذا القصر الجميل هى تلك المدرسة التى سوف تدرس بها للفتيات الراغبات فى التخصص فى أمراض النساء والولادة. بينما قالت كلاوديا: يا إلهى ما هذا القصر الجميل؟ إننى كنت أعتقد أن تلك المدرسة سوف تكون مبنى متواضعا صغيرا فى حى الفقراء، وسوف يوضع بهذا المبنى 'لأطفال اللقطاء الذين لا أبوين لهم. ثم قال سورانو: ألا يعجبك أن

تعملى هنا يا تاليا إننى أريد سماع رأيك؟ فوافقت تاليـا وهـى تهـز رأسها سعيدة بهذه المفاجأة، بينما رأت فى مـدخل المدرسـة سـيدة تركية ذات شعر أسود وبشرة جميلة صحيحة تحمل طفلاً على كتفها يضع أصبعه فى فمه ويبتسم لتاليا. ثم قالت المرأة لتاليا: يـا تاليـا السكندرية إننى كنت أعتقد أننى أستطيع مساعدتك لعدة أسابيع قبل أن أعود لبلادى. كما أن السيدة النبيلة كورينا دولا بـيللا فلافـوس قـد قررت أن تكمل علاجها بالبول والكرنب والإقناع، كما أنهم قد دفعوا لى مبلغا جيدا أستطيع الاستعانة به جيدا فى ظروفى هذه. ثـم تقـدم سورانو أمامهن وأراهن الصالة وهو يبتسم.

بينما راحت كلاوديا تنتقل من صالة إلى أخرى ومن طابق إلـى آخر وهى تصيح ضاحكة كل هذا لى أنا وفلبيا. وراحت تنظر إلـى الأجزاء الأخرى التى كانت مخصصة لإقامة تاليا. لقد كـان المبنـى مدهوناً حديثا بالطلاء حتى أن كلاوديا كانت تـشتم رائحـة الطـلاء وتتأمل قطع الموبيليا التى ما تزال موضوعة دون استعمال. ثم أخذت تاليا تتحدث بسعادة وتفاؤل مع جاب الله وتريـه أيـن يـضع قطـع الموبيليا وهى تقول بصوت مرتفع هنا: سوف نقوم بتعلـيم طبيبـات وتدريبهن يكفين لمعالجة نصف نساء العالم. فاستدار سورانو وهـو يقول وبهذه المناسبة فإن زوجتى تنتظرنا جميعا لكى نحتفل ونـسعد معًا وسوف يكون ذلك فى بيتى. بينما راحت تاليا وكلاوديا وسورانو

ينزلون من السلم كانت تاليا وكلاوديا تتحدثان عن انتقالهم غدا إلـــى هذه المدرسة الجديدة والسكن بالأجزاء المخصصة منها لسكنهن.

أما فى منزل سورانو فقد انتظرت زوجته التى كانت أصغر مـــن تاليا بعض الشىء فى الحجم واحتضنت تاليا وقبلتها وكأنهـــا إحـــدى قريباتها. إن زوجة سورانو تسمى سينيتيا. هذه المـــرأة قـــد أعطـــت وقتها كله للطبيبة الصغيرة تاليا رغم أن بالمنزل كان هنـــاك بعـــض الضيوف الآخرين. إن سينتيا كانت كثيرة النظر إلى وجه تاليا ممـــا أعطاها الإحساس بأنها تنظر إلى شفتها التى خاطها سورانو.

ثم ترك سورانو ضيوفه وعاد إلى زوجته وتاليا وجلس إليهن ، ثم أشار سورانو إلى عبد صغير فجاءه الأخير. عندئذ همس سورانو فى أذنه فجرى العبد واختفى للحظة ثم عاد ومعه ثلاثة من العبيد الصغار كل منهم يحمل نبيذا جيدا، وكذلك كئوس كى يشرب فيها الـــضيوف. ثم أمسك بعد ذلك سورانو بكأس من النبيذ وتقدم إلى الأمـــام وقـــال لضيوفه: إننى لا أعرف إذا كان هذا النبيذ الذى جلبتـــه مـــن جبـــال فرنسا يمثل لكم شيئًا أم لا، ولكننى أعتز به ولى معه ذكريات طيبة. ولهذا فإننى أود أن أشرب منه معكم نخب افتتاح مدرســـة طبيبـــات النساء، وكذلك نخب أننى سوف أصبح أبًا. ثم أمسكت ســـينتيا بيـــد تاليا وتقدمت إلى الأمام لتقف مع تاليا خلف زوجهـــا ، عنـــد ذلـــك استطرد سورانو قائلا: إننى وزوجتى قررنا أن نتبنى تاليا ونعتبرهـــا ابنتنا، فكما تعلمون جميعا أننا بدون أولاد.

عندما سمع الرومان ذلك وقفوا جميعا واتجهوا إلى تاليا يحيونهـا وهم يحتضنوها ويقبلونها ويعانقونها، وهى كذلك. ثم تقـدم سـورانو إلى تاليا وأمسك بذقنها بين أصبعيه وهو يقول لها: إن مدرستنا سوف تنال شهرة على مستوى أنحاء الإمبراطورية وسوف تكـون تجربـة يتعلم منها الجميع. ثم لك أن تعرفى ياتاليا إنه مـن الآن فـصاعدا لا يستطيع أحد أن يطرد فتاة رومانية تنتمى إلى أسرة رومانية شـهيرة مثل أسرتى من روما، هل تدركين ذلك؟ إن تلـك المدرسـة غـدت مشهورة ومعروفة فى كل مكان، وأصبح جميع الناس يتحدثون عنها، كما أن أهميتها ترجع إلى الإمبراطور تراجان الذى منحهـا قـصرا كبيرًا وموّل تأسيسها، كما أنه كان يزور المدرسة من وقت لآخـر. ويقوم سورانو باستعراض أجزاء المدرسة أمامه ويشرح لـه وجـوه إنفاق أموال الإمبراطورية بالمدرسة، أما تاليا فقد أخذت تعلم وتدرب أول ست فتيات تقدمن للدراسة بهذه المدرسة. وأخذت تاليـا تـشرح لهن التطورات التى تحدث على جسم المرأة فى أثناء الحمل والولادة. وكانت تستعين بسورانو فقط فى المسائل الصعبة التى لا تعرفها.

أما السيدة التراكية فقد كانت تـدرس للفتيـات طـرق اسـتخدام الأعشاب الطبية فى العلاج. كما اكتشفت تاليا أن الـسيدة التراكيـة تعرف عن الأعشاب أكثر مما تعرفه تاليا نفسها، فقـررت تاليـا أن تحضر درس الأدوية مع الفتيات كطالبة وليست معلمة.

لقد كانت المرأة التراكية تعلم تاليا بأمانة كل ما تعرفه من أدوية أعشاب، ولكن رغم ذلك كانت المرأة غامضة بشكل كبير. فلم تعرف تاليا عنها شيئًا حتى اسمها ليس بحقيقى وذلك لأن اسمها هذا قد أعطاه لها الرومان ولم يكن هو اسمها الحقيقى.

أما إدارة المدرسة فقد كانت تقوم بها تاليا أيضًا، حيث كان بالمدرسة عشرة عبيد كانوا جميعا تحت إمرة تاليا التى كانت تعاملهم جميعا معاملة حسنة وتعمل معهم وكأنهم فريق من الأصدقاء حتى بدت المدرسة نظيفة ومنظمة مثل سكن كلاوديا قديما. لقد كانت تاليا سعيدة للغاية لانضباط العمل بالمدرسة وسير الأمور على ما تحب حيث إنها الآن تدبر أمور تسعة عشر من البالغين وطفلين.

أما الوقت الذى كانت تاليا لا تعلم الفتيات فيه شيئًا كانت تتجه إلى سورانو تساعده فى علاجاته وتتعلم منه فى ذات الوقت. فى تلك الأثناء لم يكن يعكر صفو تاليا سوى أنها فى بعض الأحيان كانت تتذكر أفرانيا التى لا تأمن جانبها. وعندما كانت تخرج فى شوارع روما كان جاب الله يرافقها فى كل خطواتها حارسا لها. وعندما كانت تنظر إلى حديقة المدرسة كانت ترى جاب الله يلاعب فليبا ابنة كلاوديا وابن التراكية فى الحشائش.

أما الآن ففى قصر أفرانيا يسود ذعر كبير، لقد أصبحت حاملا وزوجها غير موجود بالبلاد، وهى لا تدرى ماذا تفعل حتى تتخلص

من هذا الحمل. لقد أرسلت عبدها الشخصى كى يشترى لهـا مـادة تسقط الجنين من سوق النساء من أتروسكا، كما أنها غدت خائفـة أن يراها أحد بهذا الحمل، كما أن زوجها الذى كان خارج البلاد سـوف يأتى قريبا إلى روما.

إنها مشكلة كبيرة، ثم عادت خادمتها من السوق وهى تحمل فـى يدها بودرة زرقاء كى تساعد أفرانيا علـى إسـقاط الجنـين غيـر المرغوب فيه، والذى لا تعرف له أبًا. ثم أخذت أفرانيا هذه البـودرة من يد العبدة واختفت بها وهى تقول للعبدة: لا أريد أن يزعجنى أحد، ومن يزعجنى فسوف أبيعه فورا فى سوق العبيد. ثم جلـست العبـدة أمام باب غرفة أفرانيا، وهى تتمنى ألا تموت أفرانيا فـى محاولـة إسقاط الجنين هذه، حيث إن أى شىء سيئ فإنها تعزيه إلى العبيد.

لقد مضت ساعات طويلة ولا تسمع العبدة بغرفة أفرانيـا أى شـىء سوى صوت مشيها جيئة وذهابا بالغرفة. ثم اختفى صوت أقدامها فـى الغرفة، فعلى ما يبدو أنها قد نامت فى وقت متأخر من الليـل، فنامـت الخادمة أمام باب غرفتها. وبعد ذلك بفترة سمعت العبدة صوت تأوهـات فى الغرفة، ولكنها تخشى أن تدخل دون أن تنادى عليها سيدتها.

فى تلك الأثناء، كانت تاليا تجلس فى غرفة مكتبها وهى تخطـط لمشروع جديد وهو أن يكون هناك خدمة لأمراض النساء على مدار

الساعة وتكون هناك على مدار الأربع وعشرين ساعة إحدى المتخصصات من المدرسة، والتى هى طبيبة بأمراض النساء والولادة كى تذهب إلى أى مكان بروما، حيث وجدت المريضات أو المرأة التى تلد.

فجأة سمعت تاليا طرقات على الباب فنظرت كلاوديا من الباب فرأت خادمة أفرانيا. عندئذ قالت لتاليا: إنها خادمة أجريكولا وهى تريد أن تتحدث إليك فى أمر عاجل ومهم. ثم قالت كلاوديا: إننى سأبقى بجانبك يا تاليا حتى لا يحدث لك شيء. فقالت لها تاليا: لا عليك يا كلاوديا إننى لا أعتقد إننى فى حاجة إلى مساعدتك ثم خرجت تاليا فرأت الخادمة ذات الوجه العجوز والتى كانت خائفة وترتعش منها شفتها العليا. عندئذ قالت الخادمة لتاليا: إن سيدتى أفرانيا فى أمس الحاجة إلى مساعدتك يا سيدتى تاليا. فقالت لها تاليا وهى تتذكر مواقفها منذ أن كانت تراها بالإسكندرية مع أفرانيا: إننى لا أعتقد أننى أستطيع مساعدتها كما أنها لم تحتج إلى مساعدتى أبدا فى حياتها. ثم أن سورانو هو المسئول عن معالجة أسرة أجريكولا فاذهبى إليه. وإن لم تعرفى طريقه سأرسل الخادم معك كى يريك طريقه. فقالت الخادمة متوسلة: أرجوكِ يا سيدتى تاليا إنها فى حالة سيئة كما أنها تقول لك أنه لن يستطيع أطباء العالم مساعدتها ولن يساعدها سواك. لقد نهضت تاليا مع العبدة وهى تنتظر أن تكون

أفرانيا قد نصبت لها فخا جديدا، وقبل أن تصل تاليا غرفة أفرانيا سمعت تألمها وآهاتها، ثم قالت الخادمة لتاليا: إنها قد أخذت مادة لإسقاط الجنين ثم عادت خطوتين للوراء وكأنها قالت شيئًا خطأ. ثم أمسكت تاليا بيد العبدة وسألتها منذ متى لم تعاودها الدورة الشهرية؟ فقالت الخادمة: أربعة شهور، فقالت تاليا لنفسها: إن ذلك لا يعني سوى الحمل كما أن وسيلة إسقاط الأجنة كانت مميتة للأمهات.

دخلت تاليا الغرفة لتجد أفرانيا في حالة سيئة وهي تتمرغ في السرير من شدة الألم، وهي تصرخ قائلة متى ستأتي الطبيبة؟ فقالت تاليا: أنا هنا، إنني أتيت. ثم جلست بجوار السرير وراحت تتفحص نبض أفرانيا. ثم قالت تاليا لها: إنك تناولت مادة الإفستين الممزوجة بالنبيذ الأبيض، فقالت أفرانيا لا أدري ما اسم ما تناولته إنها بودرة غامقة اللون وصاحت أرجوك ابعدي الآلام عن بطني إنني أعاني. ثم فكرت تاليا لنفسها قائلة: إن كثيرًا من هذه المادة قد يقتل الأم، أما قليل منها فيسبب آلام البطن وتحيرت تاليا وهي لا تدري ماذا تفعل؟ إن الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تفعله هو تهدئة أفرانيا وتقوية عزمها، فأخذت تاليا تقرأ لها الأشعار المهدئة والمقوية من عزيمتها وهي تفكر في ذات الوقت في من يكون أب هذا الجنين. وفي لحظة راحت أفرانيا تنزف، ثم سحبت تاليا الجنين ورأت أنه ولد، فقالت أفرانيا: أنني لا أريد أن أعرف عنه شيئًا، ثم استادارت بوجهها تنظر بعيدا كي

لا تراه. فقالت تاليا لها: إنه جنين أسود، إن أباه المصارع الأسود هيجيسبوس أليس كذلك؟ فقالت أفرانيا لها: كيف تجرؤين على هذا؟ أعطينى الآن وسيلة كى تمنع عنى الألم. فقالت لها تاليا: أرجو أن تهدئى إننى سأركب لك علاجًا فقط، أبقى للحظة هنا. إن السيدة الرومانية ألقت بنظرة إلى تاليا ملؤها الغدر والأمل فى أن تتخلص من آلامها.

أما أمام غرفة نوم أفرانيا فوقف جاب الله يتحدث مع سيتوم عبد أفرانيا، فقالت تاليا لسيتوم: إن سيدتك فى حاجة إلى ورقة وقلم ومحبرة أحضرهم بسرعة هيا. فقال سيتوم: هل حالتها سيئة لهذا الحد؟ هل سوف تعذبنا عقابا لنا لأن حالتها سيئة؟ فقالت له تاليا: لا إنها ستكتب كتابا إلى الإله أنوبيس فقط هيا أسرع. حتى إذا عاد سيتوم بهذه الأشياء، كتبت تاليا بسرعة ماتحتاج كتابته على ورقة البردى ثم دخلت إلى غرفة أفرانيا التى كانت تحاول النوم فأيقظتها، وقالت لها يا أفرانيا: إن هذا مكتوب فى يدى ولا بد لك أن توقعى أنت عليه ومضمونة ألا تتعرضى لى بالأذى فى أى مكان أو زمان وإن تعرضت لى بالأذى فإن الكهنة سوف يقدمون هذا المكتوب إلى القيصر. كما أننى سوف أصمت ولن أخبر أحدا بما رأيت ولن يدرى أحد بما حدث معك من حمل وإسقاط للجنين. كما أن هذا المكتوب سوف يحفظ فى المعبد. فانتبهت أفرانيا إلى تاليا ووضعت

رأسها بين يديها وقالت لها: اقرئى لى أولا ما يجب علـــى أن أوقـــع عليه. فراحت تاليا تقرأ لها ما كتبت" أشهد أنا بأننى اليـــوم منتـــصف مارس من العام التاسع من حكم تراجان، الشهر الخامس مـــن العـــام نفسه قد أسقطت جنينا أسود البشرة دون علم طبيبة أمراض النـــساء وبدون إرادتها" . فصاحت أفرانيا بها ماذا تريدين بهـــذا المكتـــوب؟ فقالت لها تاليا: إذا لم توقعى هنا فلن أعطيكِ مسكنًا لـــلآلام. فمـــدت أفرانيا يدها ووقعت على المكتوب ثم ختمته بخاتم حول أصبعها. ثـــم بعد ذلك لفت تاليا الجنين الأسود فى لفافة وأوعزت إلى العبد ســـيتوم بدفن الجنين فى مدافن الكلاب حتى يتولاه الإله أنوبيس بعنايته. أمـــا العبدة فقالت: إن سيدتى أفرانيا أخذت كثيرًا من العـــادات المـــصرية القديمة، من كان يدرى أنها سوف تعتنى هذه العنايـــة كلهـــا بكلـــب؟ فقالت لها تاليا: إن مصر تغير البشر.

ثم انتظرت تاليا حتى نامت المرأة الرومانية مـــن تـــأثير مـــسكن الآلام الذى أعطته لها ثم سارعت مع جـــاب الله إلـــى معبـــد الإلـــه كاستور وأعطت الكهنة هذا المكتوب كى يحتفظوا به فـــى المعبـــد، ودفعت الرسوم السنوية الخاصة بهذا، ثم اتجهت إلى منزلهـــا وهـــى تشعر بأنها قد تخففت من حمل ثقيل، حتى أنها قد جلست فى المعبـــد كى تلتقط أنفاسها وهى لا تكاد تصدق أنها انتهت من مشكلة أفرانيـــا مدى الحياة. بينما راح الكهنة يتحدث كل منهم إلى الآخر قائلا: إنهـــا

مرهقة من كثرة العمل فى مدرسة تراجان. فنظرت إليه تاليا متعجبة أنه يعرف عن مشروع المدرسة، فأردف قائلا: يا سيدة تاليا السكندرية إن روما بأكملها تتحدث عن مشروع المدرسة وعن صاحبة المشروع تاليا السكندرية. أما المجتمع الكبير فى روما فلم يكن يرى ذلك بل كانوا ينسبون الفضل فى ذلك إلى سورانو. بينما كانت تاليا تقول لهم فى نفسها: إنكم لا تدركون شيئًا من متاعب الحياة أيها الرومان المتحجرون وقساة القلوب. انظروا إلى المكان الذى تحتجزون به أطفال معجزات الطبيعة المعاقين، وتعلمون كيف أن الحياة صعبة بالنسبة لهم. بل إن صعوبات الحياة لتجبر بعضهم منا أن تصبح بالفعل عاهرة، ولكنها أجبرت على ذلك ولم تختر ذلك مثل كثيرًا من نساء الطبقة العليا الرومانية. إن العاهرة التى كانت فى يوم من الأيام مجبرة على البغاء سوف يأتى عليها يوم وتتخلص من هذا ويصبح لها كرامة، أما نساء الرومان اللاتى اخترن ذلك بمحض إرادتهن فلن تصبح لهن كرامة طول حياتهن. بينما كانت تاليا غارقة فى أفكارها بالمعبد شعرت بيد قوية قد ضربت على كتفها فنظرت خلفها فرأت الإمبراطور تراجان بشحمه ولحمه وهو يقول لها: مرحبا تاليا هل تسير الأمور فى مدرستنا على ما يرام؟ فقالت تاليا نعم يا سيدى كل شىء على ما يرام أشكرك بحرارة. ولكن الرجل لاحظ أن تاليا غير سعيدة فقد كان رجلا لماحا ذكيا، فنظر إليها متسائلا، فقالت له تاليا: هل تستطيع أن ترسل لى ضابطا يفهم فى لغة الإشارة؟ فضحك

القيصر بصوت عال وقال لها: هل تودى أن تأخذى منـــى حرســى الشخصى؟ ثم تجمع حوله علية القوم وهم ينظرون بفضول إلـــى مــا يدور بين القيصر وتاليا التى أكملت تشرح له فكرتها قائلة ماذا يفيـد طبيبة أمراض النساء عندما تأتى إلى المريضات متأخرة إننى أحتاج لأن تكون الطبيبات على استعداد على مدى الأربع وعشرين ســاعة؛ ولهذا فإننى فى حاجة إلى وسيلة تفاهم بينهن وبين المريـضات كــى يستطعن الحصول على القابلة فى أى وقت شــاءت. فقــال تراجــان الإمبراطور: هذا صحيح إذا فإننا نرسل الضابط بوبليوس بورشيو إلى مدرسة أمراض النساء يتلقى الأخبار ويبلغها للطبيبات ونظر إلى تاليا وهو سعيد، لقد كانت أفرانيا بجوار الإمبراطور، وتقدمت إلى تاليا فى حضور الجميع ومدت لها يدها وحيتها وهنأتها على افتتاح مدرســة أطباء أمراض النساء الولادة. ثم أنه بعد مضى ستة أشهر كانت قــد تخرجت أول دفعة من القابلات من هذه المدرسة ورحن ينتشرن فــى البداية بين نساء الطبقة العليا من نساء السناتورات.

إن تاليا الآن قد أمنت مستقبلها وأمنت حياتها إنها ليست لديها الآن أية مخاوف بشأن الغد رغم ذلك بقى فى نفسها شىء فارغ يؤرقهــا، إنها تود العودة إلى مسقط رأسها صــيدا ، حيــث كانــت أســرتها الأصلية. ثم جاء يوم رحيل تراكيا بعد ذلك ووقف ســورانو وتاليــا يودعانها. لقد كانت المرأة التراكية فى حجم تاليا: ولكنها كانــت ذات شعر بنى اللون وحواجب سوداء اللون وبدت سعيدة وهى تعود إلـــى

بلادها. فى لحظة الوداع قالت المرأة التراكية تشكر تاليا قائلة: أشكرك يا تاليا أنك قد ساعدتِ أخى على الموت بكرامة فى يوم موكب النصر، فقالت تاليا دهشة ، هل الرجل العسكرى التراكى الذى كان أمام الراقصين أخوك فهزت المرأة التراكية رأسها موافقة وهى تقول نعم وكذلك الملك هو أخى أيضًا. ثم قالت تاليا: أرجو ألا أكون أحرجتك عندما كنت شريكة فى شرائك؟ فقالت المرأة: بل على العكس تماما، حيث إننى عن طريق مساعدتك أنت والسيد سورانو أنقذتم ابنى كما استطعت أن أرسل رسالة إلى أهلى أيضًا بأننا على قيد الحياة. ثم أردفت المرأة التراكية وهى تقول: أتمنى أن يجمع ابنى شعب التراك مرة أخرى ويقودهم فى حرب فاصلة ضد الرومان وينتصر عليهم. فنظرت تاليا إلى الطفل الصغير وقالت: أتمنى له النجاح من يدرى ربما يستطيع هذا الطفل فى المستقبل أن يضع الرومان فى حدودهم. ثم قالت تاليا: ولكنى أتمنى معرفة اسمك الحقيقى فقالت المرأة: إن اسمى بنديز إنه اسم أحد الآلهات التراكية. إننى لم أخبرك به طوال الوقت حرصا على حياة ابنى فأرجو المعذرة. فقالت تاليا فى سرها: يا إلهى إن كورينا كانت تمتلك فى بيتها أكثر النساء بغضا وكرها للرومان وهى لا تدرى. ثم قالت تاليا للمرأة: إن إلهتى ديميتر والآلهة الأخرى سيعتنون بك وبابنك ولكننى أعتقد أن صراعك ضد الرومان وآلهتهم لن يكون سهلا. ثم قالت المرأة التراكية لتاليا: إن الإله إسكليبيوس سوف يقف بجوارنا

ويساعدنا، بالمناسبة يا تاليا إننى أعددت لك قائمة بأسماء الأعشاب الطبية. ولكن بعضها مكتوب باللغة التراكية، كما إننى مستعدة لأن أجهز لك الأعشاب التى أنت فى حاجة إليها وعندما تأتى لتزورينى سأعطيها لك. ثم احتضنت التراكية تاليا بحرارة وحملت ابنها وانصرفت وفى حراستها جندى مسلح. فقالت تاليا لسورانو: ومن هذا الجندى الذى يرافقها؟ فقال سورانو لقد كان عبدا تراكيا ثم اشتريته وأعتقته وقد كان بارعا فى حرف كثيرة وهو بالطبع سيساعد فى بناء بلاده مرة أخرى. ثم قال لتاليا: أرجو أن تكتبى ثمنه تحت بند الأدوية الخاصة بالمدرسة ، حيث كان غالى الثمن. وضحكت تاليا وسورانو وأمسك كل منهما بيد الآخر وعادا إلى المدرسة مرة أخرى.

الخاتمة

منذ أن تبنى سورانو تاليا وهى تتمنى أن تزور اليوزس وقد وافق سورانو على أن يحقق لها أمنيتها. وبالتحديد قبل بداية الاحتفالات الدينية بمنطقة اليوزس، اتجه سورانو وتاليا وجاب الله وعبد صغير آخر إلى هذه البلاد باليونان. فى أثناء ذلك كانت بنديز المرأة التراكية قد أرسلت رسالة إلى تاليا تخبرها بأنها قد وصلت إلى تراكيا بلادها ووجدتها مدمرة تمامًا من أثر الحرب ضد الرومان. ثم إنها تتمنى لها إقامة سعيدة باليونان كما أنها واثقة بأن كلاوديا سوف تدير المدرسة إدارة جيدة فى أثناء قضاء تاليا وسورانو إجازتهم باليونان.

ومع نهاية سبتمبر وصلت تاليا وسورانو اليوزس، ثم راحت تاليا وسورانو يبحثون عن خنزير صغير كى يقدمونه كأضحية فى المعبد. ثم قالت تاليا لسورانو: إننى أتذكر المرة الأولى التى قمت فيها بتقديم أضحية للمعبد كنت برفقة أمى. عندئذ وقف سورانو تحت شجرة الصنوبر وقطع منها فرعا وأخذ يشمه ثم قال لتاليا: وماذا تودى الآن أن تقولى؟ أود أن أقول أن الموت والحياة متلازمان وأن تجارب الموت التى عاصرتها كانت مهمة لى كى أجد وأعرف طعم الحياة. فقال سورانو: أتشمين رائحة اليونان العطرة التى هى فى ذات الوقت

رائحة أفيسوس ورائحة صيدا أيضًا؟ فقالت تاليا: إن رائحة الهـواء تشبه رائحة طفل وليد قد منح الحياة من الإله، تمامًا كالأم التى تجـد شبابها فى ابنتها. ثم نظرت تاليا إلى سورانو: إننى لم أكـن أعـرف أنك قدمت الأضحيات للمعبد قديما أيضًا. فنظر سورانو حوله وقـال لتاليا انظرى، فلما نظرت تاليا رأت امرأة عجوز تتجه نحوهم يرافقها شاب صغير يرتدى الزى اليونانى، فوضعت تاليا يدها أمـام عينيهـا وقالت: يا إلهى ماذا أرى؟ هل هذه المرأة أمى؟ نعم إنها هى... هـى إنها ما تزال على قيد الحياة، إنها لم تقتل فى ليلة الإغارة المـشئومة. فقال سورانو: نعم، إنها أمك، إنها لم تمت وكانت تعيش طوال الوقت بصيدا، ثم قالت تاليا: ومن هذا الشاب الذى يرافقها؟ فقال سـورانو: إنه فتى سقط والديه قديما قتلى فى تلك الإغارة التـى حـدثت علـى صيدا، وقد أخذته والدتك طفلا صغيرا وربته وهو الآن طبيب.

فتحت تاليا ذراعيها وجرت صوب أمها واحتضنتها وهى تبكـى وتنهمر منها الدموع غزيرة، تعود إليها ذكريات تلك الليلة المشئومة، عندما أغار القراصنة على بيتهم وقتلوا أفراد أسرتها. الشارع الـذى كانت تسكنه أحرقه القراصنة بالكامل، والآن ترى أمها وحبيبها القديم تاكى حبيب الطفولة والصبا جاء إليها مع أمها أيضًا. فقال سـورانو لتاليا: بأن تاكى لهو سيد الدلافين، وهو يفهمها ويعرف لغتها. وأخـذ تاكى يبتسم لتاليا بعينين زرقاويين جميلتين. وراح سورانو يردد قوله

يا إلهى إسكليبوس، أيها المعلم ، أيها الطبيب ، أيها الإله كيف يستطيع البشر الحياة بدونك وبدون حكمتك، يا إلهى أجمع طريقهما معًا ولا تفرقهما إلى الأبد.

كلمة أخيرة

فترة أحداث هذه الرواية، بداية القرن الثانى الميلادى، كانت مدينة الإسكندرية ما تزال محتلة من الرومان، تمامًا كبقية أجـزاء مـصر أيضًا ولكن الرومان تركوا البلاد تدار كما كانت تدار من قبل، ولـم يديروها مثل إدارتهم لروما . ونظرا لخليط الحضارات الذى امتـزج بمدينة الإسكندرية، فإنها أخرجت لنا أسماء علماء وأطباء ما زالـت لامعة وساطعة حتى يومنا هذا أمثـال هيروفيلـوس وأريـستراتوس وسيرابيون وسوران وروفوس.

أما الطبيب المشهور سورانو، والذى ولد بمنطقة أفيسوس باليونان فإننى أهديت لاسمه هذه الرواية، حيث إن هذا الرجل قد نهض بعلـم الطب نهوضا عظيما؛ وكان متفوقا فى أمراض النـساء ممـا حـدا ببعضهم أن يصنفه جهلا على أنه طبيب أمراض نساء رغم أنه كـان بارعا فى بقية أفرع الطب كبراعته فى أمراض النساء أيـضًا. هـذا الرجل استخدم الطب اليونانى فى علاج الرومـان دون أن ينـاقض الطب الرومانى ونظرياته. كما أنه فى تلـك الأثنـاء كـان يعـيش بالإسكندرية يونانيون ويهود ومصريون ورومان، فكان على الفئـات الثلاث الأولى أن يدفعوا ضريبة الرأس، والتى أعفى منها الرومـان.

كما أن الرومان قد استولوا على غلال مصر كحق مكتسب للمنتصر هذا رآه المصريون على أنه اغتصاب لخيرات بلادهم ومن هذا المنطلق كان الشعب المصرى دائم الثورات ضد الرومان من وقت لآخر. تمامًا مثل الثورة التى حدثت بسبب الكبش، والذى كان يمثل الإله آمون لدى المصريين، وتلك الطقوس والرقصات التى كانت تستخدم فى هذه الاحتفالات اقتبسها السكندريون من مدينة القاهرة، ممفيس آنذاك. كما عاش بالإسكندرية أيضًا أجناس أخرى من البشر التى كانت لها دياناتها الخاصة بها وقد أظهر الرومان تفهمًا كبيرًا لديانات الشعوب الأخرى فاعترفوا ببعض منها ولم يعيقوا بعضها الآخر ما عدا المسيحية التى حاربوها وقاوموها لأنها كانت ديانة ترفض بقية الديانات الأخرى وأولها الرومان بما كانوا يتمتعون به من حقوق زائدة عن بقية الأجناس.

ونظرًا للمزيج الكبير بين الشعوب فإن الرومان قاموا بذبح الملايين من أفراد هذه الشعوب فى ألعاب السيرك، والتى كانوا يسمونها ألعاب المصارعين، كما ذبحوا عشرات الآلاف من المسيحيين أيضًا. أما الغريب والعجيب فى الأمر إنه بمجرد أن اعترف الرومان بالديانة المسيحية كديانة رسمية بالبلاد، قام المسيحيون أنفسهم بالدور البربرى نفسه الذى قام به الرومان بل إنهم فى قسوتهم وبشاعتهم وعدم تسامحهم فاقوا الرومان. فقد سنوا قوانين جديدة تبيح قتل أى شخص يعتنق أى ديانة أخرى غير المسيحية، بل

أنهم قاموا بهدم أكاديميات البحث العلمي والفلسفة التي كانت في أثناء ذلك منارات تضيء العالم بأسره. وقد ساءت سطوة المسيحيين في فترة حكم الإمبراطور الروماني أوريليان (٢٧٠-٢٧٥م)، وكذلك في عصر جوستنيان أيضًا (٥٢٧- ٥٦٥م). بل أن المسيحيين غالوا في تعصبهم عندما قاموا بقتل بقية المسيحيين الذين ليسوا بكاثوليك. ومثال على ذلك الآريانيون. في هذا العالم المضطرب والأوقات العصيبة عاشت بطلة روايتنا، والتي دارت حولها تلك الأحداث.

المؤلفة كارى كوستر – لوشي

إبريل ١٩٩٨

شخصيات الرواية
شخصيات رئيسة

تاليا: شابة صغيرة من منطقة صيدا، آسيا الصغرى، وهى كانت أمة.

ليبتينوس: طبيب تجريبى بالإسكندرية.

لوكيوس فليريوس بوبليكولا: نائب الملك فى مصر.

أفرانيا: وهى شقيقة زوج بوبليكولا من أسرة رومانية نبيلة هى أسرة أجريكولا.

جايوس كورنيلليوس تريمالخيو: قاضى القضاة الرومانى بالإسكندرية.

كرايتس: رئيس مركز الأبحاث بالإسكندرية وهو كاهن.

كلوديا: فتاة من بلدة كمبانيا.

سورانو: طبيب مشهور من أفيسوس أصبح الطبيب الأشهر فى روما.

شخصيات ثانوية

كورنيليا ترتيا: أخت تريمالخيو.

سيوليوس كلوديوس فلاكوس: رئيس مدرسة المصارعين بالإسكندرية.

بريموس ريجولوس لاكتوكيوس: هو الذى كان يقوم ببناء الخيام وعملها.

تيل بتاح: عبد مصرى لدى ليبتينوس.

فيرنيرو: هى أم تيل بتاح وهى طباخة عند ليبتينوس.

كريسنس: جاسوس رومانى.

بنتانوس: مدرس وفيلسوف بمركز الأبحاث.

برنابا: تاجر عبيد وأطفال بالإسكندرية.

الجاسيا: عبدة لدى ليبتينوس.

نيونخته: قابلة نساء بالإسكندرية.

هنت: كاهن مصرى.

كاى: عبد مصرى.

سيتوم: عبد مصرى.

موسى : صانع أدوات طبية.

جاب الله: عبد لدى ليبتينوس.

كليون: تاجر أصواف بالإسكندرية.

هيبارشيا: هى زوج كليون.

سيماخوس:خادم الكنيسة فى الإسكندرية وروما.

بربتوا: زوج سيماخوس.

موتومبال: فينيقى.

فيلون: مصارع

بيسولوم-إربشن: جنديان رومانيان.

شخصيات ثانوية بروما

بوبليوس دولابيللا فلافوس ماكسيموس: سناتور رومانى.

كورينا سيكوندا: زوج ماكسيموس.

هيرون: قبطان لباخرة نقل غلال.

أدلوس كليرونيوس فروجى: طبيب رومانى.

جنايوس ثلاكوس بولخر: سناتور رومانى.

أوريليا: سيدة رومانية نبيلة.

تولوس: أخو أوريليا.

تراجان: إمبراطور رومانى.

تراكيا: عبدة تركية اسمها الحقيقى بنديز.

المؤلفة فى سطور:

كارى كوستر لوشه **Kari Köster-Lösche**

(ولدت فى عام ١٩٤٦ فى لوبيك) وهى كاتبة ألمانية متخصصة فى مجال الرواية التاريخية، بالإضافة إلى أنها تقوم بتأليف كتب فى تاريخ الطب والمراجع الطبية، كما أنها تكتب كتبًا متخصصة فى تاريخ الحضارة لمنطقة "نوردفريسلاند" **Nordfriesland**.

هى ابنة لعائلة من أصل ألمانى – سويدى. قضت جزءا من طفولتها فى الدراسة فى معاهد جيولوجية تهتم بدراسة عمر الأرض فى جامعات أوبسالا ولوند، حيث كان يعمل والدها فى مجال الجيولوجيا، ووالدتها كانت تعمل بائعة للكتب ومعلمة فى مرحلة التعليم الأساسى، وكانت ذات ميول للتاريخ واللغات القديمة. وبعد ختام دراستها الابتدائية فى السويد، استكملت دراستها فى فرانكفورت/ ماين. ثم درست الطب البيطرى فى جامعة جيسن، وحصلت على درجة الدكتوراة فى علم البكتيريا، حيث اكتشفت ميولها للعلوم التجريبية. وتفرغت للكتابة الحرة منذ عام ١٩٨٥.

عملت لمدة عشر سنوات باحثة فى أحد المعاهد الدولية فى فرانكفورت/ ماين، وكان مجال بحثها هى المواد البديلة للعظام

والأسنان فى الطب البشرى. لها عديد من المؤلفات والمحاضرات العلمية، بالإضافة إلى بعض الاختراعات. لكنها لقيت عدم التوفيق فى العمل كرئيسة لقسم الطب التجريبى.

تعيش كارى كوستر – لوشه الآن مع زوجها وولديها فى نوردفريسلاند **Nordfriesland**. يُعد كتابها "منازل أوتلاند" (١٩٨٦) أول خطوة على طريق عملها كمؤلفة. والأمر الذى شق عليها كان البحث عن دور نشر؛ إذ إنه لم تكن هناك دور نشر ترغب فى نشر روايتها الأولى "ساحرة الطاعون"، إلى أن أبدت دار نشر "كوبرا" اهتمامها بكتابات كارى كوستر – لوشه وبدأت فى نشر رواياتها واحدة تلو الأخرى. اتصلت فى السنوات الأخيرة بكبريات دور النشر. وأخيرا كانت تعيش وعائلتها من بيع الكتب، إذ إن زوجها كان يقوم بأعمال المنزل بدلا منها.

تُرجمت كتب كارى كوستر – لوشه إلى اللغات الإسبانية، الفرنسية، البولندية، الأمريكية، الفنلندية، اليابانية، التشيكية، والروسية. وهى تكتب كذلك روايات تاريخية ذات ملامح تاريخية حضارية. كما أنها تنشر تحت اسم مستعار هو زيلكه ينزن **Silke Jensen** أيضا .

كارى كوستر – لوشه ديمقراطية حتى النخاع، رغم عملها كمؤلفة، فهى تهوى العمل فى ظل وجود فريق. ترى فى الجماعة

أهمية كبيرة فى حياتها المهنية والخاصة، وفى إطار العائلة. وأهم صفاتها هى الصلابة، الخيال، والاجتهاد والعمل الجاد، والدقة. تحب الطبيعة الهادئة، والصدق. ولا تحب الأصوات الصاخبة، والكذب. من هوايتها التنقيب فى الطمى عن آثار من العصور الوسطى، وكذلك رعاية مجموعة المحار والقواقع الأوروبية الخاصة بها، والإشراف على الحديقة.

من أهم أعمالها

إلى جانب روايتها "طبيبة الإسكندرية" التى نحن بصدد تقديمها للقارئ العربى فقد ظهر لها عديد من الروايات من أهمها:

- ساحرة الطاعون **Die Pesthexe**, 1987
- المطبخ والطهى فى نوردفريسلاند **Küchen und Kochen in Nordfriesland**, 1989
- الأم جريبش **Mutter Griebsch**, 1991
- رقيق كالحمام فى القفص **Sanft wie Tauben im Käfig**, 1992
- الحكيمة **Die Hakima**, 1994
- آخر أيام رونجولت Die letzten Tage von Rungholt, 1997
- ساحرة توندرن **Die Hexe von Tondern**, 1999
- سائقة العربة **Die Wagenlenkerin,** 2000

- الموت للأغنياء كلهم **Tod allen Reichen!** 2000
- فيروس سيلت **Das Sylt-Virus,** 2002
- عودة الحكيمة **Die Rückkehr der Hakima**, 2002
- محكمة الدم **Das Blutgericht,** 2003
- يأتى الموت مع الطوفان **Mit der Flut kommt der Tod,** 2004
- بالصليب و السيف **Mit Kreuz und Schwert**, 2005
- القبر فى السد **Das Grab im Deich**, 2007
- طبيبة الطاعون **Die Pestheilerin**. 2008

المترجم فى سطور:

أشرف نادى أحمد

- حاصل على ليسانس الآثار المصرية- دبلوم الآثار المصرية وتاريخ الفنون.
- المرحلة العليا فى اللغة الألمانية من المركز الثقافى الألمانى.
- دبلوم الأدب الألمانى من جامعة ماكسملين بميونخ- ألمانيا.
- مترجم مؤتمر السكان العالمى بالقاهرة- شفهى وتحريرى، ١٩٩٤
- مترجم بوزارة الصحة والسكان.
- له عديد من الكتب المترجمة فى التخصصات جميعها.
- له عديد من المؤلفات فى أدب الطفل.
- عضو اتحاد كتاب مصر.

المراجع فى سطور

أ.د. محمد أبوحطب خالد

- ولد فى عام ١٩٣٧ مركز أبنوب محافظة أسيوط.
- دكتواره فى الفلسفة فى علوم اللغة الألمانية وآدابها جامعة ليبتسج- ألمانيا ١٩٧٣م.
- مجال التخصص اللغة الألمانية كلغة أجنبية، علوم اللغة الألمانية، علوم الأدب الألمانى، علوم الترجمة والأدب المقارن.
- ١٩٧٣ مدرس بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر.
- ١٩٧٨ الترقية لدرجة أستاذ مساعد.
- ١٩٧٨-١٩٨٢ وكيل كلية اللغات والترجمة ورئيس قسم اللغة الألمانية بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر.
- ١٩٨٣ الترقية لدرجة أستاذ.
- ١٩٨٣ الحصول على جائزة ووسام ياكوب وفيلهيلم جريم من رئيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

- ١٩٩٧-٢٠٠٢ عميد كلية الألسن جامعة المنيا.
- ١٩٨٤ وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى من رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية.
- له عديد من الكتب والمقالات والترجمات إلى جانب الإشراف العلمى على ما يزيد عن مائة رسالة ماجستير ودكتوراه.

التصحيح اللغوى : فاطمة الصعيدى
الإشـــراف الفنى : حســن كـــامـل

الإسكندرية عام **106** بعد الميلاد:-

لقد وصلت إلى ميناء الإسكندرية سفينة محملة بالعبيد والأشياء الثمينة. من بين كل هذا كانت هناك الفتاة الجميلة تاليا ابنة أحد الفلاسفة من آسيا الصغرى، والتى اشتراها الطبيب اليونانى لبتسينوس لكى تساعده فى عيادته. هذا الطبيب كان يلعب دورا مزدوجا وخطيرا؛ فهو يبدى ولاءه وإخلاصه لقاضى القضاة الرومانى تريمالخيو، وفى الوقت نفسه فهو صديق لعدوته اللدود أفرانيا. بينما اندمج لبتسينوس فى لعب هذا الدور المزدوج، راحت تاليا تقرأ ما كتبه وألفه الطبيب الكبير سورانوس من بلدة إفسيوس، وبهذا استطاعت أن تصبح طبيبة، وكذلك متخصصة فى أمراض النساء. ولكن الأمور بالنسبة لتاليا لم تسر كما كانت تحب؛ إذ حدث أن قُتل أحد المصارعين الفينيقيين وراحت الشائعات تتحدث عن اسمها كطرف فى هذه الجريمة، وكادت هذه الشائعات تقضى عليها وعلى بقية سكان المدينة. فى هذا الخضم المتلاطم من الأحداث يتبادر إلى الذهن سؤال مهم، ما الدور الذى لعبته أفرانيا فى هذه الجريمة؟ لماذا امتدت يد تريمالخيو لحماية تاليا؟ ولماذا قرر لبتسينوس السفر إلى روما بصورة فجائية ؟ وعندما أرادت تاليا أن تميط اللثام عن كل هذه الألغاز، يظهر الطبيب الكبير سورانوس الذى تعلمت من كتبه ويمنحها الفرصة التى تغير بها مجرى حياتها.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح